ايزابيل ألليندي

صورة عتيقة

ترجمة: صالح علماني

@ketab_n
Follow Me
17.2.2016

إيزابيل ألليندي

صورة عتيقة

ترجمة

صالح علماني

Twitter: @ketab_n

روايات المدى

Author : Isabel Allende ,2000
Title :Retrato en Sepia
Translator : Saleh Almani
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2001
Copyright © Al- Mada

اسـم المـؤلـف : إيزابيل ألليندي
عنوان الكتـاب : صورة عتيقة
تـرجـمـة : صالح علماني
النـاشـر : المدى
الطبـعـة الأولى : سنة ٢٠٠١
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

Twitter: @ketab_n

صورة عتيقة

Twitter: @ketab_n

إلـى كـارمـن بـالـثـيـيـس ورامـون هـويـدوبـرو،
أسـدان ولـدا فـي الـيـوم نـفـسـه،
وحيّـان الـى الأبـد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

"لهذا عليّ أن أعود
إلى أماكن كثيرة آتية
لألتقي بي
وأتفحصني دون توقف،
دون شاهد سوى القمر،
ثم لأصفّر بسعادة
واطئاً أحجاراً وأتربة،
دون مهمة أخرى سوى الحياة،
ودون أسرة سوى الطريق"

بابلو نيرودا
"نهاية العالم" (الريح)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الأول

١٨٦٢ - ١٨٨٠

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جئتُ إلى الدنيا في يوم ثلاثاء من خريف 1880، تحت سقف جديّ لأمي في سان فرانسيسكو. وبينما كانت أمي في هذا البيت المَتاهيّ المشيد من الأخشاب تلهث كمن يصعد جبلاً، بقلب جسور وعظام قانطة، لتفتح لي مخرجاً، كان الشارع يضج بمظاهر الحياة الضارية للحي الصيني، برائحته الدائمة العابقة بطبخ أجنبي غريب، وجلبته الجارفة من اللهجات الصاخبة، وحشوده من النحل البشري التي تذهب وتجيء مسرعة دون انقطاع. ولدتُ عند الفجر، ولكن الساعات في تشايناتاون (الحي الصيني) لا تنصاع لأية أنظمة، ففي هذه الساعة تبدأ حركة السوق، والعربات، والنباح الكئيب للكلاب القابعة في أقفاصها تنتظر سكين الطاهي. وقد عرفتُ تفاصيل ميلادي في زمن متأخر من حياتي، ولكن الأمر سيكون أسوأ لو أنني لم أكتشف ذلك قط؛ إذ كان يمكن لي أن أضيع في وعورة النسيان. هناك أسرار كثيرة في أسرتي، ربما لن يتاح لي الوقت للكشف عنها كلها: فالحقيقة عابرة، يغسلها وابل المطر. لقد استقبلني جداي لأمي بتأثر - بالرغم من أنني كنت طفلة مريعة حسب شهود عيان عديدين - ووضعاني على صدر أمي، حيث بقيت قابعة لبضع دقائق، وهي الدقائق الوحيدة التي كنتُ فيها معها. بعد ذلك نفخ خالي لاكي أنفاسه في وجهي لينقل إلي حسن طالعه. وقد كانت النية كريمة والطريقة مؤكدة النتائج، إذ سارت أموري على ما يرام، على الأقل خلال هذه الثلاثين سنة الأولى من حياتي. ولكن حذار، يجب ألا أستبق الأمور. فهذه القصة طويلة، وهي تبدأ قبل ميلادي بزمن طويل؛ وتتطلب صبراً لروايتها، وصبراً أكبر لسماعها. وإذا ما ضاع خيط القصة في أثناء الطريق، فيجب عدم القنوط، لأنه سيُستعاد بكل تأكيد بعد عدة صفحات. وبما أنه علينا أن نبدأ من تاريخ ما، فلنجعل ذلك منذ العام 1862، ولنقل،

Twitter: @ketab_n

هكذا، بأن القصة تبدأ بقطعة أثاث ذات أبعاد غير معقولة.

لقد أُوصي على صنع سرير باولينا دل بابي في فلورنسا، بعد سنة من تتويج فيكتور إيمانويل، عندما كانت ما تزال تدوي في مملكة إيطاليا أصداء رصاص غاريبالدي؛ واجتاز ذلك السرير البحر مفككاً في عابرة محيطات جنوية، وأُنزل في نيويورك وسط إضراب دامٍ، ثم نقل إلى إحدى السفن البخارية التي تملكها أسرة جديّ لأبي، آل رودريغيث دي سانتا كروث، التشيليون المقيمون في الولايات المتحدة. وكان جون سوميرز هو الذي تلقى الصناديق المهورة بكلمة واحدة بالإيطالية *nayades*[1]. ذلك البحار الإنكليزي المريوع، الذي لم تبق منه سوى صورة حائلة، وصندوق جلدي مهترئ جداً لكثرة الرحلات البحرية، تملأه مخطوطات مثيرة للفضول، هو جد أمي، مثلما تقصيت قبل زمن قصير، عندما بدأ ماضيّ يتوضح في نهاية المطاف، بعد سنوات طويلة من الغموض. ومع أنني لم أعرف القبطان جون سوميرز، أبا إلزا سوميرز، جدتي لأمي، إلا أنني ورثت عنه بعض الميول التشردية. وعلى كاهل رجل البحر هذا، وهو محض أفق وملح، أُلقيت مهمة نقل السرير الفلورنسي في عنبر سفينته إلى الجانب الآخر من القارة الأمريكية. وكان عليه أن يتفادى الحصار اليانكي وهجمات الفيدراليين، ويبلغ الحدود الجنوبية للأطلسي، ويجتاز مياه مضيق ماجلان الغادرة، ويدخل المحيط الهادي، ثم كان عليه، بعد وقفات قصيرة في عدة موانئ أمريكية جنوبية، أن يوجه قيدوم سفينته نحو شمالي كاليفورنيا، أرض الذهب القديمة. وكانت لديه أوامر محددة تقضي بأن يفتح الصناديق في ميناء سان فرانسيسكو، وأن يشرف بنفسه على النجار الذي على متن السفينة وهو يركّب أجزاء السرير مثل لعبة تركيبية، محاذراً من ثلم النقوش المنحوتة، وأن يضع عليه الفرشة واللحاف اللذين من بروكار بلون الياقوت الأحمر، وأن يُحمّل تلك الضخامة في عربة ويرسلها بالخطوة البطيئة إلى مركز المدينة. وعلى الحوذي أن يقوم بجولتين في ساحة الاتحاد وجولتين أخريين، وهو يقرع

[1] Nayades: بالإيطالية «حوريات».

Twitter: @ketab_n

جرس العربة، قبالة شرفة عشيقة جدي، قبل أن يوصل السرير إلى مستقره النهائي، في بيت باولينا دل بايي. وكان على القبطان أن يجترح هذه المأثرة في أوج حرب أهلية، عندما كانت الجيوش اليانكية والاتحادية تتبادل اقتراف المجازر فيما بينها في جنوبي البلاد، ولم يكن هناك من لديه مزاج للمزاح أو الابتهاج. أصدر جون سوميرز التعليمات وهو يطلق اللعنات، لأن هذا السرير كان يمثل، خلال أشهر الإبحار، أشد ما يمقته القبطان في عمله: أي نزوات ربة عمله باولينا دل بايي. وعندما رأى السرير فوق العربة، أطلق زفرة ارتياح وقرر أن يكون هذا هو آخر عمل يقوم به من أجلها؛ فقد كان يعمل منذ اثنتي عشرة سنة تحت أوامرها وبلغ صبره أقصى الحدود الممكنة. ما زالت قطعة الأثاث تلك سليمة، إنها ديناصور ثقيل من خشب متعدد الألوان؛ يكلل أعلاها نقش غائر للإله نبتون محاطاً بأمواج زبدية ومخلوقات تحت مائية، أما عند القدمين فهناك نقش لدلافين تقفز ولحوريات بحر. وقد أمكن لنصف مدينة سان فرانسيسكو أن تنظر بتقدير، خلال أكثر من نصف ساعة بقليل، إلى ذلك الفراش الأولمبي؛ أما عشيقة جدي، التي كان الاستعراض مكرساً لها، فقد اختبأت حين كانت العربة تمر وتعود للمرور ثانية وهي تقرع جرسها.

- لم يدم ذلك الانتصار طويلاً - هكذا اعترفت لي باولينا بعد سنوات طويلة من ذلك، عندما كنتُ ألح على تصوير السرير ومعرفة التفاصيل. وأضافت قائلة:- لقد انقلبت السخرية عليّ. ظننت أنهم سيسخرون من فيليثيانو، ولكنهم سخروا مني. لقد كان حكمي على الناس خاطئاً. من كان يمكنه تصور كل ذلك الرياء؟ لقد كانت سان فرانسيسكو، في تلك الأزمنة، وكر سياسيين فاسدين وقطاع طرق ونساء سيئات السمعة.

فألمحتُ:

- لم يرق لهم التحدي.

- لا. فهم ينتظرون من النساء أن يحافظن على سمعة أزواجهن، مهما كان الزوج وضيعاً.

Twitter: @ketab_n

فعارضتُها:

– ولكن زوجك لم يكن وضيعاً.

– لا، لم يكن. ولكنه كان يقترف حماقات. ولستُ نادمة على أي حال بشأن السرير الشهير، فقد نمتُ فيه طوال أربعين سنة.

– وما الذي فعله زوجك حين رأى أن أمره قد انكشف؟

– قال لي إنني أنهمك في شراء أثاث كاليغولا، بينما البلاد تنزف في حرب أهلية. وأنكر كل شيء بالطبع. فليس هناك من به ذرة من عقل يصدق خيانته الزوجية، حتى ولو أمسكوا به بين الملاءات.

– أتقولين هذا من خلال تجربتك الشخصية؟

فردت باولينا دل بايي دون تردد:

– ليت الأمر كان كذلك يا أورورا!

في الصورة الأولى التي التقطتُها لها، عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري، تظهر باولينا في سريرها الخرافي، مستندة إلى وسائد من الساتان المطرز، بقميص نوم مخرم، ومثقلة بنصف كيلوغرام من المجوهرات. وعلى هذا النحو رأيتها في مرات كثيرة، وهكذا كنت أرغب في رؤيتها عندما ماتت، ولكنها شاءت الذهاب إلى القبر برداء الراهبات الكرمليات الكئيب وأن تُقدم قداديس مغناة طوال عدة سنوات من أجل راحة روحها. «بما أنني أثرتُ فضائح كثيرة، فقد حان الوقت لأحني رأسي»، هذا كان تفسيرها عندما غرقت في الكآبة الشتائية لأزمنتها الأخيرة. فحين رأت نفسها قريبة من النهاية، ارتعبت. فأمرت بإقصاء السرير إلى القبو ووضعت مكانه سرير مخيم من الخشب وفرشة من شعر الخيل، لكي تموت دون فخفخة، بعد كل التبذير السابق، فلعل القديس بطرس – كما قالت – يمحو ما سبق ويبدأ حساباً جديداً في سجل خطاياها. ولكن الذعر لم يتح لها المجال مع ذلك للتخلص من ثروات مادية أخرى، وبقيت تقبض حتى الزفرة الأخيرة على أعنة إمبراطوريتها المالية، التي كانت قد تضاءلت كثيراً في ذلك الحين. ولم

Twitter: @ketab_n

يبق من صلف شبابها إلا القليل في النهاية، وحتى السخرية راحت تنفد منها، ولكن جدتي كانت قد خلقت أسطورتها الخاصة ولم يعد يمكن لأي فراش من وبر الخيل أو ثوب راهبة كرملية أن يؤثر عليها. السرير الفلورنسي الذي تلذذت بالتجول به عبر الشوارع الرئيسية لكي تتأكد زوجها، كان إحدى لحظاتها المجيدة. فقد كانت الأسرة في ذلك الحين تعيش في سان فرانسيسكو تحت كنية مستبدلة - كروس -، لأنه ليس هناك أمريكي شمالي واحد قادر على نطق اللقب الرنان رودريغيث دي سانتا كروث، أو دل بايي، وهذا أمر مؤسف، لأن اللقب الحقيقي له رنين قديم يعود إلى محاكم التفتيش. وكانت الأسرة قد انتقلت لتوها إلى حي نوب هيل، حيث شيدت بيتاً هذيانياً، هو أحد أكثر بيوت المدينة رخاء، وقد شكل دواراً جنونياً لعدة مهندسين متنافسين جرى التعاقد معهم وصرفهم بالجملة. لم تجمع الأسرة ثروتها في حمى الذهب عام 1849، مثلما يزعم فيليثيانو، وإنما بفضل الغريزة التجارية لزوجته التي خطرت لها فكرة نقل منتجات طازجة من تشيلي إلى كاليفورنيا فوق فرشة من ثلج المنطقة القطبية الجنوبية. في تلك الحقبة الصاخبة كانت ثمرة الدراقن الواحدة تساوي أونصة ذهب، وقد عرفت هي كيف تستغل تلك الظروف. وازدهرت مبادرتها وتوصلوا إلى امتلاك أسطول سفن تبحر ما بين بالباريسو وسان فرانسيسكو، كانت تعود فارغة في السنة الأولى، ولكنها صارت ترجع بعد ذلك محملة بدقيقٍ كاليفورني؛ فتسببت بذلك في إفلاس العديد من المزارعين التشيليين، بمن فيهم أبو باولينا نفسه، أغوسطين دل بايي الرهيب، الذي دوّد القمح في عنابره لأنه لم يستطع منافسة دقيق اليانكيين شديد البياض. فدوّد كبده أيضاً من الغيظ. ومع انتهاء حمى الذهب، عاد آلاف وآلاف المغامرين إلى بلادهم الأصلية وهم أشد فقراً مما كانوا عليه عند خروجهم، بعد أن خسروا الصحة والروح في ملاحقة حلم؛ أما باولينا وفيليثيانو فجمعا ثروة طائلة. واستقرا في قمة هرم مجتمع سان فرانسيسكو، على الرغم من العائق الذي لم يكن تجاوزه ممكناً تقريباً، والمتمثل في لكنتهم الهيسبانية. «الجميع في كاليفورنيا هم محدثو ثراء وبائسو المولد، بينما شجرة سلالتنا ترجع في

Twitter: @ketab_n

عراقتها إلى الحروب الصليبية»، كانت باولينا تغمغم آنذاك، قبل أن تعترف بالهزيمة وتقفل راجعة إلى تشيلي. ومع ذلك، لم تكن ألقاب النبل ولا الحسابات المصرفية هي الوحيدة التي فتحت أمامهم الأبواب، وإنما خفة روح فيليثيانو الذي عقد صداقات مع أوسع الرجال نفوذاً في المدينة. بينما كان من الصعب بالمقابل ابتلاع زوجته المتباهية، سيئة الكلام، وعديمة الاحترام، والمتهورة. ولا بد من قول ذلك: فباولينا توحي في البداية بمزيج من الانبهار والهلع الذي يشعر به المرء حيال عظاءة؛ وعند التعرف عليها بصورة أفضل فقط، يُكتشف معدنها العاطفي. في عام 1862 أطلقت زوجها في العملية التجارية المرتبطة بالخط الحديدي القاري التي حولتهما إلى الثراء بصورة حاسمة. لستُ أدري من أين حصلتْ على حاسة شم الصفقات التجارية تلك. إنها تنحدر من أسرة إقطاعيين تشيليين ضيقي النظر وفقيري الروح؛ وقد تربت بين جدران البيت الأبوي في بالباريسو، تصلي صلاة المسبحة وتطرز، لأن أباها كان يؤمن بأن الجهل هو الضمانة لخضوع النساء والفقراء. وكانت تعرف بمشقة مبادئ الكتابة والحساب، فهي لم تقرأ كتاباً واحداً في حياتها، وتحسب عمليات الجمع على أصابعها - لم تكن تطرح قط - ولكن كل ما تلمسه يداها يتحول إلى ثروة. ولولا تبذير أبنائها وأقربائها، لماتت بأبهة إمبراطورة. في تلك السنوات كان يجري بناء خطوط السكك الحديد للوصل ما بين شرق الولايات المتحدة وغربها. وبينما كان الجميع يستثمرون في أسهم الشركتين المتنافستين ويراهنون أيهما تمد الخطوط بسرعة أكبر، لم تول باولينا اهتماماً لذلك السباق الأرعن، بل بسطت خريطة فوق طاولة المطبخ ودرست بصبر طبوغرافي الطريق الذي سيمر منه القطار، والأماكن التي يوجد فيها الماء بوفرة. وقبل وقت طويل من وضع العمال الصينيين البائسين آخر صمولة لوصل سكتي القطار في بروموتوري، يوتا، وقبل أن تجتاز أول قاطرة القارة بجلبتها الحديدية، ودخانها البركاني، وصفيرها الزاعق كصفير سفينة تشرف على الغرق، أقنعت زوجها بأن يشتري أراضي في الأماكن المؤشر عليها بصلبان من الحبر الأحمر على الخريطة. وأوضحت قائلة:

Twitter: @ketab_n

– في هذه الأماكن ستُنشأ القرى، لأن هناك ماء، وفي كل موقع منها سيكون لنا متجر.

فهتف فيليثيانو مذعوراً:

– إن ذلك يتطلب أموالاً كثيرة.

وردت باولينا بالطريقة التي تتعلل بها في مثل هذه الحالات:

– احصل على قروض، فمن أجل هذا وجدت المصارف. لماذا نغامر بأموالنا إذا كان بإمكاننا التصرف بأموال آخرين؟

وكانا منشغلين في هذا الأمر، يتفاوضان مع المصارف ويشتريان الأراضي عبر نصف البلاد، عندما انفجرت مسألة العشيقة. وهي ممثلة تدعى آماندا لويل، اسكتلندية صالحة للأكل، ذات لحم حليبي، وعينين سبانخيتين، وطعم دراقن، مثلما يؤكد من تذوقوها. وكانت تغني وترقص بصورة سيئة، ولكن باندفاع، وتمثل في مسرحيات ضئيلة الأهمية، وتُنشّط حفلات أقطاب بارزين. وكانت تملك أفعى من أصل بنمي، طويلة وثخينة ووديعة، ولكنها ذات مظهر مخيف، تلتف على جسدها خلال رقصاتها المثيرة، ولم تُظهر الأفعى أي علامة تشير إلى سوء طباعها إلى أن جاءت ليلة مشؤومة ظهرت فيها بإكليل من الريش فوق تسريحتها، فظنت الحية أن تلك الزينة هي ببغاء ساهية، وأوشكت أن تخنق سيدتها في سعيها لابتلاع الببغاء. لقد كانت لويل الجميلة بعيدة جداً عن أن تكون واحدة من آلاف «**الحمائم المدنسات**» في حياة كاليفورنيا المتهتكة؛ فهي مومس متكبرة لا يمكن الحصول على خدماتها بالمال وحده، وإنما كذلك بالأساليب الرقيقة والتودد. وكانت تعيش حياة مرفهة وسط سخاء طالبي ودها وتفيض لديها الموارد لمساعدة عصبة من الفنانين غير الموهوبين؛ وكان محكوماً عليها بأن تموت فقيرة، لأنها كانت تنفق مثلما ينفق بلد بأسره وتهدي ما يفيض عن ذلك. حين كانت في زهرة شبابها كانت تشوش حركة المرور في الشارع بظرافة حركاتها وبشعرها الأحمر مثل لبدة أسد، ولكن ميلها إلى الفضائحية أفقدها الحظ: إذ يمكن لها في سورة غضب أن تدمر اسماً لامعاً وتقوض أسرة. وقد بدت المجازفة

Twitter: @ketab_n

لفيليثيانو حافزاً آخر؛ فهو يملك روح قرصان، وقد أغوته فكرة اللعب بالنار بقدر ما أغوته مؤخرة لويل المتكبرة. تدبر أمر إقامتها في شقة في مركز المدينة بالذات، ولكنه لم يكن يظهر معها قط في أماكن عامة، لأنه يعرف جيداً طباع زوجته التي أقدمت في نوبة غيرة على قص سيقان وأكمام كل بدلاته وألقت بها أمام باب مكتبه. وقد كانت تلك ضربة قاصمة لرجل شديد التأنق مثله، يوصي على ملابسه لدى خياط الأمير ألبيرت في لندن.

لقد كانت المرأة، في مدينة سان فرانسيسكو الذكورية، هي آخر من يعلم عادة بأمر الخيانة الزوجية، أما في هذه الحالة تحديداً، فلويل نفسها هي من أشاعتها. فكانت ما إن يدير حاميها ظهره، حتى تبدأ برسم خط صغير على دعامة سريرها، خط صغير لكل عاشق تستقبله. لقد كانت هاوية جمع، لا تهتم بالرجال لمزاياهم وصفاتهم الخاصة، وإنما بعدد الخطوط التي تجمعها؛ فقد كانت تسعى لتجاوز أسطورة الفاتنة لولا مونتيث، البغي الإيرلندية التي مرت من سان فرانسيسكو كالصاعقة في أزمنة حمى الذهب. وكانت التقولات عن خطوط لويل تنتقل من فم لفم ويتنافس الرجال لزيارتها، سواء من أجل مفاتن المرأة الجميلة، التي كان كثيرون منهم يعرفونها بالمعنى التوراتي، أو لمضاجعة من يرعاها ويحميها أحد أبرز وجهاء المدينة. ووصل الخبر إلى باولينا دل بايي عندما كانت قد أدارت ظهرها تماماً لكاليفورنيا. فوبخت زوجها بالنبرة القتالية التي اعتادت استخدامها في مثل هذه المناسبات:

- الإهانة الكبرى هي أن تلك المرأة المضحكة تضع لك قروناً، والجميع يقولون الآن إنني متزوجة من ديك مخصي!

لم يكن فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث يعرف شيئاً عن نشاطات هاوية الجمع تلك، وكاد الاستياء أن يقتله. ولم يكن يتصور قط أن أصدقاءه ومعارفه وآخرين يدينون له بخدمات هائلة، يخدعونه بتلك الطريقة. ولكنه لم يُحمّل عشيقته المسؤولية مع ذلك، لأنه كان يتقبل باستسلام دناءات الجنس الآخر، فهن كائنات لذيذات ولكنهن بلا بنية

Twitter: @ketab_n

أخلاقية، مستعدات على الدوام للوقوع في الغواية. فهن ينتمين إلى التراب، والدبال، والدم والوظائف العضوية، بينما الرجال مكرسون للبطولة، والأفكار العظيمة، والقداسة، وإن كان هذا الشأن الأخير لا يهمه شخصياً. وفي مواجهته مع زوجته، دافع عن نفسه كيفما استطاع وانتهز هدنة منها ليلقي في وجهها المزلاج الذي تغلق به باب حجرة نومها. أتريد من رجل مثله أن يعيش منقطعاً عن النساء؟ وقال متعللاً إن كل ذلك كان بسببها لأنها صدته. مسألة المزلاج كانت صحيحة، فقد تنازلت باولينا عن الهيجانات الجسدية، ليس لافتقارها إلى الرغبة، مثلما اعترفت لي بعد أربعين سنة، وإنما بسبب الحياء. فقد صارت تشمئز عند النظر إلى نفسها في المرآة، واستنتجت أن أي رجل سيشعر بالشيء نفسه حين يراها عارية. إنها تتذكر بدقة اللحظة التي وعت فيها أن جسدها صار يتحول إلى عدوها. فقبل بضع سنوات من ذلك، ولدى عودة فيليثيانو من رحلة عمل في تشيلي، أمسكها من خصرها وأراد بمزاجه الرائق المعهود أن يرفعها من الأرض إلى السرير، ولكنه لم يستطع تحريكها. فقال ضاحكاً:

- عجباً يا باولينا! أتضعين أحجاراً في سروالك؟

فتنهدت هي بحزن:

- إنها الشحوم.

- أريد رؤيتها!

- ولا بأي حال. من الآن فصاعداً لا يمكنك المجيء إلى حجرتي إلا ليلاً، والأضواء مطفأة.

وطوال بعض الوقت، صار هذان الشخصان اللذان تبادلا الحب دون عفاف، يمارسان الحب في الظلام. وظلت باولينا متصلبة حيال توسلات زوجها ونوبات غضبه، لأنه لم يقنع قط باللقاء بها وهي تحت جبل من الملاءات في عتمة الغرفة، ولا بمعانقتها بتعجلٍ مبشرٍ بينما هي تثبت يديه حتى لا يلمس لحمها. وكان الأخذ والرد يستنفدان قواهما ويؤججان أعصابهما كأنها الحديد المحمى. وأخيراً، بحجة الانتقال إلى البيت

Twitter: @ketab_n

الجديد في نوب هيل، رتبت باولينا أمر إقامة زوجها في الطرف الآخر من البيت، وأقفلت باب حجرتها. لقد كان استياؤها من جسدها أكبر من رغبتها في مضاجعة زوجها. كان عنقها يختفي وراء غبب مزدوج، وثدياها وبطنها كتلة واحدة مثل كرش أسقف، وقدماها لا تقويان على حملها لأكثر من بضع دقائق، ولم يعد بمقدورها أن ترتدي ثيابها وحدها أو أن تربط حذاءها؛ ولكنها حين ترتدي ملابسها الحريرية وتتزين بمجوهراتها البديعة، مثلما تظهر على الدوام تقريباً، تبدو مشهداً عجيباً. وكان قلقها الأكبر هو من إفرازات العرق بين طيات لحمها، وقد اعتادت أن تسألني هامسة عما إذا كانت رائحتها كريهة، ولكنني لم أكن أشم فيها إلا رائحة ماء الياسمين ومسحوق التالك. وكانت تعارض المعتقد الشائع في ذلك الحين بأن الماء والصابون يخربان القصبات الهوائية، فتمضي ساعات وهي تطفو في حوض حمامها المعدني المطلي بطبقة من الملاط، حيث كانت تشعر بالخفة التي كانت لها في شبابها. لقد وقعت في غرام فيليثيانو عندما كان شاباً وسيماً وطموحاً، يملك مناجم فضة في شمالي تشيلي. ومن أجل هذا الحب تحدت غضب أبيها أغوسطين دل بايي، الذي يرد ذكره في نصوص التاريخ التشيلي على أنه مؤسس حزب سياسي صغير ذي توجه محافظ متطرف، اختفى منذ عقدين، ولكنه يعود إلى الانبعاث بين فترة وأخرى، مثل طائر فينيق منتوف الريش ومثير للشفقة. وقد كان حبها لهذا الرجل بالذات هو الذي منحها القوة عندما قررت منعه من الدخول إلى مخدعها وهي في سن تطالب فيها طبيعتها بمعانقته أكثر من أي وقت آخر. وعلى العكس منها، كان فيليثيانو ينضج بملاحة. فقد تحول شعره إلى الرمادي، ولكنه ما يزال الرجل المرح، والعاطفي، والطائش نفسه. كانت باولينا تحب ميوله السوقية، وفكرة أن هذا الرجل ذا الكنية المسيحية الفاقعة، ينحدر من يهود سفارديم، وتحت قمصانه الحريرية التي طُرزت عليها الحروف الأولى من اسمه هناك وشم انحرافي اكتسبه في الميناء وهو مخمور. كانت تتلهف للعودة إلى سماع البذاءات التي كان يهمس لها بها في أزمنة تمرغهما في الفراش تحت المصابيح المضاءة، وكانت مستعدة لتقديم أي شيء مقابل أن تنام

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى وهي تسند رأسها إلى التنين المنقوش بحبر لا يُمحى على كتف زوجها. ولم يخطر لها يوماً أنه يرغب في الشيء نفسه أيضاً. فهي في نظر فيليثيانو تلك الخطيبة الجريئة التي هرب معها في أيام الشباب، والمرأة الوحيدة التي يقدرها ويخشاها. ويخطر لي أحياناً أن هذين الزوجين لم يتخليا عن حب أحدهما للآخر، بالرغم من القوة الإعصارية لمشاجراتهما التي كانت تجعل جميع من في البيت يرتجفون. فالمعانقات التي جعلتهما سعيدين فيما مضى استُبدلت بمعارك تنتهي بمهادنات طويلة الأجل وانتقامات تاريخية، مثل السرير الفلورنسي، ولكن لم يكن بإمكان أي إساءة أن تقوض علاقتهما، وقد بقيا متحدين بتواطؤ محتالين مثير للحسد حتى النهاية، حين سقط هو جريحاً جرحاً مميتاً بالسكتة الدماغية.

حين تأكد القبطان جون سوميرز من أن قطعة الأثاث الخرافية قد أصبحت فوق العربة، ومن أن الحوذي قد فهم تعليماته، انطلق ماشياً باتجاه تشايناتاون، مثلما يفعل في كل زيارة له إلى سان فرانسيسكو. ولكن قواه لم تساعده في هذه المرة، وكان عليه بعد مسير كوادرتين أن يستدعي عربة أجرة. ركب فيها بمشقة، وأخبر الحوذي بالعنوان واستلقى على المقعد لاهثاً. لقد بدأت الأعراض بالظهور منذ سنة، ولكنها صارت أكثر حِدّة في الأسابيع الأخيرة؛ فساقاه لا تكادان تقويان على حمله، ورأسه يمتلئ بالضباب، وهو يضطر إلى النضال دون هوادة ضد إغراء الاستسلام إلى الغيبوبة القطنية التي تأخذ بالسيطرة على روحه. لقد كانت أخته روز هي أول من لاحظ أن ثمة شيئاً يسير على غير ما يرام، في الوقت الذي لم يكن هو قد بدأ بالشعور بالألم. إنه يفكر بها مبتسماً: لقد كانت أقرب وأحب شخص إليه، فهي بوصلة حياته الانتجاعية، أكثر حقيقية في عواطفها من ابنته إلزا أو أي امرأة أخرى احتضنها في تطوافه الطويل من ميناء إلى ميناء.

لقد أمضت روز سوميرز شبابها في تشيلي، إلى جانب أخيها الكبير

Twitter: @ketab_n

جيرمي؛ ولكنها رجعت بعد موته إلى انكلترا لكي تشيخ في بلادها. وكانت تقيم في لندن، في بيت صغير على مقربة من المسارح والأوبرا، وهو حي أصابه بعض الانحدار، حيث يمكنها أن تعيش على هواها. فهي لم تعد مدبرة بيت أخيها جيرمي حسنة الهندام، إذ يمكنها الآن أن تطلق العنان لميولها الغريبة الشاذة. فقد اعتادت أن ترتدي ملابس ممثلة منكوبة حين تذهب لتشرب الشاي في سافوي أو ملابس كونتيسة روسية حين تُخرج كلبها للنزهة، وكانت صديقة للمتسولين والموسيقيين الجوالين، تنفق أموالها على الترهات والصدقات. «ليس هناك مُحَرِّر مثل التقدم في السن»، كانت تقول ذلك بسعادة وهي تحصي تجاعيدها. فيرد عليها جون سوميرز: «ليس السبب هو التقدم في السن يا أختاه، وإنما الوضع المادي الذي وفرته لك ريشتك». فقد تمكنت هذه العانس الوقورة ذات الشعر الأبيض من جمع ثروة من كتاباتها الاباحية. وكان القبطان يفكر بأن أكثر ما في الأمر من سخرية، هو أن روز التي لم تعد بحاجة إلى المداراة الآن، مثلما كانت تفعل وهي تعيش في ظل أخيهما جيرمي، تخلت عن كتابة القصص الإيروتيكية وانغمست في إنتاج روايات رومنسية بإيقاع خانق وبنجاح منقطع النظير. لم تكن هناك امرأة لغتها الأم هي الإنكليزية، بمن في ذلك الملكة فيكتوريا، إلا وقرأت واحدة على الأقل من روايات الليدي روز سوميرز. ولم يفعل هذا اللقب المميز إلا إضفاء الشرعية على وضع كانت روز قد احتلته منذ سنوات عديدة. ولو أن الشكوك خامرت الملكة فيكتوريا يوماً في أن مؤلفتها المفضلة، التي منحتها بنفسها لقب ليدي، هي المسؤولة عن مجموعة كبيرة من الأدب غير المحتشم الذي يحمل توقيع سيدة مجهولة، لأغمي عليها. القبطان يرى أن كتاباتها الإباحية كانت لذيذة، أما روايات الحب هذه فهي زبالة. وقد تولى طوال سنوات نشر وتوزيع القصص المحظورة التي كانت روز تُنتجها تحت أنف أخيها الكبير، الذي مات وهو مقتنع بأنها آنسة فاضلة لا هم لها سوى إدخال السعادة في حياته. «اعتن بنفسك يا جون، لاحظ أنك قد تتركني وحيدة في هذه الدنيا. إنك تنحل ولك لون غريب»، كانت روز تردد هذه الكلمات يومياً عندما زارها أخوها القبطان في لندن. ومنذ ذلك الحين كانت

Twitter: @ketab_n

عملية تحول لا تتوقف تحوله إلى حرذون.

كان تاو تشين قد انتهى من نزع إبره الصينية من أذني وذراعي أحد مرضاه عندما أخبره مساعده بأن حماه قد جاء للتو. وضع الجونغ يي إبر العلاج الذهبية في كحول نقي، وغسل يديه في طست، ثم ارتدى سترته وخرج ليستقبل الزائر، مستغرباً أن إلزا لم تخبره بأن أباها سيصل اليوم. كل زيارة يأتي بها القبطان سوميرز كانت تثير الشجون. فالأسرة تنتظره بلهفة، وخصوصاً الأطفال الذين ما كانوا يكلون من إبداء إعجابهم بالهدايا الغريبة ولا يملون من سماع حكايات المسوخ البحرية والقراصنة الملاويين التي يقصها عليهم ذلك الجد العملاق. فقد كان القبطان صورة مهيمنة بزيه البحري الأزرق، فهو طويل القامة، ضخم الجسد، له بشرة مدبوغة بملح كل البحار، ولحية خشنة، وصوت راعد، وعينان زرقاوان بريئتان كعيني طفل، ولكن الرجل الذي رآه تاو تشين جالساً على أريكة عيادته كان قد تضاءل كثيراً، حتى أنه وجد صعوبة في التعرف عليه. حياه باحترام، ولم يستطع تجاوز عادته في الانحناء أمامه على الطريقة الصينية. لقد تعرف على جون سوميرز في شبابه، حين كان يعمل طاهياً في سفينته. «عليك أن تتوجه إليّ بالقول يا سيدي، مفهوم أيها الصيني؟»، هذا ما أمره به في المرة الأولى التي كلمه فيها. وفكر تاو تشين وهو يشعر بوخزة قلق حيال نذر الموت: كلانا كنا أسودي الشعر في ذلك الحين. نهض الإنكليزي واقفاً بجهد، ومدّ إليه يده ثم عانقه بعد ذلك معانقة سريعة. وتبين للجونغ يي بأنه صار هو الأطول قامة الآن والأكثر وزناً بين الاثنين.

سأله:

- هل تعرف إلزا بأنك ستأتي اليوم يا سيدي؟

- لا. أنت وأنا يجب أن نتحدث على انفراد يا تاو. إنني أموت.

هذا ما كان الجونغ يي قد تأكد منه فور رؤيته له. ودون أن يتفوه بكلمة اقتاده نحو غرفة المعاينة، حيث ساعده على خلع ملابسه والتمدد على السرير. كان مظهر حميه وهو عارٍ يدعو إلى الرثاء: البشرة سميكة،

Twitter: @ketab_n

جافة، ذات لون رصاصي، والأظفار صفراء، والعينان محتقنتان بالدم، والبطن منتفخ. بدأ يفحصه بالتسمع، ثم قاس نبضه في معصميه، وفي عنقه، وكاحليه لكي يتأكد مما كان يعرفه.

- كبدك مفتت يا سيدي. أما زلت تتناول الشراب؟

- لا يمكنك أن تطلب مني ترك عادة أدمنتُ عليها مدى الحياة يا تاو. أوتظن أن هناك من هو قادر على تحمل مهنة البحار دون تناول جرعة من الخمر بين حين وآخر؟

ابتسم تاو تشين. فقد كان الإنكليزي يشرب نصف زجاجة من الجن في الأيام العادية، وزجاجة كاملة إذا ما كان هناك أمر يحزنه أو يحتفل به، دون أن يبدو بأن ذلك يؤثر عليه أدنى تأثير؛ بل ودون أن تنبعث منه رائحة الخمر، لأن رائحة التبغ سيئ النوعية كانت تعبق من ملابسه وأنفاسه.

وأضاف جون سوميرز:

- ثم إن الوقت قد تأخر من أجل الندم والتراجع، أليس كذلك؟

- يمكنك العيش لوقت أطول قليلا وفي ظروف أفضل إذا ما تركت الشراب. لماذا لا تأخذ استراحة؟ تعال وعش معنا لبعض الوقت، وسنعتني أنا وإلزا بك إلى أن تتعافى - سأله الجونغ يي ذلك دون النظر إليه، لكي لا ينتبه الآخر إلى تأثره. مثلما يحدث له مرات ومرات في مهنته كطبيب، إذ عليه أن يناضل ضد الإحساس بالعجز الرهيب الذي يثقل عليه عادة حين يتأكد من مدى ضآلة إمكانيات علمه ومدى هول المعاناة لدى الناس.

- كيف يخطر لك بأنني سأقبل وضع نفسي طوعيا بين يدي إلزا لكي تحكم علي بالصيام عن الشراب! كم بقي لي من الوقت يا تاو؟ - سأله جون سوميرز.

- لا يمكنني تخمين ذلك بدقة. عليك أن تأخذ رأي أحد غيري.

- رأيك هو الوحيد الذي يستحق الاحترام. منذ أن قلعت لي ضرسا دون ألم ونحن في منتصف الطريق ما بين أندونيسيا وساحل أفريقيا، لم

Twitter: @ketab_n

أسمح لأي طبيب آخر بأن يضع يده اللعينة عليّ. كم مضى من الوقت على ذلك؟

- حوالي خمس عشرة سنة. وشكراً لثقتك بي يا سيدي.

- خمس عشرة سنة فقط؟ لماذا يخيل إليّ بأننا متعارفان طوال حياتنا؟

- ربما نكون قد تعارفنا في حياة أخرى.

- التقمص يخيفني يا تاو. تصور أن أصير مسلماً في حياتي القادمة. أتعرف أن أولئك الناس المساكين لا يمكنهم شرب الخمر؟

فقال تاو ساخراً:

- هذه هي **كارماك** بالتأكيد. ففي كل تقمص جديد يتوجب علينا أن ننجز ما خلفناه غير ناجز في حياتنا السابقة.

- إنني أفضل الجحيم المسيحي، فهو أقل قسوة. حسن، لن نخبر إلزا بشيء من هذا - قال جون سوميرز وهو يرتدي ملابسه، مجاهداً الأزرار التي تفلت من أصابعه المرتعشة، ثم اضاف: - بما أن زيارتي هذه ستكون الأخيرة، فمن العدل أن تحتفظ في ذاكرتها هي وأحفادي بصورتي وأنا سعيد ومعافى. سأنصرف مطمئناً يا تاو، لأن أحداً لن يستطيع الاعتناء بابنتي خيراً منك.

- لا يمكن لأحد أن يحبها أكثر مني يا سيدي.

- عندما أغيب من الوجود، يتوجب على أحد أن يهتم بأختي. وأنت تعرف أن أختي روز كانت بمثابة أم لإلزا...

فأكد له صهره:

- لا تقلق، أنا وإلزا سنبقى دوماً على اتصال بها.

- والموت... أعني... هل سيكون موتاً سريعاً ووقوراً؟ كيف سأعرف مجيء النهاية؟

- عندما تتقيأ دماً يا سيدي - قال تاو تشين بحزن.

وقد حدث ذلك بعد ثلاثة أسابيع، في عرض المحيط الهادي، وفي

Twitter: @ketab_n

وحدةِ قمرة القبطان. وعندما تمكن الملاح العجوز من النهوض، مسح آثار القيء، وغسل فمه، واستبدل قميصه الملوث بالدم، وأشعل غليونه ومضى إلى مقدمة السفينة، حيث جلس يتأمل للمرة الأخيرة النجوم تتلألأ في سماء من مخمل أسود. رآه عدة بحارة وانتظروا بعيداً وهم يمسكون القبعات بأيديهم. وعندما انتهى تبغ غليونه، مرر القبطان سوميرز ساقيه من فوق الحافة وترك جسده ينزلق دون ضجة إلى البحر.

تعرف سيفيرو دل بايي على لين سوميرز خلال رحلة قام بها مع أبيه من تشيلي إلى كاليفورنيا في العام 1872، لزيارة عمته باولينا وفيليثيانو اللذين كانا بطلي أفضل الأقاويل في العائلة. كان سيفيرو قد رأى عمته باولينا مرتين خلال زياراتها المتباعدة إلى بالبارايسو، ولكنه لم يكن يفهم زفرات تعصب أسرته المسيحي قبل أن يتعرف عليها في جوها الأمريكي الشمالي. فبعيداً عن الوسط الديني والمحافظ التشيلي، وعن الجد أغوسطين المسمر على كرسيه مشلولاً، وعن بقية أقربائها الحاسدين والهيابين، بلغت باولينا أبعادها الحقيقية كأمازونية. لقد كان سيفيرو دل بايي فتياً جداً في رحلته الأولى، بحيث لا يمكن له تقدير سلطة أو ثروة هذين العمين المشهورين، ولكن لم تفلت منه ملاحظة الفرق بينهما وبين بقية قبيلة دل بايي. ولكنه عندما عاد مرة أخرى بعد عدة سنوات، أدرك أنهما يعتبران من أكثر الأسر ثراء في سان فرانسيسكو، مثلهم مثل أرباب تجارة الفضة، وشركات السكك الحديدية، والمصارف والنقل. أما في تلك الرحلة الأولى، وهو في الخامسة عشرة من عمره، وبينما هو جالس عند طرف سرير عمته باولينا متعدد الألوان، وهي ترسم استراتيجية حروبها التجارية، حسم سيفيرو أمر مستقبله. فقد نصحته باولينا في ذلك اليوم، ما بين قضمتين من حلوى المعجنات بالحليب:

- عليك أن تصير محامياً، لكي تساعدني في سحق أعدائي في كل شؤون القانون.

فرد ابن الأخ:

Twitter: @ketab_n

- أجل يا عمتي. فجدي أغوسطين يقول إنه لا بد من أن يكون هناك محام، وطبيب، ومطران في كل أسرة محترمة.

- ولا بد كذلك من وجود عقل تجاري.

- الجد يرى أن التجارة ليست عملاً يليق بالنبلاء.

- قل له إن النبالة لا توفر طعاماً، وليدسها في مؤخرته.

لم يكن الفتى قد سمع هذه الكلمة البذيئة من قبل إلا من فم حوذي بيته، وهو مدريدي هارب من سجن في تينيريفي، كان يطلق اللعنات لأسباب غير مفهومة ضد الله والأمهات.

وهتفت باولينا وهي تكاد تموت من الضحك حين رأت ملامح ابن أخيها:

- دعك من التكلف يا فتى، وانظر أي مؤخرة لدينا جميعاً!

في مساء ذلك اليوم بالذات أخذته إلى محل حلويات إلزا سوميرز. كانت سان فرانسيسكو قد بهرت سيفيرو مذ لمحها من السفينة: مدينة مضيئة قائمة وسط مشهد أخضر بين هضاب مزروعة بأشجار تنحدر متموجة حتى حافة خليج ذي مياه ساكنة. إنها تبدو صارمة من بعيد، بتخطيطها الإسباني ذي الشوارع المتوازية والمتقاطعة، ولكنها تبدي فتنة غير متوقعة عن قرب. ولأنه معتاد على المظهر الناعس لميناء بالبارايسو، حيث ترعرع، فقد أصيب الفتى بالذهول حيال خبل البيوت والمباني متنوعة الطُرز المعمارية، والفخامة والفقر، وكل ذلك مختلط، كما لو أنه قد شيد على عجل. رأى حصاناً ميتاً يغطيه الذباب قبالة باب متجر أنيق يبيع كمانات وبيانوهات كبيرة. ووسط حركة مرور البهائم والعربات الصاخبة، كانت هناك حشود من كل الأجناس تشق طريقها: أمريكيون، هيسبانيون، فرنسيون، إيرلنديون، إيطاليون، ألمان، وبعض الهنود والعبيد الزنوج السابقين، ممن تحرروا الآن، ولكنهم بقوا منبوذين وفقراء. قاما بجولة في تشايناتاون، وفي لمحة عين وجدا نفسيهما في بلد مأهول بـ **السماويين**، وهي التسمية التي يطلقونها على الصينيين، كان الحوذي يبعدهم بفرقعات عصاه بينما هو يقود عربة الفياكري إلى ساحة الاتحاد.

Twitter: @ketab_n

توقف أمام بيت من الطراز الفيكتوري، يبدو بسيطاً بالمقارنة مع هذيان النقوش الحجرية، والزخارف، والورود المنحوتة التي يمكن رؤيتها عادة في تلك الأنحاء.

أوضحت باولينا:

- هذا هو صالون السيدة سوميرز للشاي، وهو الوحيد في هذه الأنحاء. يمكنك أن تتناول القهوة أينما شئت، أما إذا رغبت في تناول الشاي، فعليك أن تأتي إلى هنا. اليانكيون يمقتون هذا المشروب النبيل منذ حرب الاستقلال، وقد بدأ ذلك حين أحرق المتمردون شاي الإنكليز في بوسطن.

- ولكن، ألم يكن كل ذلك منذ حوالي القرن؟

- ها أنت ترى يا سيفيرو مدى الحماقة التي قد تصل إليها الوطنية.

لم يكن الشاي هو سبب زيارات باولينا المتكررة إلى هذا المحل، وإنما حلويات إلزا سوميرز الشهيرة التي تعبق في الداخل برائحة السكر والفانيلا اللذيذة. كان البيت، وهو أحد بيوت كثيرة استوردت من إنكلترا في أزمنة سان فرانسيسكو الأولى، مع دليل تعليمات لتركيبه مثل لعبة، مؤلفاً من طابقين يتوجهما برج يضفي على البيت هيئة كنيسة ريفية. لقد فتحوا حجرتين على بعضهما في الطابق الثاني لتوسيع قاعة الطعام، وكانت هناك عدة مقاعد بقوائم ملتوية وخمس طاولات صغيرة مستديرة مغطاة بشراشف بيضاء. وفي الطابق العلوي تباع علب سكاكر مصنوعة يدوياً من أفضل أنواع الشوكولاتة البلجيكية، وحلوى اللوز، وعدة أنواع من الحلويات التقليدية التشيلية، وهي المفضلة لدى باولينا دل بايي. وكانت تقوم بالخدمة نادلتان مكسيكيتان بضفائر طويلة، ومريلتين ناصعتين، وقبعتين منشّاتين، توجههما بالتخاطر السيدة سوميرز الضئيلة، والتي تعطي انطباعاً بأنها لا تكاد تكون موجودة، على النقيض من حضور باولينا الجارف. وكانت موضة إبراز التقاطيع والتنانير الداخلية المتموجة تناسب الأولى، بينما تضخم حجم الثانية؛ إضافة إلى أن باولينا دل بايي

Twitter: @ketab_n

لم تكن تقتصد بالأقمشة، والحواشي، والشُرابات، والطيات. وقد ذهبت في ذلك اليوم متزينة كملكة النحل، باللونين الأصفر والأسود من رأسها حتى قدميها، وبقبعة تنتهي برياش وصَدار مخطط. خطوط كثيرة. كانت تداهم الصالة، تبتلع كل الهواء، ومع كل خطوة منها تهتز الفناجين وتئن الجدران الخشبية الواهنة. ما إن رأتها الخادمتان داخلة حتى سارعتا إلى استبدال إحدى الكراسي المحزمة بقشور الخيزران بمقعد أشد متانة، حيث جلست السيدة ببطء. لقد كانت تتحرك بحذر، لأنها ترى أنه ليس هناك ما يعطي شعوراً بالقبح أكثر من التعجل؛ كما أنها كانت تتفادى إصدار أي جلبة من أصوات الشيخوخة، فهي لا تسمح لنفسها مطلقاً باللهاث في مكان عام، أو بالسعال، أو طقطقة العظام، أو التنهد تعباً، حتى ولو كانت قدماها تقتلانها. وكانت تقول: «لا أريد أن يكون لي صوت بدينة»، وتتغرغر كل يوم بعصير الليمون مع العسل لتحافظ على نحول صوتها. كانت إلزا سوميرز الضئيلة ومستوية القامة مثل سيف، ترتدي تنورة زرقاء غامقة وبلوزة بلون الشمام لها أزرار عند المعصمين والعنق، مع عقد لؤلؤ بسيط هو زينتها الوحيدة، فتبدو فتية بصورة باهرة. كانت تتكلم إسبانية صدئة من قلة الاستعمال، وإنكليزية بلكنة بريطانية، وتقفز من لغة إلى أخرى في الجملة نفسها، مثلما تفعل باولينا. وقد كانت ثروة السيدة دل بايي ودماؤها الارستقراطية تضعها في مستوى إجتماعي أعلى بكثير من الأخرى. إن امرأة تعمل لمجرد المتعة يمكن لها أن تكون مسترجلة، ولكن باولينا تعرف أن إلزا لم تعد تنتمي إلى الوسط الذي تربت فيه في تشيلي، وأنها لم تكن تعمل لمتعة العمل، وإنما بدافع الحاجة. لقد سمعت عنها كذلك بأنها تعيش مع صيني، ولكن فضولها الماحق لم يصل يوماً إلى حد سؤالها عن ذلك مباشرة.

- لقد تعارفنا أنا والسيدة إلزا سوميرز في تشيلي عام 1840؛ وكان عمرها آنذاك ثماني سنوات، وكنتُ أنا في السادسة عشرة، ولكننا الآن في السن نفسها- أوضحت باولينا لابن أخيها.

بينما كانت النادلتان تقدمان الشاي، كانت إلزا سوميرز تستمع

Twitter: @ketab_n

بمتعة إلى هذر باولينا المتواصل، والذي تقطعه أحياناً لتلتهم لقمة أخرى من الحلوى. نسيهما سيفيرو عندما اكتشف على طاولة أخرى طفلة فاتنة تلصق صوراً في ألبوم على نور مصابيح الغاز وعلى ضوء زجاج النافذة الملون الخافت الذي يضيئوها بتلؤلؤ ذهبي. إنها لين سوميرز، ابنة إلزا، الطفلة ذات الجمال النادر التي كان عدد من مصوري المدينة آنذاك، وهي في الثانية عشرة من عمرها، قد اتخذوها موديلاً لهم؛ وصارت صورها تزين بطاقات بريدية وملصقات وتقاويم تمثل ملائكة يعزفون القيثارة وحوريات لعوبات في غابات مجسمات كرتونية. كان سيفيرو ما يزال في السن التي تشكل فيها البنات سراً أدعى إلى النفور في نظر الصبيان، ولكنه استسلم للافتتان؛ وبينما هو يقف إلى جانبها، راح يتأملها بفم مفتوح دون أن يفهم لماذا يؤلمه صدره ويشعر برغبة في البكاء. وقد أخرجته إلزا سوميرز من ورطته حين استدعتهما ليتناولا الشوكولاتة. أغلقت الصغيرة الألبوم دون أن توليه اهتماماً، وكأنها لا تراه، ونهضت بخفة، طافية. جلست قبالة فنجان شكولاتتها دون أن تفوه بكلمة أو ترفع بصرها، مستسلمة لنظرات الفتى المتمادية، وواعية بأن مظهرها يميزها عن بقية البشر الفانين. لقد كانت تحمل جمالها كعاهة، وتأمل في سرها أن يفارقها ذلك التشوه مع مرور الزمن.

بعد أسبوع من ذلك أبحر سيفيرو عائداً إلى تشيلي مع أبيه، حاملاً في ذاكرته عظمة كاليفورنيا، ورؤيا لين سوميرز مغروسة بثبات في قلبه.

لم يعد سيفيرو دل بايي إلى رؤية لين إلا بعد عدة سنوات. فقد رجع إلى كاليفورنيا في أواخر العام 1876 ليعيش مع عمته باولينا، ولكنه لم يبدأ علاقته بلين حتى يوم أربعاء من شتاء العام 1879، وكان الأوان قد فات حينئذ بالنسبة لكليهما. في زيارته الثانية إلى سان فرانسيسكو، كانت قامة الشاب قد بلغت طولها النهائي، ولكنه كان ما يزال نحيلاً، شاحباً، متخلعاً في مشيته، يمشي غير مرتاح في جلده، كما لو أن لديه فائضاً من المرافق والرُّكب. بعد ثلاث سنوات من ذلك، وعندما مثل أمام

Twitter: @ketab_n

لين، كان قد أصبح رجلاً كامل الرجولة، له تقاطيع أسلافه الإسبان النبيلة، والبنية المرنة لمصارع ثيران أندلسي، والمزاج المتقشف لتلميذ مدرسة دينية. لقد تغيرت أشياء كثيرة في حياته منذ أن رأى لين أول مرة. صورة تلك الطفلة الصامتة ذات الوهن الشبيه بخمول قطة تستريح، رافقته خلال سنوات المراهقة الصعبة وآلام الحِداد. فقد مات أبوه الذي كان يحبه إلى حد العبادة باكراً في تشيلي، واحتارت أمه حيال ذلك الابن الذي ما يزال أمرد، ولكنه شديد الذكاء وقليل الاحترام، فأرسلته لإنهاء دراسته في مدرسة كاثوليكية في العاصمة سنتياغو. ولكنهم سرعان ما أعادوه من هناك إلى بيته مع رسالة توضح بعبارات فظة بأن تفاحة فاسدة في البرميل ستُفسد الأخريات، أو شيء من هذا القبيل. وعندئذ قامت الأم المتفانية بالذهاب في حجٍ على ركبتيها إلى مغارة معجزات، حيث أوحت لها السيدة العذراء، البارعة دائماً، بالحل: إرساله إلى الخدمة العسكرية لكي يتولى رقيب هناك حل المشكلة. وهكذا أمضى سيفيرو سنة مع الجنود، تحمّل خلالها صرامة وبلاهة الأنظمة، وخرج برتبة ضابط صف احتياط، مصمماً على عدم الاقتراب مطلقاً من ثكنة عسكرية مدى الحياة. ولكنه ما إن وضع قدميه في الشارع حتى عاد إلى أصدقائه السابقين وإلى نزوات مزاجه غريبة الأطوار. وفي هذه المرة تولى أعمامه القضية. اجتمعوا في مجلس في قاعة الطعام الكالحة في بيت الجد أغوسطين، دون حضور الفتى المعني وأمه اللذين لا يتمتعان بحق التصويت في المائدة العائلية البطريركية. في هذه الغرفة بالذات، قبل خمس وثلاثين سنة، كانت باولينا دل بايي، برأسها الحليق وبإكليل من الماس، قد تحدت رجال أسرتها لتتزوج من فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث، الرجل الذي اختارته بنفسها. وهناك قُدمت أمام الجد الآن الأدلة ضد سيفيرو: إنه يرفض الذهاب للاعتراف والمشاركة في القربان، ويخرج برفقة بوهيميين، وقد اكتُشفت بحوزته كتب من القائمة السوداء؛ وهم - بكلمات موجزة - يرتابون بأن الماسونيين قد جندوه معهم، أو أن الليبراليين، وهذا أسوأ، قد فعلوا ذلك. كانت تشيلي تمر بفترة صراعات إيديولوجية حادة، وكلما حقق الليبراليون مكاسب في الحكومة، ازداد

Twitter: @ketab_n

غضب المحافظين المتطرفين المشبعين بالحماس المسيحي، مثل آل دل بايي الذين يسعون إلى فرض أفكارهم بقوة اللعنات الإلهية والرصاص، وسحق الماسونيين وأعداء الاكليروس، والقضاء قضاء مبرماً على الليبراليين. لم يكن آل دل بايي مستعدين للتسامح مع منشق من دمهم ضمن الأسرة نفسها. وكان الجد أغوسطين هو صاحب فكرة إرساله إلى الولايات المتحدة، وقد تنبأ قائلاً: «سيشفيه اليانكيون من اندفاعه». فارسلوه في السفينة إلى كاليفورنيا، دون أن يسألوه رأيه، مرتدياً ملابس الحِداد، وحاملاً في جيب سترته ساعة أبيه المتوفى الذهبية، وأمتعة قليلة، من ضمنها مسيح ضخم متوج بالشوك، ورسالة مختومة إلى عميه فيليثيانو وباولينا.

كانت اعتراضات سيفيرو شكلية بالكامل، لأن هذه الرحلة تتناسب مع خططه. والشيء الوحيد الذي كان يُثقل عليه هو ابتعاده عن نيفيا، الفتاة التي ينتظر الجميع زواجه منها يوماً، وفق العادة القديمة للأوليغاركية التشيلية في الزواج بين أبناء العمومة. لقد كان يختنق في تشيلي. فقد ترعرع أسير جملة من المعتقدات الجامدة والأحكام المسبقة، ولكن الاتصال بطلاب آخرين في مدرسة سنتياغو فتح مخيلته وأيقظ فيه ومضة وطنية. فقد كان يظن حتى ذلك الحين بأن هناك طبقتين اجتماعيتين فقط، طبقته وطبقة الفقراء، تفصل بينهما مناطق رمادية غائمة من الموظفين وغيرهم من «التشيليين الصغار العاديين»، كما يدعوهم الجد أغوسطين. وأدرك وهو في الثكنة العسكرية بأن أبناء طبقته، من ذوي البشرة البيضاء والسلطة الاقتصادية، لا يزيدون عن حفنة ضئيلة؛ أما الأغلبية الساحقة فهم من المولدين والفقراء؛ ولكنه اكتشف في سنتياغو بأن هناك أيضاً طبقة متوسطة قوية كبيرة العدد، متعلمة وذات تطلعات سياسية، وهي في الواقع العمود الفقري للبلاد، تشمل مهاجرين هاربين من حروب ومجاعات، وعلماء، ومربين، وفلاسفة، ومكتبيين، وأناساً يحملون أفكاراً متقدمة. وقد سبب له كلام أصدقائه الجدد الذهول، مثل من يقع في الحب لأول مرة. كان يرغب في تغيير تشيلي، أن يقلبها تماماً، ويطهرها. وتوصل إلى القناعة بأن المحافظين -

Twitter: @ketab_n

باستثناء أسرته بالطبع، لأنها لا تتصرف، حسب رأيه، بدافع الخبث، وإنما الخطأ - ينتمون إلى جيش الشيطان، في حالة افتراض أن الشيطان هو شيء أكثر من بدعة طريفة، وقرر أن ينخرط في السياسة فور تمكنه من اكتساب استقلاليته. كان يدرك أنه ما زال بحاجة إلى بضع سنوات من أجل ذلك، ولهذا السبب اعتبر الرحلة إلى الولايات المتحدة نفحة هواء طازج؛ يمكنه أن يتعرف خلالها على ديمقراطية الأمريكيين الشماليين المشتهاة ويتعلم منها، ويمكنه أن يقرأ كل ما يرغب فيه دون خوف من الرقابة الكاثوليكية، وأن يطلع على انجازات الحداثة. فبينما كان يجري في بقية انحاء العالم خلع ملوك عن عروشهم، وكانت تولد دول جديدة، وتُستعمر قارات، وتُخترع العجائب، كان البرلمان في تشيلي يخوض نقاشاً حول حق الزناة في الدفن في مقابر مسيحية. لم يكن مسموحاً الاتيان على ذكر نظرية داروين أمام جده، إنما كان يمكن بالمقابل تبديد أمسية بكاملها في مناقشة معجزات القديسين والشهداء غير المحتملة. أما الدافع الآخر للرحلة فهو ذكرى الصغيرة لين سوميرز، التي كانت تخترق بدأب مُثقِل حبه لنيفيا، بالرغم من أنه لم يكن يعترف بذلك ولو في أعمق أسرار روحه.

لم يعرف سيفيرو دل بايي متى وكيف برزت فكرة زواجه من نيفيا، ربما لم يقررا ذلك بنفسيهما، وإنما الأسرة هي التي فعلت، ولكن أياً منهما لم يتمرد على ذلك القدر لأنهما كانا متعارفين ومتحابين منذ الطفولة. نيفيا تنتمي إلى فرع من الأسرة كان يتمتع بالثراء حين كان الأب على قيد الحياة، ولكن الأرملة افتقرت بعد موته. وقد بادر خال ثري، هو دون فرانثيسكو خوسيه بيرغارا، وكان شخصية بارزة في أزمنة الحرب، إلى المساعدة في نفقات تعليم أبناء أخته هؤلاء. «ليس هناك فقر أسوأ من فقر الأثرياء المفلسين، لأن عليهم التظاهر بما لا يملكونه»، هذا ما اعترفت به نيفيا لابن عمها سيفيرو في واحدة من لحظات الإشراق المفاجئة تلك التي تميزها. لقد كانت تصغره بأربع سنوات، ولكنها كانت أكثر نضوجاً منه بكثير؛ وكانت هي من طبعت إيقاع مشاعر المحبة هذه لدى الصبي، مقتادة إياه بيد ثابتة إلى العلاقة الرومنسية التي كانا

Twitter: @ketab_n

يتقاسمانها في الوقت الذي سافر فيه سيفيرو إلى الولايات المتحدة. ففي البيوت الهائلة التي كانت حياتهما تمضي فيها، هناك فائض من الأركان المثالية للحب. وفي تبادلهما الملامسات في الأماكن الظليلة، اكتشف ابنا العم بخراقة الجراء أسرار جسديهما. كانا يتبادلان المداعبات بفضول، متقصيين الاختلافات، دون أن يدريا لماذا لديه هو هذا ولديها هي ذاك، يشوشهما الحياء والشعور بالذنب، صامتين دائماً، لأن ما لا يصوغانه في كلمات يبقى كما لو أنه لم يحدث، ويكون أقل خطيئة. كانا يستكشفان نفسيهما بسرعة وهما مذعوران، مدركان أنه لا يمكن لهما إعلان ألعاب أبناء العمومة تلك حتى في حجرة الاعتراف، ولو أدى ذلك إلى الحكم عليهما بالجحيم. كانت هناك ألف عين ترصدهما. فالخادمات المسنات اللواتي رأينهما يولدان يحمين تلك الغراميات البريئة، أما العمات العانسات فيترصدن مثل غربان؛ لا شيء يفلت من عيونهن الجافة التي تتمثل مهمتها الوحيدة في تسجيل كل لحظة من لحظات الحياة الأسرية، من ألسنتهن الفسقية التي تُشيع الأسرار وتزيد حدة النزاعات، وإن كان ذلك ضمن حدود الأسرة وحسب. فلا شيء يخرج من بين جدران تلك البيوت. لأن واجب الجميع الأول هو الحفاظ على شرف العائلة وحسن سمعة اسمها. كانت نيفيا قد كبرت متأخرة، ففي الخامسة عشرة من عمرها كان ما يزال لها جسد طفلة ووجه بريء، ولم يكن هناك في مظهرها ما يكشف عن قوة شخصيتها: فهي قصيرة القامة، مربوعة، لها عينان قاتمتان كبيرتان هما الملمح الوحيد الجدير بالذكر، وتبدو مخلوقة تافهة بلا قيمة إلى أن تفتح فمها. وبينما كانت أخواتها تكسبن السماء بقراءة كتب الورع، كانت هي تقرأ خفية المقالات والكتب التي يقدمها لها ابن عمها سيفيرو من تحت الطاولة، ومؤلفات الكلاسيكيين التي يعيرها إياها الخال خوسيه فرانثيسكو بيرغارا. وقد أخرجت في أحد الأيام من كمها فكرة المشاركة النسائية في الاقتراع العام، في وقت لم يكن هناك تقريباً من يتحدث في هذا الأمر في وسطها الاجتماعي. في المرة الأولى التي ذكرت فيها ذلك خلال غداء أسري، في بيت دون أغوسطين دل بايي، وقع انفجار رعب. «متى ستشارك النساء والفقراء في التصويت

Twitter: @ketab_n

في هذه البلاد؟»، سألت نيفيا بغتة، دون أن تتذكر بأنه يتوجب على الأطفال ألا يفتحوا أفواههم بحضور الكبار. خبط البطريرك العجوز دل بايي الطاولة بقبضته جاعلاً الكؤوس تطير، وأمرها بالذهاب للاعتراف فوراً. وقد نفذت نيفيا بصمت عقوبة التكفير التي فرضها عليها الكاهن، وسجلت في يومياتها، بحماسها المعهود، أنها لن تستكين إلى أن تحصل على الحقوق الأساسية للنساء، حتى ولو أدى ذلك إلى طردها من الأسرة.

وكان الحظ قد حالفها بالحصول على عون معلمة استثنائية، الأخت ماريا إسكابولاريو، وهي راهبة لها قلب لبوة تخبئه تحت مسوحها، وكانت قد انتبهت إلى ذكاء نيفيا. حيال هذه الصبية التي تتشرب كل شيء بشراهة، وتتساءل عما لم تفكر هي نفسها بالسؤال عنه قط، وتتحداها بعقلانية غير متوقعة من طفلة، وتبدو على وشك الانفجار بالحيوية والصحة في زيها المدرسي المريع، كانت الراهبة تشعر بأنها نالت تعويضها كمعلمة. فنيفيا وحدها تعوضها عن الجهد الذي بذلته طوال سنوات في تعليم جموع من الصغيرات الغنيات ذوات العقول الفقيرة. ولمحبتها لها، كانت الأخت ماريا إسكابولاريو بصورة منهجية تخرق أنظمة المدرسة، التي تأسست بهدف محدد هو تحويل التلميذات إلى مخلوقات مطيعة وسهلة الانقياد. فكانت تدير معها أحاديث لا بد أنها ستبعث الرعب في الأم الكبيرة والمدير الروحي للمدرسة.

- عندما كنتُ في مثل سنك لم يكن هناك سوى خيارين؛ إما الزواج أو الدخول إلى الدير - قالت الأخت ماريا إسكابولاريو.

- ولماذا اخترت الخيار الثاني يا أماه؟

- لأنه يتيح لي مزيداً من الحرية. فالمسيح زوج متسامح...

تنهدت نيفيا:

- نحن النساء منكوبات يا أماه. علينا أن ننجب أبناء ونتصاع، ولا شيء غير ذلك.

فردت الراهبة:

- يجب ألا تكون الحال هكذا. أنت يمكنك تغيير الأمور.

Twitter: @ketab_n

- أنا وحدي؟

- لست وحدك، هناك فتيات أخريات مثلك، لديهن شيء من العقل. لقد قرأت في جريدة بأن هناك الآن أطباء من النساء، تصوري.

- أين؟

- في إنكلترا.

- هذا بعيد جداً.

- صحيح، ولكن إذا استطعن فعل ذلك هناك، فسيكون من الممكن عمله يوماً في تشيلي. لا تيئسي يا نيفيا.

- كاهن الاعتراف يقول لي بأنني أفكر كثيراً وأصلي قليلاً يا أماه.

- الرب منحك عقلاً لتستخدميه؛ ولكنني أحذرك بأن طريق التمرد مزروع بالمخاطر والآلام، إنه يتطلب شجاعة كبيرة لاجتيازه. ولن يضر شيئاً الطلب من العناية الإلهية أن تساعدك قليلاً... - نصحتها الأخت ماريا إسكابولاريا.

وقد بلغ قرار نيفيا من الصرامة حداً دفعها إلى الكتابة في مذكراتها بأنها سترفض الزواج لكي تكرس نفسها كلياً للنضال من أجل حق النساء في التصويت. كانت تجهل أن مثل هذه التضحية لن تكون ضرورية، ذلك أنها ستتزوج عن حب من رجل يشاطرها أهدافها السياسية.

صعد سيفيرو إلى السفينة مبدياً مظهر الاستياء حتى لا ينتبه أقرباؤه إلى مدى سعادته بمغادرة تشيلي - كيلا يبدلوا رأيهم - وقرر أن يستخلص أكبر قدر ممكن من الفوائد من هذه المغامرة. ودع ابنة عمه نيفيا بقبلة مختلسة، بعد أن أقسم لها بأنه سيرسل إليها كتباً مهمة من خلال صديق له، من أجل تجنب الرقابة الأسرية، وأنه سيكتب إليها كل أسبوع. وقد رضخت هي لفراق يدوم سنة، دون أن يخامرها الشك بأنه قد وضع خططه للبقاء في الولايات المتحدة أطول مدة ممكنة. لم يشأ سيفيرو أن يزيد من مرارة الوداع بإطلاعها على نواياه، وقرر أن يخبرها بذلك في رسالة. ثم إنهما ما يزالان صغيرين على كل حال على الزواج.

Twitter: @ketab_n

رآها واقفة على رصيف الميناء في بالباريسو، محاطة ببقية أفراد الأسرة، بثوبها وقلنسوتها التي بلون الزيتون، تلوح له مودعة بيدها وتبتسم بمشقة. «إنها لا تبكي ولا تتذمر، ولهذا أُحبها وسأحبها إلى الأبد»، قال سيفيرو ذلك بصوت عالٍ في مواجهة الريح، مستعداً للتغلب على ضعف قلبه وعلى إغراءات الدنيا بقوة التصميم. «أيتها العذراء المقدسة، أعيديه إلي سليماً معافى»، تضرعت نيفيا بذلك وهي تعض شفتيها، وقد هزمها الحب، دون أن تتذكر أنها كانت قد أقسمت على البقاء عازبة حتى إنجاز واجبها بشأن الاقتراع العام.

راح الشاب دل بايي يتلمس رسالة جده أغوسطين منذ مغادرته بالباريسو وحتى وصوله إلى بنما، متلهفاً لفتحها، ولكن دون أن يتجرأ على ذلك، لأنهم رسّخوا في ذهنه بالدم والنار بأنه لا يمكن لأي رجل محترم أن يلقي نظرة إلى رسالة أو يمد يداً إلى مال يخص غيره. ولكن الفضول تغلب في النهاية على عزة النفس - فهي، كما فكر، رسالة تخص مصيره - فنزع بشفرة الحلاقة خاتم الشمع بكل حذر، ثم عرّض المغلف للبخار المتصاعد من إبريق شاي وفتحه متخذاً ألف احتياط. وهكذا اكتشف أن خطط جده تتضمن إرساله إلى مدرسة عسكرية أمريكية. فمن المؤسف، مثلما يضيف الجد، أن تشيلي ليست في حالة حرب مع أي بلد مجاور، لكي يتحول حفيده إلى رجل وهو يحمل السلاح، مثلما يتطلب ذلك. ألقى سيفيرو الرسالة إلى البحر وكتب أخرى ضمنها رغباته الخاصة، ووضعها في المغلف نفسه، ثم سكب شمعاً مذاباً على الخاتم المفتت. كانت عمته باولينا تنتظره في ميناء سان فرانسيسكو يرافقها خادمان اثنان وقهرمانها المختال ويليامز. كانت تزدان بقبعة هذيانية وعدة براقع تتطاير مع الريح، يمكن لها أن تحملها في الهواء، لولا ثقل وزنها الكبير. انفجرت في ضحك صاخب حين رأت ابن أخيها ينزل على سلم السفينة وهو يحمل تمثال المسيح بين ذراعيه، وقد ضمته بعد ذلك إلى صدرها الذي كصدر مغني سوبرانو، خانقة إياه في جبل ثدييها ورائحة

Twitter: @ketab_n

عطرها الياسميني. ثم قالت وهي تشير إلى تمثال المسيح:

- أول ما يتوجب عمله هو التخلص من هذا المسخ المريع. - وأضافت:- لا بد كذلك من شراء ملابس لك، فليس هناك من يمشي بهذا المظهر في هذه الأنحاء.

فأوضح سيفيرو بمذلة:

- هذه البدلة كانت لأبي.

- الأمر واضح، تبدو مثل موظف دفن موتى - علقت باولينا بذلك، ولكنها ما كادت تقوله حتى تذكرت بأن الفتى قد فقد أباه منذ وقت غير بعيد - أعذرني يا سيفيرو، لم أشأ إغضابك. لقد كان أبوك هو أخي المفضل، والوحيد في الأسرة الذي يمكن التكلم معه.

- لقد كيفوا بعض بدلاته على مقاسي، كيلا تذهب ضياعاً. - أوضح سيفيرو بصوت كسير.

- لقد بدأنا بداية سيئة. أيمكنك أن تسامحني على ما قلته؟

- لا بأس يا عمتي.

وفي أول فرصة أتيحت له، قدم لها الشاب رسالة الجد أغوسطين المزيفة. فألقت عليها نظرة شبه ساهية، وسألته:

- ما الذي تقوله الرسالة الأخرى؟

حاول سيفيرو، وقد توردت أذناه، أن ينكر ما فعله، ولكنها لم تتح له الوقت للتورط في الكذب:

- لو كنتُ مكانك لفعلت الشيء نفسه يا ابن أخي. أريد أن أعرف ما الذي تقوله رسالة أبي لكي أرد عليه، وليس لأنفذ ما يريده.

- يطلب فيها أن ترسليني إلى مدرسة عسكرية أو إلى الحرب، إذا كان ثمة حرب في هذه الأنحاء.

- لقد كانت هناك حرب، إلا أنك وصلت متأخراً. ولكنهم الآن يقترفون المجازر ضد الهنود الحمر، إذا كان ذلك يهمك. ولكن دفاع الهنود عن أنفسهم ليس سيئاً؛ لاحظ أنهم قد قتلوا للتو الجنرال كوستر وأكثر

Twitter: @ketab_n

من مئتي جندي من فرقة الخيالة السابعة في ويمنغ. وليس هناك كلام عن أي أمر آخر الآن. يقال إن هندياً يدعى «**مطر في الوجه**»، وانظر لهذا الاسم الشاعري، قد أقسم على الانتقام من أخ الجنرال كوستر، فانتزع في هذه المعركة قلبه وأكله. أما زلت راغباً في أن تصبح جندياً؟ – قالت باولينا دل بايي ذلك وهي تفلت ضحكة من بين أسنانها.

– لم أرغب في أن أكون عسكرياً في يوم من الأيام، وهذه ليست سوى أفكار جدي أغوسطين.

– تقول في الرسالة التي زورتها إنك تريد أن تكون محامياً، أرى أن النصيحة التي وجهتها إليك لم تسقط في الفراغ. هذا يروقني يا فتى. القوانين الأمريكية ليست مثل التشيلية، ولكن هذا ليس مهماً. ستكون محامياً. – وأضافت باولينا مؤكدة:– ستدخل متدرباً في أفضل مكتب محاماة في كاليفورنيا، فلا بد لنفوذي من أن ينفع في شيء ما.

فقال سيفيرو متأثراً:

– سأكون مديناً لك مدى الحياة يا عمتي.

– صحيح. وآمل ألا تنسى ذلك، فالحياة طويلة ولا يمكن معرفة متى سأحتاج إلى طلب مساعدتك.

– يمكنك الاعتماد عليّ يا عمتي.

في اليوم التالي ذهبت باولينا دل بايي مع سيفيرو إلى مكتب محامييها، وهم المحامون أنفسهم الذين عملوا في خدمتها طوال أكثر من خمس وعشرين سنة كسبوا خلالها عمولات هائلة، وأعلنت لهم دون مقدمات بأنها تأمل بأن ترى ابن أخيها يعمل معهم ابتداء من يوم الاثنين المقبل ليتعلم المهنة. لم يستطيعوا الرفض. رتبت العمة إقامة الشاب في بيتها، في غرفة مشمسة في الطابق الثاني، واشترت له حصاناً جيداً، وخصصت له مبلغاً شهرياً، وعينت له أستاذ لغة إنكليزية وبادرت إلى تقديمه في المجتمع، لأنه ليس هناك رأس مال أفضل من العلاقات حسب رأيها.

– انتظر منك أمرين اثنين، الأمانة وطيب المزاج.

Twitter: @ketab_n

- ألا تنتظرين مني أن أدرس أيضاً؟

- هذه مسألة تخصك أنت يا فتى. فما تفعله بحياتك لا يهمني في شيء.

ومع ذلك، فقد تأكد سيفيرو في الشهور التالية من أن باولينا تتابع عن كثب تقدمه في مكتب المحاماة، وتحصي صداقاته، وتحسب نفقاته، وتعرف خطواته حتى قبل أن يخطوها هو نفسه. ما الذي تفعله لتعرف كل ذلك، إنه سر غامض، اللهم إلا إذا كان ويليامز، القهرمان المتكتم، قد نظم شبكة عملاء لمراقبته. لقد كان الرجل يدير جيشاً من الخدم، يقومون بمهماتهم مثل ظلال صامتة، ويعيشون في بناء منفصل في أقصى حديقة البيت، وكان ممنوعاً عليهم التوجه بالكلام إلى سادة الأسرة، اللهم إلا عند استدعائهم. كما لا يمكنهم التحدث إلى القهرمان دون المرور بمدبرة المنزل. لقد تكلف سيفيرو جهداً في فهم هذه المراتبية، لأن الأمور في تشيلي كانت أبسط بكثير. فالسادة، بمن فيهم أكثرهم تسلطاً واستبداداً مثلما هو جده، يعاملون خدمهم بصرامة، ولكنهم يلبون حاجاتهم ويعتبرونهم جزءاً من الأسرة. ولم ير قط أنهم يطردون خادمة؛ فأؤلئك النسوة يدخلن للعمل في البيت وهن في سن المراهقة ويبقين فيه حتى مماتهن. لقد كان القصر في نوب هيل مختلفاً جداً عن البيوت التي كالأديرة حيث أمضى طفولته، فهي بيوت ذات جدران طينية سميكة، وأبواب حديدية كئيبة كأبواب السجون، وفيها القليل من الأثاث الملتصق بالجدران العارية. أما في بيت عمته باولينا فمن المستحيل وضع قائمة تحصي محتوياته، ابتداء من مقابض الأبواب ومفاتيح الحمامات المصنوعة من الفضة المصمتة، وحتى مجموعات التماثيل الخزفية، والعلب الروسية المطلية باللك، والعاج الصيني، وكل أنواع المقتنيات الفنية أو المرغوبة الشائعة. كان فيليثيانو دي سانتا كروث يشتري تلك الأشياء لإبهار الزائرين، ولكنه لم يكن فظاً مثل آخرين من أصدقائه البارزين الذين يقتنون الكتب لوزنها، واللوحات لألوانها، لكي تتناسب مع الآرائك. أما باولينا من جهتها فلم تكن تشعر بأي ميل نحو تلك الكنوز؛ فقطعة الأثاث الوحيدة التي أوصت عليها طوال حياتها هي سريرها، وقد فعلت

Twitter: @ketab_n

ذلك لأسباب لا علاقة لها بالمفاهيم الجمالية أو الأبهة. ما كان يهمها، بكل بساطة وصراحة، هو المال؛ وكان تحديها يتلخص في جمعه بمكر، ومراكمته بعناد، واستثماره بحكمة. لم تكن تولي اهتماماً للأشياء التي يقتنيها زوجها أو للمكان الذي يضعها فيه، وكانت النتيجة منزلاً عجيباً، يشعر ساكنوه بأنهم غرباء فيه. فلوحات الرسم هائلة، وأطرها ضخمة، وموضوعاتها حماسية - **الاسكندر الأكبر يغزو فارس** - ولكن كانت هناك أيضاً مئات اللوحات الصغيرة الموزعة على موضوعات متنوعة، تمنح الحجرات أسماءها: صالون الصيد، قاعة البحريات، صالة اللوحات المائية. وكانت الستائر من قطيفة سميكة ذات أهداب ثقيلة، والمرايا الفينيسية تعكس إلى ما لا نهاية أعمدة المرمر، وجرار سيفريس العالية، وتماثيل البرونز، والآنية المترعة بالزهور والثمار. وكان هناك قاعتا موسيقى مجهزتين بآلات موسيقية إيطالية فاخرة، مع أن أحداً في الأسرة لم يكن قادراً على العزف عليها، وباولينا تصاب بوجع رأس من سماع الموسيقى، كما كانت هناك مكتبة من طابقين. وكانت في كل زاوية مباصق من الفضة مزينة بالحروف الأولى لاسم صاحب البيت من الذهب، ففي تلك المدينة الحدودية كان من المقبول تماماً إطلاق البصاق في الأماكن العامة.وكانت حجرة فيليثيانو في الجناح الشرقي من البيت وحجرة زوجته في أقصى الجهة الأخرى، ولكن من الطابق نفسه. وبين المكانين، المتصلين بممر فسيح، تصطف حجرات الأبناء والضيوف، وكلها خاوية باستثناء حجرة سيفيرو وحجرة أخرى يشغلها ماتياس، الابن الأكبر، والوحيد الذي ما زال يعيش في البيت. وسيفيرو المعتاد على الضنك والبرد الذي يعتبرونه في تشيلي مفيداً للصحة، احتاج لعدة أسابيع كي يعتاد على العناق الضاغط للفراش وعلى وسائد الريش، وعلى صيف المدافئ الأبدي، والمفاجأة اليومية في فتح صنبور الحمام وتلقي دفقة ماء ساخنة. لقد كانت المراحيض في بيت جده أكواخاً كريهة الرائحة في أقصى الفناء، وكان الصباح يطلع في أيام الشتاء على ماء الاغتسال متجمداً في الطسوت.

Twitter: @ketab_n

كانت ساعة القيلولة تفاجئ ابن الأخ الشاب والعمة الفريدة في فراشها الأسطوري، هي ما بين الملاءات مع دفاتر حساباتها في جانب وحلوياتها في الجانب الآخر، وهو جالس عند قدميها ما بين نقش الحورية والدلفين، يناقشان شؤوناً عائلية وتجارية. لم تكن باولينا تسمح لنفسها بمثل هذه الدرجة من الحميمية إلا مع سيفيرو، وقلة قليلة هم الذين يستطيعون الدخول إلى حجراتها الخاصة، ولكنها كانت تشعر معه بأنها على ما يرام وهي بقميص النوم. لقد كان ابن الأخ هذا يوفر لها الرضا الذي لم يوفره لها أبناؤها قط. فالابنان الأصغران يعيشان حياة الورثة، متمتعين بوظيفتين رمزيتين في إدارة شركات الأسرة، أحداهما في لندن والأخرى في بوسطن. أما ماتياس، الابن البكر، فكان مقدراً له أن يترأس سلالة آل رودريغيث دي سانتا كروث وآل دل بايي، ولكنه لا يتمتع بأدنى ميل إلى ذلك؛ فبعيداً عن السير على خطى والديه المجدين، والاهتمام بشركاتهما وإنجاب أبناء ذكور لإبقاء الكنية حية، جعل من مذهب اللذة والعزوبية شكلاً فنياً. «إنه ليس أكثر من أبله حسن الملبس»، هكذا قالت عنه أمه يوماً أمام سيفيرو، ولكنها حين تأكدت من حسن العلاقة بين ابنها وابن أخيها، حاولت جاهدة أن تسهل هذه الصداقة الوليدة. فكان ماتياس يقول ساخراً: «أمي لا تغرز غرزة دون خيط. لا بد أنها تخطط لجعلك تنقذني من حياة التهتك». ولم يكن سيفيرو يرغب في أن يلقي على كاهله مهمة تبديل ابن عمته، بل على العكس من ذلك، كان يرغب في أن يتشبه به، فهو يشعر بأنه متيبس ومأتمي بالمقارنة معه. لقد كان كل ما في ماتياس يذهله، أسلوبه المتقن، وسخريته القارسة، والخفة التي ينفق بها المال دون أي اعتبار.

وقد أعلنت باولينا لابن أخيها، بعد شهور قليلة من قدومه:

- أرغب في أن تتآلف مع أعمالي التجارية. فهذا المجتمع مادي ومبتذل، مع احترام ضئيل جداً للنساء. لا نفع هنا إلا للثروة والعلاقات، ولهذا أحتاج إليك: ستكون عيني وأذني.

- لستُ أفهم شيئاً في الأعمال التجارية.

Twitter: @ketab_n

- أمـا أنـا فأفـهم. لا أطلـب منـك أن تفكـر، فـهذا سـيكون مـن اختصاصي. أنت تصمت، تراقب، تسمع، ثم تخبرني. وبعد ذلك تفعل ما أطلبه منك دون أن توجه الكثير من الأسئلة، هل نحن متفقان؟

فرد عليها سيفيرو بوقار:

- لا تطلبي مني حياكة الدسائس يا عمتي.

- أظن أنك قد سمعت بعض الأقاويل عني... انظر يـا بنـي، لقـد ابتدع الأقوياء القوانين لكي يسيطروا على الضعفاء، لأن هؤلاء أكثر عدداً بكثير. وأنـا لسـت مضطـرة إلـى احتـرام تلـك القوانـين. إننـي بحاجـة إلـى محامٍ أثق به ثقة مطلقة لكي أفعل ما أشتهي دون أن أتورط فـي مشاكل.

فنبهها سيفيرو:

- آمل أن يكون ذلك بطرق شريفة...

- آه أيها الصغير! لن نصل على هـذه الحـال إلـى أي شـيء. سـيكون شرفك مصاناً طالما أنت لا تبالغ في ذلك.

هكذا عقدا تحالفاً متيناً كمتانة روابـط الـدم التـي تجمـع بينـهما. وباولينا التي احتضنته دون أن تعقد عليه آمالاً كبيرة، مقتنعة بأنه شخص تافه، وأن هـذا هـو السـبب الوحيـد الـذي دفعهم إلـى إرسـاله مـن تشـيلي، فوجئت مفاجأة سارة بابن الأخ الذكي هـذا، وذي المشـاعر النبيلـة. وخـلال سنوات قليلة تعلم سيفيرو تكلم الإنكليزيـة بطلاقـة لـم يتوصـل إليها أحد من أسرته، وتمكن من التعرف على شركات عمته مثلما يعـرف راحـة يده، واجتاز أراضي الولايات المتحدة من أقصاها إلـى أقصاهـا بالقطار مرتين - تعرض فـي إحداهما إلـى هجـوم قطـاع طـرق مكسـيكيين - بل إنـه وجـد متسعاً من الوقت للتحول إلـى محـامٍ. وقـد بقـي مرتبطاً بابنـة عمـه نيفيا بمراسـلات أسبوعية، وكـانت هـي قـد أخـذت، مـع مـرور السـنوات، تعتـبر نفسـها مثقفـة أكثر منها رومنطيقيـة. فكـانت تحدثـه عـن أوضـاع الأسـرة وعـن السياسـة التشـيلية؛ بينمـا يشـتري لـها هـو الكتـب ويقـص مقـالات الصحف حول التقدم الذي تحرزه الداعيات إلى حق المرأة فـي التصويت فـي أوروبا والولايـات المتحدة. وقد احتفل كلاهمـا عـن بعد بخبر تقديم

Twitter: @ketab_n

توصية للكونغرس الأمريكي بالسماح للنساء بالتصويت، مع أنهما كانا متفقين على أن تصور حدوث شيء مماثل في تشيلي هو ضرب من الخبل. «ما الذي أجنيه من كل هذه الدراسة والقراءة يا ابن عمي، طالما ليس هناك مجال للعمل في حياة المرأة؟ أمي تقول إنه سيكون من المستحيل أن أتزوج لأنني أنفر الرجال، وإنه يجب علي أن أتجمل وأطبق فمي إذا كنت أرغب في الحصول على زوج. وأسرتي تصفق لأدنى قدر من المعرفة يبديه اخوتي - وأقول أدنى قدر لأنك تعرف مدى غبائهم- ولكن صدور الشيء نفسه عني يعتبرونه تبجحاً. الوحيد الذي يتسامح معي هو الخال خوسيه فرانثيسكو، لأنني أتيح له فرصة التحدث في العلم، والفلك، والسياسة، وهي موضوعات يحب الخوض فيها مطولاً، مع أن آرائي لا تهمه في شيء. لا يمكنك أن تتصور كم أحسد الرجال من أمثالك، ممن يشكل العالم بأسره مسرحاً لهم»، هكذا كانت الشابة تكتب. ولم يكن الحب يشغل أكثر من سطرين في رسائل نيفيا، وكلمتين في رسائل سيفيرو، كما لو أن هناك اتفاقاً ضمنياً بينهما بنسيان مداعباتهما الزخمة والمتعجلة في الزوايا. كانت نيفيا ترسل إليه مرتين في السنة صورة جديدة لها، لكي يرى كيف تتحول إلى امرأة. أما هو فيعدها بإرسال صورة له، وينسى ذلك دوماً، مثلما كان ينسى كذلك أن يقول لها إنه لن يرجع إلى البيت أيضاً في عيد الميلاد لهذه السنة. لقد كانت فتاة أخرى متعجلة للزواج أكثر من نيفيا قد شحذت مجساتها لتجد عريساً أقل تفلتاً، أما هي فلم يكن يخامرها الشك مطلقاً في أن سيفيرو دل بايي سيكون زوجاً لها. وكان يقينها هذا راسخاً لدرجة أن ذلك الفراق الذي امتد لسنوات لم يكن يثير قلقها كثيراً؛ وكانت مستعدة للانتظار حتى نهاية الأزمنة. أما سيفيرو من جانبه فكان يحتفظ بذكرى ابنة عمه كرمز لكل ما هو طيب ونبيل ونقي.

يمكن لمظهر ماتياس أن يبرر رأي أمه فيه بأنه ليس إلا أبله حسن الملبس، ولكنه لم يكن أبله بأي حال. لقد زار كل المتاحف المهمة في أوروبا،

Twitter: @ketab_n

وكان عارفاً بالفن، ويمكنه أن يتلو أشعاراً لكل الشعراء الكلاسيكيين، وهو الوحيد الذي كان يستخدم المكتبة البيتية. وكان ينمي أسلوبه الخاص في الحياة، خليط من البوهيمي والمتأنق؛ من الأول أخذ عادة الحياة الليلية ومن الثاني نزوة التدقيق في تفاصيل ملبسه. وكان يُعتبر أفضل عريس مرشح في سان فرانسيسكو، ولكنه كان يعلن أنه اختار العزوبية بصورة نهائية؛ فهو يفضل أي حوار تافه مع أسوأ أعدائه، على موعد مع أكثر محباته جاذبية. وكان يرى أن التناسل هو الشيء الوحيد الذي يمكن عمله بالاشتراك مع النساء، وهو هدف سخيف بحد ذاته، على حد قوله. وعندما تُثقل عليه غريزته الطبيعية، يفضل واحدة من المحترفات الكثيرات اللواتي في متناول اليد. ولم يكن قادراً على تصور سهرة مع الرجال لا تنتهي بتناول البراندي في البار وزيارة أحد المواخير؛ فهناك في البلاد أكثر من ربع مليون مومس، نسبة كبيرة منهن يكسبن عيشهن في سان فرانسيسكو، ابتداء من «فتيات سينغ-سونغ» البائسات، وحتى آنسات ولايات الجنوب المرهفات اللواتي دفعتهن الحرب الأهلية إلى حياة الفجور. وكان الشاب الوارث قليل التسامح مع الضعف النسائي، ويفاخر بصبره حيال تفاهات أصدقائه البوهيميين؛ وكانت تلك واحدة أخرى من مظاهر تفرده، مثل ميله إلى السجائر الرفيعة السوداء التي يوصي عليها من مصر، وإلى الجرائم الأدبية والواقعية. كان يعيش في قصر نوب هيل الأبوي ويملك شقة فاخرة في مركز المدينة، لها عليّة فسيحة، يسميها المرسم، حيث كان يرسم بين حين وآخر، ويقيم حفلات في معظم الأحيان. وكان يختلط بعالم البوهيميين، وهم بعض البائسين الغارقين في فقر مدقع ولا خلاص منه، شعراء، صحفيون، مصورون، كتاب وفنانون مبتدئون، ورجال بلا عائلات يقضون حياتهم نصف مرضى، يسعلون ويناقشون، يعيشون بالدين ولا يستخدمون الساعات، لأن الزمن لم يُخترع من أجلهم. وهم يسخرون من وراء ظهر الأرستقراطي التشيلي من ملابسه وأخلاقه، ولكنهم يتسامحون معه لأنهم يستطيعون اللجوء إليه دائماً للحصول على بعض الدولارات، أو على جرعة ويسكي، أو على مكان في العلية حيث يمكنهم قضاء ليلة ضبابية.

Twitter: @ketab_n

- هل لاحظت أن لماتياس عادات المخنثين؟ قالت باولينا لزوجها.

فرد فيليثيانو:

- كيف يمكنك قول مثل هذه الفظاعة عن ابنك! لم يكن هناك قط مثل هؤلاء في أسرتي أو في أسرتك!

فاستهزأت باولينا:

- أتعرف رجلاً طبيعياً يلائم ما بين لون شال عنقه ولون الجدران؟

- حسن، يا للعنة! أنت أمه ومن واجبك أن تبحثي له عن عروس! لقد صار هذا الفتى في الثلاثين وما يزال عازباً. من الأفضل أن تجدي له واحدة بأسرع ما يمكن، قبل أن يتحول إلى مدمن كحول، أو مسلول أو ما هو أسوأ من ذلك - نبهها فيليثيانو، دون أن يدري أن الوقت قد فات لمثل وسائل الإنقاذ الفاترة تلك.

في واحدة من تلك الليالي ذات الرياح الجليدية الخاصة بصيف سان فرانسيسكو، طرق ويليامز، القهرمان ذو السترة الطويلة، باب غرفة سيفيرو دل بايي.

- اعذرني لإزعاجك يا سيدي - دمدم وهو يطلق سعلة رصينة، ويدخل حاملاً شمعداناً ذا ثلاث شمعات في يده المغطاة بالقفاز.

- ما الذي جرى يا ويليامز؟ - سأله سيفيرو مذعوراً، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يوقظه فيها أحد من نومه في ذلك البيت.

- أخشى أن هناك طارئاً صغيراً. الأمر يتعلق بالسيد ماتياس - قال ويليامز بذلك الاحترام البريطاني، غير المعروف في كاليفورنيا، والذي يبدو أن له رنة سخرية أكثر مما هو احترام.

أوضح أنه في هذه الساعة المتأخرة من الليل وصلت إلى البيت رسالة من سيدة ذات شهرة مريبة، تدعى آماندا لويل، اعتاد السيد الصغير على التردد عليها، أناس من «أجواء أخرى» مثلما قال. قرأ سيفيرو الملاحظة على ضوء الشموع: كانت ثلاثة سطور تطلب المساعدة الفورية لماتياس.

Twitter: @ketab_n

- علينا أن نخبر عميّ، يمكن أن يكون ماتياس قد تعرض لحادث - قال سيفيرو مذعوراً.

- انتبه إلى العنوان يا سيدي، إنه في وسط الحي الصيني. يخيل إلي أنه من الأفضل عدم إطلاع السيدين على هذا الأمر - أبدى القهرمان رأيه.

- كنتُ أظن أنك لا تخفي أسراراً عن عمتي باولينا.

- إنني أحاول أن أجنبها الازعاج يا سيدي.

- وماذا تقترح أن نفعل؟

- إذا لم يكن ما أطلبه كثيراً، فأرجو منك أن ترتدي ثيابك، وتأخذ سلاحك وترافقني.

كان ويليامز قد أيقظ أحد سائسي الاسطبل لكي يجهز إحدى العربات، ولكنه رغب في إبقاء المسألة ضمن أضيق الحدود، فأمسك الأعنة بنفسه وتوجه دون تردد في الشوارع المظلمة والمقفرة باتجاه الحي الصيني، تقوده غريزة الجياد، لأن الريح كانت تطفئ مصابيح العربة في كل لحظة. وقد راود سيفيرو إحساس بأن تلك لم تكن المرة الأولى التي يجوب فيها الرجل تلك الأزقة. وسرعان ما ترجلا من العربة وتوغلا مشياً على الأقدام عبر ممر يؤدي إلى فناء مظلم، حيث تخيم رائحة غريبة وحلوة، أشبه برائحة جوز مقلي. لم يكن هناك أي نفس، لا شيء سوى صوت الريح والضوء الوحيد المتسرب من بين شقوق نافذتين على مستوى الشارع. أشعل ويليامز عود ثقاب، وقرأ مرة أخرى العنوان من الورقة ودفع دون تكلف أحد الأبواب المطلة على الفناء. ولحق به سيفيرو وهو يضع يده على السلاح. دخلا حجرة صغيرة، دون تهوية، ولكنها نظيفة ومرتبة، حيث لا يكاد التنفس يكون ممكناً بفعل عبق الأفيون الكثيف. وحول طاولة في الوسط، كانت هناك مقصورات خشبية، مصفوفة إلى جانب الجدران، بعضها فوق بعض مثل أسرة سفينة، مفروشة بحصر، وفيها قطعة خشبية مقعرة على شكل وسادة. وكان يشغلها صينيون، وهناك اثنان في كل مقصورة أحياناً، متكئين على جنبيهما قبالة صوانٍ صغيرة تضم كل واحدة

Twitter: @ketab_n

منها علبة فيها عجينة سوداء وشعلة لهب صغيرة. كان الليل قد تقدم كثيراً والمخدر قد فعل فعله في معظمهم؛ فكان الرجال يرقدون مخدرين، سادرين في أحلامهم، ولم يكن هناك سوى اثنين أو ثلاثة ما تزال لديهم قوة لغمس قضبان معدنية في الأفيون، وتسخينها على اللهب، وحشو كُشتبان الغليون الصغير بها، وأخذ أنفاس عبر أنبوب من البامبو.

- رباه! - دمدم سيفيرو الذي كان قد سمع عن ذلك، ولكنه لم يكن قد رآه عن قرب.

فرد عليه ويليامز:

- هذا أفضل من الخمر، إذا كنت تسمح لي بذلك. فهو لا يقود إلى العنف ولا يسبب الأذى للغير، وإنما يؤذي مدخنه وحسب. لاحظ كم هو هادئ ونظيف هذا المكان بالمقارنة مع أي بار للشراب.

خرج لهما صيني مسن يعرج، مرتدياً ثوباً طويلاً وسروالاً واسعاً من القطن. عيناه الصغيرتان الحمراوان لا تكادان تظهران بين تجاعيد وجهه العميقة، وله شارب ذاوٍ ورمادي، مثل الجديلة النحيلة التي تتدلى على ظهره، وكل أظفاره، باستثناء الإبهام والسبابة، طويلة وملتفة على نفسها مثل أذيالٍ رخويةٍ قديمة، ويبدو فمه كثقب أسود، وأسنانه القليلة المتبقية مصبوغة بسواد التبغ والأفيون. توجه ذلك الجد الأعرج نحو القادمين الجديدين باللغة الصينية، وأمام ذهول سيفيرو، ردّ عليه القهرمان الإنكليزي بنباحين من اللغة نفسها. ثم ساد صمت طويل لم يتحرك أحد خلاله. أبقى الصيني نظره مسلطاً على ويليامز، كما لو أنه يدرسه، ثم مد يده أخيراً، فوضع فيها الآخر عدة دولارات خبأها العجوز في صدره تحت الثوب، ثم تناول بعد ذلك عقب شمعة وأشار إليهما بأن يتبعاه. انتقلوا إلى صالة ثانية، ثم ثالثة ورابعة، وكلها شبيهة بالأولى، ثم ساروا عبر ممر متعرج، ونزلوا درجاً قصيراً ليجدوا أنفسهم في ممر آخر. أومأ لهما دليلهما بأن ينتظرا واختفى لبضع دقائق، بدت لهما لانهائية. كان سيفيرو يتعرق وهو ما يزال يضع يده على زناد سلاحه المهيأ، متأهباً ودون أن ينطق بنصف كلمة. وأخيراً رجع الجد الصيني واقتادهما عبر متاهة إلى

Twitter: @ketab_n

أن وصل أمام باب مغلق، بقي العجوز يتأمله باهتمام عبثي، كمن يحاول حل رموز خريطة، إلى أن أعطاه ويليامز دولارين آخرين، عندئذ فتح الباب. دخلا إلى حجرة أصغر من الحجرات السابقة، وأشد ظلمة، وأكثر امتلاء بالدخان والجو الضاغط، لأنها تحت مستوى الشارع وتفتقر إلى التهوية، ولكنها فيما عدا ذلك مشابهة للأخريات. كان هناك على الأسرة الخشبية خمسة أمريكيين بيض، أربعة رجال وامرأة ناضجة، ولكنها ما تزال باهرة الجمال، لها شلال شعر أحمر مبعثر حولها مثل طرحة فضائحية. وبالنظر إلى ملابسهم الفاخرة، كان يبدو أنهم من الناس المترفين والقادرين على الدفع. وجميعهم كانوا في الحالة نفسها من الخدر السعيد، باستثناء واحد مستلق على ظهره ويكاد لا يستطيع التنفس، قميصه ممزق، وذراعاه مفتوحان كصليب، وبشرته بلون الطباشير وعيناه مقلوبتان إلى أعلى. كان ذاك هو ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث.

- هيا يا سيدي، ساعدني - أمر ويليامز سيفيرو دل بايي.

رفعاه فيما بينهما بصعوبة، وضع كل منهما أحد ذراعي الرجل فاقد الوعي على كتفه وحملاه، كمصلوب، رأسه متدل، وجسده مترهل، وقدماه تتجرجران على الأرضية الترابية المدحاة. عادوا إلى قطع الطريق الطويل عبر الممرات الضيقة، واجتازوا الحجرات الخانقة واحدة فواحدة، إلى أن وجدوا أنفسهم فجأة في الهواء الطلق، في نقاء الليل الفظيع، حيث يمكنهم التنفس بعمق، متلهفين، دائخين. وضعا ماتياس كيفما استطاعا في العربة وقادها ويليامز إلى شقة ماتياس التي كان سيفيرو يعتقد أن موظف عمته يجهل أمر وجودها. وكانت دهشته أعظم عندما أخرج ويليامز مفتاحاً، وفتح بوابة البناء ثم أخرج مفتاحاً آخر ليفتح باب العلية.

- ليست هذه هي المرة الأولى التي تنقذ فيها ابن عمتي، أليس كذلك يا ويليامز؟

فرد عليه:

- فلنقل إنها لن تكون الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

وضعا ماتياس فوق السرير الموجود في أحد الأركان، وراء حاجز باراڤان ياباني، وبادر سيفيرو إلى تضميخه بكمادات مبللة، وهزه ليعود من السماء التي يهيم فيها، بينما ذهب ويليامز بحثاً عن طبيب الأسرة، بعد أن نبه سيفيرو إلى أنه سيكون من غير المناسب كذلك إخبار العمين بما حدث.

فهتف سيفيرو وهو ما يزال يرتجف:

- يمكن لابن عمتي أن يموت!

فتنازل ويليامز بلباقة:

- في هذه الحالة سيكون علينا إخبار السيدين.

بقي ماتياس خمسة أيام يجاهد في تشنجات احتضار، مسمماً حتى النخاع. جاء ويليامز بممرض إلى العلية ليعتني به ورتب الأمر بحيث لا يؤدي غيابه عن البيت إلى إثارة الشكوك. لقد ولّد ذلك الحادث رابطة غريبة ما بين سيفيرو وويليامز، نوعاً من التواطؤ الضمني الذي لا يمكن ترجمته مطلقاً في إيماءات أو كلمات. ولو أن الأمر جرى مع شخص آخر، أقل تحفظاً من القهرمان، لظن سيفيرو بأنهما يتبادلان نوعاً من الصداقة، أو أن بينهما تعاطف ما على الأقل، أما هذا الإنكليزي فكانت تعلو من حوله أسوار من التحفظ لا يمكن النفاذ منها. بدأ بمراقبته. إنه يعامل الموظفين الذين تحت أمرته بالتهذب البارد والدقيق نفسه الذي يتوجه به إلى أسياده، وبهذا يتمكن من إخافتهم. لا شيء يفلت من مراقبته، حتى ولا بريق أدوات المائدة الفضية، أو أسرار كل واحد من ساكني البيت الهائل. وكان من المستحيل تقدير عمره أو أصله، فهو يبدو متوقفاً عند الأربعين من عمره، وباستثناء لكنته البريطانية، لم تكن هناك أي مؤشرات تدل على ماضيه. وهو يبدل قفازاته البيضاء ثلاثين مرة في اليوم، وبدلته التي من الجوخ الأسود تبدو دوماً وكأنها مكوية للتو، وقميصه الأبيض المصنوع من أفضل أنواع الكتان الهولندي منشى كأنه الكرتون، وحذاؤه يلمع مثل مرآة. وهو يمص أقراص نعناع لتعطير أنفاسه، ويستخدم ماء الكولونيا، ولكنه يفعل ذلك بتكتم شديد، فالمرة الوحيدة

Twitter: @ketab_n

التي شم فيها سيفيرو رائحة النعناع والخزامى كانت عندما تلامسا وهما يحملان ماتياس الغائب عن الوعي في مدخنة الأفيون. وفي تلك المناسبة أيضاً انتبه إلى عضلاته الصلبة كالخشب تحت سترته، وإلى عروق رقبته المشدودة، وإلى قوته ومرونته، ولم يكن أي شيء من ذلك كله يتناسب مع سلوك اللورد الإنكليزي المفلس الذي يسلكه ذلك الرجل.

الشي المشترك الوحيد بين سيفيرو وابن عمته ماتياس هو تقاطيعهما النبيلة وحبهما للرياضة والأدب، أما في ما عدا ذلك فلا يبدو عليهما أنهما من السلالة نفسها؛ فبينما الأول شديد اللباقة، مقدام، وساذج، كان الثاني صفيقاً، خاملاً، ومتهتكاً، ولكنهما تصادقا على الرغم من تناقض طباعهما وفارق السن بينهما. بذل ماتياس جهده في تعليم سيفيرو المبارزة، رغم افتقاره إلى الأناقة والخفة الضرورية لهذا الفن، وإطلاعه على ملذات سان فرانسيسكو، ولكن الشاب تكشف عن زميل سيئ في المجون لأنه ينام واقفاً؛ فهو يقضي أربع عشرة ساعة من العمل في مكتب المحاماة ويستغل الوقت المتبقي في القراءة والدراسة. كان من عادتهما السباحة عاريين في مسبح البيت، والتباري في مصارعة. كانا يدوران أحدهما حول الآخر، مترصدين، ومتأهبين للهجمة، ثم يلتحمان أخيراً، وينقلبان متشابكين معاً، ويتقلبان إلى أن يتمكن أحدهما من إخضاع الآخر، بتثبيته إلى الأرض. فكانا يتضمخان بالعرق، ويلهثان مهتاجين. يتفادى سيفيرو دفعة، مضطرباً، كما لو أن اللكمة لم تكن سوى عناق محظور. يتكلمان عن الكتب ويناقشان أعمال المؤلفين الكلاسيكيين. وكان ماتياس يحب الشعر، وحين يكونان وحيدين يلقي من الذاكرة، متأثراً جداً بجمال الأشعار التي تسكب دموعاً على خديه. وكان سيفيرو يرتبك أيضاً في تلك المناسبات، لأن زخم انفعال الآخر يبدو له شكلاً من الحميمية المحرمة بين الرجال. كان يعيش متابعاً تقدم الانجازات العلمية والرحلات الاستكشافية، ويناقشها مع ماتياس في محاولة غير مجدية لإثارة اهتمامه، ولكن الأخبار الوحيدة التي كانت تتمكن من ثلم درع

Twitter: @ketab_n

لامبالاة ابن عمته هي أخبار الجرائم المحلية. لقد كان ماتياس يقيم علاقة غريبة، تستند إلى ليترات من الويسكي، مع جاكوب فريمونت، وهو صحفي قديم بلا وازع، تنقصه النقود دوماً، ويتقاسم وإياه الافتتان المرضي بالجريمة. وكان فريمونت ما يزال قادراً على نشر تحقيقات صحفية في الصحف، ولكنه فقد سمعته منذ سنوات طويلة، عندما اختلق قصة خواكين موريتا، قاطع الطريق المكسيكي المزعوم في أزمنة حمى الذهب. لقد خلقت مقالاته شخصية أسطورية، استثارت عداء السكان البيض ضد الهيسبانيين. ومن أجل تهدئة الخواطر، عرضت السلطات مكافأة لكابتن يدعى هاري لوف من أجل اصطياد موريتا. وبعد ثلاثة شهور، جاب خلالها كاليفورنيا بحثاً عنه، اختار الكابتن حلاً سهلاً وسريعاً: فقد قتل سبعة مكسيكيين في كمين ورجع برأسٍ ويد. لم يتمكن أحد من التعرف على تلك الأشلاء، ولكن مأثرة لوف هدأت البيض. وكانت تلك الغنيمة الحربية المشؤومة ما تزال معروضة في متحف، على الرغم من القناعة بأن خواكين موريتا لم يكن سوى اختلاقاً شيطانياً من قبل الصحافة عامة وجاكوب فريمونت بصورة خاصة. في هذا الحدث وغيره من الأحداث التي شوش فيها القلم المخادع الواقع، أحرز الصحفي في نهاية المطاف السمعة التي يستحقها بأنه كاذب وأُغلقت الأبواب في وجهه. وبفضل علاقته الغريبة مع فريمونت، صحفي الجرائم، كان ماتياس يتمكن من رؤية الضحايا المقتولين قبل أن ترفع جثثهم من موقع الجريمة، وحضور عمليات التشريح في مستودع الجثث، وهي مشاهد كانت تقرف حساسيته وتستثيرها في الوقت نفسه. فكان يخرج من عالم الجرائم السفلي ذاك مخموراً بالرعب، ويذهب مباشرة إلى الحمام التركي، حيث يقضي ساعات وهو يتعرق رائحة الموت الملتصقة بجلده، ثم يحبس نفسه بعد ذلك في مرسمه الخاص ليرسم مشاهد مريعة لأناس مقطعي الأوصال بالسكين.

- ما الذي يعنيه كل هذا؟ - سأله سيفيرو في المرة الأولى التي رأى فيها تلك اللوحات الدانتية.

- ألا تفتنك فكرة الموت؟ القتل مغامرة فظيعة والانتحار هو حلّ

Twitter: @ketab_n

عملي. وأنا ألعب بفكرتيهما معاً. هناك أشخاص يستحقون القتل، ألا ترى ذلك؟ أما بالنسبة لي، فأنا يا ابن خالي لا أفكر بأن أموت هرماً، إنني أفضل أن أضع حداً لحياتي بالدقة نفسها التي أنتقي بها بدلاتي، ولهذا أدرس الجرائم، لكي أتدرب.

فقال سيفيرو:

- إنك معتوه، إضافة إلى أنك بلا موهبة.

- لا يحتاج المرء إلى موهبة ليكون فناناً، إنه بحاجة إلى الجرأة فقط. هل سمعت شيئاً عن الانطباعيين؟

- لا، ولكن إذا كان هذا هو ما يرسمه أولئك التعساء، فإنهم لن يصلوا بعيداً. ألا يمكنك أن تجد موضوعاً أكثر تشويقاً؟ فتاة جميلة مثلاً؟

انفجر ماتياس ضاحكاً وأخبره بأنه ستكون هناك فتاة جميلة حقاً في مرسمه يوم الأربعاء، وأضاف: إنها أجمل فتاة في سان فرانسيسكو، حسب المبايعة الشعبية. إنها فتاة موديل يتنازع عليها أصدقاؤه ليخلدوها في الصلصال، أو في لوحات، أو صور فوتوغرافية، يراودهم أمل إضافي بممارسة الحب معها. وهم يتبادلون المراهنات حول من سيكون الأول، ولكن أياً منهم لم يتوصل حتى الآن إلى لمس يدها.

- إنها تعاني من تشوه بغيض: الفضيلة. فهي العذراء الوحيدة المتبقية في كاليفورنيا، مع أن هذا الأمر سهل العلاج. أتحب أن تتعرف عليها؟

وهكذا عاد سيفيرو دل بايي لرؤية لين سوميرز. وكان يقتصر حتى ذلك اليوم على شراء بطاقات بريدية تحمل صورتها من الدكاكين التي يرتادها السياح، وكان يفعل ذلك سراً، ويخبئ الصور ما بين صفحات كتب القانون، وكأنها كنز مخجل. لقد تجول مرات كثيرة في شارع صالة الشاي في ساحة الاتحاد لكي يراها من بعيد، وقام باستقصاءات متكتمة، من خلال الحوذي الذي كان يذهب يومياً لإحضار الحلوى لعمته باولينا، ولكنه لم يتجرأ قط على المثول بصورة محترمة أمام إلزا سوميرز ليطلب منها الإذن بزيارة ابنتها. فأي تصرف مباشر كان يبدو له خيانة لا

Twitter: @ketab_n

تغتفر لنيفيا، خطيبته الرقيقة مدى الحياة؛ ولكن اللقاء مع لين مصادفة سيكون شيئاً آخر، هكذا قرر، لأن الأمر في هذه الحالة لعبة قذرة من ألعاب القدر، ولن يكون بإمكان أحد أن يؤنبه على ذلك. ولم يكن قد خطر له أنه سيراها في شقة ابن عمته ماتياس، في ظروف بتلك الغرابة.

لقد كانت لين سوميرز هي النتاج المحظوظ لأعراق متقاطعة. كان من المقرر تسميتها لين تشين، ولكن أبويها قررا إضفاء نبرة إنكليزية على أسماء أبنائهما وإعطائهم كنية الأم، سوميرز، من أجل تسهيل أمور حياتهم في الولايات المتحدة، حيث تجري معاملة الصينيين كالكلاب. أسموا الابن الأكبر إيبانزر، تكريما لصديق قديم للأب، ولكنهم كانوا ينادونه «لاكي» - محظوظ - لأنه كان الوليد الأوفر حظاً في تشاينا تاون. أما الابنة الصغرى، التي ولدت بعد ذلك بست سنوات، فأسموها لين LIN، تكريماً لزوجة أبيها الأولى، المدفونة في هونغ كونغ، منذ سنوات طويلة، ولكنهم لدى تسجيلها منحوا الاسم كتابة إنكليزية: LYNN. لقد كانت زوجة تاو تشين الأولى التي ارتبط اسمها بالطفلة، مخلوقة شديدة الهشاشة، ذات قدمين دقيقتين مضمدتين، محبوبة من زوجها إلى حد العبادة، قضى عليها المرض وهي في أوج شبابها. تعلمت إلزا سوميرز التعايش مع ذكرى لين المكابرة وانتهى بها الأمر إلى اعتبارها عضواً آخر في الأسرة، ونوعاً من الحامية غير المرئية التي تسهر على راحة البيت. قبل عشرين سنة من ذلك، عندما اكتشفت أنها حبلى مرة أخرى، توسلت إلى لين أن تساعدها في الوصول بحملها حتى نهايته، لأنها كانت قد عانت عدة إجهاضات ولم تكن هناك آمال كبيرة بأن تتحمل طبيعتها المستنفدة بقاء الجنين. هذا ما أوضحه لها تاو تشين الذي كان يضع في كل مرة تحت تصرف زوجته إمكانياته كجونغ يي، فضلاً عن أخذها إلى أفضل اختصاصيي الطب الغربي في كاليفورنيا.

فأكدت له إلزا:

- في هذه المرة سأتمكن من إنجاب طفلة سليمة.

Twitter: @ketab_n

- وكيف تعرفين ذلك؟ - سألها زوجها.

- لأنني طلبته من لين.

وكانت إلزا موقنة طوال الوقت بأن الزوجة الأولى قد ساندتها خلال شهور الحمل، ومنحتها القوة لإخراج ابنتها إلى النور، وأنها انحنت بعد ذلك على المهد، مثل حورية، لتقدم للصغيرة هبة الجمال. «سنسميها لين»، أعلنت الأم المنهوكة عندما وضعوا ابنتها بين ذراعيها أخيراً؛ ولكن تاو تشين ارتعب: ليس مناسباً تسميتها باسم امرأة ماتت وهي في ريعان الشباب. واتفقوا أخيراً على تبديل كتابة الاسم حتى لا تكون سيئة الطالع، وقالت إلزا: «إنه يُنطق بالطريقة نفسها، وهذا هو المهم».

لقد ورثت لين سوميرز من أمها الدماء الإنكليزية والتشيلية، وورثت من أبيها جينات صينيي الشمال طوال القامة. فجد تاو تشين كان مداوياً شعبياً بائساً، لقن ذكور ذريته معارفه عن الأعشاب الطبية والتعويذات السحرية ضد مختلف أمراض الجسد والذهن. وقد أغنى تاو تشين، الأخير من تلك السلالة، ميراثه الأبوي كمداوٍ «جونغ يي» بالعمل مع حكيم من كانتون، وبحياة أمضاها في الدراسة، ليس للطب الصيني التقليدي وحسب، وإنما لكل ما يقع في يده حول العلوم الطبية الغربية. وقد شكّل لنفسه سمعة راسخة في سان فرانسيسكو، فكان يستشيره أطباء أمريكيون، وكان لديه زبائن من مختلف الأعراق، ولكن لم يكن يُسمح له بالعمل في المشافي وبقيت ممارسته العلاج مقتصرة على الحي الصيني، حيث اشترى بيتاً كبيراً يستخدم الطابق الأول منه كعيادة والطابق الثاني مسكناً. وكانت سمعته توفر له الحماية: لم يكن هناك من يتدخل في نشاطاته الخاصة بفتيات سينغ سونغ، وهي التسمية التي يطلقونها في تشايناتاون على مستعبدات تجارة الجنس، وكلهن طفلات في الرابعة عشرة من أعمارهن. كان تاو تشين قد ألقى على كاهله مهمة إنقاذ كل من يستطيع إنقاذهن من المواخير. وكانت **التونغات** - العصابات التي تتحكم وتراقب وتبيع الحماية في الجالية الصينية - تعرف أنه يشتري العاهرات الصغيرات لكي يوفر لهن فرصة جديدة للحياة بعيداً

Twitter: @ketab_n

عن كاليفورنيا. لقد هددوه مرتين، ولكنهم لم يتخذوا ضده إجراءات أشد قسوة، لأنه يمكن لأي واحد منهم أن يحتاج عاجلاً أو آجلاً لخدمات الجونغ يي الشهير. فطالما لم يلجأ تاو تشين إلى السلطات الأمريكية، ويعمل دون ضجة وينقذ الفتيات واحدة واحدة، في عمل يحتاج دأب نملة، يمكنهم أن يتسامحوا معه، لأنه لن يُلحق أذى بفوائد تلك التجارة الهائلة. والشخص الوحيد الذي كان يعامل تاو تشين باعتباره خطراً عاماً هي آه توي، القوادة التي حققت أكبر قدر من النجاح في سان فرانسيسكو، وصاحبة عدة صالونات متخصصة بتوفير المراهقات الآسيويات. فهي وحدها تستورد مئات البنات كل سنة، أمام أعين الموظفين الأمريكيين غير المبالية، الذين يتلقون الرشاوى المناسبة. كانت آه توي تكره تاو تشين، وهي تفضل، مثلما قالت مرات كثيرة، أن تموت قبل أن تعود لاستشارته طبياً. لقد فعلت ذلك مرة واحدة، حين أجبرها السعال على ذلك، ولكن كليهما أدركا في تلك المناسبة، دون حاجة لصياغة ذلك بالكلام، أنهما سيكونان عدوين لدودين إلى الأبد. فكل فتاة سينغ سونغ ينقذها تاو تشين هي شوكة تغرس تحت أظفار آه توي، حتى لو لم تكن الفتاة من ممتلكاتها. لقد كانت القضية بالنسبة إليها مسألة مبدأ، مثلما كانت بالنسبة إليه أيضاً.

كان تاو تشين ينهض قبل الفجر ويخرج إلى الحديقة، حيث يمارس تمارينه القتالية لكي يحافظ على لياقة جسده وعلى صفاء ذهنه. ثم يستغرق في التأمل لمدة نصف ساعة، وبعد ذلك يشعل النار لصنع الشاي. وكان يوقظ إلزا بقبلة وبفنجان شاي أخضر، ترشفه ببطء وهي في السرير. كانت هذه اللحظة مقدسة لكليهما: ففنجان الشاي الذي يشربانه معاً يختم الليلة التي تقاسماها في عناق حميم. فما كان يجري بينهما وراء باب حجرتهما المغلق يعوضهما عن كل ما يبذلانه من جهود في النهار. لقد بدأ حبهما بصداقة رقيقة نُسجت بتبصر وسط شبكة من العراقيل، ابتداء من ضرورة تفاهمهما بالإنكليزية والقفز عن الأحكام

Twitter: @ketab_n

الثقافية والعرقية المسبقة، وحتى سنوات فارق السن بينهما. عاشا وعملا معاً تحت السقف نفسه طوال أكثر من ثلاث سنوات قبل أن يتجرأا على تجاوز الحدود غير المرئية التي تفصل بينهما. وكان لا بد لإلزا من السير في دوائر لآلاف الأميال في رحلة لانهائية بحثاً عن حبيب مفترض كان يفلت من بين أصابعها مثل ظل، وأن تمزق خلال ذلك الطريق ماضيها وبراءتها إلى فتات، وتواجه هواجسها قبالة الرأس المقطوع والمغموس في الجن لقاطع الطريق الأسطوري خواكين موريتا، لكي تدرك بأن مصيرها هو إلى جانب تاو تشين. ولكن الجونغ يي بالمقابل كان قد أدرك ذلك قبل وقت طويل وانتظرها بالعناد الصامت لحب ناضج.

في الليلة التي تجرأت فيها إلزا أخيراً على اجتياز أمتار الممر الثمانية التي تفصل بين غرفتها وغرفة تاو تشين، تبدلت حياتاهما بالكامل، كما لو أن ضربة فأس قد قطعت الماضي من جذوره. وابتداء من تلك الليلة المتأججة لم يعد هناك أدنى احتمال أو إغراء للتراجع، وإنما فقط التحدي لإقرار موقع في عالم لا يتسامح مع اختلاط الأعراق. جاءت إلزا حافية، بقميص النوم، تتلمس طريقها في العتمة، ودفعت باب غرفة تاو تشين وهي واثقة من أنها ستجده غير مقفل بمفتاح، لأنها كانت تحدس بأنه يشتهيها بقدر ما هي تشتهيه، ولكن على الرغم من هذا اليقين، كانت تمضي مذعورة نحو تحقيق قرارها الذي لا يمكن إصلاحه. كانت قد ترددت كثيراً قبل أن تخطو تلك الخطوة، لأن الجونغ يي هو حاميها، أبوها، أخوها، وأفضل أصدقائها، وأسرتها الوحيدة في هذه الأرض الغريبة. كانت تخشى فقدان كل شيء بتحولها إلى عشيقته؛ ولكنها صارت أمام العتبة، ولهفتها للمسه كانت أقوى من حجج العقل. دخلت الحجرة وعلى ضوء الشمعة فوق الطاولة، رأته جالساً وساقاه متقاطعتان فوق السرير، مرتدياً قميصه الطويل وسرواله الذي من قطن أبيض، منتظراً إياها. لم تتمكن إلزا من التساؤل كم من الليالي أمضاها على تلك الحال، متيقظاً لسماع وقع خطواتها في الممر، لأنها كانت مذهولة من جرأتها، مرتجفة من الحياء ومن استباق ما سيحدث. لم يمنحها تاو تشين وقتاً للتراجع. فقد خرج للقائها، وفتح لها ذراعيه

Twitter: @ketab_n

وتقدمت هي على العماء لتصطدم بصدره، حيث دفنت وجهها مستنشقة رائحة هذا الرجل التي تعرفها جيداً، عبق مياه بحرية مالحة، وكانت تتشبث بكلتا يديها بثوبه لأن ركبتيها خارتا، بينما نهر من التفسيرات يتدفق دون كابح من شفتيها ويختلط بكلمات الحب بالصينية التي يتلعثم هو بها. أحست بالذراعين اللتين ترفعانها عن الأرض وتضعانها برفق على السرير، أحست بالأنفاس الدافئة في عنقها وباليدين اللتين تثبتانها، وعندئذ هيمن عليها قلق جامح وبدأت ترتعش، نادمة ومذعورة.

منذ أن ماتت زوجته في هونغ كونغ، كان تاو تشين يعزي نفسه بين حين وآخر بعناقات متعجلة مع نساء مدفوعات الأجر. لم يكن قد مارس الحب حباً منذ أكثر من ست سنوات، ولكنه لم يسمح للتعجل بأن يهيجه. لطالما جاب جسد إلزا بأفكاره، وعرفها جيداً، فكان كما لو أنه يجوب تجويفاتها الناعمة وهضابها الصغيرة مستعيناً بخريطة. وكانت هي تظن أنها عرفت الحب بين ذراعي حبيبها الأول، ولكن الحميمية مع تاو تشين كشفت لها حجم جهلها. العاطفة التي بلبلتها وهي في السادسة عشرة من عمرها، والتي اجتازت من أجلها نصف عالم وخاطرت مرات كثيرة بحياتها، كانت سراباً يبدو لها الآن سخيفاً؛ لقد أحبت آنذاك الحب، قانعة بالفُتات الذي يمنحها إياه رجل مهتم بالسفر أكثر من اهتمامه بالبقاء معها. بحثت عنه طوال أربع سنوات، موقنة من أن الشاب المثالي الذي عرفته في تشيلي قد تحول في كاليفورنيا إلى قاطع طريق خيالي يدعى خواكين موريتا. وطوال هذا الوقت انتظرها تاو تشين بهدوئه مضرب المثل، واثقاً من أنها عاجلاً أو آجلاً ستجتاز العتبة التي تفصل بينهما. لقد كان عليه أن يرافقها عندما عرضوا رأس خواكين موريتا في تسلية للأمريكيين وعبرة للاتينيين. ظن أن إلزا لن تتحمل رؤية تلك الغنيمة المنفرة، ولكنها وقفت قبالة الإناء الزجاجي، حيث كان رأس المجرم المزعوم، ونظرت إليه دون تأثر، كما لو أنها تنظر إلى رأس كرنب في قدر حساء، إلى أن تيقنت تماماً من أنه ليس الرجل الذي بحثت عنه طوال سنوات. والواقع أن التحقق من شخصيته لم يكن ليغير من الأمر شيئاً، لأن إلزا في رحلتها الطويلة مقتفية أثر حب مستحيل، كانت قد اكتسبت

Twitter: @ketab_n

شيئاً لا يقل روعة عن الحب: إنه الحرية. «إنني الآن حرة»، كان هذا هو كل ما قالته قبالة الرأس. وأدرك تاو تشين أخيراً أنها قد تخلصت من الحبيب القديم، وأنه صار سيان لديها إذا ما كان حياً أو إذا ما كان قد مات وهو يبحث عن الذهب في سفوح سييرا نيفادا؛ فهي على أي حال لن تبحث عنه بعد الآن، وإذا ما ظهر ذلك الرجل يوماً، ستكون قادرة على رؤيته بأبعاده الحقيقية. أمسك تاو تشين يدها وخرجا من المعرض المشؤوم. وفي الخارج تنفسا الهواء العليل وانطلقا يمشيان بسلام، مستعدين لبدء مرحلة جديدة من حياتيهما.

الليلة التي دخلت فيها إلزا إلى حجرة تاو تشين كانت مختلفة جداً عن المعانقات السرية والمتعجلة مع حبيبها الأول في تشيلي. في هذه الليلة اكتشفت عدداً من احتمالات اللذة التي لا تحصى وولجت أعماق حب سيكون الوحيد في ما تبقى من حياتها. فقد راح تاو تشين يجردها بكل هدوء من طبقات متراكمة من المخاوف والذكريات غير المجدية، وراح يداعبها بمثابرة لا تكل إلى أن توقفت عن الارتجاف وفتحت عينيها، إلى أن استرخت تحت أصابعه الحكيمة، إلى أن أحس بها تتلوى، تتفتح، تشرق؛ سمعها تتأوه، تناديه، تتوسل إليه؛ ورآها مستنفدة ومبللة، مستعدة لتسليم نفسها واستقباله بكل رغبتها؛ إلى أن لم يعد أي منهما يعرف أين هو، ولا من هو، ولا أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. اقتادها تاو تشين إلى ما هو أبعد من النشوة، إلى آفاق غامضة حيث الحب والموت متشابهان. أحسا بأن روحيهما تتسعان، وأن الرغبات والذاكرة تتلاشى، وأنهما يحلقان في سناء فسيح وحيد. تعانقا في ذلك الفضاء الاستثنائي متعارفين، لأنهما ربما كانا هناك معاً في حيوات سابقة وسيكونان مرات كثيرة في حيوات آتية، مثلما ألمح تاو تشين. كانا عاشقين أبديين، يبحثان ويجدان بعضهما مرة بعد أخرى في كارماهما، قال ذلك منفعلاً؛ ولكن إلزا ردت ضاحكة بأنه ليس في ما يشعران به أي وقار مثل الكارما، وإنما هي مجرد رغبات في المضاجعة، وأنها تعترف من أجل شرف الحقيقة بأنها منذ بضع سنوات تتحرق رغبة لفعل ذلك معه، وأنها تأمل من الآن فصاعداً ألا يخيب تاو أملها، لأن الأولوية في حياتها ستكون لذلك.

Twitter: @ketab_n

تداعبا تلك الليلة وقسطاً كبيراً من اليوم التالي، إلى أن أجبرهما الجوع والعطش على الخروج من الغرفة متعثرين، ثملين، وسعيدين، دون أن يفلت أحدهما يد الآخر خوفاً من أن يستيقظا فجأة ويكتشفا أنهما كانا يمضيان تائهين في أضغاث أوهام.

العاطفة التي جمعت بينهما منذ تلك الليلة والتي راحا يغذيانها بحذر استثنائي، كانت تسندهما وتحميهما في لحظات الخصام التي لا يمكن تفاديها. ومع مرور الوقت راحت هذه العاطفة تستقر على الرقة والضحك، فتوقفا عن استكشاف المئتين واثنتين وعشرين طريقة لممارسة الحب لأن ثلاثاً أو أربعاً منها تكفيهما، ولأنه لم تعد هناك حاجة لتبادلهما المفاجآت. وكلما ازدادت معرفتهما ببعضهما، إزداد تعاطفهما المشترك. منذ ليلة الحب الأولى تلك صارا ينامان في عقدة مشدودة، يتنفسان الأنفاس ذاتها، ويحلمان الأحلام نفسها؛ ولكن حياتهما لم تكن سهلة، فقد عاشا معاً طوال ما يقرب من ثلاثين سنة في عالم ليس فيه متسع لثنائي مثلهما. وعلى امتداد السنوات توصلت تلك المرأة البيضاء وذلك الرجل الصيني إلى أن يكونا مشهداً مألوفاً في تشايناتاون، ولكنهما لم يجدا القبول قط. تعلما ألا يلمس أحدهما الآخر أمام الملأ، وأن يجلسا منفصلين في المسرح، وأن يسيرا في الشارع تفصل بينهما عدة خطوات. ولم يكن بإمكانهما الدخول معاً إلى بعض المطاعم والفنادق، وعندما ذهبا إلى انكلترا، لكي تزور هي أمها بالتبني روز سوميرز، ولكي يلقي هو بعض المحاضرات حول العلاج بالإبر في مستشفى هربز، لم يستطيعا السفر في الدرجة نفسها في السفينة ولا تقاسم القمرة نفسها، مع أنها كانت تتسلل بخفة في كل ليلة لتنام معه. لقد تزوجا بتكتم وفق الطقوس البوذية، ولكن زواجهما كان بلا أي قيمة شرعية. وتم تسجيل لاكي ولين على أنهما ابنان غير شرعيين اعترف بهما الأب. كان تاو تشين قد حصل على المواطنة بعد معاملات ورشوات لانهائية، وكان واحداً ممن تمكنوا من ردّ قرار استبعاد الصينيين، وهو قانون عنصري آخر في كاليفورنيا. وكان تقديره ووفاؤه لوطنه الجديد غير مشروطين، وهو ما أثبته خلال الحرب الأهلية، عندما اجتاز القارة ليتطوع في الجبهة ويعمل مساعداً للأطباء

Twitter: @ketab_n

اليانكيين خلال سنوات النزاع الأربع، ولكنه كان يشعر في أعماقه بأنه أجنبي، ويرغب في أن يُدفن جسده في هونغ كونغ، حتى وإن أمضى كل حياته في أميركا.

كانت أسرة إلزا سوميرز وتاو تشين تقيم في بيت فسيح ومريح، أشد متانة وأتقن صنعة من بيوت تشايناتاون الأخرى. وكان الكلام يدور في محيطها باللهجة الكانتونية، وكان كل شيء، ابتداء من المأكولات وحتى الجرائد صينياً. وعلى بعد عدة كوادرات من الحي الصيني، يوجد لاميسيون، الحي الهيسباني، حيث اعتادت إلزا سوميرز الذهاب للتجول هناك من أجل متعة التكلم بالإسبانية، ولكن يومها كان ينقضي بين أمريكيين بالقرب من ساحة الاتحاد، حيث توجد صالتها الأنيقة لتقديم الشاي. لقد ساهمت بحلوياتها في إعالة الأسرة، لأن جزءاً كبيراً من مداخيل تاو تشين كان يصب في أيد غريبة: فما لا يذهب في مساعدة العمال الصينيين الفقراء في أزمنة المرض أو النكبات، يمكن أن ينتهي في المزادات السرية على الطفلات المستعبدات. وكان إنقاذ أولئك الصغيرات من الحياة المشينة قد تحول إلى مهمة مقدسة لدى تاو تشين، وقد فهمت إلزا سوميرز الأمر على هذا النحو منذ البداية، وتقبلته كسمة أخرى من طباع زوجها، وسبب آخر من الأسباب الكثيرة التي تجعلها تحبه. أقامت تجارتها للحلويات لكي لا تضايقه بطلب النقود منه؛ وكانت بحاجة إلى الاستقلالية لتوفر لابنيها أفضل تربية أمريكية، لأنها كانت راغبة في أن يندمجا تماماً في مجتمع الولايات المتحدة، وأن يعيشا متحررين من القيود المفروضة على الصينيين أو الهسبانيين. وقد نجحت في ذلك مع لين، ولكن خططها أخفقت مع لاكي، لأن الفتى كان فخوراً بأصله ولم يفكر بالخروج من تشايناتاون.

كانت لين تحب أباها حتى العبادة - ومن المستحيل عدم محبة ذلك الرجل الرقيق والكريم - ولكنها كانت تخجل من أصلها. وقد انتبهت وهي ما تزال فتية إلى أن المكان الوحيد المتاح للصينيين هو حيهم، أما في بقية

Twitter: @ketab_n

أنحاء المدينة فهم مكروهون. لقد كانت اللعبة المفضلة للفتيان البيض هي رشق الحجارة على السماويين أو قص جدائل شعرهم بعد تهشيمهم بالضرب بالعصي. وكانت لين، مثلما هو حال أمها، تعيش بقدم في الصين وأخرى في الولايات المتحدة، كلتاهما تتكلمان الإنكليزية فقط، وتسرحان شعرهما وترتديان ملابسهما على الطريقة الأمريكية، وإن اعتادتا في البيت على لبس الثوب والسروال الحريريين الصينيين. لم يكن في لين إلا الشيء القليل من أبيها، باستثناء عظامها الطويلة وعينيها الشرقيتين، وأقل من ذلك من أمها؛ ولم يكن هناك من يعرف من أين جاء جمالها النادر. لم يكونوا يسمحون لها مطلقاً باللعب في الشارع، مثلما يفعل أخوها، لأن نساء وبنات الأسر المقتدرة في تشايناتاون يعشن حبيسات تماماً. وفي المناسبات القليلة التي كانت تخرج بها إلى الحي، كانت تمضي ممسكة بيد أبيها وهي تطرق برأسها إلى الأرض، لكي لا تستفز الجموع المؤلفة بكاملها تقريباً من الذكور. كلاهما كان يلفت الانتباه: هي بجمالها الباهر، وهو لأنه يلبس مثل اليانكيين. كان تاو تشين قد تخلى منذ سنوات عن جديلة معشره التقليدية، ويمضي بشعر مقصوص مسرح إلى الوراء، وببدلة سوداء متقنة، وقميص ذي ياقة مرققة وقبعة عالية. ولكن لين كانت تتجول مع ذلك بكل حرية خارج تشاينا تاون، مثل أي فتاة بيضاء. لقد تربت في مدرسة بروتستانتية، حيث تعلمت مبادئ المسيحية، وبإضافتها إلى ممارسات أبيها البوذية، توصلت إلى القناعة بأن المسيح هو تجسيد لبوذا. كانت تذهب وحدها للشراء، وإلى دروسها لتعلم البيانو، ولزيارة صديقاتها في المدرسة. وفي المساء تستقر في صالون والدتها للشاي حيث تنجز واجباتها المدرسية وتتسلى بإعادة قراءة الروايات الرومنسية التي تشتريها بعشرة سنتات، أو ترسلها إليها جدتها روز من لندن. لم تجد جهود إلزا سوميرز في إثارة اهتمامها بالمطبخ أو بأي من النشاطات المنزلية الأخرى: فابنتها لم تُخلق كما يبدو للأعمال اليومية.

حين نضجت لين، بقيت تحتفظ بوجه ملاك غريب، وامتلأ جسدها بانحناءات تثير البلبلة. كانت صورها متداولة منذ سنوات دون أن تؤدي

Twitter: @ketab_n

إلى أي نتائج، ولكن كل شيء تبدل عندما تكشفت، وهي في الخامسة عشرة من عمرها، تقاطيعها النهائية، ووعت الجاذبية الماحقة التي تمارسها على الرجال. وحاولت أمها، المذعورة من نتائج هذه القدرة الرهيبة، أن تكبح اندفاع ابنتها المغوي، وذلك بإمطارها بقواعد التواضع وتعليمها المشي كجندي، دون أن تحرك كتفيها أو مؤخرتها، ولكن كل ذلك كان بلا جدوى: فالرجال من كل الأعمار والأعراق والأوضاع يلتفتون تقديراً لها. وعندما أدركت لين فوائد جمالها توقفت عن لعنه كما كانت تفعل في صغرها، وصممت أن تكون موديلاً للفنانين لبعض الوقت، ريثما يأتي أمير على جواده المجنح ليقتادها إلى السعادة الزوجية. وكان أبواها قد تسامحا في طفولتها بشأن صورها كحورية أو في أراجيح باعتبارها نزوات بريئة، ولكنهما رأيا خطراً كبيراً في وقوفها أمام الكاميرا بهيئتها الجديدة كامرأة. «هذا الوقوف للتصوير ليس بالعمل المحترم، وإنما هو ضياع خالص»، هكذا قررت إلزا سوميرز بحزن، لأنها أدركت أنها لن تتمكن من ثني ابنتها عن أوهامها ولا حمايتها من فخ الجمال. طرحت مخاوفها على تاو تشين في إحدى لحظات الكمال تلك التي يستريحان فيها بعد ممارسة الحب، فأوضح لها أن كل شخص له كارما، وليس من الممكن توجيه حياة الغير، ويمكن للمرء أحياناً أن يصحح مسار حياته الخاصة فقط؛ ولكن إلزا لم تكن مستعدة للسماح للنكبة بأن تحل بها وهي ساهية. لقد كانت ترافق لين دائما حين تقف أمام المصورين، متمسكة بالوقار – لا شيء من كشف ربلة الساقين بحجج فنية –، وهي مستعدة الآن لمضاعفة حرصها بعد أن أصبحت الفتاة في التاسعة عشرة.

– هناك رسام يلاحق لين. يريدها أن تكون موديلاً لرسم لوحة لسالومي – قالت في أحد الأيام لزوجها.

فسألها تاو تشين دون أن يرفع بصره تقريباً عن الموسوعة الطبية:

– لوحة لمن؟

– سالومي، ذات السبعة براقع يا تاو. اقرأ الكتاب المقدس.

Twitter: @ketab_n

فدمدم ساهياً:

- إذا كانت من الكتاب المقدس فيجب أن تكون جيدة كما أظن.

- أتعرف كيف كانت الموضة في زمن يوحنا المعمدان؟ إذا ما تهاونتُ فسيرسمون ابنتك ونهديها مكشوفين!

- لا تهملي إذن - ابتسم تاو وهو يحتضن زوجته من خصرها، ويجلسها فوق المجلد الضخم الذي على ركبتيه ويحذرها من أنه يجب عليها ألا تسمح لخدع المخيلة بأن تخيفها.

- آه يا تاو! ما الذي سنفعله بلين؟

- لا شيء يا إلزا، سوف تتزوج وتمنحنا أحفاداً.

- إنها ما تزال طفلة!

- لو أنها في الصين لكان الوقت قد فاتها للحصول على عريس.

فقررت هي:

- إننا في أميركا وهي لن تتزوج من صيني.

- ولم لا؟ ألا يعجبك الصينيون؟ - قال **الجونغ يي** ساخراً.

- لا وجود لرجل آخر مثلك في هذا العالم يا تاو، ولكنني أظن أن لين ستتزوج من رجل أبيض.

- الأمريكيون لا يعرفون كيف يمارسون الحب كما قيل لي.

فابتسمت إلزا وهي تفرك أنفها برقبة زوجها:

- ربما يمكنك أنت أن تعلمهم.

عملت لين موديلاً للوحة سالومي وهي ترتدي لباساً حريرياً بلون اللحم تحت الرداء الرقيق، أمام نظرة أمها التي لا تكل، ولكن إلزا سوميرز لم تستطع المعارضة بالحزم نفسه عندما عرضوا على ابنتها الشرف الكبير بأن تكون موديلاً لتمثال الجمهورية الذي سيقام في مركز ساحة الاتحاد. كانت حملة جمع التبرعات قد تواصلت شهوراً،وساهم الناس بما يستطيعون، التلاميذ ببضعة سنتات، والأرامل ببضعة دولارات، والأثرياء

Twitter: @ketab_n

من أمثال فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث بشيكات دسمة. وكانت الصحف تنشر في كل يوم حصيلة المبالغ التي تم جمعها في اليوم السابق، إلى أن اجتمع ما يكفي لتكليف نحات مشهور جيء به من فيلاديلفيا لنحت ذلك المشروع الطموح. وراحت أبرز أسر المدينة تتنافس في إقامة الولائم وحفلات الرقص لاتاحة فرصة للرسام كي يختار بناتهن؛ لأنه كان معروفاً بأن الموديل المنتقاة لتمثال الجمهورية ستكون رمزاً لسان فرانسيسكو، وكل الفتيات كن يتطلعن إلى مثل ذلك الامتياز. بحث الفنان، وكان رجلاً حديثاً وذا أفكار جريئة، عن الفتاة المثالية طوال أسابيع، ولكن لم تنل رضاه أي واحدة. وأعلن أنه يرغب في فتاة مهجنة من أعراق مختلفة من أجل تمثيل الأمة الأمريكية القوية، المؤلفة من مهاجرين بواسل قادمين من أربع جهات الأرض. أفزع ذلك مموّلي المشروع وسلطات المدينة؛ فالبيض لا يستطيعون أن يتصوروا بأن الملونين هم بشر كاملون، ولم يشأ أحد أن يسمع أي كلام عن أنه يمكن لخلاسية أن تتراس المدينة بوضعها فوق مسلة ساحة الاتحاد، مثلما يريد ذلك الرجل. وقالت الصحف إن كاليفورنيا تتصدر الطليعة في شؤون الفن، ولكن مسألة الخلاسية هي أكثر مما يمكن تحمله. وكان النحات على وشك الرضوخ للضغوط واختيار فتاة تنحدر من دنمركيين، عندما دخل بالصدفة إلى محل حلويات إلزا سوميرز، في محاولة لمواساة نفسه بقطعة من كلير الشوكولاتة، وهناك رأى لين. إنها المرأة التي بحث عنها طويلاً من أجل تمثاله: طويلة القامة، بديعة التقاطيع، ذات عظام مكتملة، وليس لها وقار إمبراطورة ووجه كلاسيكي الملامح وحسب، وإنما هي تتمتع كذلك بالملمح الاكزوتيكي الذي يرغب فيه. لقد كان فيها ما هو أكثر من التناسق، شيء فريد، مزيج من الشرق والغرب، من الحسية والبراءة، من القوة والحساسية، وقد فتنته تماماً. عندما أخبر الأم بأنه اختار ابنتها لتكون موديله، موقناً من أنه يقدم شرفاً هائلاً لأسرة صانعي الحلويات المتواضعة تلك، وجد نفسه حيال صد حازم. فقد ملت إلزا سوميرز من إضاعة وقتها في حراسة لين في استوديوهات المصورين، حيث مهمتها الوحيدة هي ضغط زر بإصبعها. وفكرة إقدامها على عمل

Twitter: @ketab_n

ذلك أمام هذا الرجل الذي يخطط لتمثال من البرونز بارتفاع عدة أمتار بدا لها أمراً خانقاً؛ ولكن لين كانت فخورة أمام إمكانية تحولها إلى «الجمهورية»، فلم تجد الشجاعة على الرفض. ووجد النحات نفسه في مأزق وهو يحاول إقناع الأم بأن رداء خفيفاً هو الزي المناسب في مثل هذه الحالة، لأنها لم تكن قادرة على رؤية العلاقة ما بين الجمهورية الأمريكية والزي الإغريقي، ولكنهما اتفقا في النهاية على أن تظهر لين وهي عارية الساقين والذراعين، ولكن مغطاة النهدين.

لم تكن لين تعبأ بمخاوف أمها بشأن الحفاظ على عفتها، فهي تعيش هائمة في عالم أوهامها الرومنسية. ولم تكن تتميز في شيء باستثناء مظهرها الجسدي المثير؛ فهي فتاة عادية، تستنسخ أشعاراً في دفاتر وردية الأوراق، وتجمع تماثيل مصغرة من الخزف. ولم يكن فتورها تأنقاً، وإنما كسلاً؛ وكآبتها لم تكن غموضاً، وإنما خواء. «دعوها وشأنها، فطالما أنا على قيد الحياة، لن تحتاج لين إلى أي شيء»، هذا ما كان يعد به لاكي في أحيان كثيرة، لأنه الوحيد الذي أدرك جيداً مدى حماقة أخته.

ولاكي الذي يكبر لين بعدة سنوات كان صينياً خالصاً. فباستثناء بعض المناسبات النادرة التي يتوجب عليه فيها متابعة معاملة قانونية أو التقاط صورة فوتوغرافية، كان يلبس الثوب الصيني، والسروال الفضفاض، ويلف حزاماً حول خصره، وينتعل خفاً ذا نعل خشبي، ولكنه يعتمر على الدوام قبعة رعاة بقر. لم يكن به شيء من ملامح أبيه المميزة، أو من رقة أمه أو جمال أخته؛ لقد كان ضئيلاً، قصير الساقين، مربع الرأس وببشرة مائلة إلى الخضرة، ولكنه جذاب مع ذلك بابتسامته التي لا تقاوم وتفاؤله المُعْدي النابع من يقينه بأنه موسوم بحسن الطالع. كان يفكر بأنه لا يمكن أن يحدث له شيء خبيث، لأن السعادة والحظ قد ضُمنا له منذ ولادته. لقد أكتشف هذه الموهبة وهو في التاسعة من عمره، حين كان يلعب لعبة «**فان-تان**» في الشارع مع صبية آخرين؛ فقد

Twitter: @ketab_n

عاد في ذلك اليوم إلى البيت معلناً أن اسمه منذ هذا اليوم سيكون «لاكي» - بدلاً من إيبانزر - ولم يعد يرد على من يناديه باسم آخر. لقد رافقه حسن الطالع أينما ذهب. فكان يكسب في كل ألعاب الحظ الموجودة، وبالرغم من أنه كان مشاغباً ومتهوراً، إلا أنه لم يتعرض قط للمشاكل مع عصابات التونغ أو مع سلطات البيض. وحتى رجال الشرطة من أصول إيرلندية كانوا يستسلمون حيال خفة ظله، فبينما يتلقى زملاؤه الضرب بالهراوى، يخرج هو من المآزق بنكتة سريعة أو بخدعة سحرية من تلك الخدع الكثيرة التي يمكنه القيام بها بيديه البهلوانيتين العجيبتين. لم يكن تاو تشين يطيق صبراً على طيش ابنه الوحيد ويلعن مؤاتاة نجمه تلك التي تتيح له تجنب بذل الجهد مثل بقية الناس الفانين العاديين. كان يحزن لرؤيته يمر من هذه الدنيا كعصفور سعيد، لأن كارماه ستفسد بهذا السلوك. فهو يعتقد بأن الروح تقترب من السماء من خلال الرحمة والألم، متغلبة على المصاعب بالنبل والكرم، ولكن كيف يمكن لابنه لاكي أن يسمو إذا كان طريقه سهلاً على الدوام؟ لقد كان يخشى عليه من أن يتجسد في تقمصه التالي في إنسان شرير. كان تاو تشين يسعى إلى جعل ابنه البكر، الذي يتوجب عليه أن يساعده في شيخوخته ويكرّم ذكراه بعد موته، يواصل تقاليد أسرته النبيلة في المداواة، بل إنه كان يحلم كذلك في رؤيته وقد تحول إلى أول طبيب صيني-أمريكي يحمل شهادة جامعية؛ ولكن لاكي كان ينفر من نقيع النباتات كريهة الرائحة ومن إبر الوخز، ولم يكن هناك ما يثير قرفه مثل أمراض الآخرين، ولم يستطع أن يتفهم استمتاع إبيه حيال مثانة ملتهبة أو وجه ملطخ بالبثور. وكان عليه، حتى بلوغه السادسة عشرة من عمره وانطلاقه إلى الشارع، أن يواظب على مرافقة تاو تشين في عيادته، حيث كان هذا الأخير يلقنه أسماء الأدوية واستعمالاتها ويحاول تعليمه فن جس النبض، وقياس الطاقة وتحديد الطباع، وهي مهارات كانت تدخل من إحدى أذني الفتى وتخرج من الأخرى، ولكنها لا تصدمه على الأقل ، مثل النصوص العلمية للطب الغربي التي كان أبوه يدرسها بجد. وكانت الرسوم التوضيحية للأجساد مسلوخة الجلد، بعضلاتها وأوردتها وعظامها المكشوفة، إنما

Twitter: @ketab_n

بسروال داخلي، وكذلك العمليات الجراحية الموصوفة في أدق تفاصيلها قسوة، تثير الهلع في نفسه. ولم يكن يعدم الذرائع للابتعاد عن العيادة، ولكنه كان يبدي استعداده دوماً حين يتعلق الأمر بإخفاء واحدة من **فتيات سينغ سونغ** البائسات، اللواتي اعتاد أبوه أن يحضرهن إلى البيت. فهذا العمل السري والخطر كان على مقاسه. فليس هناك من هو أفضل منه في نقل الفتيات الخامدات تحت أنف عصابات **التونغ**، وليس هناك من هو أمهر منه في إخراجهن من الحي فور استعادتهن شيئاً من حيويتهن، وليس هناك من هو أبرع منه في جعلهن يختفين إلى الأبد في أربع رياح الحرية. ولم يكن يفعل ذلك بدافع الشفقة مثل تاو تشين، وإنما بدافع الإثارة في مواجهة المخاطر واختبار حسن طالعه.

قبل بلوغها التاسعة عشرة كانت لين سوميرز قد صدت عدداً من طالبي ودها، وكانت معتادة على الإطراءات الذكورية التي تتلقاها بازدراء ملكة، إذ لم يكن أي من معجبيها يتفق مع تصورها للأمير الرومنسي، ولم يكن أي واحد منهم يقول لها الكلمات التي تكتبها عمتها-جدتها روز سوميرز في رواياتها، فكانت تعتبرهم جميعاً عاديين وغير جديرين بها. وظنت أنها وجدت القدر السامي الذي لها الحق فيه عندما تعرفت على الرجل الوحيد الذي لم ينظر إليها مرتين، وهو ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث. لقد رأته من بعيد في بعض المناسبات، في الشارع أو في العربة مع باولينا دل بايي، ولكنها لم تتبادل معه الكلام، فقد كان يكبرها في السن، ويعيش في أوساط لا تستطيع لين الوصول إليها، وربما لم يكن ليتاح لها الالتقاء به قط لولا مشروع تمثال الجمهورية.

فبحجة مراقبة تكاليف المشروع، كان السياسيون والوجهاء الذين ساهموا في تمويل التمثال يلتقون في مشغل النحات. وكان الفنان من محبي المجد وحياة المتعة؛ فبينما هو يعمل، مستغرقاً ظاهرياً في صهر القالب الذي سيصب فيه البرونز، كان يستمتع برفقة أولئك الرجال البارزين، وبزجاجات الشمبانيا، والقواقع الطازجة والسجائر الفاخرة التي يجيء بها الزائرون. وفوق منصة مضاءة من كوة في السقف يدخل

Twitter: @ketab_n

منها الضوء الطبيعي، كانت لين سوميرز تقف متوازنة على رؤوس أصابع قدميها وهي ترفع ذراعيها إلى أعلى، في وضعية من المستحيل الحفاظ عليها لأكثر من بضع دقائق، حاملة في إحدى يديها تاجاً من الغار وفي الأخرى رقّاً يتضمن الدستور الأمريكي، مرتدية غلالة خفيفة متموجة تتدلى من أحد كتفيها حتى الركبتين، وتكشف الجسد أكثر مما تغطيه. لقد كانت سان فرانسيسكو سوقاً رائجة للعري النسائي؛ فكل البارات تعرض لوحات لجاريات مدويات، وصوراً فوتوغرافية لمومسات بمؤخرات مكشوفة، وزخارف من الجص لحوريات يلاحقهن سانتورات لا يكلون؛ وكان يمكن لموديل عارية تماماً أن تكون أقل مدعاة للفضول من هذه الفتاة التي تأبى خلع ملابسها ولا تبتعد عن عين أمها المتيقظة. فإلزا سوميرز، بملابسها السوداء الصارمة، تجلس متيبسة على كرسي إلى جانب المنصة التي تقف عليها ابنتها، وتراقب دون أن تتقبل القواقع أو الشمبانيا التي يحاولون إلهاءها بها. فهؤلاء المسنون يأتون بدافع المجون، وليس حباً بالفن، وهذا أمر واضح وضوح الماء. وهي لا تملك السلطة لمنعهم من المجيء، ولكنها تستطيع أن تتأكد على الأقل من أن ابنتها لن تقبل دعواتهم، وأنها لن تضحك، قدر الإمكان، للممازحات ولن ترد على الأسئلة الخرقاء. «لا شيء مجانياً في هذا العالم. فمقابل هذه التفاهات ستدفعين ثمناً غالياً جداً»، بهذا كانت تحذرها عندما تغضب الفتاة من اضطرارها إلى رفض هدية تقدم إليها. لقد صار الوقوف أمام الفنان من أجل صنع التمثال عملية أبدية ومملة، تُخلف لين متشنجة الساقين ومخدرة من البرد. فقد كان ذلك العمل يجري في الأيام الأولى من كانون الثاني، ولم يكن بإمكان المدافئ التي في الأركان تدفئة ذلك المكان ذي السقف المرتفع، الذي تتخلله تيارات هوائية. كان النحات يعمل مرتدياً معطفاً، وببطء مثير للقلق، مقوضاً اليوم ما أنجزه بأمس، كما لو أنه ليست لديه فكرة متكاملة، بالرغم من مئات مخططات تمثال الجمهورية المعلقة على الجدران.

في يوم ثلاثاء مشؤوم ظهر هناك فيليثيانو دي سانتا كروث مع ابنه ماتياس. فقد وصلته أخبار الموديل الفاتنة وفكر في التعرف عليها قبل أن

Twitter: @ketab_n

ينصبوا التمثال في الساحة، ويخرج اسم الفتاة في الصحيفة فتتحول إلى طريدة صعبة المنال، هذا إذا افترضنا أنه سيأتي يوم يدشن فيه التمثال. فعلى الإيقاع الذي يجري به العمل، قد يحدث أن يتمكن معارضو المشروع، قبل سكبه برونزاً، من كسب المعركة وينتهي كل شيء إلى العدم؛ فقد كان هناك كثيرون غير راضين عن فكرة أن تكون رمز الجمهورية غير أنجلوسكسونية. لقد كان قلب فيليثيانو الماكر ما يزال يهتاج لرائحة المغامرة النسائية، ولهذا ذهب إلى هناك. كان قد تجاوز الستين، ولكن واقع أن تلك الموديل لم تبلغ العشرين بعد لم يبد له عائقاً لا يمكن تجاوزه؛ فهو موقن من أن هناك أشياء قليلة فقط لا يمكن للمال شراؤها. وكانت برهة واحدة كافية لأن يقيّم الوضع حين رأى لين فوق المنصة، فتية جداً وسهلة المنال، ترتجف تحت ثوبها غير المحتشم، والمرسم يغص بذكور مستعدين لالتهامها؛ ولكن لم تكن الشفقة على الفتاة أو الخوف من المنافسة بين أكلة اللحم البشري هي التي كبحت اندفاعه الأولي لعشقها، وإنما وجود إلزا سوميرز. فقد تعرف عليها في الحال، على الرغم من أنه لم يرها إلا في مرات قليلة. ولم يخامره الشك في أن الموديل التي سمع عنها تعليقات كثيرة هي ابنة إحدى صديقات زوجته.

لم تنتبه لين سوميرز إلى وجود ماتياس إلا بعد نصف ساعة من حضوره، عندما أعلن النحات عن انتهاء جلسة العمل واستطاعت هي التخلص من اكليل الغار والرق والنزول عن المنصة. ألقت أمها معطفاً على كتفيها وقدمت لها فنجاناً من الشوكولاتة، واقتادتها إلى ما وراء حاجز لترتدي ملابسها. كان ماتياس يقف إلى جانب النافذة يراقب الشارع ساهماً؛ وكانت عيناه هما الوحيدتان اللتان لم تنصبا عليها في تلك اللحظة. ولاحظت لين على الفور جماله الرجولي، وشبابه وطيب محتده، وملابسه الفاخرة، وقامته المتكبرة، وخصلة الشعر الكستنائي المتهدلة بفوضى مدروسة على جبهته، واليدين الدقيقتين بخاتميهما الذهبيين في الخنصرين. أصابها الذهول حين رأت أن هناك من يتجاهلها بتلك الطريقة، فتصنعت التعثر لتلفت انتباهه. سارعت أيدٍ كثيرة لمساعدتها، باستثناء يدي المتأنق الواقف عند النافذة، الذي كنسها بنظرة عابرة، غير

Twitter: @ketab_n

مبالية تماماً، وكما لو أنها جزء من الأثاث. وعندئذ قررت لين، بمخيلتها الجامحة، ودون أن يكون لديها أي مبرر تستند إليه، بأن ذلك الرجل هو الحبيب الوسيم الذي طالما حدثتها عنه روايات الحب منذ سنوات: لقد وجدت أخيراً قدرها. وبينما هي ترتدي ملابسها وراء الحاجز، كانت حلمتا نهديها تتصلبان مثل حصوتين.

لم تكن لامبالاة ماتياس متصنعة، فهو لم يدقق في الفتاة حقاً، ووجوده هناك كان لأسباب بعيدة جداً عن الشهوانية: إذ كان عليه أن يكلم أباه عن حاجته إلى المال، ولم يجد فرصة أخرى لعمل ذلك، كان غارقاً حتى عنقه وبحاجة فورية لشيك مصرفي كي يسدد ديونه التي خسرها في الميسر في مقمرة في تشايناتاون. كان أبوه قد حذره من أنه لن يواصل تمويل مثل تلك التسليات، وقد كان بإمكانه أن يتدبر الأمر بالحصول على ما يحتاجه شيئاً فشيئاً من أمه، لو أن المسألة لم تكن قضية حياة أو موت، مثلما أبلغه دائنوه بوضوح. ذلك أن السماويين لم يكونوا مستعدين في هذه المرة للانتظار، وافترض ماتياس محقاً بأن الذهاب لزيارة النحات سيحسن مزاج أبيه، وسيكون من السهل عليه عندئذ الحصول على ما يبتغيه منه. ولم يعلم إلا بعد عدة أيام من ذلك، في أثناء سهرة مع أصدقائه البوهيميين، بأنه كان بحضور لين سوميرز، الفتاة المشتهاة من الجميع أكثر من سواها آنذاك. وكان عليه أن يبذل جهداً ليتذكرها، ووصل به الأمر إلى حد التساؤل عما إذا كان قادراً على التعرف عليها إذا ما رآها في الشارع. وعندما اقترحوا المراهنة حول من سيكون أول من يغرر بها، انضم إلى الرهان بدافع العطالة، ثم أعلن بعد ذلك بغطرسته المعهودة، أنه سيفعل ذلك على ثلاث مراحل. المرحلة الأولى ستكون، كما قال، التوصل إلى إحضارها بمفردها إلى شقته ليعرفها على زملائه، وستكون المرحلة الثانية في إقناعها بالوقوف أمامهم عارية، والمرحلة الثالثة هي ممارسة الحب معها، وكل ذلك خلال فترة شهر واحد. وعندما دعا ابن خاله سيفيرو دل بايي للتعرف على أجمل امرأة في سان فرانسيسكو في مساء يوم الأربعاء، كان ينجز المرحلة الأولى من الرهان. لقد كان من السهل عليه استدعاء لين بإيماءات متكتمة عبر

Twitter: @ketab_n

نافذة صالة شاي أمها، وانتظارها عند الناصية عندما خرجت من المحل بذريعة اخترعتها، والسير معها في الشارع لمسافة كوادرتين، وتوجيه بعض عبارات الغزل إليها، وهي عبارات كانت ستدفع أي امرأة ذات تجربة إلى الانفجار في الضحك، والتواعد معها على اللقاء في شقته مع تنبيهها إلى أنها يجب أن تأتي وحدها. وقد أحس بالإحباط لأنه كان يفترض بأن التحدي سيكون أكثر تشويقاً. إذ لم يكن عليه قبل يوم الأربعاء الموعود أن يبذل الكثير من الجهد لإغوائها، فقد كانت بعض النظرات الناعسة، وملامسة من شفتيه لخدها، وبعض النفخات والعبارات المتحذلقة في أذنها، كافية لتقويض مقاومة الفتاة التي كانت ترتجف أمامه، جاهزة للحب. وكان ماتياس يرى في هذه الرغبة الأنثوية في الاستسلام والمعاناة شيئاً مثيراً للشفقة، وهو بالتحديد أكثر ما يمقته في النساء، ولهذا كان ينسجم مع آماندا لويل، التي لها مثل موقفه المستهتر تجاه المشاعر، والتبجيلي تجاه المتعة. أما لين، المنومة مثل فأرة أمام ثعبان، فقد وجدت أخيراً من تتوجه إليه بفن الرسائل الغرامية المزهر وبصورها لآنسات صموتات وشبان ذوي شعوررمطلية بمثبتات الشعر. ولم يكن يخطر لبالها أن ماتياس يُطلع أصدقاءه على تلك الرسائل الرومنسية. وعندما أراد ماتياس أن يريها لسيفيرو دل بايي، رفض هذا الأخير ذلك. وكان ما يزال يجهل أنها مرسلة من لين سوميرز، ولكن فكرة السخرية من عواطف فتاة ساذجة كان يثير اشمئزازه. فقال له ماتياس: «أرى أنك ما تزال رجلاً شهماً يا ابن الخال، ولكن لا تقلق، فهذا أمر يمكن الشفاء منه بسهولة، مثل الشفاء من العذرية».

حضر سيفيرو دل بايي دعوة ابن عمته في يوم الأربعاء التاريخي ذاك ليتعرف على أجمل امرأة في سان فرانسيسكو، مثلما كان قد أخبره، وفوجئ هناك بأنه ليس المدعو الوحيد إلى المناسبة؛ فقد كان هناك ستة بوهيميين على الأقل يشربون ويدخنون في الشقة، المرأة ذات الشعر الأحمر نفسها التي يراها للمرة الثانية بعد نحو سنتين، عندما ذهب مع

Twitter: @ketab_n

ويليامز لانقاذه من مدخنة أفيون. لقد كان يعرف من تكون، لأن ابن عمته حدثه عنها، ولأن اسمها كان متداولاً في عالم الاستعراضات المبتذلة والحياة الليلية. إنها آماندا لويل، صديقة ماتياس الحميمة والتي اعتاد أن يسخر معها بصخب من الفضيحة التي انفجرت في الوقت الذي كانت فيه عشيقة فيليثيانو دي سانتا كروث. وقد وعدها ماتياس بأنه عندما يموت أبواه، سيهدي إليها سرير نبتون الذي أوصت عليه باولينا دل بايي من فلورنسا بدافع الغيظ. لم يبق من إمكانيات لويل كمومس إلا القليل، ومع تقدمها في السن اكتشفت كم هم معظم الرجال صلفون ومملون، ولكنها كانت تجد تشابهاً عميقاً بينها وبين ماتياس، على الرغم من اختلافاتهما الجوهرية. وقد بقيت في يوم الأربعاء ذاك جانباً، متكئة على أريكة، تشرب الشمبانيا، مدركة أنها ليست مركز الاهتمام في هذه المرة. لقد دُعيت حتى لا تشعر لين سوميرز بأنها وحيدة بين جماعة من الرجال في موعدها الأول، مما قد يدفعها إلى التراجع فوراً.

بعد دقائق قليلة طُرق الباب وظهرت موديل الجمهورية الشهيرة ملتفة بمعطف ثقيل من الصوف له طاقية تغطي رأسها. وحين نزعت المعطف رأوا وجهاً عذرياً متوجاً بشعر أسود مفروق في منتصفه، ومسرح إلى الوراء في غديرة بسيطة. أحس سيفيرو دل بايي بأن قلبه يطفر وكل دمائه تزدحم في رأسه، وتقرع صدغيه مثل طبل عسكري. لم يتصور قط بأن تكون ضحية رهان ابن عمته هي لين سوميرز. لم يستطع النطق بكلمة واحدة، ولا حتى أن يحييها مثلما فعل الآخرون؛ بل تراجع إلى أحد الأركان وبقي هناك طوال الساعة التي دامتها زيارة الفتاة، ونظره مسلط عليها، يشله الغم. لم يراوده أدنى شك في النهاية التي ستؤول إليها مراهنة تلك الجماعة من الرجال. رأى لين سوميرز مثل خروف فوق حجر الأضاحي، جاهلة مصيرها. وصعدت من قدميه موجة حقد على ماتياس وزمرته، مختلطة بغيظ أصم ضد لين. لم يستطع أن يفهم كيف لم تتنبه الفتاة إلى حقيقة ما يجري، وكيف لا ترى الفخ المزدوج الذي ينصبه لها أولئك المتملقون، من كأس الشمبانيا الذي يملؤونه لها مرة بعد أخرى، ومن الوردة الحمراء التي علقها ماتياس في شعرها. فكل شيء مُعدّ

Twitter: @ketab_n

ومبتذل بصورة مثيرة للتقزز. وفكر وهو يشعر بالقرف منها مثلما يشعر به من الآخرين: «إنها بلهاء لا علاج لها»، ولكنه أحس بأنه مهزوم في حب محتم انتظر طوال سنوات الفرصة ليتفتح وهو الآن ينفجر، مسبباً له الدوار.

- هل أصابك شيء يا ابن الخال؟ - سأله ماتياس ساخراً، وهو يقدم له كأساً.

لم يستطع الرد، وكان عليه أن يدير وجهه جانباً لكي يخفي نيته القاتلة، ولكن الآخر انتبه إلى مشاعره واستعد للتقدم بالمزاح أكثر. عندما أعلنت لين سوميرز أنه يجب عليها أن تتصرف، بعد أن وعدت بالعودة في الأسبوع التالي لتقف أمام آلات تصوير أولئك «الفنانين»، طلب ماتياس من ابن خاله أن يرافقها. وهكذا وجد سيفيرو دل بايي نفسه على انفراد مع المرأة التي تمكنت من وقف حب نيفيا اللجوج عند حده. سار مع لين الكوادرات القليلة التي تفصل شقة ماتياس عن صالون شاي إلزا سوميرز. وكان مشوشاً إلى حد لم يعرف معه كيف يبدأ معها حديثاً تافهاً. كان الوقت قد فات ليكشف لها حقيقة الرهان، فهو يعرف أن لين قد وقعت في حب ماتياس بالعمى نفسه الذي أحبها هو نفسه به. لن تصدقه، وستشعر بالإهانة، وحتى لو أوضح لها بأنها لا تعني بالنسبة إلى ماتياس سوى لعبة وحسب، فإنها ستذهب مع ذلك إلى المسلخ، عمياء بالحب. وكانت هي من كسرت الصمت غير المريح لتسأله إذا ما كان ابن الخال التشيلي الذي ذكره ماتياس. وأدرك سيفيرو تماماً بأنه ليس لدى الفتاة أدنى ذكرى عن لقائهما الأول قبل سنوات، حين كانت تُلصق صوراً في ألبوم على الضوء المتسرب من إحدى النوافذ، وأنها لا تعرف بأنه أحبها منذ ذلك الحين بإلحاح الحب الأول، ولم تنتبه كذلك إلى أنه كان يحوم حول محل الحلويات وكثيراً ما يصادفها في الشارع. إن عينيها لم تلمحاه بكل بساطة. وعندما ودعها وقدم لها بطاقته، وانحنى بحركة تقبيل يدها، تلعثم راجياً منها ألا تتردد في الاتصال به إذا ما احتاجت إليه يوماً. منذ ذلك اليوم صار يتجنب ماتياس وغرق في الدراسة والعمل كي يُبعد لين سوميرز والرهان المهين عن تفكيره. وعندما دعاه ابن عمته

Twitter: @ketab_n

يوم الأربعاء التالي إلى الجلسة الثانية، والتي كان مقرراً أن تتعرى الفتاة فيها، شتمه. وطوال أسابيع بعد ذلك لم يستطع كتابة سطر واحد إلى نيفيا، ولم يكن قادراً كذلك على قراءة رسائلها التي كان يخبئها دون أن يفتحها، مثقلاً بالشعور بالذنب. كان يشعر بأنه قذر، كما لو أنه يشارك في الرهان المتبجح لتدنيس لين سوميرز.

كسب ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث الرهان دون مشقة، ولكنه افتقر في أثناء ذلك إلى الصفاقة، ووجد نفسه، دون رغبة منه، متورطاً في أكثر ما كان يخشاه في هذا العالم: ورطة عاطفية. لم يبلغ حد الوقوع في حب الجميلة لين سوميرز، ولكن الحب غير المشروط والبراءة اللذين استسلمت له بهما، تمكنا من هز مشاعره. لقد وضعت الفتاة نفسها بين يديه بثقة كاملة، مستعدة لعمل كل ما يطلبه منها، دون أن تحكم على نواياه أو تحسب حساب النتائج. قدر ماتياس السلطة المطلقة التي يمارسها عليها، عندما رآها عارية في مرسمه، محمرة من الارتباك، تغطي عانتها ونهديها بذراعيها، وسط دائرة رفاقه الذين يتظاهرون بأنهم مصورون دون أن يخفوا هياج الكلاب الشبقة الذي تثيره فيهم تلك اللعبة القاسية. لم يكن لجسد لين شكل الساعة الرملية الشائع في ذلك الحين، فليس هناك أي ضخامة في المؤخرة والصدر يفصل بينهما خصر مستحيل، بل كانت نحيلة متعرجة، ذات ساقين طويلتين ونهدين مكورين بحلمتين قاتمتين، لها بشرة بلون ثمرة صيفية وشال شعر أسود وأملس يصل حتى منتصف ظهرها. أعجب بها ماتياس مثلما يعجب بالكثير من التحف الفنية التي يجمعها، بدت له لذيذة، ولكنه تأكد سعيداً من أنها لا تمارس عليه أية جاذبية. ودون أن يفكر بها، ولمجرد التظاهر أمام أصدقائه وممارسة القسوة وحسب، طلب منها أن تبعد ذراعيها. نظرت إليه لين لثوان، ثم انصاعت ببطء، بينما كانت دموع الخجل تسيل على خديها. حيال تلك الدموع غير المتوقعة ساد الغرفة صمت جليدي، فأبعد الرجال بصرهم وتوقفوا وآلات التصوير بين ايديهم، دون أن يدروا ماذا يفعلون، لوقت بدا لهم طويلاً جداً. عندئذ أحس ماتياس بالخجل للمرة الأولى في حياته، وتناول معطفاً غطى به لين وهو يلفها بذراعيه.

Twitter: @ketab_n

«انصرفوا! لقد انتهى كل شيء»، أمر ضيوفه الذين بدؤوا ينسحبون واحداً واحداً وهم حائرون.

حين بقي على انفراد معها، أجلسها ماتياس على ركبتيه وبدأ يهزها مثلما يهز طفلاً، طالباً منها الصفح في ذهنه، ولكنه عاجز عن صوغ الكلمات، بينما الفتاة تواصل بكاءها الصامت. واقتادها برفق أخيراً إلى ما وراء الحاجز، إلى السرير، واضطجع معها معانقاً إياها كأخت، وراح يداعب رأسها، ويقبل جبهتها، يشوشه إحساس مجهول ومتسلط لا يستطيع تسميته. لم يكن يرغب بها، وإنما كان يريد حمايتها فقط وإعادتها سليمة إلى براءتها، ولكن نعومة بشرة لين المستحيلة، وشعرها الحي الذي غطاه، وعبقها التفاحي هزمه. لقد فاجأه ذلك الاستسلام غير المتحفظ للجسد الزفافي الذي ينفتح للمس يديه، ودون أن يدري كيف، وجد نفسه يرتادها، يقبلها بلهفة لم تثرها فيه أي امرأة من قبل، يُدخل لسانه في فمها، في أذنيها، في كل مكان، يسحقها، يتغلغل فيها في دوار عاطفة جامحة، يمتطيها دون شفقة، أعمى، جامحاً، إلى أن انفجر فيها بتهيج ماحق. وخلال برهة قصيرة وجدا نفسيهما في بُعد آخر، بلا دفاعات، عاريي الجسد والروح. وانكشفت لماتياس حميمية كان يتفاداها حتى ذلك الحين دون أن يعرف حتى أنها موجودة، اجتاز حدوداً أخرى ووجد نفسه في الجانب الآخر، مجرداً من الإرادة. لقد كان لديه عشاق آخرون - نساء ورجالاً - يجدر به تذكرهم، ولكنه لم يفقد بهذه الطريقة من قبل سيطرته على نفسه، وحسه الساخر، ولا مبالاته، وفكرة تفرده المقدسة، لينصهر بكل بساطة في كائن بشري آخر. وأسلم هو أيضاً، بطريقة ما، عذريته في ذلك العناق. لم تكد الرحلة تدوم أكثر من جزيء ضئيل من الزمن، ولكنها كانت كافية لإعادته إلى الواقع؛ رجع إلى جسده المستنفد وتمترس على الفور في درع سخريته المعهود. وعندما فتحت لين عينيها لم يكن هو نفس ذلك الرجل الذي مارست معه الحب، وإنما السابق، ولكنها كانت تفتقر إلى التجربة لتعرف ذلك. موجوعة، دامية، وسعيدة، هامت في سراب حب موهوم، بينما ماتياس يحتضنها بين ذراعيه، ولكن روحه كانت قد مضت بعيداً. وبقيا على تلك الحال إلى

Twitter: @ketab_n

أن تلاشى الضوء تماماً من النافذة وأدركت أنه عليها العودة إلى حيث أمها. ساعدها ماتياس في ارتداء ملابسها ورافقها إلى مقربة من صالون الشاي. «انتظرني، سآتيك غداً في الساعة نفسها»، همست له عند الوداع.

لم يعرف سيفيرو دل بايي شيئاً مما جرى في ذلك اليوم أو الأحداث التي تلته، إلا بعد ثلاثة شهور من ذلك. ففي شهر نيسان 1879 أعلنت تشيلي الحرب على جارتيها البيرو وبوليفيا، بسبب قضية نزاع على أراض ومكامن نِترات وبدافع الغطرسة. واندلعت بذلك حرب الباسفيك. عندما وصل الخبر إلى سان فرانسيسكو، مثل سيفيرو أمام عمته وأعلن عن نيته في الذهاب للقتال.

فذكّرته عمته باولينا:

- ألم نتفق على أنك لن تطأ ثكنة عسكرية قط؟

- الأمر الآن مختلف، فوطني في خطر.

- أنت مدني.

فأوضح:

- إنني رقيب احتياط.

- ستكون الحرب قد انتهت قبل أن تتمكن من الوصول إلى تشيلي. فلننتظر ما تقوله الصحف وما تراه الأسرة. لا تتسرع - نصحته العمة.

- إنه واجبي - رد سيفيرو وهو يفكر بجده، البطريرك أغوسطين دل بايي، الذي مات قبل وقت قصير متقلصاً إلى حجم شمبانزي. ولكن دون أي تبدل في طباعه الفظة.

وردت عليه باولينا:

- واجبك هنا، معي. الحرب جيدة للصفقات التجارية. هذه هي اللحظة المناسبة للمضاربة بالسكر.

Twitter: @ketab_n

- السكر؟

فقالت باولينا مؤكدة.

- لا ينتج أي واحد من هذه البلاد الثلاثة السكر، والناس يميلون في الأزمنة السيئة إلى أكل المزيد من الحلويات.

- وكيف تعرفين ذلك يا عمتي؟

- من تجربتي الخاصة يا فتى.

انطلق سيفيرو لاعداد حقائبه، ولكنه لم يغادر في السفينة التي أبحرت نحو الجنوب بعد أيام من ذلك، مثلما كان يخطط، وإنما في أواخر شهر تشرين الأول. ففي تلك الليلة أخبرته عمته بأنهم سيتلقون زيارة غريبة وتأمل منه أن يكون حاضراً، لأن زوجها مسافر، ويمكن للقضية أن تتطلب نصائح جيدة من محام. في الساعة السابعة مساء، وبالاستخفاف الذي يبديه عندما يرى نفسه مضطراً إلى خدمة أناس من مستوى اجتماعي وضيع، أدخل ويليامز صينياً طويل القامة، له شعر رمادي، يرتدي سواداً صارماً، وامرأة ذات مظهر شبابي وتافه، ولكنها لا تقل تكبراً عن ويليامز نفسه. وجد تاو تشين وإلزا سوميرز نفسيهما في قاعة الاحتفالات، كما يسمونها، محاطين بأسود، وأفيال وحيوانات أفريقية أخرى تراقبهم من إطاراتها المذهبة على الجدران. كانت باولينا ترى إلزا بكثرة في محل الحلويات، ولكنهما لم تلتقيا قط في مكان آخر، فهما تنتميان إلى عالمين منفصلين. ولم تكن تعرف كذلك هذا السماوي الذي يجب أن يكون زوجها أو عشيقها نظراً للطريقة التي يمسكها بها من ذراعها. أحست بأنها مضحكة في قصرها ذي الخمس والأربعين حجرة، مرتدية ثوباً من الأطلس الأسود ومغطاة بالماس، أمام هذا الثنائي المتواضع الذي يحييها ببساطة، محتفظاً بمسافة منها. لاحظت أن ابنها ماتياس يستقبلهما مربكاً، بانحناءة من رأسه، دون أن يمد إليهما يده، ويبتعد عن الجماعة وراء طاولة مكتب من خشب الجاكرندا، متظاهراً بالاستغراق في تنظيف غليونه. أما سيفيرو دل بايي فأدرك دون ظلال أي شك سبب حضور والدي لين سوميرز إلى البيت وتمنى لو أنه بعيد

Twitter: @ketab_n

ألف فرسخ عن ذلك المكان. ولم تضيع باولينا المدهوشة والمتيقظة الوقت في عرض شراب تقدمه، بل أومأت إلى ويليامز لينسحب ويغلق الباب. «ما الذي يمكنني عمله من أجلكما؟»، سألتهما. عندئذ بادر تاو تشين إلى التوضيح، دون أن يهتاج، بأن ابنته لين حبلى، وأن الفاعل هو ماتياس، وأنه يأمل بإصلاح الوضع بالطريقة الوحيدة الممكنة. وللمرة الأولى في حياتها فقدت السيدة دل بايي الضخمة قدرتها على الكلام. بقيت جالسة، فاغرة الفم مثل حوت متعطل، وعندما خرج صوتها أخيراً لم يكن سوى لاطلاق نعيق.

- لا علاقة لي يا أماه بهؤلاء الناس. أنا لاأعرفهم ولا أعرف عم يتكلمون - قال ماتياس من وراء طاولة الجاكراندا، وغليون العاج المنحوت في يده.

فقاطعته إلزا وهي تنهض واقفة، بصوت كسير، ولكن دون دموع:

- لين أخبرتنا بكل شيء.

- إذا كان ما تريدونه هو المال... - بدأ ماتياس قول ذلك، ولكن أمه أسكتته بنظرة قاسية.

- أرجو معذرتكما - قالت وهي تتوجه إلى تاو تشين وإلزا سوميرز - ابني متفاجئ بهذا الأمر مثلي. إنني متأكدة من أننا نستطيع حل هذه المسألة بوقار، مثلما ينبغي لـ...

- لين ترغب في الزواج بالطبع. لقد أخبرتنا أنكما متحابان - قال تاو تشين، وهو واقف أيضاً، متوجهاً إلى ماتياس الذي ردّ عليه بقهقهة قصيرة، دوت مثل نباح كلب، وقال:

- حضرتكما تبدوان أناساً محترمين. ولكن ابنتكما ليست كذلك، وهو ما يشهد عليه أي واحد من أصدقائي. ولست أدري أي واحد منهم هو المسؤول عن نكبتها، ولكنني لستُ أنا بكل تأكيد.

فقدت إلزا سوميرز اللون تماماً، وبدت شاحبة شحوب الجص ومرتجفة، على وشك الانهيار. أمسكها تاو تشين بقوة من ذراعها، واقتادها وهو يسندها كمشلولة نحو الباب. أحس سيفيرو دل بايي بأنه

Twitter: @ketab_n

يموت من الغم والخجل، وكما لو أنه المذنب الوحيد في ما حدث. تقدم ليفتح لهما الباب ويرافقهما حتى المخرج، حيث كانت تنتظرهما عربة مستأجرة. لم يخطر له شيء يقوله لهما. وعندما رجع إلى الصالة تمكن من سماع نهاية الجدال.

- لا يمكنني التسامح بوجود أبناء زنا من دمي مزروعين في هذه الدنيا! - صرخت باولينا.

- حددي ولاءاتك يا أماه. من ستصدقين.. ابنك أم بائعة حلوى وصيني؟ - رد عليها ماتياس بذلك وهو يخرج صافقاً الباب.

في تلك الليلة تواجه سيفيرو دل بايي مع ماتياس. كان لديه ما يكفي من المعلومات لكي يستنتج الوقائع، وأراد أن يفحم ابن عمته باستجواب عنيد، ولكنه لم يكن بحاجة إلى ذلك، لأن الأخير أفلت كل ما لديه فوراً. فقد قال إنه يشعر بأنه متورط في وضع عبثي لم يكن مسؤولاً عنه؛ فلين سوميرز هي التي طاردته، وسلّمت نفسها إليه على طبق؛ أما هو فلم يكن ينوي في الحقيقة إغواءها، والرهان لم يكن سوى تبجح. واوضح أنه قد أمضى شهرين وهو يحاول التخلص منها دون أن يدمرها، وكان يخشى إقدامها على اقتراف حماقة، فهي واحدة من أولئك الفتيات الهستيريات اللواتي لا يتورعن عن إلقاء أنفسهن إلى البحر حباً. ووافق على أن لين ليست سوى مجرد طفلة تقريباً، وأنها وصلت إلى ذراعيه وهي عذراء، رأسها مليء بأشعار محلاة، وجاهلة تماماً بمبادئ الجنس، ولكنه كرر بأنه لا يشعر بأي التزام تجاهها، وأنه لم يحدثها قط عن الحب، وأقل من ذلك عن الزواج. وأضاف بأن الفتيات من أمثالها يسببن التعقيدات على الدوام، ولهذا فإنه يتحاشاهن مثلما يتحاشى الوباء. وهو لم يتصور مطلقاً بأنه يمكن للقائه القصير مع لين أن يؤدي إلى مثل هذه النتائج. وقال إنهما انفردا معاً في عدة مناسبات، وأنه أوصاها بأن تقوم بعمليات غسل بالخل والخردل، ولم يكن بإمكانه أن يتصور أنها خصبة إلى ذلك الحد المذهل. وهو مستعد على أي حال لتحمل نفقات الوليد، فالنفقات هي أمر مفروغ منه، ولكنه لا يفكر في منحه كنيته، لأنه ليس

Twitter: @ketab_n

هناك أي دليل على أنه ابنه. وانتهى إلى القول: «لن أتزوج الآن أو لاحقاً يا سيفيرو. أتعرف أحداً يفتقر إلى هذه الميول البرجوازية أكثر مني؟».

بعد أسبوع من ذلك ذهب سيفيرو دل بايي إلى عيادة تاو تشين، بعد أن قلّب في رأسه ألف مرة المهمة العويصة التي كلفه بها ابن عمته. كان **الجونغ يي** قد انتهى من فحص المريض الأخير في ذلك اليوم واستقبله على انفراد في غرفة المعاينة، في الطابق الأول. واستمع دون تأثر إلى عرض سيفيرو. ثم قال دون أن يعكس أي انفعال:

– لين ليست بحاجة إلى المال، ومن أجل هذا لديها أبواها. ولكنني أشكر اهتمامك على أي حال يا سيد دل بايي.

– كيف حال الآنسة سوميرز؟ سأل سيفيرو بمذلة حيال وقار الآخر.

– ما زالت ابنتي تظن بأن هناك سوء تفاهم. إنها واثقة من أن السيد رودريغيث دي سانتا كروث سيأتي عما قريب ليطلب يدها للزواج، ليس كواجب، وإنما عن حب.

فدمدم سيفيرو دل بايي:

– لست أدري ما الذي يمكنني أن أقدمه لتغيير الظروف يا سيد تشين. الحقيقة أن ابن عمتي ليس في حالة صحية سليمة، وهو غير قادر على الزواج. إنني متأسف إلى أبعد الحدود...

وقال تاو تشين برقة:

– نحن أشد أسفاً. فلين ليست في نظر ابن عمتك إلا مجرد تسلية، أما بالنسبة إلى لين فهو حياتها.

– أحب أن أقدم تفسيراً لابنتك يا سيد تشين. هل يمكنني مقابلتها، أرجوك.

– يجب علي أن أسأل لين. إنها لا ترغب في رؤية أحد حالياً، ولكنني سأخبرك إذا ما غيرت رأيها – أجابه **الجونغ يي** وهو يرافقه إلى الباب.

*

Twitter: @ketab_n

انتظر سيفيرو دل بايي ثلاثة أسابيع دون أن يعرف كلمة واحدة عن لين، إلى أن لم يعد يطيق الصبر أكثر وذهب إلى صالة الشاي ليتوسل إلى إلزا سوميرز أن تسمح له بالتكلم مع ابنتها. كان ينتظر أن يلاقي مقاومة صارمة، ولكنها استقبلته ملتفة برائحتها التي تعبق بالسكر والفانيلا، بالهدوء نفسه الذي استقبله به تاو تشين من قبل. لقد حمّلت إلزا نفسها في البداية جريرة ما حدث: فقد اعتبرت نفسها مهملة، لم تستطع حماية ابنتها فدمرت حياتها. بكت بين ذراعي زوجها، إلى أن ذكّرها هو بأنها عانت وهي في السابعة عشرة من عمرها من تجربة مماثلة: الحب المفرط نفسه، وهجران الحبيب، والحبل، والرعب؛ والفرق هو أن لين ليست وحدها، وليس عليها أن تهرب من بيتها وتجتاز نصف العالم في عنبر سفينة بحثاً عن رجل غير جدير بذلك، مثلما فعلت هي. لقد لجأت لين إلى أبويها، وهما محظوظان جداً لأنهما قادران على مساعدتها، هكذا قال لها تاو تشين. وإن ابنتهما كانت ستضيع لو أنها في تشيلي أو في الصين، فالمجتمع لن يغفر لها، أما في كاليفورنيا، هذه الأرض التي بلا تقاليد، فهناك متسع للجميع. جمع **الجونغ يي** أسرته الصغيرة وأوضح أن الوليد سيكون هبة من السماء وعليهم أن ينتظروا قدومه بسعادة؛ وأن الدموع سيئة للكارما، وتؤذي الجنين في بطن أمه وتَسِمُهُ بحياة قلقة. فهذا الطفل أو الطفلة سيكون مرحباً به؛ فخاله لاكي وهو نفسه،جده، سيكونان بديلين جديرين للأب الغائب. أما بالنسبة إلى حب لين المُحبط، فهو أمر سيفكرون به فيما بعد. كان يبدو متحمساً جداً حيال فكرة أنه سيكون جداً، حتى أن إلزا أحست بالخجل من اعتباراتها المتزمتة، فمسحت دموعها ولم تعد إلى تأنيب نفسها. وقررت أنه إذا كان إشفاق تاو تشين على ابنته أهم من شرف الأسرة، فلا بد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إليها؛ ولا بد أن يكون واجبها هو حماية لين، وكل ما عدا ذلك يخلو من أية أهمية. هذا ما عبرت عنه بلطف لسيفيرو دل بايي في ذلك اليوم في صالة الشاي. لم تفهم مبررات الشاب التشيلي في الاصرار على التكلم مع ابنتها، ولكنها تدخلت لمصلحته، وأخيراً وافقت ابنتها الشابة على مقابلته. كانت لين لا تكاد تتذكره، ولكنها استقبلته آملة

Twitter: @ketab_n

بأن يكون مبعوثاً من ماتياس.

تحولت زيارات سيفيرو دل بايي إلى بيت آل تشين في الشهور التالية إلى عادة. كان يأتي عند الغروب، بعد الانتهاء من عمله، فيترك الحصان مربوطاً أمام الباب ويدخل حاملاً القبعة في يده وهدية ما في اليد الأخرى، وهكذا راح يملأ غرفة لين بدمى وملابس للوليد. علمه تاو تشين لعبة ماه-جونغ وكانا يقضيان ساعات مع إلزا ولين في تحريك قطع العاج البديعة. ولم يكن لاكي يشارك في اللعب، لأنه كان يرى في اللعب دون مراهنات مجرد إضاعة للوقت، أما تاو تشين فلم يكن يلعب إلا ضمن الأسرة، لأنه قطع عهداً على نفسه في شبابه بعدم اللعب مقابل المال، وكان واثقاً من أن كارثة ستحيق به إذا ما تخلى عن عهده. وقد تآلف آل تشين مع حضور سيفيرو إلى حد أنهم كانوا يتطلعون إلى الساعة قلقين عندما يتأخر. وكانت إلزا سوميرز تنتهز الفرصة لتمارس معه التكلم بالاسبانية وتذكر تشيلي، تلك البلاد البعيدة التي لم تطأها منذ أكثر من ثلاثين سنة، ولكنها ما زالت تعتبرها وطنها. وكانا يتناقشان حول تفاصيل الحرب والتبدلات السياسية: فبعد عدة عقود من الحكومات المحافظة، انتصر الليبراليون، والنضال من أجل اخضاع سلطة الاكليروس وتحقيق الإصلاح شق كل أسرة تشيلية. فمعظم الرجال، مهما كان مستوى تدينهم الكاثوليكي، يتطلعون بلهفة إلى تحديث البلاد، لكن النساء، وهن أكثر تديناً، كن ينقلبن ضد آبائهن وأزواجهن للدفاع عن الكنيسة. ومهما بلغت ليبرالية الحكومة، كما كانت تقول نيفيا في رسائلها، فإن مصير الفقراء بقي على حاله، وتضيف بأن نساء الطبقة الراقية ورجال الدين هم من يتحكمون، كالعادة، بخيوط السلطة. وكانت الفتاة تكتب من وراء ظهر عائلة دل بايي التي لا تتساهل مع هذا النوع من الأفكار، بأن فصل الكنيسة عن الدولة هو خطوة كبيرة إلى الأمام دون شك، ولكن ما زالت الأسر نفسها هي التي تتحكم بالأوضاع. «إننا نؤسس حزباً آخر يا سيفيرو، حزب يسعى إلى العدالة والمساواة»، هكذا كانت تكتب، مدفوعة بحماس محادثاتها السرية مع الأخت ماريا إيسكابولاريو.

كانت حرب الباسفيك تتواصل في جنوبي القارة، وتزداد دموية في

Twitter: @ketab_n

كل يوم، بينما الجيوش التشيلية تتعجل في بدء الحملة في صحراء الشمال، وهي أراض شديدة الخشونة ومقفرة مثل سطح القمر، حيث يصبح تموين القوات مهمة جبارة. وكان الطريق البحري هو السبيل الوحيد لنقل الجنود إلى المواقع التي تدور فيها المعارك، ولكن الأسطول البيروي لم يكن ليسمح بذلك. وكان سيفيرو دل بايي يظن أن المعارك قد بدأت تُحسم لمصلحة تشيلي التي لا تضاهى بتنظيمها وقسوتها. وكان يشرح لإلزا سوميرز: ليست الأسلحة ولا الطابع القتالي وحدهما هما اللذان يحسمان نتيجة النزاع، وإنما القدوة التي يقدمها حفنة من الرجال الذين تمكنوا من تأجيج روح الأمة.

- أظن أن الحرب قد حُسمت في شهر أيار يا سيدتي، في معركة بحرية قبالة ميناء إيكيكي. فهناك قاتلت فرقاطة تشيلية قديمة في مواجهة قوة بيروية أكبر منها بكثير. كان يقود الفرقاطة ارتورو برات، وهو قبطان شاب شديد التدين وأقرب إلى الخجل، لا يشارك في اللهو والمجون الشائعين في الأجواء العسكرية، وضئيل التميز إلى حد أن قادته كانوا لا يثقون بشجاعته. وفي ذلك اليوم تحول إلى البطل الذي كهرب روح جميع التشيليين.

كانت إلزا على علم بتلك التفاصيل، فقد قرأتها في عدد قديم من التايمز اللندنية، حيث وُصِف الحدث بأنه ...« إحدى أهم المعارك المجيدة التي جرت على الإطلاق؛ فسفينة قديمة من الخشب، تكاد تكون مفتتة، صمدت طوال ثلاث ساعات ونصف ضد بطاريات المدفعية البرية وبارجة جبارة وانتهت ورايتها ترفرف عالياً». اندفعت البارجة البيروية التي يقودها الأميرال ميغيل غراو، وهو بطل أيضاً في بلاده، بأقصى سرعة لتهاجم الفرقاطة التشيلية، وتخترقها بمقدمتها، فانتهز القبطان برات تلك اللحظة ليقفز عند التصادم، يتبعه أحد رجاله. وقد قُتلا كلاهما بعد دقائق بالرصاص على متن المركب المعادي. وعند النطحة التالية، قفز عدد آخر من البحارة، منافسين قائدهم، وقُتلوا مُخترقين بالرصاص كذلك؛ وأخيراً قضى ثلاثة أرباع الطاقم قبل أن تغرق الفرقاطة. تلك

Twitter: @ketab_n

البطولة البلهاء بثت الحماسة في مواطنيه وأدهشت أعداءه، حتى أن الأميرال غراو راح يكرر مذهولاً «كيف يقاتل هؤلاء التشيليون!».

- غراو هذا رجل شهم. لقد جمع بنفسه سيف برات وملابسه وأعادها إلى أرملته - روى سيفيرو ذلك، ثم أضاف أن الشعار المقدس في تشيلي منذ تلك المعركة هو «القتال حتى النصر أو الموت»، مثلما فعل أولئك الشجعان.

سألته إلزا:

- وأنت يا سيفيرو، ألا تفكر بالذهاب إلى الحرب؟

فردّ الشاب خجلاً، دون أن يدري ما الذي ينتظره للقيام بواجبه:

- بلى، سأفعل ذلك عما قريب.

وفي أثناء ذلك كان بطن لين يزداد تضخماً دون أن تفقد ذرة واحدة من لطفها وجمالها. تخلت عن ارتداء ملابسها التي لم تعد تتسع لها وتكيّفت براحة مع العباءات الحريرية المبهرجة المشتراة من الحي الصيني. قلما كانت تخرج من البيت، على الرغم من إلحاح أبيها عليها بضرورة المشي. وفي بعض الأحيان كان سيفيرو دل بايي يأخذها في عربة للتنزه في **حديقة الحصن** أو إلى الشاطئ، حيث يفترشان شالاً لتناول وجبة خفيفة أو للقراءة. فكان هو يقرأ الصحف وكتب القانون، وهي تقرأ الروايات العاطفية التي لم تعد تصدق حبكتها، ولكنها مازالت تجد فيها ملاذاً. كان سيفيرو يعيش ليومه، من زيارة إلى زيارة لبيت آل تشين، دون أي هدف آخر سوى رؤية لين. لم يعد يكتب إلى نيفيا. لقد تناول الريشة مرات كثيرة ليعترف لها بأنه يحب امرأة أخرى، ولكنه كان يمزق الرسائل دون أن يرسلها لأنه لا يجد الكلمات المناسبة ليقطع علاقته بخطيبته دون أن يسبب لها جرحاً قاتلاً. ثم إن لين لم تقدم له مطلقاً أية إشارات يمكن لها أن تكون نقطة انطلاق لتصور مستقبل معها. لم يكونا يتكلمان عن ماتياس، مثلما لم يكن هذا بدوره يأتي على ذكر لين، ولكن السؤال كان معلقاً على الدوام في الهواء. لقد توخى سيفيرو ألا يذكر في بيت عمته شيئاً عن صداقته الجديدة مع آل تشين، وافترض أن

Twitter: @ketab_n

أحداً لم يعلم بذلك، باستثناء القهرمان المتغطرس ويليامز، والذي لم تكن هناك حاجة لإخباره، لأنه سيكون قد عرف بالأمر، مثلما يعرف كل ما يجري في ذلك القصر. كان قد مضى شهران على سيفيرو وهو يأتي متأخراً وبابتسامة بلهاء مرسومة على وجهه، عندما اقتاده ويليامز إلى حجرة المهملات على ضوء مصباح كحولي، وأراه حزمة ملفوفة بملاءة. وعندما كشفها رأى أنه مهد متلألئ.

- إنه من الفضة المنقوشة، فضة من مناجم السيدين في تشيلي. فيه نام كل أبناء الأسرة. يمكنك أخذه إذا أردت - وكان هذا هو كل ما قاله له.

امتنعت باولينا دل بايي، خجلاً، من الذهاب إلى صالة الشاي، فقد كانت عاجزة عن جمع فتات صداقتها الطويلة مع إلزا سوميرز التي تهشمت. وكان لابد لها من التخلي عن الحلويات التشيلية التي كانت نقطة ضعفها طوال سنوات، وتقنع بالحلويات الفرنسية التي يصنعها طاهيها. قوتها الطاغية، المفيدة جداً في كنس العوائق وإنجاز أهدافها، تحولت الآن ضدها؛ كانت تتآكل من الصبر، وقلبها يتطافر في صدرها وهي محكومة بالشلل. «أعصابي تقتلني يا ويليامز»، كانت تشكو وقد تحولت للمرة الأولى إلى امرأة عاجزة. ثم تفكر بأنه يجب عليها ألا تعذب نفسها كثيراً، لأن وجود زوج غير وفي وثلاثة أبناء طائشين، يعني في أغلب الاحتمالات بأن هناك عدداً كبيراً من الأبناء غير الشرعيين من دمها منتشرين هنا وهناك؛ ولكن أبناء الزنا المفترضين أولئك ليست لهم أسماء أو وجوه، أما هذا الذي سيولد أمام أنفها فسيكون له اسم ووجه. لو أن الأم لم تكن لين سوميرز على الأقل! لا يمكنها نسيان زيارة إلزا وذلك الصيني الذي لا تستطيع أن تتذكر اسمه؛ فحضور هذا الثنائي الوقور إلى صالونها يوجعها. لقد أغوى ماتياس الفتاة، ولا يمكن لأي حجة منطقية أو مصلحية أن تدحض الحقيقة التي تقبّلها حدسُها منذ اللحظة الأولى. ولم يفعل إنكار ابنها وتعليقاته الساخرة عن انعدام الفضيلة لدى لين إلا

Twitter: @ketab_n

تعزيز قناعتها. الطفل الذي تحمله تلك الفتاة في بطنها يثير فيها إعصاراً من المشاعر المتناقضة، فهناك من جانب الشعور بالغضب الأصم على ماتياس، ومن الجانب الآخر الحنان المحتم تجاه هذا الحفيد الأول أو الحفيدة الأولى. وما كاد فيليثيانو يرجع من رحلته حتى روت له ما جرى.

- مثل هذه الأمور تحدث في كل لحظة يا باولينا، ولا حاجة لتحويلها إلى مأساة. فنصف أطفال كاليفورنيا أبناء زنا. المهم هو تفادي الفضيحة والالتفاف حول ماتياس. فالأسرة أولاً وقبل كل شيء - هكذا كان رأي فيليثيانو.

فقالت مجادلة:

- هذا الطفل من أسرتنا.

- ها أنت تضمينه إلى الأسرة وهو لم يولد بعد! إنني أعرف هذه المدعوة لين سوميرز. لقد رأيتها وهي تقف شبه عارية في ورشة نحات، عارضة جسدها وسط حلقة من الرجال، ويمكن لأي واحد منهم أن يكون عشيقها. ألا ترين ذلك؟

- أنت الذي لا ترى يا فيليثيانو.

- يمكن لهذا القضية أن تتحول إلى عملية ابتزاز لا نهاية لها. إنني أمنعك من إقامة أي اتصال مع هؤلاء الناس، وإذا ما اقتربوا من هنا فسوف أتولى المسألة أنا بنفسي - هكذا حسم فيليثيانو الأمر في لحظة واحدة.

منذ ذلك اليوم لم تعد باولينا إلى ذكر الموضوع أمام ابنها أو زوجها، ولكنها لم تستطع كبح نفسها، وانتهت إلى وضع ثقتها في ويليامز الوفي الذي يتمتع بفضيلة الاستماع إليها حتى النهاية دون أن يبدي رأيه، اللهم إلا إذا طلبت منه ذلك. وفكرت بأنها ستشعر بشيء من التحسن لو أنها تستطيع مساعدة لين سوميرز، ولكن ثروتها هذه المرة لا تنفع في شيء.

كانت تلك الشهور وبيلة بالنسبة إلى ماتياس، فلم تكن ورطته مع لين وحدها هي التي تهيج غدته الصفراوية، وإنما تفاقمت كذلك حدة آلام

Twitter: @ketab_n

مفاصله كثيراً، ولم يعد قادراً على ممارسة المبارزة واضطر كذلك إلى التخلي عن رياضات أخرى. وصار من عادته الاستيقاظ موجوعاً إلى حدٍّ يتساءل معه عما إذا كانت قد حانت لحظة التفكير في الانتحار، وهي فكرة كان يغذيها منذ أن عرف اسم دائه، ولكنه حين يخرج من السرير ويبدأ الحركة يشعر بالتحسن، وعندئذ يعاوده، بحماسة جديدة، حبه للحياة. كان يصاب بتورم في معصميه وركبتيه، وترتجف يداه، ولم يعد الأفيون متعة يمارسها في تشايناتاون، بل تحول إلى حاجة ضرورية له. وكانت آماندا لويل، صديقته في العربدة ومحط ثقته الوحيدة، هي التي أشارت عليه بفوائد الحقن بالمورفين، وبأنها أكثر فعالية، ونظافة وفخامة من غليون الأفيون: فبعد تناول جرعة صغيرة يختفي الغم في الحال ليحل محله السلام والطمأنينة. لقد دمرت فضيحة ابن الزنا القادم في الطريق معنوياته، فأعلن فجأة في أواسط الصيف بأنه سيسافر خلال الأيام القادمة إلى أوروبا، ليرى إذا ما كان بإمكان تبديل الهواء، والاستفادة من المياه الساخنة في إيطاليا، والأطباء الإنكليز للتخفيف من أعراض مرضه. ولم يضف إلى ذلك أنه يفكر باللقاء مع آماندا لويل في نيويورك ليواصلا رحلة اجتياز المحيط معاً، لأنه لا يمكن النطق باسمها ضمن الأسرة، حيث تسبب ذكرى الاسكتلندية ذات الشعر الأحمر عسر هضم لفيليثيانو وغضباً أصم لباولينا. ولم يكن سبب سفر ماتياس المفاجئ هو مرضه ورغبته في الابتعاد عن لين سوميرز وحسب، وإنما ديون جديدة في القمار، مثلما عُرف بعد وقت قصير من سفره، عندما حضر صينيان محترسان إلى مكتب فيليثيانو ليحذراه بأقصى قدر من اللباقة، بإنه إما أن يدفع المبلغ الذي يدين به ابنه، مع الفوائد المترتبة، أو أن شيئاً غير سار، بكل صراحة، سيحدث لأحد أفراد أسرته المحترمة. وكان رد الوجيه المرموق هو الأمر بطردهما من مكتبه والالقاء بهما إلى الشارع، ثم استدعى بعد ذلك جاكوب فريمونت، الصحفي الخبير بشؤون قاع المدينة وعالمها السفلي. استمع إليه الرجل بلطف، لأنه كان صديقاً لماتياس، ثم رافقه في الحال لمقابلة قائد الشرطة، وهو جنوبي ذو سمعة مريبة يدين له ببعض الخدمات، وطلب منه أن يحل القضية على طريقته.

Twitter: @ketab_n

«الطريقة الوحيدة التي أعرفها هي بدفع ما يطلبون»، رد الضابط، ثم بادر إلى الشرح كيف أنه لا يمكن لأحد أن يتدخل في شؤون عصابات التونغ في تشايناتاون. فقد كان عليه، بحكم وظيفته، أن يرفع أجساداً مشقوقة من أعلاها إلى أسفلها، وأحشاؤها معبأة بدقة في صندوق إلى جانبها. إنها عمليات ثأر بين السماويين بالطبع، ثم أضاف: أما مع البيض فإنهم يبذلون جهدهم لجعل الأمر يبدو حادثاً عادياً. ألم تلاحظ كم من الناس يموتون حرقاً في حرائق لا تفسير لها، أو سحقاً تحت حوافر خيول عربة في شارع مقفر، أو غرقاً في مياه الخليج الراكدة، أو تهشماً بطوب يسقط بطريقة غامضة من بناء قيد الانجاز؟

وهكذا دفع فيليثيانو دي سانتا كروث المطلوب.

عندما نقل سيفيرو دل بايي إلى لين سوميرز خبر سفر ماتياس إلى أوروبا دون خطط عودة في المستقبل القريب، انفجرت في البكاء وواصلت ذلك طوال خمسة أيام، على الرغم من المهدئات التي كان يقننها لها تاو تشين، إلى أن وجهت لها أمها صفعتين على وجهها وأجبرتها على مواجهة الواقع. لقد ارتكبت عملاً متهوراً وليس أمامها الآن إلا أن تتحمل النتائج؛ فهي لم تعد صغيرة، وعما قريب ستصبح أماً وعليها أن تكون شاكرة لأن لها أسرة مستعدة لمد يد المساعدة لها، فأي فتاة أخرى في مثل وضعها قد تنتهي مطرودة إلى الشارع لتكسب عيشها بصورة خبيثة، بينما ينتهي الأمر بأبناء الزنا إلى أحد دور الأيتام؛ وقد حان الوقت لتقتنع بأن حبيبها قد تخلى عنها، وعليها أن تكون أماً وأباً لطفلها وأن تنضج مرة واحدة وإلى الأبد، لأنهم في هذا البيت ملوا من تحمل نزواتها؛ فمنذ عشرين سنة وهي تتلقى كل شيء بسخاء؛ فلا تظنن أنها ستقضي كل حياتها مستلقية في السرير وهي تشكو؛ عليها أن تنتف أنفها وترتدي ثيابها، لأنها ستخرج لتمشي، وهو ما ستفعله مرتين في اليوم دون تخلف، سواء أكانت تمطر أو ترعد، هل سمعتِ؟ أجل، لقد سمعت لين حتى النهاية بعينين زائغتين من هول المفاجأة، ووجنتين متأججتين من الصفعتين الوحيدتين اللتين تلقتهما في حياتها. ارتدت ملابسها

Twitter: @ketab_n

وانصاعت بصمت. ومنذ تلك اللحظة حطت عليها الحكمة والتفكير السليم دفعة واحدة وبالصدمة، وتقبلت قدرها بجدية مذهلة، فلم تعد إلى الشكوى، وصارت تبتلع أدوية تاو تشين، وتقوم بجولات مشي طويلة مع أمها، بل وكانت قادرة على الضحك مقهقهة عندما علمت بأن مشروع تمثال الجمهورية قد ذهب إلى الجحيم، مثلما قال أخوها لاكي، ولكن ليس بسبب غياب الموديل، وإنما لأن النحات هرب بالنقود إلى البرازيل.

في أواخر شهر آب تجرأ سيفيرو دل بايي أخيراً على التحدث عن عواطفه مع لين سوميرز. كانت تشعر في ذلك الحين بأنها ثقيلة مثل فيل ولا تتعرف على وجهها في المرآة، ولكنها في عيني سيفيرو كانت أكثر جمالاً من أي وقت آخر. كانا عائدين في الحر من جولة مشي، فأخرج منديلاً ليمسح جبهتها ورقبتها، ولكنه لم يتمكن من إنهاء حركته. فقد وجد نفسه، دون أن يدري كيف، ينحني نحوها، ويثبتها بقوة من كتفيها ويقبلها من فمها في وسط الشارع. طلب منها أن يتزوجا فأوضحت له بكل بساطة بأنها لن تحب أي رجل آخر، وإنما ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث وحده.

- لا أطلب منك أن تحبيني يا لين، فالحب الذي أكنه لك يكفي لنا نحن الاثنين - ردّ عليها سيفيرو بالطريقة الاحتفالية التي يعاملها بها دوماً، وأضاف:- الطفل سيحتاج إلى أب. امنحيني الفرصة لأحميكما معاً وأعدك بأنني سأكون مع مرور الوقت جديراً بمحبتك.

فردت لين:

- أبي يقول إنهم في الصين يتزوجون دون معرفة مسبقة ويتعلمون حب بعضهم بعضاً فيما بعد، ولكنني واثقة من أنني لن أكون كذلك يا سيفيرو. إنني متاسفة جداً...

- لن يكون عليك أن تعيشي معي يا لين. فما إن تضعي وليدك حتى أغادر إلى تشيلي. بلادي في حالة حرب وقد تخلفتُ كثيراً عن واجبي.

- وماذا إذا لم ترجع من الحرب؟

- سيحصل ابنك على الأقل على كنيتي وعلى ميراث أبي الذي ما

Twitter: @ketab_n

زلت أملكه. ليس بالمبلغ الكبير، ولكنه سيكون كافياً لتعليمه. وستحصلين أنت يا عزيزتي لين على الاحترام...

في تلك الليلة بالذات كتب سيفيرو دل بايي إلى نيفيا الرسالة التي لم يستطع كتابتها من قبل. أخبرها ذلك في أربع جمل، دون مقدمات أو اعتذارات. لأنه أدرك أنها لن تسامحه في حالة أخرى. وحتى إنه لم يتجرأ على طلب الصفح منها على تآكل الحب والزمن الذي عنته لها هذه السنوات الأربع من الخطوبة الرسائلية، لأن مثل هذه الحسابات الخسيسة ستملأ قلب ابنة عمه الكريمة بالسخط. استدعى خادماً وكلفه بوضع الرسالة في البريد في اليوم التالي، ثم استلقى بملابسه على السرير، مستنفداً. نام دون أحلام للمرة الأولى منذ زمن طويل. وبعد شهر من ذلك تزوج سيفيرو دل بايي ولين سوميرز في حفلة مقتضبة، بحضور أسرتها وويليامز، وهو الشخص الوحيد الذي دعاه سيفيرو من أفراد بيته. كان يعرف بأن القهرمان سيخبر عمته باولينا بالأمر، وقرر أن ينتظر أن تقوم هي بالخطوة الأولى وتسأله. لم يعلن عن ذلك، لأن لين طلبت منه أكبر قدر من التكتم إلى ما بعد ولادة الطفل واستعادتها مظهرها الطبيعي؛ وقالت إنها لا تستطيع الظهور ببطن اليقطين هذا وبوجهها الملطخ بالبقع. في تلك الليلة ودّع سيفيرو زوجته المشرقة بقبلة على جبهتها وانصرف كالعادة لينام في غرفته كعازب.

في ذلك الأسبوع بالذات جرت في مياه المحيط الهادي معركة بحرية أخرى وأعطب الأسطول التشيلي بارجتين معاديتين. والأميرال البيروي ميغيل غراو، الرجل الشهم نفسه الذي أعاد قبل شهور سيف القبطان برات إلى أرملته، قضى نحبه بصورة بطولية مثل ذاك. لقد كانت تلك المعركة كارثة بالنسبة للبيرو، فبفقدانها السيطرة البحرية، انقطعت خطوط اتصالاتها وصارت جيوشها مقطعة الأوصال ومعزولة. سيطر التشيليون على البحر، وتمكنوا من نقل قواتهم إلى المواقع الحساسة في الشمال وتنفيذ خطة التوغل في أراضي العدو حتى احتلال عاصمته ليما. كان سيفيرو دل بايي يتابع الأخبار باللهفة نفسها التي يبديها

Twitter: @ketab_n

مواطنوه في الولايات المتحدة، ولكن حبه للين كان يتفوق على وطنيته باطراد، ولم يقدم موعد رحلة عودته.

في فجر يوم الاثنين الثاني من شهر تشرين الأول استيقظت لين فجراً وقميص نومها مبتل، فأطلقت صرخة رعب وهي تظن بأنها قد بالت على نفسها. «أمر سيئ، لقد تمزق الكيس مبكراً جداً» هكذا قال تاو تشين لزوجته، ولكنه ظهر أمام ابنته باسماً وهادئاً، وبعد عشر ساعات من ذلك، بينما التشنجات تكاد لا تكون ملموسة والأسرة مستنفدة من لعب ماه-جونغ لإلهاء لين، قرر تاو تشين اللجوء إلى أعشابه. وكانت الأم المستقبلية تمزح متحدية: أهذه هي آلام المخاض التي طالما حذروها منها؟ وقالت: إنها أهون من آلام المغص التي يسببها الطعام التشيلي. كانت تشعر بالملل أكثر من شعورها بالتعب، وكانت جائعة، ولكن أباها لم يسمح لها إلا بتناول الماء ونقيع الأعشاب الطبية بينما هو يغرس إبر الوخز ليسرّع المخاض. وقد أعطت المواءمة ما بين الأدوية وإبر الوخز الذهبية مفعولاً، وعند الغروب، حين حضر سيفيرو دل بايي في زيارته اليومية، وجد لاكي عند الباب شاحباً، والبيت يهتز بتأوهات لين وصخب قابلة صينية تتكلم صارخة وتهرع راكضة وهي تحمل خرقاً وأباريق ماء. لقد تساهل تاو تشين مع القابلة لأن لديها تجربة أكثر منه في هذا المجال، ولكنه لم يسمح لها بأن تعذب لين بالجلوس عليها أو بتوجيه لكمات إلى بطنها، مثلما أرادت أن تفعل. بقي سيفيرو دل بايي في الصالة، ملتصقاً بالجدار ومحاولاً ألا يكون مرئياً. كل أنّة من لين كانت تخرق روحه؛ تمنى لو أنه يهرب أبعد ما يمكن، ولكنه لم يستطع التحرك من ركنه ولا النطق بكلمة واحدة. وفي هذه الأثناء رأى تاو تشين يظهر متماسكاً وغير متأثر، مرتدياً ملابسه بعنايته المعهودة.

- هل يمكنني الانتظار هنا؟ ألا أسبب إزعاجاً؟ كيف يمكنني مدّ يد المساعدة؟ - تلعثم سيفيرو وهو يمسح العرق الذي يسيل على عنقه.

- إنك لا تسبب أي إزعاج أيها الشاب، ولكنك لا تستطيع تقديم أي

Twitter: @ketab_n

مساعدة إلى لين، عليها أن تقوم بعملها وحدها. ولكنك تستطيع بالمقابل أن تساعد إلزا، فهي مضطربة بعض الشيء.

إن إلزا سوميرز التي جربت إنهاك الولادة وعرفت، مثل كل امرأة، بأن هذه هي عتبة الموت. تعرف الرحلة المجهدة والغامضة التي ينفتح بها الجسد ليسمح بخروج حياة أخرى؛ وهي تتذكر اللحظة التي تشعر فيها وكأنها تبدأ بالتدحرج دون كابح على سفح، تضغط وتدفع دون أي رقابة أو تحكم، وتتذكر الرعب، والألم، والذهول الذي لا سابق له عندما ينفلت الطفل أخيراً ويخرج إلى النور. لقد تأخر تاو تشين، رغم كل معارفه كجونغ يي أكثر منها في الانتباه إلى أن هناك شيئاً لا يمضي على ما يرام في حالة لين. كانت وسائل العلاج قد سببت تشنجات مخاض قوية، ولكن الوليد كان في وضع سيئ وعالقاً بعظام أمه. لقد كان مخاضاً قاسياً وصعباً، مثلما أوضح تاو تشين، ولكن ابنته قوية وكل شيء سيعتمد على حفاظ لين على هدوئها وألا تجهد نفسها أكثر مما يجب؛ وأضاف بأنه سباق مقاومة وتحمل، وليس سرعة وتعجل. وفي إحدى لحظات الهدوء، خرجت إلزا سوميرز التي لم تكن أقل إنهاكاً من لين نفسها، من الغرفة ووجدت نفسها أمام سيفيرو في الممر. أومأت له، فتبعها ذاهلاً إلى حجرة المذبح، ولم يكن قد دخلها من قبل. كان هناك صليب بسيط على منضدة واطئة، وتمثال صغير لـ «**كوان ين**»، إلهة الرحمة الصينية، وفي الوسط رسم بدائي بالحبر لامرأة ترتدي عباءة خضراء وعلى أذنيها زهرتان. رأت شمعتين مشتعلتين، وأطباقاً صغيرة مملوءة بالماء والأرز وبتلات الزهر. جثت إلزا على ركبتيها قبالة المذبح فوق وسادة من الحرير برتقالية اللون وطلبت من يسوع وبوذا وروح لين، الزوجة الأولى، أن يهبوا لمساعدة ابنتها في مخاضها. بقي سيفيرو واقفاً في الخلف، يدمدم دون تفكير بالأدعية الكاثوليكية التي تعلمها في طفولته. بقيا على تلك الحال لبعض الوقت، يوحدهما الخوف وحب لين، إلى أن استدعى تاو تشين زوجته لكي تساعده، لأنه صرف القابلة، وهو يريد قلب وضع الجنين وإخراجه بيده. بقي سيفيرو مع لاكي يدخنان عند الباب، بينما كانت تشايناتاون تستيقظ شيئاً فشيئاً.

Twitter: @ketab_n

فـي فجـر يـوم الثلاثـاء ولـد الطفـل. كـانت الأم المضمخـة بـالعرق والمرتجفة تناضل لإخراجه إلى النور، ولكنها لم تعد تصرخ، كانت تكتفي باللهاث، متنبهة إلى تعاليم أبيها. وأخيراً ضغطت أسنانها، وتشبثت بقضبان السرير المعدنية ودفعت بقوة بهيمية، وعندئذ أطلت خصلة شعر سوداء. أمسك تاو تشين الرأس وشدّ بثبات ورفق إلى أن خرج الكتفان، ثم فتل الجسد الصغير وسحبه بسرعة وبحركة واحدة، بينما كان يُبعد بيده الأخرى المصران الملتفة حول العنق. تلقت إلـزا سـوميرز حزمـة صغيرة دامية، إنها طفلة ضئيلة، وجهها مسطح وبشرتها زرقاء. وبينما تاو تشين يقطع حبل الخلاص وينهمك في المرحلة الثانية من عملية التوليد، نظفت الجدة حفيدتها بقطعة إسفنج وربتت على ظهرها إلى أن بدأت تتنفس. عندما سمعت الصرخة المُعلنة عن قدومها إلى الدنيا وتأكدت من أنها تكتسب لوناً طبيعياً، وضعتها فوق بطن لين. استندت الأم المستنفدة على مرفقها لتتلقاها، بينما جسدها ما يزال يضغط، ووضعتها على صدرها، مقبلة إياها ومرحبة بها بخليط من الإنكليزية والإسبانية والصينية والكلمات المخترعة. بعد ساعة من ذلك استدعت إلزا كلاً من لاكي وسيفيرو ليتعرفا على الطفلة. وجداها تنام بوداعة في المهد الفضي ذي النقوش الذي كان ملكاً لآل رودريغيث دي سانتا كروث، مرتدية ثوباً من الحرير الأصفر، وطاقية حمراء، يمنحانها مظهر جني صغير. كانت لين تغفو شاحبة وهادئة، ما بين ملاءات نظيفة، وتاو تشين إلى جانبها يجس نبضها.

- أي اسم سنطلق عليها؟ - سأل سيفيرو دل بايي بانفعال.

فردت إلزا:

- أنت ولين يجب أن تقررا ذلك.

- أنا؟

فسأله تاو تشين وهو يغمزه بعينه:

- أولست أنت الأب؟

- سيكون اسمها أورورا، لأنها ولدت في الفجر - دمدمت لين دون

Twitter: @ketab_n

أن تفتح عينيها.

فقال تاو تشين:

- اسمها بالصينية **لاي**-مينغ، أي فجر.

- مرحباً بك في الدنيا يا **لاي**-مينغ، أورورا دل بايي... - قال سيفيرو مبتسماً وهو يقبل الصغيرة من جبهتها، موقناً من أن هذا اليوم هو أسعد أيام حياته ومن أن هذه المخلوقة المجعدة المرتدية ملابس دمية صينية هي ابنته تماماً وكأنها تحمل في عروقها دمه. وتناول لاكي ابنة أخته بين ذراعيه وراح ينفخ أنفاسه العابقة برائحة التبغ وصلصة الصويا في وجهها.

- ما هذا الذي تفعله! - هتفت الجدة وهي تحاول انتزاع الصغيرة من بين يديه.

فضحك الخال:

- إنني أنفخ عليها لأنقل إليها حسن طالعي. فأي هدية أفضل من هذه يمكنني أن أقدمها إلى **لاي**-مينغ؟

عندما وصل سيفيرو دل بايي، في موعد العشاء، إلى المنزل في نوب هيل، حاملاً خبر زواجه من لين سوميرز قبل أسبوع، وأن ابنته قد ولدت هذا اليوم، كان ذهول عميه كما لو أنه وضع كلباً ميتاً على مائدة الطعام.

- والجميع يلقون المسؤولية على ماتياس! لقد كنت موقناً طوال الوقت من أنه ليس الأب، ولكنني لم أتصور قط أن تكون أنت - بصق فيليثيانو هذه الكلمات فور استعادته بعض وعيه بعد تلك المفاجأة.

فأوضح سيفيرو:

- لستُ الأب البيولوجي، ولكنني الأب الشرعي. اسم الطفلة أورورا دل بايي.

Twitter: @ketab_n

فقال العم ساخراً:

- هذه وقاحة لا تغتفر! لقد خنت هذه الأسرة التي احتضنتك كابن لها!

- لم أخن أحداً، لقد تزوجت عن حب.

- ولكن، ألم تكن هذه المرأة مغرمة بماتياس؟

فقال سيفيرو بجفاء وهو ينهض واقفاً:

- هذه المرأة تدعى لين، وهي زوجتي؛ إنني أطالبك بأن تعاملها بالاحترام المطلوب.

- أنت أحمق يا سيفيرو، أحمق تماماً! - شتمه فيليثيانو وهو يخرج غاضباً ليغادر غرفة الطعام بخطوات واسعة.

وفي هذه اللحظة كان يدخل ويليامز المتكتم ليشرف على تقديم الحلوى، فلم يستطع منع ابتسامة تواطؤ سريعة قبل أن ينصرف بتحفظ. واستمعت باولينا غير مصدقة لقول سيفيرو بأنه سيسافر بعد أيام إلى تشيلي ليشارك في الحرب، بينما ستبقى لين مع أبويها في تشاناتاون، وإذا ما سارت الأمور على ما يرام، فسيرجع في المستقبل ليتسنم دوره كزوج وأب.

- اجلس يا ابن أخي، ولنتحدث كما يفعل الناس. ماتياس هو والد هذه الطفلة، أليس كذلك؟

- اسأليه يا عمتي.

فهتفت باولينا:

- إنني أرى الوضع. لقد تزوجتَ منها لكي تُخرج ماتياس من الورطة. ابني شخص صفيق وأنت فتى رومنسي... انظر كيف ستدمر حياتك في لحظة نخوة متهورة!

- أنت مخطئة يا عمتي. لم أدمر حياتي، بل على العكس، أظن أن هذه هي فرصتي الوحيدة لأكون سعيداً.

Twitter: @ketab_n

- مع امرأة تحب شخصاً آخر؟ ومع ابنة ليست من صلبك؟

- الزمن سيساعد. إذا ما رجعتُ من الحرب، فستتعلم لين أن تحبني وستكبر الطفلة وهي ترى في أبوها.

فقالت هي:

- يمكن لماتياس أن يعود قبلك.

- هذا لن يغير من الأمر شيئاً.

- تكفي كلمة واحدة من ماتياس حتى تتبعه لين إلى نهاية العالم.

فرد سيفيرو:

- هذه مجازفة لا يمكن تفاديها.

فقررت باولينا:

- لقد فقدت عقلك يا ابن أخي. هؤلاء الناس ليسوا من مقامنا الاجتماعي.

فأكد لها سيفيرو:

- إنها أكثر الأسر التي أعرفها احتراماً يا عمتي.

- أرى أنك لم تتعلم شيئاً معي. من أجل الفوز في هذه الدنيا يجب إجراء الحسابات قبل الإقدام على التصرف. أنت محام ينتظرك مستقبل لامع وتحمل كنية أسرة من أقدم الكنيات الكبيرة في تشيلي. هل تظن أن المجتمع سيتقبل زوجتك؟ وماذا عن ابنة عمك نيفيا، ألا تنتظرك؟ - سألته باولينا.

فقال سيفيرو:

- هذا الأمر انتهى.

- حسن، يبدو أنك قد تورطت حتى النهاية يا سيفيرو، أظن أن الوقت قد فات على الندم. هلم بنا نحاول إصلاح الأمور إلى الحد الذي نستطيعه. المال والوضع الاجتماعي لهما مكانة كبيرة هنا وفي تشيلي. وأنا سأساعدك قدر استطاعتي، فلأمر ما أنا جدة هذه الطفلة، ماذا

Twitter: @ketab_n

قلت لي عن اسمها؟

- أورورا، ولكن جديها يدعوانها **لاي-مينغ**.

- إنها تحمل كنية دل بايي، وواجبي هو مساعدتها، خصوصاً وأن ماتياس قد غسل يديه من هذه المسألة المؤسفة.

- لن تكون مساعدتك ضرورية يا عمتي. لقد أعددت كل شيء لكي تتلقى لين أموال ميراثي.

- ليس المال هو كل شيء. يمكنني على الأقل رؤية حفيدتي، أليس كذلك؟

فوعدها سيفيرو دل بايي:

- سنسأل لين وأبويها عن ذلك.

كانا ما يزالان في قاعة الطعام عندما ظهر ويليامز حاملاً رسالة مستعجلة تقول إن لين أصيبت بنزيف وإنهم يخشون على حياتها، وعليه أن يذهب إليها في الحال. خرج سيفيرو مندفعاً باتجاه تشايناتاون. وعندما وصل إلى منزل آل تشين وجد الأسرة الصغيرة مجتمعة حول سرير لين، وكانوا ساكنين كما لو أنهم يقفون في «بوز» للوحة تراجيدية. هزته لبرهة بارقة أمل مجنونة حين رأى كل شيء نظيفاً ومرتباً، دون أي أثر لعملية الولادة، فلا شيء من الخرق القذرة أو رائحة الدم، ولكنه رأى بعد ذلك ملامح الألم على وجوه تاو وإلزا ولاكي. كان هواء الغرفة خفيفاً؛ تنفس سيفيرو بعمق شاعراً بالاختناق، كما لو أنه على قمة جبل. دنا مرتجفاً من الفراش ورأى لين ممددة ويداها فوق صدرها، وأجفانها مغمضة وتقاطيعها شفافة: إنها تمثال بديع من المرمر بلون الرماد. أمسك يدها، فكانت قاسية وباردة كالثلج، انحنى فوقها ولاحظ أن أنفاسها لا تكاد تُلحظ، وشفتيها وأصابعها زرقاء، قبّل راحتها في حركة لانهائية، مبللاً إياها بدموعه، ومهزوماً من الحزن. وتمكنت هي من التلعثم باسم ماتياس ثم زفرت مرتين ومضت بالخفة نفسها التي مرت بها طافية من هذا العالم. صمتٌ مطلقٌ احتضن سرَّ الموت، وانتظروا دون حراك لوقت

Twitter: @ketab_n

يستحيل تقديره، بينما روح لين تنتهي من الصعود. أحس سيفيرو بصرخة طويلة تنبثق من باطن الأرض وتصعد من قدميه إلى فمه، ولكنها لم تتمكن من الخروج من شفتيه. لقد جمدته الصرخة من الداخل، احتلته بالكامل وانفجرت داخل رأسه في دوي صامت. بقي هناك، جاثياً إلى جانب السرير ينادي لين دون صوت، غير مصدق حيال القدر الذي انتزع فجأة المرأة التي حلم بها طوال سنوات، وأخذها منه في الوقت الذي ظن أنه قد توصل إليها بالضبط. بعد أبدية من ذلك أحس بأن هناك من يلمس كتفه، ووجد نفسه في مواجهة عيني تاو تشين الغائمتين، وبدا له أنه يدمدم «لا بأس، لا بأس»، ورأى وراءه إلزا سوميرز ولاكي، يجهشان متعانقين، وأدرك أنه دخيل على ألم هذه الأسرة. عندئذ تذكر الطفلة. ذهب إلى المهد الفضي مترنحاً كمخمور، تناول الصغيرة أورورا بين ذراعية، ورفعها نحو السرير، وقرّبها من وجه لين، لكي تقول وداعاً لأمها. ثم جلس بعد ذلك وهي في حضنه، يؤرجحها دون عزاء.

حين علمت باولينا دل بايي بأن لين سوميرز قد ماتت، غمرتها موجة من السعادة، ووصل بها الأمر إلى إطلاق صرخة انتصار، قبل أن يجعلها الخجل من ذلك الشعور الخسيس تحط ثانية على الأرض. لقد كانت ترغب على الدوام في أن تكون لها ابنة. فمنذ حبلها الأول وهي تحلم بالطفلة التي ستحمل اسمها، باولينا، وتكون صديقتها ورفيقتها المفضلة. ومع كل ولادة لأبنائها الذكور الثلاثة كانت تشعر بأنها قد خُدعت، أما الآن، وهي في مرحلة النضوج هذه من حياتها، تسقط هذه الهدية في حضنها: حفيدة يمكنها أن تربيها كابنة، وتقدم إليها كل الفرص التي يمكن للحب والمال أن يوفراها، وفكرت: مخلوقة ترافقها في شيخوختها. ومع خروج لين سوميرز من اللوحة، ستتمكن من الحصول على الطفلة باسم ماتياس. وكانت تحتفل بضربة الحظ المفاجئة تلك بتناول فنجان من الشوكولاتة وثلاث قطع من حلوى القشدة، عندما ذكّرها ويليامز بأن الصغيرة هي ابنة سيفيرو دل بايي شرعياً، وأنه الشخص

Twitter: @ketab_n

الوحيد الذي له الحق بتقرير مستقبلها. فقالت هي: هذا أفضل، لأن ابن أخيها موجود هناك بالذات، أما ابنها ماتياس فيجب إحضاره من أوروبا وإقناعه بالمطالبة بابنته، وستكون تلك مهمة طويلة الأجل. لم تتوقع على الإطلاق ردّ فعل سيفيرو عندما أوضحت له خططها.

– أنت الأب في الأوراق القانونية، وهكذا يمكنك أن تجيء بالطفلة غداً بالذات إلى هذا البيت – قالت له باولينا.

فرد ابن أخيها بنبرة حازمة لم تسمعها منه من قبل:

– لن أفعل ذلك يا عمتي. أبوا لين سيحتفظان بحفيدتهما ريثما أذهب أنا إلى الحرب؛ إنهما يريدان تربيتها، وأنا موافق على ذلك.

وصرخت باولينا:

– أأنت مجنون؟ لا يمكننا ترك حفيدتي بين يدي إلزا سوميرز وذلك الصيني!

– ولم لا؟ إنهما جداها.

– أتريدها أن تترعرع في تشايناتاون؟ نحن نستطيع أن نوفر لها التعليم، والفرص، والرفاهية، وكنية محترمة. أما هم فلا يستطيعون أن يوفروا لها أي شيء من هذا.

فرد سيفيرو:

– سيوفرون لها الحب.

– وأنا أيضاً! تذكر أنك تدين لي بالكثير يا ابن أخي. وهذه هي فرصتك لترد لي الدين وتفعل شيئاً من أجل هذه الطفلة.

– متأسف يا عمتي، لقد حُسم الأمر. أورورا ستبقى مع جديها لأمها.

وداهمت باولينا واحدة من النوبات العصبية الكثيرة في حياتها. لم تستطع أن تصدق بأن ابن أخيها الذي تعتقد أنه حليفها غير المشروط، والذي تحول إلى ابن آخر لها، يمكنه أن يخونها بمثل هذه الدناءة.

Twitter: @ketab_n

صرخت، شتمت، عللت، ولكن كل ذلك دون جدوى، واختنقت، مما اضطر ويليامز إلى استدعاء طبيب لكي يعطيها جرعة مُسكّن تناسب حجمها وتنومها لبعض الوقت. وعندما استيقظت، بعد ثلاثين ساعة، كان ابن أخيها على متن السفينة البخارية التي ستنقله إلى تشيلي. وقد تمكن زوجها وقهرمانها ويليامز الوفي من إقناعها بأن المسألة ليست في اللجوء إلى العنف، مثلما فكرت، وأنه على الرغم من فساد العدالة الشديد في سان فرانسيسكو، إلا أنه لا يوجد سند قانوني لانتزاع الطفلة من جديها لأمها، خصوصاً وأن الأب المزعوم قد وافق على ذلك كتابة. كما أشارا عليها بعدم استخدام الأسلوب المطروق جداً بعرض المال مقابل الصغيرة، لأن ذلك قد يُستخدم ضدها ويكون مثل حصاة بين أسنانها. ونصحاها بأن الطريق الوحيد هو الدبلوماسية إلى أن يرجع سيفيرو دل بايي وعندئذ يمكن لهم الوصول إلى اتفاق ما، ولكنها لم تشأ الاستماع إلى الحجج، وذهبت بعد يومين إلى صالون الشاي الذي تملكه إلزا سوميرز وهي تحمل اقتراحاً، كانت متأكدة بأنه لا يمكن للجدة الأخرى أن ترفضه. استقبلتها إلزا وهي بملابس الحِداد على ابنتها، ولكنها مشرقة بالعزاء الذي تمدها به هذه الحفيدة النائمة بوداعة إلى جانبها. وحين رأت باولينا المهد الفضي الذي كان لأبنائها بجانب النافذة، فوجئت، ولكنها تذكرت على الفور بأنها كانت قد سمحت لويليامز بإعطائه إلى سيفيرو، فعضت شفتيها، فهي لم تأت من أجل الصراع على مهد، مهما كان ثميناً، وإنما للتفاوض بشأن حفيدتها. وكان من عادتها أن تقول: «لا يكسب من يملك الحق، وإنما من يحسن المساومة». وهي في هذه المناسبة ليست متاكدة تماماً من أن الحق إلى جانبها وحسب، وإنما من أنه ليس هناك من يتفوق عليها بفنون المساومة كذلك.

أخرجت إلزا الطفلة من المهد وقدمتها إليها. فأمسكت باولينا تلك الحزمة الصغيرة، والخفيفة إلى حد تبدو معه وكأنها لفافة من الخرق فقط، وظنت أن قلبها ينفجر بشعور جديد تماماً: «رباه، رباه»، كررت ذلك مذعورة حيال هذا الإحساس المجهول الذي أرخى ركبتيها واخترقها بإجهاشة في الصدر. جلست على كرسي مع حفيدتها الضائعة في

Twitter: @ketab_n

حضنها الهائل، وراحت تؤرجحها، بينما إلزا سوميرز تأمر بإحضار الشاي والحلوى التي كانت تقدمها إليها من قبل، في الوقت الذي كانت فيه أكثر زبائنها مواظبة في محل الحلويات. وفي هذه اللحظات تمكنت باولينا دل بايي من استعادة تماسكها والتخلص من الانفعال، ونصب مدفعيتها في وضع الهجوم. بدأت بتقديم التعزية على موت لين، ثم بادرت إلى الموافقة على أن ابنها ماتياس هو دون شك أبو أورورا، إذ تكفي رؤية الصغيرة لمعرفة ذلك: فهي تشبه جميع آل رودريغيث دي سانتا كروث ودل بايي. وقالت إنها تأسف كثيراً لأن ماتياس موجود في أوروبا لأسباب صحية ولا يمكنه المطالبة باستعادة الطفلة الآن. وبعد ذلك أعربت عن رغبتها في أخذ الحفيدة، نظراً لأن إلزا تشتغل كثيراً، وليس لديها الوقت، ومواردها أقل، ولا شك في أنه سيكون من المستحيل عليها أن توفر لأورورا مستوى الحياة الذي ستوفره لها في بيتها في نوب هيل. قالت ذلك بنرة من يقدم جميلاً، مخفية الجزع الذي يسدّ حنجرتها ورعشة يديها. فردت إلزا سوميرز بأنها تشكرها على هذا العرض السخي، ولكنها واثقة من أنها ستتمكن مع تاو تشين من تحمل مسؤولية **لاي-مينغ**، مثلما طلبت منهما لين قبل موتها. وأضافت بأن باولينا ستكون على الدوام موضع ترحيب في حياة الطفلة.

ثم قالت إلزا سوميرز:

– يجب ألا نثير بلبلة حول أبوة **لاي-مينغ**. فابنك لم تكن له أي علاقة بلين، مثلما قلت أنت وهو منذ بضعة شهور. تذكري أن ابنك قد أعلن بوضوح بأن أبا الطفلة يمكن أن يكون أي واحد من أصدقائه.

فتلعثمت باولينا:

– إنها أشياء تقال في حرارة الشقاق يا إلزا. وقد قال ماتياس ذلك دون تفكير...

– واقع أن لين قد تزوجت من السيد سيفيرو دل بايي يُثبت أن ابنك كان يقول الحقيقة يا باولينا. ليست لحفيدتي روابط دم معك، ولكنني أكرر لك بأنك تستطيعين رؤيتها متى شئتِ. فكلما كان الأشخاص الذين يحبونها أكثر، يكون خيراً لها.

Twitter: @ketab_n

في نصف الساعة التالية تواجهت المرأتان مثل مصارعتين، كل منهما بأسلوبها. فقد انتقلت باولينا دل بايي من المداهنة إلى المناكدة، ومن التوسل إلى اللجوء اليائس للرشوة، وعندما أخفق كل شيء، تحولت إلى التهديد، دون أن تتزحزح الجدة الأخرى ولو نصف سنتمتر عن موقفها، اللهم إلا لتأخذ الصغيرة برفق وتعيدها إلى مهدها. لم تدر باولينا متى صعد الغضب إلى رأسها، وفقدت السيطرة تماماً على الوضع، وانتهت إلى الصراخ بأن إلزا سوميرز سترى من هم آل رودريغيث دل سانتا كروث، وكم من السلطة لهم في هذه المدينة، وكيف يمكن لهم أن يدمروها، ويدمروا محل حلوياتها السخيف، وكذلك صينيّها، وأنه ليس من مصلحة أحد أن يكون عدواً لباولينا دل بايي، وأنها عاجلاً أو آجلاً ستنتزع الصغيرة منها، ويمكن لها أن تكون متأكدة تماماً من ذلك، لأنه لم يولد بعد من يقف أمامها. وبضربة من يدها كنست فناجين الخزف الفاخرة وقطع الحلوى التشيلية التي هوت إلى الأرض وسط سحابة من السكر الناعم، وخرجت تنفخ كثور مصارعة. وحين صارت في العربة، والدم يتلاطم في صدغيها، وقلبها يطفر تحت طبقات الشحم المضغوطة بالمشد، انفجرت بالبكاء مثلما لم تبكِ مذ وضعت مزلاجاً لباب غرفتها وبقيت وحيدة في سريرها الخرافي. ومثلما جرى لها في ذلك الحين، فقدت أفضل أدواتها: مهارة المساومة مثل تاجر عربي، التي حققت لها نجاحات كثيرة في مظاهر أخرى من حياتها. لقد خسرت كل شيء لأنها طمعت كثيراً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

القسم الثاني

١٨٨٠ - ١٨٩٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هناك صورة لي وأنا في الثالثة أو الرابعة من عمري، وهي الصورة الوحيدة من تلك الحقبة التي نجت من تحولات القدر، ومن تصميم باولينا دل بايي على محو أي أثر لأصولي. إنها قطعة كرتون مهترئة في إطار رحلات، واحد من تلك الإطارات القديمة التي لها شكل علبة مصنوعة من مخمل ومعدن، كانت شائعة في القرن التاسع عشر ولم يعد هناك الآن من يستعملها. ويمكن رؤية طفلة صغيرة في الصورة، مزينة على طريقة العرائس الصينيات، بجلابية طويلة من القطيفة المطرزة وتحتها بنطال من لون آخر؛ وتنتعل خفاً دقيقاً موضوعاً فوق لبد أبيض، تحميه صفيحة رقيقة من الخشب؛ وشعرها الأسود يزهو بغديرة طويلة جداً بالنسبة لحجمها، مثبتة بإبرتين غليظتين، ربما هما من الذهب أو الفضة، تلتقيان في أكليل صغير من الأزهار. وتحمل الطفلة في يدها مروحة يدوية مفتوحة، ومن الممكن أنها تضحك، ولكن تقاطيع وجهها لا تكاد تظهر بوضوح، فالوجه هو مجرد قمر أبيض والعينان لطختان سوداوان. وراء الطفلة يُلمح الرأس الضخم لتنين ورقي ونجوم ألعاب نارية متألقة. لقد التُقطت الصورة خلال الاحتفال برأس السنة الصينية في سان فرانسيسكو. لست أتذكر تلك اللحظة، ولا أتعرف على الطفلة التي تظهر في هذه الصورة الوحيدة.

أما أمي لين سوميرز، فتظهر بالمقابل في عدة صور أنقذتُها من النسيان بإصراري وباتصالاتي الجيدة. لقد ذهبتُ إلى سان فرانسيسكو منذ بضع سنوات للتعرف على خالي لاكي، وانهمكت في التجول على مكتبات ومحلات تصوير قديمة بحثاً عن التقاويم والبطاقات البريدية التي كانت تطبع صورها؛ وما زالت تصلني بعض الصور كلما تمكن خالي

Twitter: @ketab_n

لاكي من العثور عليها. لقد كانت أمي جميلة جداً، وهذا هو كل ما يمكنني أن أقوله عنها، لأنني لا أتعرف عليها كذلك في هذه الصور. لستُ أتذكرها بالطبع، فقد ماتت عند ولادتي، ولكن امرأة التقاويم غريبة عني، لا يوجد بي شيء منها، ولا أستطيع أن أراها كأمٍ لي، وإنما كلعبة ضوء وظل على الورق وحسب. وهي لا تشبه كذلك خالي لاكي، فهو صيني قصير الساقين وضخم الرأس، ذو مظهر سوقي ولكنه شخص طيب جداً. إنني أكثر شبهاً بوالدي، لأن لي هيئة إسبانية، ولكنني لم أحصل، لسوء الحظ، إلا على القليل من سلالة جدي الاستثنائي تاو تشين. فلولا أن ذلك الجد هو الذكر الأكثر وضوحاً ورسوخاً في حياتي، والحب الأكثر قِدماً، الذي يصطدم به جميع الرجال الذين عرفتهم لأن اياً منهم لا يستطيع أن يماثله، لما صدقت بأن ثمة دماء صينية تسري في عروقي. إن تاو تشين يعيش معي دوماً. يمكنني أن أراه، منتصباً، وجيهاً، وسيماً، ومرتدياً ملابسه بصورة لا تشوبها شائبة على الدوام، بشعره الرمادي، والنظارتين المدورتين، وبنظرة طِيبة محتمة في عينيه اللوزيتين. إنه يبدو مبتسماً دوماً في تذكري له، وفي بعض الأحيان أسمعه يغني لي بالصينية. إنه يحميني، يرافقني، يوجهني، تماماً مثلما قال لجدتي إلزا إنه سيفعل بعد موتها. هناك صورة داغريتيب لهذين الجدين عندما كانا شابين، قبل أن يتزوجا: هي جالسة على كرسي ذي مسند عالٍ، وهو واقف وراءها، كلاهما يلبسان على الطريقة الأمريكية في ذلك الزمن، وينظران إلى الكاميرا مواجهة بملامح رعب غامضة. هذه الصورة، الناجية أخيراً، موجودة فوق الكوميدينو إلى جوار سريري، وهي آخر ما آراه حين أطفئ المصباح كل ليلة، ولكنني أتمنى لو أنني أمتلكتها في طفولتي، حين كنت بحاجة كبيرة إلى حضور هذين الجدين.

مذ صرت قادرة على التذكر، يعذبني الكابوس نفسه. وترافقني صور هذا الحلم اللجوج طوال ساعات، تحبط يومي وروحي. إنه المشهد نفسه دوماً: أرى نفسي وأنا أمشي في شوارع مقفرة في مدينة مجهولة وعجيبة، ممسكة بيد شخص لا أستطيع تبين وجهه مطلقاً، لا أرى سوى ساقيه ومقدمة حذائه اللامع. وفجأة يحيط بنا أطفال في بيجامات

Twitter: @ketab_n

سوداء يرقصون رقصة ضارية. وتمتد بقعة قاتمة، ربما هي دم، فوق أحجار الشارع، بينما حلقة الأطفال تضيق دون رحمة، وتصبح أكثر توعداً، حول الشخص الذي يمسك بيدي. يحاصروننا، يدفعوننا، يشدوننا، يفصلون بيننا؛ أبحث عن اليد الصديقة فأجد الفراغ. أصرخ دون صوت، أسقط دون ضجة، وعندئذ أستيقظ وقلبي يطفر بجموح. أحياناً أقضي عدة أيام صامتة، مستنفدة بذكرى الحلم، محاولة اختراق طبقات الغموض التي تلفه، لأرى إن كنت قادرة على اكتشاف تفصيل ما، تفصيل لم أنتبه إليه بعد، يقدم لي مفتاحاً لمعنى الحلم. إنني أعاني في تلك الأيام نوعاً من الحمى الباردة ينغلق عليها جسمي ويبقى عقلي عالقاً في أرض جليدية. لقد عشت هذه الحالة من الشلل خلال أسابيعي الأولى في بيت باولينا دل بايي. كان عمري خمس سنوات حين أخذوني إلى قصر نوب هيل ولم يكلف أحد نفسه مشقة إخباري لماذا انقلبت حياتي فجأة هذا الانقلاب الدراماتيكي، و أين هما جداي إلزا وتاو، ومن هي هذه السيدة الضخمة المغطاة بالمجوهرات التي تراقبني من عرش بعينين ممتلئتين بالدموع. ركضتُ لأختبئ تحت طاولة، وبقيت هناك مثل كلب مضروب، حسب ما رووه لي. في تلك الحقبة كان ويليامز هو قهرمان آل رودريغيث دي سانتا كروث – من الصعب تصوره في الواقع – وهو من خطر له الحل في اليوم التالي بوضع الطعام لي في صينية مربوطة بحبل؛ وقد أخذوا يشدون الحبل شيئاً فشيئاً بينما أنا أزحف وراء الصينية عندما لم أعد قادرة على تحمل الجوع، إلى أن تمكنوا من إخراجي من مخبئي، ولكنني في كل مرة أستيقظ فجراً بعد ذلك الكابوس، أعود إلى الاختباء تحت الطاولة. استمرت تلك الحال سنة، إلى أن جئنا إلى تشيلي وفي ذهول الرحلة واستقرارنا في سنتياغو فارقتني تلك النزوة.

إنني أرى كابوسي بالأبيض والأسود، وهو صامت ولا يتبدل، له صفة أبدية. أعتقد أنني صرت أمتلك ما يكفي من المعلومات لمعرفة مفاتيح معناه، ولكن ذلك لم يحلْ دون مواصلته تعذيبي. وبسبب أحلامي، أنا مختلفة، مثل اولئك الناس الذين عليهم، بسبب مرض أو تشوه ولادي، بذل

Twitter: @ketab_n

جهد دائم ليعيشوا حياة عادية. هم تظهر فيهم علامات مميزة بارزة، أما علامتي فلا تظهر للعيان، ولكنها موجودة، يمكنني أن أقارنها بنوبات الصرع التي تهجم فجأة وتخلف أثراً من التشوش. إنني أنام في الليل وأنا خائفة، لأنني لا أعرف ما الذي سيحدث بينما أنا نائمة أو كيف سأستيقظ. لقد جربت عدة وسائل ضد عفاريتي الليلية، ابتداء من ليكور البرتقال مع بضع قطرات من الأفيون، وحتى وسيلة التنويم المغناطيسي وأشكال أخرى من السحر الأسود، ولكن ليس هناك ما يضمن لي نوماً هادئاً، باستثناء الصحبة الجيدة. فالنوم في عناق هو، حتى الآن، العلاج الوحيد المضمون. يجب أن أتزوج، مثلما ينصحني الجميع، ولكنني فعلت ذلك مرة وكانت كارثة، ولا يمكنني أن أختبر القدر من جديد. فقد صرت أكثر بشاعة، وأنا في الثلاثين من عمري ودون زوج. صديقاتي ينظرن إليّ بأسى، وإن كان بعضهن على أي حال يحسدن استقلاليتي. لست وحيدة، لدي حب سرّي، بلا قيود أو شروط، وهذا مبرر للفضيحة في أي مكان، وخصوصاً هنا حيث كان من نصيبي أن أعيش. فلستُ عازبة ولا أرملة ولا مطلقة، إنني أعيش في ليمبو «المنفصلات»، حيث ينتهي المطاف بعاثرات الحظ اللواتي يفضلن السخرية العامة على العيش مع رجل لا يحببنه. وأي حالة أخرى يمكن أن تكون عليها تشيلي، حيث الزواج أبدي وصارم؟ في بعض الصباحات الاستثنائية، عندما يكون جسد عشيقي وجسدي، مبللين بالعرق وذاويين من الأحلام المتقاسمة، يرقدان في حالة لاوعي الرقة المطلقة، سعيدين وواثقين مثل أطفال نائمين، نسقط في إغواء الكلام عن الزواج، عن الذهاب إلى مكان آخر، إلى الولايات المتحدة مثلاً، حيث يوجد متسع كبير ولا أحد يعرفنا، لنعيش معاً مثل أي ثنائي عادي، ولكننا نستيقظ بعد ذلك والشمس تطل من النافذة، ولا نعود إلى ذكر ذلك، لأننا كلانا نعرف أنه لا يمكننا أن نعيش في مكان آخر، وإنما فقط في تشيلي الكوارث الجيولوجية والصغائر الإنسانية، ولكنها تشيلي البراكين الفظة كذلك، والقمم الثلجية، والبحيرات القديمة المزروعة بالزمرد، والأنهار المزبدة، والغابات شذية العبق، بلاد نحيلة كأنها الشريط، وطن أناس فقراء وما يزالون أبرياء، على الرغم من كثرة

Twitter: @ketab_n

التعسف وتنوعه. فلا هو يمكنه الذهاب، ولا أنا أمل من تصويره. أرغب في أن يكون لي أبناء، أجل، هذا صحيح، ولكنني تقبلت في نهاية المطاف بأنني لن أكون أماً قط؛ لست عاقراً، إنني خصبة في مجالات أخرى. نيفيا دل بايي تقول إن الكائن البشري لا يتحدد بقدرته على التناسل، وهذا الرأي يبدو سخرية حين يأتي منها، هي التي أنجبت أكثر من دزينة من الأبناء. ولكنني لن أتكلم هنا عن الأبناء الذين لن أنجبهم أو عن عشيقي، وإنما عن الأحداث التي حسمت من أكون. أدرك أنني في كتابة هذه المذكرات سأخون آخرين، وهذا لا مفر منه. «تذكري أن الغسيل الوسخ يُغسل في البيت»، هذا ما يردده لي سيفيرو دل بايي الذي تربى، مثلنا جميعاً، تحت هذا الشعار. ولكن نيفيا تنصحني:«اكتبي بنزاهة ولا تهتمي بمشاعر الآخرين، لأنهم سيكرهونك مهما كان الذي تقولينه». فلنتابع إذن.

حيال استحالة القضاء على كوابيسي، فإنني أحاول على الأقل أن أستخلص منها فائدة ما. لقد ثبت لي أنني بعد ليلة كابوسية عاصفة، أصاب بالهلوسة والتوقد، وهي حالة مثالية للإبداع. فأفضل صوري الضوئية التقطتها في مثل تلك الأيام، عندما تكون رغبتي الوحيدة هي حشر نفسي تحت الطاولة، مثلما كنت أفعل في الأزمنة الأولى في بيت جدتي باولينا. لقد اقتادني حلم الأطفال ذوي البيجامات السوداء إلى التصوير، إنني واثقة من ذلك. عندما أهدى إليّ سيفيرو دل بايي آلة تصوير، كان أول ما خطر لي هو أنني إذا ما تمكنت من تصوير أولئك العفاريت، فإنني سأهزمهم. وقد حاولت ذلك مرات كثيرة وأنا في الثالثة عشرة من عمري. ابتدعت أجهزة معقدة من بكرات وحبال لكي أُفعِّلَ آلة تصوير مثبتة بينما أنا نائمة، إلى أن اتضح لي أن تلك الكائنات الشريرة عصية على هجوم التكنولوجيا. فحين يُرصد الشيء أو الجسد ذو المظهر العادي باهتمام حقيقي، يتحول إلى شيء مقدس. يمكن للكاميرا أن تكشف الأسرار التي لا تلتقطها العين المجردة أو الذهن، فكل شيء يختفي باستثناء ذلك الجزء الذي يتركز في البؤرة. التصوير هو تمرين في الملاحظة، والنتيجة دوماً هي ضربة حظ؛ فبين آلاف وآلاف

Twitter: @ketab_n

النيغاتيفات التي تملأ عدة أدراج في استوديوهي، هناك قلة قليلة منها استثنائية. ولا بد أن خالي لاكي سيشعر بخيبة الأمل إذا ما عرف كم كان ضئيلاً، فيما يتعلق بعملي، مفعول أنفاسه لمنحي حسن الطالع. آلة التصوير هي جهاز بسيط، يمكن حتى لأدنى الناس كفاءة أن يستخدمها، والتحدي يتمثل في أن نبدع بها تلك المواءمة ما بين الحقيقة والجمال التي تسمى فناً. وهذا الدأب هو روحي قبل أي شيء. إنني أبحث عن الحقيقة والجمال في شفافية ورقة في الخريف، في الشكل المتقن لقوقعة على الشاطئ، في انحناءة ظهر أنثوي، في نسيج جذع شجرة عتيق، ولكنني أبحث عنهما أيضاً في أشكال منزلقة من الواقع. ففي بعض الأحيان، وبينما أنا أعمل في صورة في غرفتي المظلمة، تظهر لي روح شخص، أو انفعال حدث، أو الجوهر الحيوي لموضوع، وعندئذ ينفجر الامتنان في صدري وأطلق لدموعي العنان. لا يمكنني منع ذلك. ونحو هذا الكشف تتوجه مهنتي.

كان أمام سيفيرو دل بايي عدة أسابيع من الإبحار ليبكي خلالها لين سوميرز ويفكر بما ستكون عليه بقية حياته. كان يشعر بأنه مسؤول عن الطفلة أورورا، وقد كتب وصية قبل أن يبحر لكي يتحول إليها مباشرة في حال تغيبه، ميراثه القليل الذي ورثه عن أبيه ومدخراته. وفي أثناء ذلك تتلقى هي الفوائد كل شهر. كان يعرف أن أبوي لين سيرعيان الصغيرة أفضل من أي شخص آخر، ويفترض أنه مهما كانت سطوة عمته باولينا كبيرة، فإنها لن تحاول انتزاع الطفلة بالقوة، لأن زوجها لن يسمح لها بتحويل القضية إلى فضيحة عامة.

وبينما هو جالس في مقدمة السفينة وبصره شارد في امتداد البحر غير المتناهي، توصل سيفيرو إلى أنه لن يجد العزاء مطلقاً لفقدان لين. فهو لا يرغب في العيش من دونها. والموت في المعركة هو أفضل ما يمكن للمستقبل أن يقدمه إليه: فالموت في أقرب وقت وبسرعة هو كل ما يطلبه. لقد شغل حبه للين وقراره بمساعدتها وقته واهتمامه طوال شهور،

Twitter: @ketab_n

ولهذا كان يؤجل عودته يوماً بعد يوم، في الوقت الذي كان فيه التشيليون الذين في سنه يتقدمون بالجملة للتطوع في القتال. وقد كان هناك على متن السفينة عدة شبان يعودون للانخراط في صفوف الجيش - فارتداء الزي العسكري هو مسألة شرف - وكان يجتمع بهم لمناقشة أخبار الحرب التي ينقلها جهاز التلغراف. خلال السنوات الأربع التي أمضاها سيفيرو في كاليفورنيا انتهى به الأمر إلى الانسلاخ عن بلاده، وقد استجاب لنداء الحرب كوسيلة للخروج من حداده، ولكنه لم يكن يشعر بأدنى حماس عسكري. ومع ذلك، وكلما أبحرت السفينة نحو الجنوب كانت تنتقل إليه عدوى حماس الآخرين. وعاد للتفكير في خدمة تشيلي مثلما كان يرغب في فترة المدرسة، عندما كان يتناقش في شؤون السياسة في المقاهي مع طلاب آخرين. وافترض بأن رفاقه السابقين قد انخرطوا في القتال منذ شهور، بينما هو يتجول في سان فرانسيسكو متحيناً الفرص لزيارة لين سوميرز وللعب **ماه-جونغ**. كيف يمكنه أن يبرر مثل هذا السلوك الجبان أمام أصدقائه وأقربائه؟ وكانت صورة نيفيا تداهمه خلال هذه التأملات. لن تتفهم ابنة عمه تخلفه في العودة للدفاع عن الوطن، لأنها لو كانت رجلاً، لكانت - وهو متأكد من ذلك - أول من ينطلق إلى الجبهة. لحسن الحظ أنه لن يكون هناك متسع لتقديم التفسيرات لها، لأنه يأمل بأن يموت مخترقاً بالرصاص قبل أن يعود لرؤيتها؛ فهو يحتاج في مواجهة نيفيا، بعد سوء تصرفه معها، إلى شجاعة أكبر مما يتطلبه القتال ضد أشرس الأعداء. كانت السفينة تتقدم ببطء مُقلق، وكان يقدر بجزع أنه لن يصل على هذا النحو إلى تشيلي إلا وتكون الحرب قد انتهت. لقد كان واثقاً من أن النصر سيكون حليف معشره، على الرغم من تفوق الخصم عددياً ومن عدم كفاءة القيادة العسكرية العليا التشيلية. فالقائد العام للجيش وأميرال الأسطول كانا عجوزين لا يتوصلان إلى اتفاق فيما بينهما على أية استراتيجية، ولكن التشيليين كانوا يمتازون بانضباط عسكري أكبر مما لدى البيرويين والبوليفيين. وكان سيفيرو يغمغم بينه وبين نفسه بخجل: «إنني قملة، فقد كان لا بد من موت لين لكي أحسم أمر عودتي إلى تشيلي وإنجاز واجبي الوطني».

Twitter: @ketab_n

كان ميناء بالبارايسو يتألق في ضوء كانون الثاني المتوهج حين رست السفينة في المرفأ. عند دخولهم المياه الإقليمية للبيرو وتشيلي رأوا بعض سفن أسطول البلدين كليهما تقوم بمناورات، ولكنهم لم يتبينوا أثر الحرب إلا بعد الرسو في بالبارايسو. كان مظهر الميناء مختلفاً عن ذاك الذي غادره سيفيرو. فقد عُسكرت المدينة، وكانت هناك قوات مجمعة تنتظر نقلها، والرايات التشيلية ترفرف على المباني، وتُلحظ حركة زوارق ومراكب قَطْرٍ واسعة حول عدة سفن حربية، بينما يقل عدد سفن الركاب. كان الشاب قد أخبر أمه بموعد وصوله، ولكنه لم يكن ينتظر رؤيتها في الميناء، لأنها تعيش منذ حوالي سنتين في سنتياغو مع أبنائها الصغار، والرحلة من العاصمة شاقة جداً. ولهذا لم يزعج نفسه بإلقاء نظرة متفحصة على الرصيف بحثاً عن أناس يعرفهم، مثلما كان يفعل معظم المسافرين. تناول حقيبته، وقدم بضع قطع نقدية إلى أحد البحارة لكي يتولى إنزال صناديقه، ونزل على السلم الجانبي متنفساً ملء رئتيه الهواء المالح للمدينة التي ولد فيها. عندما وطأ الأرض كان يترنح مثل مخمور، فقد اعتاد خلال أسابيع الإبحار على حركة الأمواج، ووجد صعوبة الآن في المشي على الأرض اليابسة. صفَّر مستدعياً أحد الحمالين لكي يساعده في حمل الأمتعة وأراد البحث عن عربة توصله إلى بيت جدته إميليا، حيث يفكر بالبقاء حوالي ليلتين ريثما يتمكن من الالتحاق بالجيش. وفي هذه اللحظة أحس بأن هناك من يلمس ذراعه. التفت متفاجئاً ووجد نفسه وجهاً لوجه مع آخر شخص يرغب في رؤيته في هذه الدنيا: إنها ابنة عمه نيفيا. كان بحاجة إلى حوالي ثانيتين للتعرف عليها واستعادة السيطرة على ذهوله. فالصبية التي خلفها قبل أربع سنوات، تحولت إلى امرأة مجهولة، قصيرة القامة كالعادة، ولكنها أكثر نحولاً بكثير وبجسد حسن القوام. الشيء الوحيد الذي بقي على حاله فيها هو ملمح الذكاء والتركيز في وجهها. كانت ترتدي فستاناً أزرق من التفتا وقبعة من القش لها شريط قطني أبيض طويل معقود تحت ذقنها، مؤطِّراً وجهها البيضوي، ذا التقاطيع الرقيقة، حيث العينان السوداوان تلمعان قلقتين ومتراقصتين. كانت وحيدة. لم يستطع سيفيرو أن يحييها،

Twitter: @ketab_n

بل بقي ينظر فاغر الفم إلى أن استعاد الصفاء وتمكن من سؤالها، مشوشاً، عما إذا كانت قد تلقت رسالته الأخيرة، مشيراً إلى تلك الرسالة التي يخبرها فيها بزواجه من لين سوميرز. وبما أنه لم يكتب إليها منذ ذلك الحين، فقد افترض أنها لا تعرف شيئاً عن موت لين أو عن مولد أورورا، ولا يمكن لابنة عمه أن تتكهن بانه قد تحول إلى أرمل وأب دون أن يكون زوجاً قط.

فقاطعته هي:

- سنتحدث عن هذا فيما بعد، أما الآن فدعني أرحب بك. هناك عربة تنتظرنا.

ما إن انتهى تحميل الصناديق في العربة حتى أمرت نيفيا الحوذي أن ياخذهما متمهلاً عبر الكورنيش البحري، فهذا يمنحهما وقتاً لتبادل الحديث قبل الوصول إلى البيت، حيث تنتظره بقية الأسرة.

تلعثم سيفيرو دون أن يتجرأ على النظر إليها:

- لقد تصرفتُ معك بفظاظة يا نيفيا. والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقوله دفاعاً عن نفسي هو أنني لم أرغب في أن أسبب لك الألم قط.

- أعترفُ بأنني غضبت منك يا سيفيرو، وكان عليّ أن أعض لساني لأمتنع عن شتمك، ولكنني لم أعد أحمل لك ضغينة. أظن أنك قد عانيت أكثر مني. إنني متأسفة حقاً لما جرى لزوجتك.

- وكيف تعرفين بما جرى.

- تلقيت برقية بالخبر، جاءت موقعة باسم شخص يدعى ويليامز.

أول ردّ فعل لسيفيرو دل بايي كان الغضب، فكيف يتجرأ القهرمان على التدخل بهذه الطريقة في حياته الخاصة، ولكنه لم يستطع بعد ذلك كبح إحساس بالامتنان لأن البرقية توفر عليه تفسيرات مؤلمة.

- لا أنتظرُ منكِ أن تغفري لي، وإنما أن تنسيني وحسب يا نيفيا. فأنت تستحقين أكثر من أي كائن آخر أن تكوني سعيدة...

- ومن قال لك إنني أرغب في أن أكون سعيدة يا سيفيرو؟ هذا هو

Twitter: @ketab_n

آخر نعت يخطر لي أن أستخدمه لأصف المستقبل الذي أتطلع إليه. أريد حياة مشوقة، مغامرة، مختلفة، حماسية، أو أي صفة أخرى قبل أن تكون سعيدة.

- آه يا ابنة العم، كم هو رائع التأكد من مدى ضآلة التغير الذي طرأ عليك! وعلى كل حال، سوف أنطلق بعد حوالي يومين مع الجيش باتجاه البيرو، وأتمنى بصراحة أن أموت وأنا أنتعل جزمتي العسكرية، لأنه لم يعد هناك من معنى لحياتي.

- وماذا عن ابنتك؟

- أرى أن ويليامز قد أرسل إليك كل التفاصيل. وهل أخبرك أيضاً بأنني لست أب هذه الطفلة؟ - سألها سيفيرو.

- ومن هو أبوها؟

- ليس مهماً. فهي ابنتي في الوثائق القانونية. وهي الآن عند جديها ولن ينقصها المال، لقد وفرت لها ضمانة كافية.

- وما هو اسمها؟

- أورورا.

- أورورا دل بايي... اسم جميل. حاول أن تعود كاملاً من الحرب يا سيفيرو، لأننا عندما سنتزوج ستتحول هذه الطفلة إلى ابنتنا الأولى - قالت نيفيا مبتسمة.

- ماذا قلت؟

- لقد انتظرتُكَ طوال حياتي، ويمكنني أن أواصل الانتظار. لستُ مستعجلة، فلدي أشياء كثيرة لتحقيقها قبل أن أتزوج. إنني أعمل.

- تعملين! لماذا؟ - هتف سيفيرو مستنكراً، فليس هناك امرأة تعمل في أسرته أو أي أسرة أخرى يعرفها.

- لكي أتعلم. فقد تعاقد معي خالي فرانثيسكو لأنظم مكتبته، وسمح لي بقراءة كل ما أشاءه. هل تتذكره؟

Twitter: @ketab_n

- إنني أعرفه جيداً، أليس هو الذي تزوج من وارثة غنية ويملك قصراً في بينيا دل مار؟

- هو نفسه، إنه قريب أمي. لا أعرف رجلاً أوسع معرفة وأكثر طيبة منه، إضافة إلى أنه شاب وسيم - ثم أضافت ضاحكة:- ولكنه ليس مثلك.

- لا تسخري مني يا نيفيا.

فسألته الفتاة:

- هل كانت زوجتك جميلة؟

- جميلة جداً.

- عليك أن تُمضي حدادك يا سيفيرو. ربما كانت الحرب نافعة في هذا الشأن. يقال إن النساء الجميلات لا يمكن نسيانهن، وآمل أن تبدأ بتعلم العيش من دونها، وإن لم تنسها. سأصلي لكي تُحِبَّ من جديد، وربما أكون أنا من ستحبها... - تمتمت نيفيا وهو تمسك يده.

وعندئذ أحس سيفيرو دل بايي بألم رهيب في صدره، كما لو أن حربة تخترق أضلاعه، وأفلتت من بين شفتيه إجهاشة تلاها بكاء بلا كابح هزه بالكامل، بينما هو يكرر لاهثاً اسم لين، لين، ألف مرة لين. أسندته نيفيا إلى صدرها، وأحاطته بذراعيها النحيلين وراحت تربت معزية على ظهره، وكأنه طفل.

بدأت حرب الباسفيك في البحر وتواصلت على اليابسة بقتال مواجهة بالحراب المشهرة والسكاكين المحدبة في أشد صحارى العالم قحولة وقسوة، في المقاطعات التي تشكل اليوم شمالي تشيلي، ولكنها قبل الحرب كانت تنتمي إلى البيرو وبوليفيا. كان الجيشان البيروي والبوليفي غير مهيئين لمثل تلك الحرب، فهما قليلا العدد، وسيئا التسليح، ونظام تموينهما ينطوي على نقائص كثيرة، حتى أن بعض المعارك والمناوشات

Twitter: @ketab_n

حُسمت بسبب الافتقار إلى ماء الشرب أو لأن عجلات العربات المحملة بصناديق الرصاص انغرست في الرمل. أما تشيلي فكانت بلداً توسعياً، ذا اقتصاد متين، يملك أفضل أسطول في أميركا الجنوبية وجيشاً يزيد تعداده عن سبعين ألف رجل. وكانت تشيلي مشهورة باعتزازها الوطني في قارة يسيطر عليها زعماء محليون أفظاظ ويسودها فساد منهجي وثورات دموية؛ وكانت صرامة الطبع التشيلي، ورسوخ مؤسساتها محط حسد البلدان المجاورة، ومدارسها وجامعاتها تجتذب الأساتذة والطلاب الأجانب. فتأثير المهاجرين الإنكليز والألمان والإسبان فرض نوعاً من الاعتدال على الطبع المحلي. كان الجيش يتلقى تدريباً بروسياً ولا يعرف السلام، فخلال السنوات التي سبقت حرب الباسفيك بقي يحمل السلاح مقاتلاً في جنوبي البلاد ضد هنود المنطقة المعروفة باسم فرونتيرا (الحدود)، لأن ذراع الحضارة كانت قد وصلت إلى هناك فقط، وفيما وراءها تبدأ أراضي السكان الأصليين التي لم يغامر في الوصول إليها حتى سنوات قريبة إلا بعض المبشرين الجيزويت. فالمحاربون الهنود الأروكانيون الذين خاضوا نضالاً متواصلاً منذ أزمنة الفتح الإسباني، لم يتراجعوا أمام الرصاص ولا أمام أسوأ الفظائع، ولكنهم راحوا يتساقطون من الافراط في الكحول. وفي القتال ضدهم، تدرب الجنود باحتدام. وسرعان ما تعلم البيرويون والبوليفيون على الخوف من التشيليين، الأعداء الدمويين القادرين على إعمال خناجرهم ورصاصهم في الجرحى والأسرى. وكان التشيليون يوقظون في طريقهم الحقد والخوف اللذين يثيران النفور الدولي العنيف، وما يرافق ذلك من سلسلة لا تنتهي من الشكاوى والدعاوى الدبلوماسية، وزيادة تصميم أعدائهم على القتال حتى الموت، لأن الاستسلام لن يفيدهم. كانت القوات البيروية والبوليفية مؤلفة من حفنة من الضباط، ودفعات مجندين نظاميين سيئي التجهيز، وجموع من السكان الأصليين الهنود المجندين بالقوة، ممن لا يكادون يعرفون لماذا يقاتلون، ويفرون لدى أول فرصة. أما القوات التشيلية بالمقابل فكانت مؤلفة في غالبيتها من مدنيين، لا يقلون دموية عن العسكريين، يقاتلون بحماسة وطنية ولا يستسلمون. وغالباً ما تكون الظروف جهنمية. في

Twitter: @ketab_n

أثناء المسيرة عبر الصحراء كانوا يتجرجرون في سحابة من الغبار المالح، يكاد أن يقتلهم العطش، ويغوصون في الرمل حتى منتصف أفخاذهم، شمس قاسية تنعكس فوق رؤوسهم، وثقل حقائبهم وذخائرهم يهد أكتافهم، وهم متشبثون ببنادقهم، بيأس. كان الجدري، والتيفوس، ونوبات الحمى تعيث فيهم هلاكاً؛ فكانت أعداد المرضى في المستشفيات العسكرية أكثر من جرحى المعارك. عندما انضم سيفيرو دل بايي إلى الجيش، احتل جيش بلاده أنتوفاغاستا - المقاطعة الوحيدة المطلة على البحر في بوليفيا - ومقاطعات تاراباكا، وآريكا، وتاكانا البيروية. وفي عام 1880، وفي أوج حملة الصحراء، مات وزير الحرب والبحرية بسكتة دماغية موقعاً الحكومة في اضطراب شامل. وأخيراً عيّن رئيس الجمهورية مدنياً في موقعه، هو دون خوسيه فرانثيسكو بيرغارا، خال نيفيا، الرحالة الذي لا يكل والقارئ النهم، الذي كان عليه أن ينتضي السيف وهو في السادسة والأربعين ليقود الحرب. وكان هو أول من لاحظ أنه بينما تشيلي منهمكة في غزو الشمال، كانت الأرجنتين تنتزع منها بصمت منطقة بتاغونيا في الجنوب، ولكن أحداً لم يول ملاحظته تلك اهتماماً، لأنهم كانوا يعتبرون تلك الأراضي دون فائدة مثلها مثل القمر. كان بيرغارا لامعاً، ذا أساليب مهذبة وذاكرة عظيمة، يهتم بكل شيء، ابتداء من علم النبات وحتى الشّعر، ولم يكن قابلاً للإفساد ويخلو تماماً من المطامع السياسية. طرح الاستراتيجية العسكرية بالدقة الهادئة نفسها التي يدير بها أعماله التجارية. وبالرغم من ارتياب ذوي البدلات العسكرية منه، وأمام دهشة الجميع، قاد القوات التشيلية مباشرة إلى ليما. ومثلما قالت ابنة أخته نيفيا: «الحرب هي مسالة جدية بحيث لا يمكن تسليمها للعسكريين». لقد خرجت الجملة من وسط الأسرة وتحولت إلى واحد من تلك الأحكام المنقوشة على الحجر والتي تشكل جزءاً من مجموعة النوادر التاريخية للبلاد.

مع انتهاء السنة كان التشيليون يستعدون للهجوم النهائي على ليما. وكان سيفيرو دل بايي يقاتل منذ أحد عشر شهراً، غارقاً في القذارة وأقسى أشكال البربرية. في هذه الأثناء تحولت ذكرى لين سوميرز إلى

Twitter: @ketab_n

فتات، فهو لم يعد يحلم بها، وإنما بالأجساد الممزقة للرجال الذين تقاسم معهم الطعام في اليوم السابق. لقد كانت الحرب مسيراً حثيثاً وصبراً قبل أي شيء آخر؛ وكانت لحظات المعارك أشبه براحة في ضجر التنقل والانتظار. وعندما يتاح له الجلوس لتدخين سيجارة، ينتهز الفرصة ليكتب بضعة سطور إلى نيفيا بالنبرة الرفاقية نفسها التي استخدمها معها على الدوام. لم يكن يتحدث عن الحب، ولكنه راح يدرك شيئاً فشيئاً بأنها ستكون المرأة الوحيدة في حياته، وأن لين سوميرز لم تكن سوى وهم طويل. وكانت نيفيا تكتب له بانتظام، وإن لم تكن كل رسائلها تصل إليه، لتخبره عن الأسرة، وعن الحياة في المدينة، وعن لقاءاتها القليلة مع خالها خوسيه فرانثيسكو والكتب التي ينصحها بقراءتها. وتحدثه كذلك عن التحول الروحي الذي يهزها، وكيف تنأى عن بعض الطقوس الكاثوليكية التي تبدو لها ضرباً من الوثنية، لتبحث عن جذور مسيحية تكون أكثر فلسفية مما هي دوغمائية. وكان يقلقها أن سيفيرو، الغارق في عالم فظ وقاسٍ، سيفقد الاتصال بروحه ويتحول إلى كائن مجهول. ففكرة اضطراره إلى القتل بدت لها لا تطاق. كانت تحاول عدم التفكير في ذلك، ولكن من المستحيل تجاهل القصص عن الجنود المُخترقين بالمدى، والأجساد مقطوعة الرؤوس، والنساء المغتصبات، والأطفال المطعونين بالحراب. هل يشارك سيفيرو في هذه الفظائع؟ هل يمكن لرجل يشهد مثل هذه الأحداث أن يعود إلى الاندماج بالسلام، ويتحول إلى زوج ورب أسرة؟ وهل يمكنها هي أن تحبه رغم كل ذلك؟ وكان سيفيرو دل بايي يتساءل الأسئلة نفسها بينما فوجه يتهيأ للهجوم، على بعد كيلومترات قليلة من عاصمة البيرو. في أواخر شهر كانون الأول كانت القوات التشيلية جاهزة لبدء العمليات في وادٍ إلى الجنوب من ليما. لقد أعدوا كل شيء بدقة، فحشدوا جيشاً جراراً، وبغالاً وخيولاً، وذخائر ومؤناً وماء، وكانت هناك عدة سفن شراعية لنقل القوات، إضافة إلى أربع مستشفيات متجولة تضم ستمئة سرير، وسفينتين محولتين إلى مستشفيين يُرفع عليهما علم الصليب الأحمر. ووصل أحد القادة سيراً على الأقدام مع فرقته سليمة بالكامل، بعد اجتياز مستنقعات وجبال

Twitter: @ketab_n

لانهائية، ومَثُل كأمير منغولي في موكب من ألف وخمسمئة صيني معهم نساؤهم وأطفالهم وحيواناتهم. عندما رآهم سيفيرو دل بايي ظن أنه وقع ضحية حلم هذياني انشقت فيه تشايناتاون عن سان فرانسيسكو لكي تضيع في الحرب نفسها التي يضيع هو فيها. لقد جند ذلك القائد الظريف الصينيين في طريقه، وهم مهاجرون يعملون في ظروف عبودية، وجدوا أنفسهم بين نارين دون أن تكون لهم ولاءات محددة لأي من الجانبين، فقرروا الانضمام إلى القوات التشيلية. وبينما كان المسيحيون يستمعون إلى عظة قداس قبل الدخول في المعركة، أقام الاسيويون طقوسهم الخاصة، وبعد ذلك رش الكهنة العسكريون الجميع بالماء المقدس. «كل هذا يبدو أشبه بسيرك»، هكذا كتب سيفيرو إلى نيفيا، دون أن يخطر له بأنها ستكون رسالته الأخيرة. ولرفع معنويات الجنود والقادة، والاشراف على إنزال آلاف وآلاف الرجال والبهائم والمدافع والمؤن، حضر الوزير بيرغارا شخصياً، وبقي واقفاً هناك منذ الساعة السادسة صباحاً، تحت شمس حارقة، حتى وقت متقدم من الليل.

كان البيرويون قد نظموا خطين دفاعيين على بعد كيلومترات قليلة من المدينة، في أمكنة يصعب على المهاجمين اقتحامها. فقد أضيف إلى الجبال الجرداء والرملية، تحصينات ومتاريس وبطاريات مدفعية وخنادق محمية بأكياس رمل للرماة. كما زرعوا ألغاماً مموهة تحت الرمل، تنفجر لدى لمس صواعقها. وكان الخطان الدفاعيان متصلين فيما بينهما، وبمدينة ليما، بخط حديدي لضمان نقل القوات والجرحى والامدادات. ومثلما كان سيفيرو دل بايي ورفاقه يعرفون منذ ما قبل بدء الهجوم في أواسط شهر كانون الثاني 1881، فإن النصر - إذا ما تحقق. سيكون على حساب حيوات كثيرة.

في مساء ذلك اليوم من كانون الثاني كانت القوات جاهزة للهجوم على عاصمة البيرو. فبعد تقديم وجبة الغداء وتفكيك المعسكر، أحرقوا الهياكل الخشبية التي كانت تستخدم كغرف، وانقسموا إلى ثلاث

Twitter: @ketab_n

مجموعات بهدف شن هجوم مباغت على دفاعات العدو، متسترين بالضباب الكثيف. تقدموا بصمت، كل واحد بتجهيزاته الثقيلة على ظهره، وببنادق جاهزة، مستعدين للهجوم «مواجهة وعلى الطريقة التشيلية»، مثلما قرر الجنرالات، مدركين بأن أقوى سلاح في يدهم هو رهبة وقسوة الجنود المنتشين بالعنف. لقد رأى سيفيرو دل بايي تداول الأيدي للزمزميات المملوءة بالخمر والبارود، وهو مزيج حارق يؤجج الأحشاء، ولكنه يمنح شاربه شجاعة جامحة. لقد جربه يوماً، ولكنه أمضى بعده يومين معذباً بإقياء وألم رأس، ولهذا فضّل تحمل المعركة ببرود. بدا له المسير في صمت وظلام البامبا بلا نهاية، بالرغم من لحظات التوقف القصيرة. وبعد منتصف الليل توقفت حشود الجنود للاستراحة مدة ساعة. كانوا يفكرون بالانقضاض على منتجع قريب من ليما قبل أن يطلع النهار، ولكن الأوامر المتناقضة وتشوش القادة أفسد الخطة. لم يكن يُعرف إلا القليل عن أوضاع صفوف الطليعة المتقدمة، والتي بدأت ظاهرياً المعركة، مما اضطر القوات المنهوكة إلى مواصلة التقدم دون راحة. وفي محاكاة للآخرين، تخلص سيفيرو من جعبته وبطانيته وبقية تجهيزاته، وركّب الحربة على البندقية وانطلق يعدو في العماء نحو الأمام مطلقاً الصرخات ملء رئتية مثل وحش ضارٍ، لم يعد الأمر مسألة أخذ العدو على حين غرة، وإنما بث الذعر في صفوفه. كان البيروين بانتظارهم، وما إن صاروا في مرمى أسلحتهم حتى أطلقوا عليهم وابلاً من الرصاص. أضيف الدخان والغبار إلى الضباب، مغطياً الأفق بدثار كتيم، بينما كان الهواء يمتلئ بالهلع مع نفير الأبواق الداعية إلى الهجوم، وصراخ ولعلعة المعركة، وزعيق الجرحى، وصهيل الركائب، ودوي المدافع. كانت الأرض ملغومة، ولكن التشيليين يتقدمون رغم كل شيء وعلى شفاههم الصرخة الوحشية «فلنذبحهم!». رأى سيفيرو دل بايي اثنين من رفاقه يطيران مفتتين إرباً بعد أن داسا صاعق لغم على بعد أمتار قليلة منه. ولم يتوصل إلى تقدير أن الانفجار التالي قد يكون من نصيبه، لم يكن ثمة وقت للتفكير في شيء. كان أول جنود الخيالة يقفزون فوق الخنادق المعادية، وينقضون على الحفر وهم يضعون السكاكين المحدبة

Twitter: @ketab_n

بين أسنانهم وحراب بنادقهم مشهرة، يَذبحون ويموتون وسط دفقات من الدم. تراجع من بقي حياً من البيرويين وبدأ المهاجمون بتسلق الهضاب، محطمين الدفاعات المتدرجة على السفوح. ودون أن يدري ما الذي يفعله، وجد سيفيرو دل بايي نفسه يشهر حسامه بيده ويمزق رجلاً، ثم أطلق النار عن قرب إلى رقبة آخر كان يهرب. كان الغضب والرعب قد سيطرا عليه تماماً؛ وتحول، مثله مثل الآخرين، إلى وحش. كان زيه العسكري ممزقاً ومغطى بالدم، وكان جزءاً من أحشاء إنسان آخر يلتصف بكمه، ولم يعد صوته يخرج من حلقه لكثرة ما صرخ ولعن، لقد فقد الرعب والهوية، وصار مجرد آلة للقتل، يوزع الضربات دون أن يرى أين تهوي، دون أي هدف آخر سوى الوصول إلى قمة الرابية.

في الساعة السابعة صباحاً، بعد ساعتين من بدء المعركة، رفرفت أول راية تشيلية فوق إحدى القمم، ورأى سيفيرو الجاثي على الرابية، حشداً من الجنود البيرويين ينسحبون في هرج ومرج ليجتمعوا في فناء مزرعة، حيث تلقوا وهم مصطفون هجمة جبهية من الخيالة التشيلية. وخلال دقائق قليلة صار ذلك المكان جحيماً. وبينما سيفيرو دل بايي يدنو راكضاً، كان يرى بريق السيوف في الهواء، ويسمع لعلعة الرصاص وصرخات الألم. وعندما بلغ المزرعة كان الأعداء قد بدؤوا الركض هاربين تتبعهم القوات التشيلية من جديد. وفي أثناء ذلك جاءه صوت قائده يأمره بجمع رجال مفرزته لمهاجمة القرية. وفرت له الاستراحة القصيرة، ريثما تنتظم الصفوف، لحظة لالتقاط أنفاسه؛ فهوى على الأرض وهو يلهث مرتعشاً، وجبهته تلامس التراب، بينما يداه متشبثتان بسلاحه؛ قدّر بأن عملية الهجوم ستكون جنوناً، لأن فرقته وحدها لا يمكنها مواجهة القوات المعادية العديدة المتمركزة في البيوت والأبنية، وأنه يجب القتال من باب لباب؛ ولكن مهمته لم تكن التفكير، وإنما طاعة أوامر قائده وتحويل القرية البيروية إلى أنقاض ورماد وموت. وبعد دقائق كان ينطلق راكضاً في مقدمة رفاقه، بينما الطلقات تمر صافرة من حوله. دخلوا في رتلين اثنين، رتل في كل جانب من جانبي الشارع الرئيسي. وكان معظم الأهالي قد هربوا وهم يصرخون «جاء التشيليون!»، ولكن من بقوا كانوا

Twitter: @ketab_n

مصممين على القتال بكل ما تصل إليه أيديهم، ابتداء من سكاكين المطابخ وحتى قدور الزيت المغلى التي يسكبونها من الشرفات. كانت لدى فوج سيفيرو تعليمات بالتقدم من بيت إلى بيت حتى إخلاء القرية، وهي مهمة غير سهلة، لأن القرية كانت تغص بجنود بيرويين متمترسين على السطوح، وفوق الأشجار، وراء النوافذ وعتبات البيوت. كانت حنجرة سيفيرو جافة وعيناه ملتهبتين، يكاد لا يرى على بعد متر واحد؛ وكان الهواء الكثيف بالدخان والغبار قد صار غير قابل للتنفس، وكان الاضطراب شديداً إلى حد لم يكن هناك من يعرف ما عليه عمله، فكانوا يحاكون بكل بساطة ما يفعله من يمضي في المقدمة. أحس حوله فجأة بوابل من الرصاص وأدرك أنه لا يستطيع مواصلة التقدم، فعليه أن يجد مكاناً يحتمي به. وبضربة من عقب بندقيته فتح أقرب الأبواب منه ودخل إلى المسكن وهو يرفع سيفه، وقد أبهره الانتقال من الشمس الحارقة في الخارج إلى الظلمة في الداخل. كان بحاجة إلى بضع دقائق ليملأ بندقيته بالرصاص، ولكنها لم تُتح له: فقد شلته فجأة صرخةٌ تمزق القلب، ولمح هيئةً كانت تقبع في أحد الأركان، وقد انتصبت الآن في مواجهته رافعة فأساً. استطاع أن يحمي رأسه بذراعيه ويلقي بجسمه إلى الوراء. هوت الفأس مثل برق على قدمه اليسرى، وسمرتها إلى الأرض. لم يدر سيفيرو دل بايي ما الذي جرى، وكان رد فعله غريزياً خالصاً. فدفع بكل ثقل جسده البندقية مع الحربة التي في مقدمتها، وغرسها في بطن مهاجمه ثم رفعها بجهد وحشي. فارتطمت دفقة من الدم في وجهه. وعندئذ انتبه إلى أن ذلك العدو هو فتاة. لقد شق بطنها طولياً، وكانت تجثو مثبتة أمعاءها التي بدأت تندلق على الأرضية الخشبية. تلاقت أعينهما في نظرة لانهائية، متفاجئين، متسائلين بصمت أبدي عمن هما في هذه اللحظات، ولماذا يتواجهان بهذه الطريقة، ولماذا ينزفان، ولماذا عليهما أن يموتا. أراد سيفيرو أن يسندها، ولكنه لم يستطع التحرك، وأحس للمرة الأولى بالألم الرهيب في قدمه يصعد مثل لسان ناري عبر الساق حتى الصدر. في هذه اللحظة اندفع جندي تشيلي آخر إلى المسكن، واستطاع أن يقيّم الوضع بنظرة واحدة، ثم أطلق النار

Twitter: @ketab_n

عن قرب ودون تردد على المرأة التي كانت ميتة على أي حال، ثم أمسك الفأس، وبشدة واحدة حرر سيفيرو. «هلم بنا أيها الملازم، يجب الخروج من هنا، فالمدفعية ستبدأ القصف!»، قال له محذراً، ولكن سيفيرو كان ينزف الدم بغزارة، ويغيب عن الوعي، ثم يستعيد وعيه للحظات ولا يلبث الظلام أن يلفه من جديد. وضع الجندي زمزميته في فمه وأجبره على شرب رشفة طويلة من الخمر، ثم ارتجل ضاغطة لوقف النزيف بمنديل ربطه تحت الركبة، وحمل الجريح على ظهره وأخرجه سحباً. وفي الخارج ساعدته أيد أخرى، وبعد أربعين دقيقة من ذلك، وبينما كانت المدفعية التشيلية تمشط بقصفها تلك القرية، محولة إلى أنقاض وحديد ملوى ما كان منتجعاً هادئاً، كان سيفيرو ينتظر في فناء المستشفى إلى جانب مئات الجثث المهشمة وآلاف الجرحى المطروحين وسط برك من الدم تحت هجمات الذباب، ينتظر أن يأتيه الموت أو أن تنقذه معجزة. كان الألم والخوف يشوشانه، ففي بعض اللحظات يمضي رأساً في ذلك الإغماء الرحيم، ولكنه حين يستيقظ يرى السماء وقد صارت سوداء. لقد تلت حر النهار القائظ، برودة الكامنتشاكا[1] الرطبة التي لفت الليل بدثارها الضبابي الكثيف. كان يتذكر في لحظات صحوه الصلوات التي تعلمها في طفولته ويتوسل موتاً سريعاً، بينما تظهر له صورة نيفيا كملاك، يخيل إليه أنها تنحني فوقه، تسنده، تمسح جبهته بمنديلها المبلل، قائلة له كلمات حب. وكان يردد اسم نيفيا طالباً دون صوت كوباً من الماء.

انتهت معركة اقتحام ليما في الساعة السادسة مساء. وفي الأيام التالية، عندما استطاعوا إحصاء القتلى والجرحى، قدروا بأن عشرين بالمئة من كلا الجيشين قد ماتوا في تلك الساعات، وسيموت آخرون أكثر من ذلك بكثير فيما بعد بفعل الجراح الملتهبة. ارتجلوا المستشفيات الميدانية في مدرسة وفي خيام موزعة في محيط المكان. كانت الريح

---

[1] الكامنتشاكا (camanchaca): ضباب كثيف يسود بعض مناطق البيرو وتشيلي.

Twitter: @ketab_n

تحمل نتانة الجثث إلى بُعد كيلومترات. وكان الأطباء والمرضون المستنفدون يعالجون من يأتونهم ضمن الإمكانيات المتاحة لهم، ولكن كان هناك أكثر من ألفين وخمسمئة جريح في صفوف التشيليين، وقُدر وجود ما لا يقل عن سبعة آلاف بين من بقي حياً من القوات البيروية. كان الجرحى يكومون في الممرات وفي الباحات، مطروحين على الأرض، ريثما يأتي دورهم. وكانت أخطر الإصابات تُعالج أولاً، ولم يكن سيفيرو يحتضر بعد، على الرغم من فقدانه الرهيب للقوة والدم والأمل، ولهذا كان عاملو النقالات يؤجلونه مرة بعد أخرى لينقلوا آخرين. وكان الجندي نفسه الذي حمله على ظهره لينقله إلى المستشفى قد شق جزمته بسكينه، ونزع عنه قميصه المبلل وارتجل به ضماداً للقدم الممزقة، لأنه لم تكن ثمة أضمدة، ولا أدوية، ولا فينول للتعقيم، ولا أفيون أو كلوروفورم، كل شيء قد نفد أو فُقد في فوضى الحملة. «حلّ المنديل الضاغط بين حين وآخر حتى لا تصاب ساقك بالغنغرينا أيها الملازم»، أوصاه الجندي. وقبل أن يودعه تمنى له حظاً طيباً وأهدى إليه أثمن ممتلكاته: علبة سجائر وزمزميته مع بقية خمر فيها. لم يدر سيفيرو دل بايي كم من الوقت بقي في ذلك الفناء، ربما يوم، ربما يومين. وعندما حملوه أخيراً ليأخذوه إلى الطبيب، كان غائباً عن الوعي ومصاباً بالجفاف، ولكن الألم كان فظيعاً عندما حركوه، فاستيقظ مطلقاً صرخة مدوية. «تحمّل أيها الملازم، فما زال الأسوأ بانتظارك» قال له أحد عاملي النقالات. وجد نفسه في قاعة كبيرة، أرضها مغطاة بالرمل، حيث كان جنديان يُفرغان دلاء جديدة من الرمل بين حين وآخر لتمتص الدم، ويحملون في الدلاء نفسها الأعضاء المبتورة ليحرقوها خارجاً في محرقة هائلة، تملأ الوادي كله برائحة لحم مشوي. وعلى أربع طاولات خشبية مغطاة بصفائح معدنية، كانوا يُجرون العمليات الجراحية للجنود عاثري الحظ، وكانت هناك على الأرض سطول فيها ماء مائل إلى الحمرة، حيث يبللون قطع الاسفنج ليمسحوا بها أماكن البتر، وأكوام من الخرق الممزقة إلى شرائط لاستخدامها كأضمدة، وكلها متسخة وملطخة بالرمل والنشارة. وعلى طاولة جانبية تنتشر أدوات تعذيب رهيبة - كماشات، مقصات، مناشير، إبر - ملطخة

Twitter: @ketab_n

بدم جاف. كانت صرخات المصابين تملأ الجو، ورائحة النتانة، والقيء، والبراز لا تحتمل. وكان الطبيب مهاجراً من البلقان له قسوة طباع الجراح الخبير وثقتة وسرعتة. كانت ذقنه لم تُحلق منذ يومين، وعيناه حمراوين من الإنهاك، يرتدي مريلة سميكة من الجلد مغطاة بدم طازج. نزع الضماد المرتجل عن قدم سيفيرو، وحل ضاغطة النزيف، وكانت نظرة واحدة منه كافية ليرى بأن الالتهاب قد بدأ، ويقرر البتر. لم يكن ثمة شك في أنه قد بتر في تلك الأيام أعضاء كثيرة، لأنه لم يرمش حين اتخذ القرار.

- هل لديك خمر أيها الجندي؟ - سأل بلكنة أجنبية واضحة.

توسل سيفيرو دل بايي بلسان جاف:

- ماء...

فقال الطبيب:

- ستتناول ماء فيما بعد. أما الآن فأنت بحاجة إلى شيء يفقدك الوعي قليلاً، ولكننا لم نعد نملك هنا قطرة واحدة من الخمر.

أشار سيفيرو إلى الزمزمية. وأجبره الدكتور على شرب ثلاث رشفات طويلة، موضحاً له بأنه ليس لديه مخدر، ثم استخدم ما تبقى في تعقيم بعض الخرق وتنظيف أدواته، وأومأ بعد ذلك إلى الجنود المساعدين الذين وقفوا إلى جانبي الطاولة لتثبيت المريض. هذه هي ساعة الحقيقة، هذا ما تمكن سيفيرو من التفكير به، وحاول أن يتصور نيفيا لكي لا يموت وفي قلبه صورة الفتاة التي انتزع أحشاءها بضربة حربته. وضع ممرض ضاغطة نزيف أخرى وثبت الرِّجل جيداً عند مستوى الفخذ. تناول الجراح مبضعاً، وغرسه تحت عشرين سنتمتراً من الركبة وقطع اللحم بحركة دائرية ماهرة حتى عظمي الظُنبوب والشظية. جأر سيفيرو دل بايي من الألم وفقد الوعي على الفور، ولكن الجنود المساعدين لم يفلتوه، وإنما أبقوه، بتصميم أكبر، مثبتاً إلى الطاولة، بينما كان الطبيب يدفع بأصابعه الجلد والعضلات إلى الوراء، كاشفاً العظم؛ ثم تناول منشاراً وبثلاث حزات متقنة قطع العظمين. أخرج الممرض، من

Twitter: @ketab_n

بقية الساق، الأوعية الدموية المقطوعة وراح الطبيب يربطها ببعضها بمهارة لا تُصدق، ثم راح يفلت الحزام الضاغط شيئاً فشيئاً بينما هو يغطي العظم المبتور باللحم والجلد ويخيطه. ضمدوه على الفور وحملوه إلى ركن في القاعة ليفسحوا المجال لجريح آخر وصل صارخاً إلى طاولة الجراح. لقد استغرقت العملية كلها أقل من ست دقائق.

في الأيام التي تلت هذه المعركة دخلت القوات التشيلية إلى ليما. وقد تم ذلك، حسب التقارير الرسمية التي نشرتها صحف تشيلي، بصورة نظامية تماماً؛ أما ما تحفظه ذاكرة أهالي ليما، فهو مجزرة، تضاف إلى تجاوزات الجنود البيرويين المهزومين والغاضبين، لأنهم أحسوا بأن قادتهم قد خانوهم. كان جزء من الأهالي المدنيين قد هربوا، وبحثت الأسر الثرية عن الأمن في سفن المرفأ، وفي القنصليات، وفي شاطئ تحميه قوات بحرية أجنبية، حيث نصب السلك الدبلوماسي خيماً لاحتضان اللاجئين تحت رايات دول محايدة. أما من بقوا للدفاع عن ممتلكاتهم فسيتذكرون طوال ما تبقى من حياتهم المشاهد الجهنمية للجنود السكارى الذين افقدهم العنف صوابهم. لقد نهبوا البيوت وأحرقوها، واغتصبوا، وضربوا وقتلوا كل من وقف في طريقهم، بمن في ذلك النساء والأطفال والشيوخ. وأخيراً، أفلت جزء من الجيش البيروي السلاح واستسلم، ولكن جنوداً كثيرين انتشروا في جماعات متفرقة في الجبال. وبعد يومين من ذلك، خرج الجنرال البيروي أندريس كاثيريس من المدينة المحتلة وإحدى ساقيه مهشمة، تساعده زوجته واثنان من ضباطه الأوفياء، ليختفي في وعورة الجبال. لقد أقسم على مواصلة القتال ما دام فيه بقية من نفس.

وفي ميناء كاياو، أمر القباطنة البيرويون البحارة بمغادرة السفن، وأشعلوا البارود، مغرقين أسطولهم كله. أيقظت الانفجارات سيفيرو دل بايي ووجد نفسه في أحد الأركان، فوق رمل قذر في غرفة العمليات، إلى جوار رجال آخرين ذاقوا للتو عذاب البتر. لقد ألقى عليه أحدهم بطانية ووضع إلى جانبه زمزمية ماء، مدّ يده، ولكنها كانت ترتجف بشدة لم يستطع معها فتح الزمزمية، فأبقاها مشدودة إلى صدره، وراح يئن إلى أن اقتربت منه متطوعة خدمة شابة، فتحتها له وساعدته في حملها إلى

Twitter: @ketab_n

شفتيه الجافتين. شرب كل محتوياتها دفعة واحدة، وبعد ذلك، بتوجيه من المرأة التي كانت قد قاتلت طوال شهور إلى جانب الرجال، وتعرف في شؤون العناية بالجرحى مثل الأطباء، دس في فمه حفنة من التبغ ومضغها بشراهة لكي يخفف من تشنجات الصدمة الجراحية. «القتل أمر سهل، أما البقاء على قيد الحياة فهو المهمة الشاقة يا بني. إذا ما أهملت نفسك، فإن الموت سيأخذك غدراً»، حذرته المرأة. حاول سيفيرو أن يقول «إنني خائف»، وربما لم تسمع هي تمتمته، ولكنها أدركت رعبه، لأنها نزعت ميدالية فضية من عنقها ووضعتها بين يديه. «فلتساعدك العذراء»، تمتمت بذلك وهي تنحني وتطبع قبلة خفيفة على شفتيه قبل أن تنصرف. بقي سيفيرو مع ملمس هاتينك الشفتين والميدالية التي يُطبق عليها في راحته. كان يرتجف، أسنانه تصطك ويتأجج بالحمى؛ فيغفو أو يفقد الوعي للحظات، وعندما يستعيد وعيه، يُفقده الألم الوعي من جديد. بعد بضع ساعات عادت فتاة الخدمة نفسها ذات الجديلتين السوداوين، وقدمت له طبقاً من الصفيح فيه عصيدة ذرة، وقطعة خبز يابسة، وفنجان صفيحي فيه قهوة هندباء، سائل فاتر وقاتم لم يحاول لمسه، لأن الضعف والقرف منعاه من ذلك. خبأ رأسه تحت البطانية، مسلماً نفسه للألم واليأس، وكان يئن ويبكي مثل طفل إلى أن غلبه النوم من جديد. «لقد فقدت الكثير من دمك يا بني، وإذا لم تأكل ستموت»، أيقظه كاهن كان يجوب المكان موزعاً المواساة على الجرحى، والمسحة الأخيرة على المحتضرين. عندئذ تذكر سيفيرو دل بايي بأنه جاء إلى الحرب لكي يموت. كان هذا هو هدفه عندما فقد لين سوميرز، ولكنه الآن، حين صار الموت حاضراً، ينحني فوقه مثل طائر رخمة، منتظراً فرصته ليوجه إليه ضربة المخلب الأخيرة، هزته غريزة الحياة. وكانت الرغبة في النجاة أكبر من العذاب الحارق الذي ينتقل من ساقه إلى آخر خلية من جسده، وأقوى من الغم، والارتياب، والرعب. وأدرك أنه بعيداً عن الاستسلام للموت، يرغب بيأس في البقاء في الدنيا، في أن يبقى حياً في أي حال وأي ظرف، وبأي طريقة، فليس مهماً أن يكون أعرج، مهزوماً، طالما أنه سيبقى في هذا العالم. ومثل أي جندي آخر، كان

Twitter: @ketab_n

يعرف أن واحداً من كل عشرة مبتورين يتمكن من البقاء على قيد الحياة، بفعل نزيف الدم والغنغرينا، ولم تكن هناك طريقة لتجنب ذلك، فكل شيء هو مسألة حظ. صمم على أن يكون واحداً من أولئك الذين سينجون. فكر بأن ابنة عمه الرائعة نيفيا تستحق رجلاً كاملاً وليس أبتر، ولم يكن راغباً في أن تراه وقد تحول إلى خرقة، لا يمكنه أن يتسامح مع شفقتها عليه. ولكنه ما إن أغمض عينيه حتى عادت الفتاة للظهور بجانبه، رأى نيفيا، غير ملوثة بعنف الحرب أو بقبح العالم، تتحني فوقه بوجهها الذكي، وعينيها السوداوين وابتسامتها الخبيثة، وعندئذ ذاب كبرياؤه مثلما يذوب الملح في الماء. لم يعد لديه أدنى شك في أنها ستحبه وهو بنصف ساق مثلما أحبته من قبل. فتناول الملعقة بأصابعه المتصلبة، وحاول السيطرة على ارتعاشه، وأجبر نفسه على فتح فمه، وابتلع لقمة من عصيدة الذرة تلك، التي صارت باردة يغطيها الذباب.

دخلت الجيوش التشيلية منتصرة إلى ليما في كانون الثاني 1881، ومن هناك حاول التشيليون فرض سلام الهزيمة الاجباري على البيرو. وما إن هدأت فوضى الأسابيع الأولى البربرية، حتى خلّف المنتصرون المتعجرفون قوة من عشرة آلاف رجل للسيطرة على البلاد المحتلة، وانطلق الباقون في الرحلة إلى الجنوب لنيل أكاليل الغار التي يستحقونها، متجاهلين بالمطلق آلاف الجنود المهزومين الذين تمكنوا من الفرار نحو الجبال وهم يفكرون بمواصلة القتال من هناك. لقد كان الانتصار ساحقاً، فلم يستطع الجنرالات أن يتصوروا بأنه يمكن للبيرويين أن يواصلوا أعمالهم العدائية طوال أكثر من ثلاث سنوات. وقد كان روح تلك المقاومة العنيدة هو الجنرال كاثيريس، الذي هرب من الموت بأعجوبة، وانطلق بجرح مرعب إلى الجبال، ليبعث إلى الحياة بذرة الشجاعة المكابرة في جيش ممزق من جنود شبحيين ومجندين من الهنود، خاض بهم حرب عصابات، وكمائن ومناوشات دامية. كان جنود كاثيريس بزيهم العسكري الممزق أسمالاً، الحفاة، وسيئو التغذية، واليائسون في الغالب،

Twitter: @ketab_n

يقاتلون بالسكاكين والحراب والهراوى والأحجار، وبعض البنادق العتيقة، ولكنهم يعتمدون على مزية معرفتهم للأرض. لقد أحسنوا اختيار ميدان المعركة لمواجهة عدو منضبط ومسلح، وإن لم يكن لديه التموين الكافي على الدوام، لأن اقتحام تلك الجبال شديدة الوعورة هو من مهام نسور الكندور. كانوا يختبؤون في القمم الثلجية، وفي المغاور والمنخفضات، وفي القمم الجليدية، حيث تصبح الأجواء رقيقة والعزلة هائلة، ولا يمكن لأحد غيرهم، هم رجال الجبال، أن يبقى على قيد الحياة. أما جنود القوات التشيلية فكانت آذانهم تنفزر دماً، ويسقطون مغمى عليهم بسبب نقص الأوكسجين ويتجمدون في مضائق جبال الأنديز المتجمدة. وبينما هم يكادون لا يستطيعون الصعود لأن قلوبهم لا تسمح لهم بمثل ذلك الجهد، كان هنود الهضبة يتسلقون تلك الجبال، مثل اللاما، وهم يحملون على كواهلم أثقالاً تعادل وزنهم، ودون أن يتناولوا أي غذاء آخر سوى لحم النسور المر وكرة خضراء من أوراق الكوكا يقلبونها في أفواههم. لقد كانت ثلاث سنوات حرب بلا هوادة وبلا أسرى، أدت إلى مقتل الآلاف. وقد كسب البيرويون معركة مواجهة نظامية واحدة في قرية لا تتمتع بأهمية استراتيجية، يدافع عنها سبعة وسبعون جندياً تشيلياً، عدد منهم مرضى بالتيفوس. ولم يكن لدى المدافعين سوى مئة رصاصة لكل واحد منهم، ولكنهم قاتلوا طوال الليل بشجاعة في مواجهة مئات الجنود والهنود، وعندما بزغ الفجر الكئيب، ولم يعد هناك سوى ثلاثة رماة مدافعين، توسل إليهم الضباط البيرويون أن يستسلموا، لأنهم يرون في قتلهم عملاً مشيناً. ولكنهم لم يستسلموا، وواصلوا القتال وماتوا وهم يشهرون الحراب ويصرخون باسم وطنهم. كانت هناك ثلاث نساء معهم، جرجرتهن قطعان الوطنيين إلى وسط الساحة داميات، واغتصبوهن ومزقوهن. وكانت إحداهن قد وضعت وليداً خلال الليل في الكنيسة، بينما كان زوجها يقاتل في الخارج، فمزقوا الوليد أيضاً. ثم قطعوا أوصال الجثث، وشقوا بطونها وأفرغوا أحشاءها، وقد قيل في سنتياغو، بأن الهنود قد أكلوا الأحشاء مشوية على الأسياخ. لم تكن تلك الوحشية استثناءً، فالبربرية كانت تمضي بالتساوي بين فريقي حرب الخارجين

Twitter: @ketab_n

على كل قانون تلك. أما الاستسلام النهائي وتوقيع معاهدة السلام فتم التوصل إليها في شهر تشرين الأول 1883، بعد الانتصار على قوات كاثيريس في معركة نهائية، مجزرة سكاكين وحراب خلّفت أكثر من ألف قتيل مطروحين في الميدان. وانتزعت تشيلي من البيرو ثلاث مقاطعات. وخسرت بوليفيا مخرجها الوحيد إلى البحر وأُجبرت على توقيع هدنة مطلقة، ستمتد عشرين سنة، لتوقع بعدها اتفاقية سلام.

نُقل سيفيرو دل بايي، مع آلاف الجرحى الآخرين، في سفينة إلى تشيلي. وبينما كان كثيرون يموتون بالغنغرينا والتهابات التيفوس والديزنطاريا في مراكز الإسعاف العسكرية المرتجلة، تمكن هو من استعادة عافيته بفضل نيفيا، التي ما إن علمت بما حدث حتى اتصلت بخالها، الوزير بيرغارا، ولم تتركه إلى أن أمر بالبحث عن سيفيرو، وأخرجه من المستشفى، حيث كان مجرد رقم آخر بين آلاف المرضى في ظروف مشؤومة، وأرسله في أول واسطة نقل متوفرة إلى بالبارايسو. وأصدر تصريحاً خاصاً لابنة أخته كذلك يسمح لها بالدخول إلى المنطقة العسكرية المحرمة في الميناء، وكلف ملازماً بمهمة مساعدتها. عندما أنزلوا سيفيرو دل بايي على حمالة، لم تستطع التعرف عليه. لقد فقد عشرين كيلوغراماً من وزنه، وكان متسخاً، يبدو أشبه بجثة صفراء كثيفة الشعر، بلحية لم تحلق منذ عدة أسابيع، وعيني مجنون مذعورتين وزائغتين. تجاوزت نيفيا هلعها وحافظت على تماسكها بإرادة الأمازونية نفسها التي تسندها في كل مظاهر حياتها، وحيته بالعبارة المرحة «أهلاً يا ابن العم، يسعدني أن أراك!» التي لم يستطع سيفيرو الرد عليها. فقد كانت راحته عظيمة برؤيتها، حتى أنه غطى وجهه بيديه كي لا تراه يبكي. كان الملازم المرافق قد أعد وسيلة النقل، ووفقاً للأوامر التي تلقاها، اقتاد الجريح ونيفيا مباشرة إلى قصر الوزير في بينيا دل مار، حيث كانت زوجة هذا الأخير قد أعدت حجرة خاصة. «يقول زوجي إنك ستبقى هنا حتى تصبح قادراً على المشي يا بني»، قالت له. استخدم طبيب أسرة بيرغارا كل وسائل العلم لعلاجه، ولكن عندما مرّ شهر دون أن يلتئم الجرح، وبقيت قوى سيفيرو تضعف في نوبات الحمى، أدركت نيفيا بأن

Twitter: @ketab_n

روحه مريضة بسبب أهوال الحرب، وأن العلاج الوحيد ضد كل مشاعر الندم تلك هو الحب، وقررت عندئذ اللجوء إلى إجراءات قصوى.

- سأطلب يا ابن عمي إذناً من أبوي لأتزوج منك - أخبرت سيفيرو.

فتنهد:

- إنني أموت يا نيفيا.

- دائما تجد ذريعة للتملص يا سيفيرو! الاحتضار لم يكن في يوم من الأيام عائقاً أمام الزواج.

- أتريدين أن تصبحي أرملة دون أن تكوني زوجة؟ لا أريد أن يحدث لك ما جرى لي مع لين.

- لن أكون أرملة لأنك لن تموت. أيمكنك أن تطلب مني بتذلل أن أقبل الزواج منك يا ابن العم؟ قل لي مثلاً إنني امرأة حياتك، ملاكك، ملهمتك أو أي شيء من هذا القبيل. ابتدع شيئاً يا رجل! قل لي إنك لا تستطيع العيش من دوني، وهذا على الأقل صحيح، أليس كذلك؟ أعترفُ بأنني لا أجد أي ظرافة في أن أكون الرومنسية الوحيدة في هذه العلاقة.

- أنت مجنونة يا نيفيا. فأنا لست رجلاً كاملاً، إنني مقعد تعيس.

فسألته هي بذعر:

- وهل ينقصك شيء آخر سوى قطعة الساق هذه؟

- وهل يبدو لك هذا قليلاً؟

فقالت ضاحكة:

- إذا كان كل شيء آخر في مكانه، فإنني أرى أن ما فقدته قليل يا سيفيرو.

- إذن، أرجو منك أن تتزوجيني. - تلعثم براحة عميقة وبإجهاشة تعترض حنجرته، وهو يشعر بأنه أضعف من أن يعانقها.

Twitter: @ketab_n

- لا تبكِ يا ابن العم، قبلني؛ فمن أجل هذا! لن تحتاج إلى ساقك - ردت وهي تنحني فوق السرير بالحركة نفسها التي رآها مرات كثيرة في هذياناته.

بعد ثلاثة أيام من ذلك تزوجا في احتفال مقتضب في أحد صالونات منزل الوزير البديعة، وبحضور الأسرتين. فكانت حفلة الزفاف خاصة، بسبب الظروف. ولكن الحفلة التي اقتصرت على الأقارب المقربين وحدهم، ضمت أربعة وتسعين شخصاً. ظهر سيفيرو شاحباً ونحيلاً، شعره مقصوص على طريقة بايرون، خداه حليقان، وهو يرتدي بدلة رسمية، مع قميص ذي ياقة مسطحة، وأزرار من الذهب وربطة عنق من الحرير، على كرسي ذي عجلات. لم يكن هناك متسع لصنع ثوب زفاف ولا إعداد جهاز لائق لنيفيا، ولكن أخواتها وبنات عمومتها ملأن صندوقين بالملابس البيتية التي كن قد طرزنها طوال سنوات لجهاز أعراسهن. وارتدت فستاناً من الساتان الأبيض وتاجاً من اللؤلؤ والماس، استعارته من زوجة خالها. وهي تظهر في صورة الزفاف مشرقة إلى جوار كرسي زوجها. وفي تلك الليلة أقيم حفل عشاء عائلي تغيب عنه سيفيرو دل بايي، لأن انفعالات ذلك النهار كانت قد أنهكته. وبعد انصراف الضيوف، ذهبت نيفيا برفقة خالتها إلى الغرفة التي خُصصت لها «يؤسفني أن تكون ليلة زفافك الأولى على هذا النحو»...، دمدمت السيدة الطيبة بحياء. «لا تقلقي يا خالة، سأواسي نفسي بصلاة المسبحة»، ردت عليها الشابة. انتظرتْ إلى أن هجع البيت، ولم تعد هناك حياة سوى ريح البحر المالحة بين أشجار الحديقة، عندئذ نهضت نيفيا بقميص نومها، واجتازت الممرات الطويلة في ذلك القصر الغريب، ودخلت إلى غرفة سيفيرو. كانت الراهبة التي تعاقدوا معها للسهر على المريض تربض متباعدة الساقين على أريكة وتغط في نوم عميق، ولكن سيفيرو كان مستيقظاً ينتظرها. رفعت هي إصبعها على شفتيها مشيرة له بالصمت، وأطفأت مصابيح الغاز واندست في الفراش.

كانت نيفيا قد تربت على يد الراهبات، فضلاً عن أنها تنحدر من

Twitter: @ketab_n

أسرة من الطراز القديم، حيث لا تُذكر مطلقاً وظائف الجسد، وخصوصاً المتعلقة منها بالتناسل، ولكنها كانت في العشرين، ولها قلب مغرم وذاكرة جيدة. إنها تتذكر جيداً الألعاب الممنوعة مع ابن عمها في الأركان المظلمة، وشكل جسد سيفيرو، وجزع اللذة غير المشبعة على الدوام، وفتنة الخطيئة. لقد كان الحياء والإحساس بالذنب يردعهما في تلك الحقبة، فيخرج كلاهما من الأركان المظلمة مرتجفاً، مستنفداً، وببشرة متوقدة. وفي سنوات فراقهما، كان لديها الوقت لمراجعة كل لحظة تقاسمتها مع ابن عمها وتحويل فضول الطفولة إلى حب عميق. أضف إلى ذلك أنها استفادت بعمق من مكتبة خالها خوسيه فرانثيسكو بيرغارا، رجل الفكر الليبرالي والحديث، الذي لم يكن يتقبل أية حدود لهواجسه الثقافية أو أي تسامح مع الرقابة الدينية. وبينما كانت نيفيا تصنف كتب العلوم والفن والحرب، اكتشفت بالصدفة طريقة فتح رف سري ووجدت نفسها أمام مجموعة لا يمكن الاستهانة بها من روايات القائمة الكنسية السوداء، والنصوص الإيروتيكية، بما في ذلك مجموعة ممتعة من الرسوم اليابانية والصينية لشخوص مرفوعي السيقان، في أوضاع تشريحية مستحيلة، ولكنها قادرة على إلهام أشد الناسكين تقشفاً، فما بالك بفتاة واسعة المخيلة مثلها. ولكن أكثر تلك الكتب تعليمية كانت تلك الروايات البورنوغرافية للمدعوة «**السيدة المجهولة**»، المترجمة بصورة سيئة من الإنكليزية إلى الإسبانية، فكانت الفتاة تأخذها واحدة واحدة مخبأة في حقيبتها، فتقرأها بتمعن ثم تعيدها بحذر إلى مكانها نفسه، ولكنه كان احتياطاً دون جدوى، لأن خالها كان مشغولاً في الحملة الحربية، ولم يكن هناك أحد سواها في القصر يدخل إلى المكتبة. راحت تستكشف جسمها مسترشدة بتلك الكتب، وتعلمت مبادئ أقدم فن عرفته البشرية، وهيأت نفسها لليوم الذي ستتمكن فيه من تطبيق النظرية عملياً. كانت تعرف بالطبع أنها ترتكب خطيئة مريعة - فاللذة هي خطيئة على الدوام - ولكنها امتنعت عن مناقشة الموضوع مع كاهن الاعتراف، لأن المتعة التي تجدها، وتلك التي ستجدها في المستقبل، تستحق مجازفة الذهاب إلى الجحيم. كانت تصلي كيلا يفاجئها الموت بغتة وتتمكن، قبل أن تلفظ

Twitter: @ketab_n

النفس الأخير، من الاعتراف بساعات اللذة التي وفرتها لها تلك الكتب. ولكن لم يخطر لها قط بأن تلك التمرينات المتوحدة ستفيدها في إعادة الحياة إلى الرجل الذي أحبته، وأقل من ذلك أنه سيكون عليها عمل ذلك على بعد ثلاثة أمتار من راهبة نائمة. ابتداء من الليلة الأولى مع سيفيرو، رتبت نيفيا الأمر لتحمل فنجان شوكولاتة وبعض البسكويت إلى المتدينة عندما تذهب لتودع زوجها، قبل انصرافها إلى غرفتها. وكانت الشوكولاتة تحوي جرعة من الفاليريانا تكفي لتنويم جمل. لم يكن يخطر لسيفيرو دل بايي أن تكون ابنة عمه قادرة على اجتراح كل تلك المآثر الكثيرة والاستثنائية. لقد كان جرح ساقه الذي يسبب له آلاماً واخزة، والحمى والضعف، تحد من إمكانياته لتقتصر على دور سلبي، ولكن ما كان ينقصه من قوة تضيفه هي بالمبادرة والمعرفة. ولم تكن لدى سيفيرو أي فكرة عن إمكانية تحقيق تلك الأوضاع البهلوانية، وكان واثقاً من أنها ليست بالأوضاع المسيحية، ولكن ذلك لم يمنعه من الاستمتاع بها إلى أقصى الحدود. ولولا أنه يعرف نيفيا منذ الطفولة، لظن بأن ابنة عمه قد دخلت سرايا تركية، ولكنه ظل قلقاً للطريقة التي تعلمت بها تلك العذراء كل هذه التشكيلة من مهارات المومسات، وكان من الذكاء بحيث لم يسألها عن ذلك. تابعها بوداعة في رحلة الحواس إلى حيث يتيح له جسده، مساهماً في الطريق حتى آخر رمق في روحه. كانا يبحثان تحت الملاءات في الطرق التي يصفها بورونوغرافيو مكتبة وزير الحرب المحترم، وفي طرق أخرى يبتكرانها بدافع الرغبة والحب، ولكنهما يبقيان مقيدين بسبب بقية الساق الملفوفة بالأضمدة ووجود الراهبة التي تشخر على المقعد. ويفاجئهما الفجر وهما يتلمسان في عقدة متشابكة من الأذرع، وفمين ملتصقين يتنفسان بصوت واحد، وسرعان ما يُلمح أول أنوار النهار في النافذة، فتنسل هي مثل شبح عائدة إلى حجرتها. تحولت ألعاب الماضي إلى ماراثونات حقيقية في الشهوة، فكانا يتداعبان بشهية نهمة، يتبادلان القبلات، يلحس كل منهما الآخر ويتغلغل في كل الانحاء، وكل ذلك في الظلام وبصمت مطلق، مبتلعين التنهدات، يعضان على الوسائد ليخنقا الشبق السعيد الذي يرفعهما إلى المجد مرة بعد أخرى خلال تلك الليالي

Twitter: @ketab_n

القصيرة جداً. الساعة تطير طيراناً: فما أن تظهر نيفيا مثل روح في الغرفة لتندس في سرير سيفيرو حتى يكون الصباح قد طلع. لم يكن أي منهما يغمض عينيه ليغفو، لا يمكنهما أن يضيعها دقيقة واحدة من تلك اللقاءات المباركة. وفي اليوم التالي ينام هو، مثل طفل حديث الولادة، حتى الظهيرة، أما هي فتستيقظ باكراً بالمظهر المشوش لمسرنمة، وتنجز الأعمال الروتينية المعتادة. وفي المساء يستريح سيفيرو دل بايي على كرسيه ذي العجلات متأملاً غياب الشمس في مواجهة البحر على الشرفة، بينما زوجته إلى جانبه تغفو وهي تطرز شراشف. كانا يتعاملان أمام الآخرين كأخوين، لا يلمس أحدهما الآخر، ولا يكادان يتبادلان النظرات، ولكن الجو من حولهما كان مشحوناً باللهفة. فهما يمضيان النهار في عدّ الساعات، منتظرين بتوقد هذياني أن تصل ساعة عودتهما للعناق في السرير. ما كانا يفعلانه في الليل سيبعث الرعب في الطبيب، وفي الأسرتين، وفي المجتمع بأسره.. ولا حاجة لقول شيء عن دهشة الراهبة. في أثناء ذلك كان الأقارب والأصدقاء يتحدثون عن تفاني نيفيا، تلك الشابة شديدة الطهارة والكاثوليكية التي حكمت على نفسها بحب أفلاطوني، وعن صلابة سيفيرو الأخلاقية، الذي فقد إحدى ساقيه ودمر حياته في الدفاع عن الوطن. وكانت النمامات ينشرن الإشاعة بأن ما فقده في ساحة المعركة لم يكن ساقه وحسب، وإنما كذلك رموز الذكورة. وكن يتهامسن وهن يطلقن الزفرات: «يا للمسكينين»، دون أن يخامرهن الشك بأن هذين المتهتكين يمضيان لياليهما على خير ما يرام. بعد أسبوع من بدء تخدير الراهبة بالشوكولاتة، وممارسة الحب كما المصريين، كان جرح البتر قد شفي، والحمى قد تلاشت. وقبل مضي شهرين كان سيفيرو دل بايي يمشي بعكازين، وبدأ يتكلم عن صنع ساق خشبية، بينما نيفيا تراقب تضخم بطنها وهي مختبئة في أي واحد من الحمامات الثلاثة والعشرين في قصر خالها. وعندما لم يعد هناك مفر من الإعلان أمام الأسرة عن حَبَل نيفيا، كان الذهول العام عظيماً إلى حدّ القول إن ذلك الحمل هو معجزة إلهية. أما أشد المستنكرين فكانت الراهبة دون شك، ولكن سيفيرو ونيفيا بقيا مرتابين بأن المرأة المقدسة، بالرغم من

Twitter: @ketab_n

جرعة الفاليريانا الزائدة، وجدت فرصة لتعلم الكثير؛ فقد كانت تتصنع النوم لكي لا تحرم نفسها من لذة التلصص عليهما. والوحيد الذي تمكن من تخيل كيف فعلا ذلك واحتفى بمهارة العروسين بقهقهات ملعلعة هو الوزير بيرغارا. وعندما تمكن سيفيرو من مشي خطواته الأولى بساقه الاصطناعية، ولم يعد ممكناً إخفاء بطن نيفيا، ساعدهما على الاستقرار في بيت آخر ووفر لسيفيرو دل بايي عملاً. «البلاد والحزب الليبرالي بحاجة إلى رجال بمثل جرأتك»، قال له ذلك، مع أن شرف الحقيقة يستدعي القول إن الجريئة هي نيفيا.

لم أتعرف على جدي فيليثيانو رودريغيث دي سانتا كروث، فقد مات قبل شهور من مجيئي إلى بيته. أصيب بالسكتة الدماغية عندما كان جالساً على رأس المائدة أثناء وليمة في منزله في نوب هيل، مختنقاً بحلوى الغزال ونبيذ فرنسي أحمر. قام عدة أشخاص بحمله عن الأرض ومددوه محتضراً على أريكة، مسندين رأسه البديع كرأس أمير عربي إلى حضن باولينا دل بايي التي كانت تردد لكي تشجعه: «لا تمت يا فيليثيانو، ألا ترى أنّ لا أحد يدعو الأرامل إلى الحفلات... تنفس يا رجل! أعدك إذا ما تنفست بأن أنزع مزلاج باب غرفتي اليوم بالذات.» ويقولون إن فيليثيانو تمكن من الابتسام قبل أن ينفجر قلبه بالدم. هناك صور كثيرة لذلك التشيلي المتين والمرح؛ ومن السهل تصوره حياً، لأنه لا يظهر في أي صورة وهو في وضعية الاستعداد أمام الرسام أو المصور، وإنما يعطي انطباعاً فيها جميعها بأنه قد فوجئ وهو يقوم بحركة عفوية. كان يضحك بأسنانِ سمكة قرش، ويومئ بيديه عند التكلم، ويتحرك بثقة وصلف قرصان. عند موته انهارت باولينا دل بايي؛ وبلغ بها الغم حد عدم القدرة على حضور المأتم أو حفلات التكريم الكثيرة التي أقامتها له المدينة. ولأن أبناءه الثلاثة كانوا غائبين، فقد كان على القهرمان ويليامز ومحاميي الأسرة أن يتولوا مسؤولية المأتم. وصل الابنان الأصغران بعد بضعة أسابيع، أما ماتياس فكان في ألمانيا، وبحجة حالته الصحية، لم

Twitter: @ketab_n

يأت لمواساة أمه. فقدت باولينا للمرة الأولى في حياتها التغنج، والشهية، والاهتمام بدفاتر حساباتها، وكانت ترفض الخروج وتقضي أياماً في الفراش. لم تسمح لأحد أن يراها وهي في تلك الظروف، والوحيدون الذين علموا ببكائها هن خادماتها الخاصات وويليامز، الذي كان يتظاهر بعدم ملاحظة ذلك، ويكتفي بالمراقبة عن بعد لكي يساعدها إذا ما طلبت منه. وفي مساء أحد الأيام توقفت صدفة قبالة المرآة الكبيرة المذهبة التي تشغل نصف جدار في حمامها، ورأت ما الذي تحولت إليه: ساحرة بدينة ورثة، لها رأس سلحفاة متوج بشعر رمادي مشعث. فأطلقت صرخة رعب. واستخلصت أنه ليس هناك رجل في العالم - وخصوصاً فيليثيانو - يستحق مثل ذلك الإنكار للذات. كانت قد لامست القاع، وقد حانت الساعة لتخبط قدميها في الأرض وتطفو مرة أخرى إلى السطح. قرعت الجرس اليدوي الصغير لتستدعي خادماتها وأمرتهن بمساعدتها على الاستحمام، وبأن يحضرن مصفف شعرها. ومنذ ذلك اليوم تخلصت من الحداد بإرادة حديدية، دون أي عون آخر سوى جبال من الحلويات وحمامات طويلة في حوض الاستحمام. فكان الليل يفاجئها وفمها ممتلئ وهي غاطسة في الحوض، ولكنها لم تعد إلى البكاء. وفي أعياد الميلاد خرجت من اعتكافها، وقد ازداد وزنها عدة كيلوغرامات، متبرجة تماماً، وعندئذ تبينت مذهولة بأن العالم في غيابها واصل دورانه ولم يفتقدها أحد، وكان ذلك حافزاً آخر لكي تنهض نهائياً. وصممت بألا تسمح لهم بتجاهلها، فقد أكملت للتو ستين سنة وهي تفكر بأن تعيش حوالى ثلاثين سنة أخرى، وإن كان ذلك لمجرد تعذيب أمثالها وحسب. كانت ستلبس الحداد لبضعة شهور، وهو أقل ما يمكن أن تفعله من أجل فيليثيانو، ولكنه هو نفسه لا يحب أن يراها وقد تحولت إلى واحدة من أولئك الأرامل اليونانيات اللواتي يدفن أنفسهن في الخرق السوداء طوال ما تبقى من حيواتهن. وبدأت تخطط لصنع خزانة ثياب جديدة بألوان باستيل في السنة القادمة، وبرحلة ترفيهية إلى أوروبا. لقد كانت ترغب دوماً في السفر إلى مصر، ولكن فيليثيانو كان يقول إنها بلاد رمال ومومياءات، حيث كل شيء مشوق حدث فيها منذ ثلاثة آلاف سنة. وبما إنها صارت

Twitter: @ketab_n

وحيدة الآن، فإنها قادرة على تحقيق ذلك الحلم. ولكنها سرعان ما انتبهت إلى مقدار التبدل الذي طرأ على حياتها، ومدى ضآلة تقدير مجتمع سان فرانسيسكو لها؛ فكل ثروتها لا تكفي للتسامح مع أصولها الهسبانية ولكنتها التي هي أشبه بلكنة الطاهيات. ومثلما قالت مازحة، لم يعد هناك من يدعوها، فهي لم تعد أول من يتلقى الدعوة إلى الحفلات، ولم يعد يُطلب منها أن تفتتح مستشفى أو نصباً، ولم يعد اسمها يُذكر في صفحات المجتمع، ولا يكاد أحد يسلم عليها في دار الأوبرا. إنها مستبعدة. وكان من الصعب عليها من جهة أخرى أن تنمي أعمالها التجارية، إذ لم يعد لديها بعد غياب زوجها من يمثلها في الأوساط المالية. قامت بجردة حساب دقيقة لممتلكاتها، وانتبهت إلى أن أبناءها الثلاثة يبددون الأموال بأسرع مما يمكنها أن تكسبها، وهناك ديون في كل مكان، وكان فيليثيانو قبل موته قد قام ببعض الاستثمارات السيئة دون أن يستشيرها. لم تكن غنية إلى الحد الذي كانت تتصوره، ولكنها بعيدة عن الشعور بانها مهزومة. استدعت ويليامز وأمرته بأن يتعاقد مع مصمم ديكور ليعيد ترتيب الصالونات، ومع رئيس طهاة لتنظيم سلسلة من المآدب التي ستقيمها بمناسبة العام الجديد، وبوكيل سفر لتتكلم معه عن مصر، وخياط لكي يصمم لها أثوابها الجديدة. وكانت منهمكة في هذه الأمور، لتستعيد تماسكها من هول الترمل بإجراءات مستعجلة، عندما حضرت إلى بيتها طفلة ترتدي ثوباً من البوبلين الأبيض وقلنسوة مطرزة، وجزمة لامعة، تمسك بيد امرأة ترتدي ثياب الحداد. كانت تلك هي إلزا سوميرز وحفيدتها أورورا اللتان لم ترهما باولينا دل بايي منذ خمس سنوات.

قالت إلزا سوميرز:

- إنني أحضر لك الطفلة، مثلما كنتِ ترغبين يا باولينا.

فسألتها باولينا دل بايي وقد استولت عليها المفاجأة:

- أيها الرب المقدس، ما الذي جرى؟

- لقد مات زوجي.

فدمدمت باولينا:

Twitter: @ketab_n

- أرى أننا صرنا أرملتين...

أوضحت لها إلزا سوميرز بأنها لن تكون قادرة على رعاية حفيدتها، لأن عليها أن تحمل جثمان تاو تشين إلى الصين، مثلما وعدته دوماً. استدعت باولينا دل بايي ويليامز وأمرته بأن يرافق الطفلة إلى الحديقة ليريها الطواويس، بينما هما تتبادلان الحديث.

- ومتى تفكرين في الرجوع يا إلزا؟ - سألتها باولينا.

- يمكن أن تكون رحلة طويلة جداً.

- لا أريد أن أتعلق بالطفلة، ويكون علي بعد شهور أن أعيدها إليك. سيمزق ذلك قلبي.

- أعدك بأن ذلك لن يحدث يا باولينا. فأنت تستطيعين أن توفري لحفيدتي حياة أفضل بكثير مما يمكنني أن أقدمه إليها. إنني لا أنتمي إلى أي مكان. فبغياب تاو لم يعد لحياتي في تشايناتاون أي معنى، ولست أنفع للعيش بين الأمريكيين، وليس لدي ما أفعله في تشيلي. إنني أجنبية في كل مكان. ولكنني أرغب في أن تمتلك **لاي**-مينغ جذوراً، وتكون لها أسرة، وتحصل على تعليم لائق. كان يجب على أبيها الشرعي، سيفيرو دل بايي، أن يتحمل مسؤوليتها، ولكنه بعيد جداً ولديه أبناء آخرون. وبما أنك كنتِ ترغبين في أخذ الطفلة، فقد فكرت بأنه...

قاطعتها باولينا:

- لقد أحسنتِ صنعاً يا إلزا!

استمعت باولينا دل بايي حتى النهاية إلى المأساة التي حلّت بإلزا سوميرز، وتقصت كل التفاصيل عن أورورا، بما في ذلك الدور الذي يلعبه سيفيرو دل بايي في مصيرها. ودون أن تدري كيف، تبخرت في أثناء ذلك الضغينة والعجرفة، ووجدت نفسها تعانق بتأثر تلك المرأة التي كانت تعتبرها إلى ما قبل لحظات أسوأ أعدائها، وتشكرها على كرمها الذي لا يُصدق في تسليمها حفيدتها، وتقسم لها أنها ستكون جدة حقيقية، ليس مثل ما كانته هي وتاو تشين بالتأكيد، ولكنها مستعدة لتكريس ما تبقى من

Twitter: @ketab_n

حياتها لرعاية أورورا وجعلها سعيدة. وستكون هذه هي مهمتها الأولى في هذه الدنيا.

قالت إلزا:

- **لاي-مينغ** بنت ذكية. سرعان ما ستسأل من هو أبوها. إلى ما قبل وقت قريب كانت تظن أن أباها، وجدها، صديقها المفضل، والرب هم الشخص نفسه: تاو تشين.

فأرادت باولينا أن تعرف:

- وماذا تريدين أن أقول لها إذا ما سألت؟

ونصحتها إلزا:

- قولي لها الحقيقة، فهذا هو أسهل شيء على الفهم دوماً.

- أأخبرها بأن ابني ماتياس هو أبوها العضوي وابن أخي سيفيرو هو أبوها الشرعي؟

- ولم لا؟ قولي لها إن أمها كانت تدعى لين سوميرز، وإنها كانت فتاة طيبة وجميلة - دمدمت إلزا بصوت كسير.

واتفقت الجدتان هناك بالذات بأنه - من أجل عدم التسبب في مزيد من البلبلة للحفيدة - من الأفضل فصلها نهائياً عن أسرتها لأمها، وألا تعود إلى التكلم بالصينية، أو إقامة أي اتصال بماضيها. واتفقتا بأن سنوات عمرها الخمس لن تتيح لها التمييز، ومع الزمن ستنسى الصغيرة **لاي-مينغ** أصولها وصدمة الأحداث التي وقعت أخيراً. ووعدت إلزا سوميرز بألا تحاول الاتصال بالطفلة بأي حال، وتعهدت باولينا دل بايي بأن تحبها كما لو كانت الابنة التي طالما رغبت في إنجابها ولم تستطع. تودعتا في عناق مقتضب وخرجت إلزا من باب الخدم، لكي لا تراها حفيدتها وهي تبتعد.

يؤسفني جداً أن هاتين السيدتين الطيبتين، جدتيّ إلزا سوميرز وباولينا دل بايي، قد قررا مصيري دون أن تسمحا لي بأي مشاركة.

Twitter: @ketab_n

فبالتصميم الجبار نفسه الذي فرت فيه من الدير حليقة الرأس، وهي في الثامنة عشرة من عمرها، لتهرب مع خطيبها؛ بالتصميم الذي جمعت فيه وهي في الثامنة والعشرين ثروة ضخمة بنقلها ثلوجاً خرافية في سفينة، انهمكت جدتي باولينا في محو كل ماضيّ. وكانت ستتمكن من تحقيق ذلك لولا إحدى عثرات القدر التي لوت خططها في اللحظة الأخيرة.
إنني أتذكر جيداً انطباعي الأول عنها. فأنا أرى نفسي أدخل قصراً معلقاً على رابية، مجتازة حدائق ذات مرايا مائية وشجيرات مشذبة، أرى أدراج المدخل الرخامية، وعلى كل واحد من جانبيها أسد برونزي بالحجم الطبيعي، ثم البوابة المزدوجة من خشب قاتم، والبهو الفسيح المضاء بنوافذ زجاجية ملونة في قبة مهيبة تكلل السقف. لم أدخل من قبل قط مكاناً كهذا، كنت أشعر بالافتتان قدر شعوري بالخوف. وفجأة وجدت نفسي أمام مقعد مذهب تزينه رصيعة موشاة بالزخارف، حيث كانت تجلس باولينا دل بايي، ملكة على عرشها. ولأنني رأيتها فيما بعد مرات كثيرة تجلس على المقعد نفسه، فليس من الصعب عليّ تصور مظهرها في ذلك اليوم الأول: مزينة بفيض من المجوهرات وبأقمشة وفيرة تكفي لصنع ستائر، ومهيمنة بتسلط. إلى جانبها تختفي بقية العالم. كان لها صوت بديع، وأناقة طبيعية عظيمة، وأسنان بيضاء ومنتظمة، نتيجة طقم أسنان متقن من الخزف. لقد كان شعرها في ذلك الوقت رمادياً بكل تأكيد، ولكنها تصبغه بلونه الكستنائي الشبابي، وتزيده بجملة من خصل الشعر المستعار المركبة بمهارة بحيث تبدو العقيصة برجاً. لم أكن قد رأيت من قبل مخلوقة بمثل تلك الأبعاد المتناسبة تماماً مع حجم بيتها وفخامته. أما الآن، وقد عرفت أخيراً ما جرى خلال الأيام السابقة لتلك اللحظة، أدركُ أنه ليس من العدل أن أعزو ذعري إلى تلك الجدة الضخمة وحدها؛ فعندما أخذوني إلى بيتها، كان الخوف جزءاً من أمتعتي، مثله مثل الحقيبة الصغيرة والدمية الصينية التي كنت أحملها متشبثة بها. بعد أن تمشيت في الحديقة، وجلست في صالة طعام فسيحة قبالة كأس من المثلجات، اقتادني ويليامز إلى حجرة اللوحات المائية، حيث كنت أتوقع أن تكون جدتي إلزا بانتظاري، ولكنني وجدت

Twitter: @ketab_n

بدلاً منها باولينا دل بايي، التي دنت مني بحذر، كمن تحاول الإمساك بقط متفلت، وقالت لي إنها تحبني كثيراً، وإنني سأعيش من الآن فصاعداً في هذا البيت الكبير، وستكون لدي دمى كثيرة، وكذلك حصان قزم وعربة صغيرة. وأوضحتْ:

- أنا جدتك.

ويقولون إنني سألتها:

- أين هي جدتي الحقيقية؟

فأوضحت لي باولينا:

- أنا جدتك الحقيقية يا أورورا. أما جدتك الأخرى فذهبت في رحلة طويلة.

انطلقتُ راكضة، اجتزتُ ردهة القبة، وضِعتُ في المكتبة، وواجهت قاعة طعام فدخلت تحت طاولتها حيث قبعت وقد أصابني الاضطراب بالبكم. كانت قطعة الأثاث تلك هائلة، لها سطح من المرمر الأخضر وقوائم محفورة على شكل هيئات بشرية، من المستحيل تحريكها. وسرعان ما وصلت باولينا دل بايي وويليامز وخادمتان وهم مصممون على تملقي، ولكنني كنت أتملص مثل ابن عرس ما إن تتمكن إحدى الأيدي من لمسي. فاقترح ويليامز «فلندعها يا سيدتي، ستخرج وحدها»، ولكن بعد مرور عدة ساعات، وبقائي متمترسة تحت الطاولة، أحضروا لي طبقاً آخر من المثلجات، ووسادة وشرشفاً. وقالت باولينا «سنُخرجها عندما تنام»، ولكنني لم أنم، وإنما بلت في ملابسي بالمقابل وأنا مدركة تماماً الخطأ الذي ارتكبته، فقد كنت مذعورة إلى حد لا يسمح لي بالبحث عن الحمام. بقيت تحت الطاولة حتى في أثناء تناول باولينا العشاء، وكنت أرى من خندقي ساقيها الثخينتين، وحذاءها المخملي الصغير الذي تنحشر فيه كتل قدميها، والسراويل السوداء للخدم الذين يقدمون الطعام. وقد انحنت هي مرتين، بمشقة كبيرة، لكي تغمزني، فرددت عليها بإخفاء وجهي وراء ركبتي. كنتُ أموت جوعاً، وتعباً، ورغبة في الذهاب

Twitter: @ketab_n

إلى الحمام، ولكنني كنت شديدة العناد مثل باولينا دل بايي نفسها، ولم أستسلم بسهولة. بعد وقت قصير من ذلك وضع ويليامز صينية فيها طبق المثلجات الثالث، وبسكويت وقطعة كبيرة من حلوى الشوكولاتة. انتظرتُ إلى أن ابتعد، وعندما أحسست بالأمان أردت أن آكل، ولكنني كلما مددت يدي، كانت الصينية تبتعد أكثر، ذلك أن القهرمان كان يشدها بحبل. وعندما استطعت في النهاية أن آخذ قطعة بسكويت، وجدت نفسي خارج مخبئي، وبما أنه لم يكن هناك أحد في قاعة الطعام، فقد استطعت التهام الحلويات بسلام والعودة بسرعة إلى تحت الطاولة فور أن سمعت ضجة قريبة. وقد تكرر الشيء نفسه بعد عدة ساعات، عندما انبلج الصبح، إلى أن وصلتُ وأنا أتبع الصينية المتحركة إلى الباب، حيث كانت تنتظرني باولينا دل بايي ومعها جرو لونه مائل إلى الصفرة، وضعته بين ذراعي قائلة:

- خذي، إنه لك يا أورورا. هذا الكلب الصغير يشعر بالوحدة والخوف أيضاً.

- اسمي لاي-مينغ.

فردت هي بحزم:

- اسمك أورورا دل بايي.

فتلعثمتُ وأنا أقاطع ساقيّ:

- أين الحمام؟

وهكذا بدأت علاقتي بهذه الجدة العملاقة التي خصني بها القدر. خصصتْ لي غرفة قريبة من غرفتها، وسمحت لي بالنوم مع الجرو الذي سميته «كراميلو»، لأنه كان بلون الكراميلا. وفي منتصف الليل أيقظني كابوس الأطفال ذوي البيجامات السوداء، ودون أن أفكر في الأمر مرتين، ذهبت راكضة إلى سرير باولينا دل بايي الأسطوري، مثلما كنت أندس في فجر كل يوم من قبل في فراش جدي، لكي يدللني. كنت معتادة على أن تتلقاني ذراعا تاو تشين القويتان، ولم يكن هناك ما يريحني أكثر من

Twitter: @ketab_n

رائحته البحرية وترتيلة الكلمات العذبة الصينية التي كان يقولها لي وهو نصف نائم. كنت أجهل أن الأطفال الطبيعيين لا يجتازون عتبة غرف الكبار، ناهيك عن الاندساس في فراشهم؛ لقد تربيت في تلامس جسدي وثيق، أتلقى القبلات والأرجحة بصورة دائمة من جديّ لأمي، ولم أكن أعرف طريقة أخرى للمواساة أو الراحة إلا بالعناق. عندما رأتني باولينا دل بايي صدتني مستنكرة، فرحت أئنُّ ببطء في كورال مع الكلب المسكين، ولا بد أن حالتنا كانت محزنة جداً، فأومأت لنا بالاقتراب. قفزت إلى سريرها وغطيت رأسي بالملاءات. أظن أنني غفوت فوراً، ولكنني استيقظت في الصباح على أي حال وأنا متقوقعة بجانب ثدييها الضخمين المعطرين بالياسمين، والجرو عند قدمي. وكان أول شيء فعلتُه عندما استيقظتُ ما بين نقوش الدلفينات والحوريات الفلورنسيات هو السؤال عن جديّ، إلزا وتاو. بحثت عنهما في البيت كله، وفي الحدائق، ثم جلست بعد ذلك عند الباب منتظرة أن يأتيا بحثاً عني. وقد تكرر الأمر نفسه بقية الأسبوع، بالرغم من الهدايا، والنزهات وتدليل باولينا لي. وفي يوم السبت هربت، ولم أكن قد خرجت قبل ذلك إلى الشارع وحدي قط، ولم أكن قادرة على تحديد موقعي، ولكن الغريزة أوحت لي بأنه عليّ أن أنزل من الرابية، وهكذا وصلت إلى مركز مدينة سان فرانسيسكو، حيث تجولت مرعوبة لعدة ساعات، إلى أن لمحت صينيين يجران عربة محملة بملابس للغسل فتبعتهما عن بعد لأنهما كانا يشبهان خالي لاكي. كانا متوجهين إلى تشايناتاون - فهناك توجد كل محلات غسل وكوي الملابس في المدينة - وما دخلت ذلك الحي الذي أعرفه جيداً حتى أحسست بالأمان، مع انني كنت أجهل أسماء الشوارع وعنوان جديّ. كنت خجولة، وأحسست بالخوف من طلب المساعدة، وهكذا واصلت المشي دون وجهة محددة، تقودني روائح الطعام، ورنين اللغة، ومظهر مئات الدكاكين الصغيرة التي طالما ذرعتها وأنا أمسك بيد جدي تاو تشين. وفي إحدى اللحظات هدني التعب، فجلست عند مدخل بناء عتيق وهناك غلبني النعاس. أيقظتني هزة وزمجرات امرأة عجوز ذات حواجب رفيعة مرسومة بقلم فحم في منتصف جبهتها، تضفي عليها مظهر قناع.

Twitter: @ketab_n

أطلقتُ صرخة رعب، ولكن الوقت كان قد فات للهرب، لأنها كانت تمسك بي بكلتا يديها. حملتني وأنا أخبط قدمي في الهواء إلى ركن نتن وحبستني فيه. كانت رائحة تلك الغرفة كريهة جداً، وأعتقد أنني أصبت بالمرض بفعل الخوف والجوع، وبدأت أتقيأ. لم تكن لدي فكرة عن مكان وجودي. وما كدت أستعيد قواي من حالة الغثيان التي أصابتني حتى رحت أنادي جدي بملء رئتي، وعندئذ رجعت المرأة ووجهت لي عدة صفعات قطعت أنفاسي؛ لم أكن قد ضُربت من قبل، وأظن أن المفاجأة كانت أكبر من الألم. أمرتني بالكانتونية أن أطبق فمي وإلا فإنها ستجلدني بعصا من الخيزران، وبعد ذلك عرتني من ملابسي، وتفحصتني بالكامل، مع اهتمام خاص بفمي، وأذني، وأعضائي التناسلية، وألبستني قميصاً نظيفاً وأخذت ملابسي الملوثة. بقيت وحيدة مرة أخرى في تلك الحجرة التي راحت تغرق في الظلام مع تضاؤل الضوء الذي ينفذ من فتحة التهوية الوحيدة.

أظن أن هذه المغامرة قد دمغتني، لأن خمساً وعشرين سنة قد مضت وما زلت أرتعش حتى الآن كلما تذكرت تلك الساعات التي بلا نهاية. لم تكن البنات الصغيرات يخرجن بمفردهن على الإطلاق في تشايناتاون في ذلك الحين، فالعائلات ترعاهن بغيرة لأنهن قد يختفين لدى أي سهو في شباك الدعارة الطفولية. لقد كنتُ ما أزال صغيرة على ذلك، ولكنهم كثيراً ما كانوا يختطفون بنات في مثل سني أو يشترونهن لتدريبهن منذ الطفولة على كل أنواع الفجور. رجعت المرأة بعد عدة ساعات، حين كان الظلام قد خيم تماماً، وكان برفقتها شاب أكثر منها شباباً. تفحصاني على ضوء مصباح وبدأا يتجادلان بهياج بلغتهما التي كنت أعرفها، ولكنني لم أفهم إلا القليل لأنني كنت منهوكة وأكاد أموت خوفاً. وبدا لي أنني سمعت عدة مرات اسم جدي تاو تشين. انصرفا وبقيت وحدي من جديد، أرتجفُ من البرد والرعب، لست أدري لكم من الوقت. وعندما فُتح الباب من جديد، أصابني ضوء المصباح بالانبهار، سمعت اسمي بالصينية، **لاي-مينغ**، وتعرفت على صوت خالي لاكي الذي لا يمكن أن أخطئه. رفعتني ذرعاه ولم أعد أعرف غير ذلك، لأن

Twitter: @ketab_n

الاطمئنان أفقدني الوعي. لست أتذكر الانتقال بالعربة ولا اللحظة التي وجدت نفسي فيها من جديد في قصر نوب هيل، أمام جدتي باولينا. ولست أذكر كذلك ما الذي حدث في الأسابيع التالية، لأنني أُصبت بالحصبة واشتد عليّ المرض؛ وكانت تلك فترة مضطربة، شهدت تبدلات وتناقضات كثيرة.

وبينما أنا أعيد الآن ربط خيوط ماضيّ المفلتة، يمكنني التأكيد دون أدنى شك بأن ما أنقذني هو حسن طالع خالي لاكي. فالمرأة التي اختطفتني في الشارع لجأت إلى أحد ممثلي **التونغ** التي ينتمي إليها، لأنه لا يمكن لشيء أن يحدث في تشايناتاون دون علم تلك العصابات وموافقتها. وكانت الجالية الصينية كلها تنتمي إلى تلك **التونغات**. وهي أخويات مغلقة ومتعصبة تجمع أعضاءها مطالبة إياهم بالإخلاص ودفع عمولات مقابل توفير الحماية لهم، وتأمين اتصالات للحصول على عمل، والوعد بإعادة أجسادهم إلى الصين إذا ما ماتوا في الأراضي الأمريكية. وكان الرجل قد رآني ممسكة بيد جدي في مرات كثيرة، وبصدفة سعيدة، كان ينتمي إلى **التونغ** نفسها التي ينتمي إليها تاو تشين. فاستدعى خالي. وكان أول ما فكر به لاكي هو أخذي إلى بيته لكي تتولى رعايتي زوجته الجديدة، التي أوصى عليها من الصين حديثاً بوساطة كتالوج صور. ولكنه أدرك بعد ذلك أن تعليمات أبويه يجب أن تُحترم. فبعد أن وضعتني جدتي إلزا بين يدي باولينا دل بايي، سافرتْ مع جسد زوجها لتدفنه في هونغ كونغ. وكانت هي وتاو تشين على السواء، قد أقرا بأن الحي الصيني في سان فرانسيسكو هو عالم ضيق جداً بالنسبة لي، وكانا يرغبان في أن أندمج في حياة الولايات المتحدة. ومع أن لاكي تشين لم يكن موافقاً على هذا المبدأ، إلا أنه لا يستطيع مخالفة مشيئة أبويه، ولهذا دفع الفدية المتعارف عليها لخاطفيّ وأعادني إلى بيت باولينا دل بايي. ولن أعود لرؤيته إلا بعد عشرين سنة، عندما ذهبت لاستقصي آخر تفاصيل قصتي.

عاشت أسرة جديّ لأبي المتكبرة في سان فرانسيسكو طوال ست وثلاثين سنة دون أن تخلّف أثراً كبيراً. لقد ذهبتُ بحثاً عن آثارهم هناك.

Twitter: @ketab_n

فقصر نوب هيل هو اليوم فندق، وليس هناك من يتذكر من هم أصحابه الأوائل. وبمراجعة الصحف القديمة في المكتبة العامة اكتشفت وجود اشارات كثيرة للأسرة في صفحات المجتمع، وكذلك قصة تمثال الجمهورية واسم أمي. وهناك أيضاً خبر مقتضب عن موت جدي تاو تشين، خبر وفاة تقريظي كتبه شخص يدعى جاكوب فيرمونت، وإعلان نعي من الجمعية الطبية تشكر فيه المساهمات التي قدمها الجونغ يي تاو تشين للطب الغربي. وهذا أمر غريب، لأن السكان الصينيين كانوا غير مرئيين تقريباً في ذلك الحين، فهم يولدون، ويعيشون، ويموتون على هامش الحدث الأمريكي، ولكن سمعة تاو تشين كانت قد تجاوزت حدود تشايناتاون وكاليفورنيا، وصار معروفاً في إنكلترا، حيث ألقى عدة محاضرات حول الوخز بالإبر. ولولا هذه الشهادات فإن معظم أبطال هذه القصة كانوا سيختفون تجرجرهم رياح سوء الذاكرة.

أضيف هروبي إلى تشايناتاون إلى أسباب آخرى دفعت باولينا دل بايي للعودة إلى تشيلي. لقد أدركت أنه ليس بإمكان أي حفلات باذخة وأي هدر أن يعيد إليها الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه حين كان زوجها على قيد الحياة. فقد كانت تهرم وحيدة، بعيداً عن أبنائها، وعن أقربائها، وعن لغتها، وعن أرضها. والأموال التي تبقت لديها لا تكفي للحفاظ على حياة البذخ المعهودة في بيتها ذي الخمس والأربعين حجرة، ولكنها تشكل ثروة طائلة في تشيلي، حيث كل شيء أرخص بكثير. أضف إلى ذلك أن حفيدةً غريبة قد سقطت في حضنها، وهي ترى أنه لا بد من انتزاعها تماماً من ماضيها الصيني إذا ما أرادت أن تجعل منها آنسة تشيلية. لم تتحمل باولينا فكرة إمكانية إقدامي على الهروب من جديد، فتعاقدت مع مربية إنكليزية لكي تراقبني ليلاً ونهاراً. ألغت خطط رحلتها إلى مصر ومآدب رأس السنة الجديدة، ولكنها استعجلت صنع خزانة ملابسها الجديدة، ثم بادرت بعد ذلك بصورة منهجية إلى تقسيم أموالها ما بين الولايات المتحدة وإنكلترا، وأرسلت إلى تشيلي ما هو ضروري للاستقرار وحسب، لأن الأوضاع السياسية هناك بدت لها غير مستقرة. كتبت رسالة مطولة إلى ابن أخيها سيفيرو دل بايي لكي تتصالح معه،

Twitter: @ketab_n

وأخبرته بما جرى لتاو تشين وبقرار إلزا سوميرز بتسليمها الطفلة، وأوضحت له بالتفصيل فوائد توليها هي بالذات تربية الصغيرة. وقد تفهم سيفيرو دل بايي مبرراتها ووافق على اقتراحها، لأنه كان قد أنجب طفلين وكانت امرأته تنتظر الثالث، ولكنه رفض منحها الوصاية الشرعية، مثلما كانت ترغب.

محامو باولينا ساعدوها في توضيح أوضاعها المالية وفي بيع البيت، بينما تولى قهرمانها ويليامز النواحي العملية في تنظيم انتقال الأسرة إلى جنوب العالم وتحزيم كل ممتلكات سيدته، لأنها لم تشأ أن تبيع أي شيء، حتى لا تقول ألسنة السوء إنها تفعل ذلك عن حاجة وعوز. ووفق الترتيبات المتخذة، ستبحر باولينا في عابرة محيطات معي ومع المربية الإنكليزية وعدد آخر من موظفيها الموثوقين، بينما يرسل ويليامز الأمتعة إلى تشيلي ثم يصبح حراً، بعد أن يتلقى إكرامية سخية بالجنيهات الاسترلينية. وستكون هذه هي آخر مهمة له في خدمة ربة عمله. وقبل أسبوع من سفرها، طلب منها القهرمان الإذن بالتحدث إليها على انفراد.

- أعذريني يا سيدتي! هل يمكنني السؤال عن سبب سقوطي من اعتبارك؟

- عم تتكلم يا ويليامز! أنت تعلم كم أقدرك وكم أنا شاكرة خدماتك.

- ولكنك لا ترغبين مع ذلك في أخذي معك إلى تشيلي...

- بالله عليك يا رجل! لم تخطر لي هذه الفكرة. ولكن ما الذي سيفعله قهرمان إنكليزي في تشيلي؟ ليس هناك مثل هذا عند أحد. سيضحكون منك ومني. هل نظرت إلى الخريطة؟ إنها بلاد بعيدة جداً ولا أحد يتكلم الإنكليزية هناك، وستكون حياتك غير سعيدة. ليس لي الحق في أن أطلب منك مثل هذه التضحية يا ويليامز.

- هل تسمحين لي يا سيدتي بأن أقول إن ابتعادي عنك سيكون تضحية أكبر بكثير.

بقيت باولينا دل بايي تنظر إلى موظفها بعينين مدورتين من

Twitter: @ketab_n

المفاجأة. ولاحظت للمرة الأولى أن ويليامز هو شيء أكثر من إنسان آلي بسترة سوداء ذات أذيال وقفازات بيضاء. رأت رجلاً في حوالي الخمسين، عريض المنكبين وذا وجه لطيف، وشعر كثيف بلون الفلفل وعينين نفاذتين؛ له بدا حمالِ فظلتان وأسنان صفراء من النيكوتين، مع أنها لم تكن قد رأته قط يدخن أو يبصق تبغاً. بقيا صامتين برهة لانهائية، هي تتفحصه وهو يتحمل نظراتها دون إظهار ملامح الضيق.

- سيدتي، لم أستطع إلا أن ألاحظ المصاعب التي جلبها لك الترمل - قال ويليامز أخيراً باللغة غير المباشرة التي يستخدمها على الدوام.

فابتسمت باولينا:

- هل تسخر مني؟

- ليس هناك ما هو أبعد من هذا عن طباعي يا سيدتي.

- آها - تنحنحت هي نظراً للصمت الطويل الذي تلا ردّ قهرمانها.

فعلق هو:

- إنك تتساءلين عن سبب كل هذا.

- لنقل إنك توصلت إلى إدهاشي يا ويليامز.

- طالما لا يمكنني الذهاب معك إلى تشيلي كقهرمان، يخطر لي بأنه ربما لن تكون سيئة تماماً فكرة الذهاب كزوج لك.

ظنت باولينا دل بايي بأن الأرض ستنشق وستهوي هي وكرسيها وكل شيء إلى مركز الكرة الأرضية. وكان أول ما خطر لها هو أن الرجل قد أصيب بمس في عقله، ولا مجال لأي تفسير آخر، ولكنها حين تأكدت من وقار القهرمان وهدوئه، ابتلعت الشتائم التي كانت قد أصبحت في فمها.

وتابع ويليامز:

- اسمحي لي أن أشرح وجهة نظري يا سيدتي. لست أنوي بالطبع ممارسة دور الزوج بالمعنى العاطفي. كما أنني لا أطمع في ثروتك التي ستكون بمنجى تماماً من هذه المسألة، ويمكنك أن تتخذي بهذا الشأن

Twitter: @ketab_n

الاجراءات القانونية اللازمة. سيكون دوري إلى جانبك عملياً هو الدور الحالي نفسه: مساعدتك في كل ما أقدر عليه بأقصى درجات التكتم. وأعتقد أن امرأة وحيدة في تشيلي، مثلما هو الحال في العالم بأسره، تواجه الكثير من المصاعب. وسيسعدني أن أتلقى الصفعات بدلاً عنك.

فاستفسرت باولينا دون أن تتمكن من إخفاء النبرة اللاذعة:

– وما الذي ستكسبه أنت من هذا الترتيب؟

– من جهة أولى، سأكسب الاحترام. ومن جهة أخرى، أعترف بأن فكرة عدم العودة لرؤيتك قد عذبتني مذ بدأتِ التخطيط للذهاب. لقد أمضيتُ نصف حياتي إلى جانبك، وقد اعتدت عليك.

أصيبت باولينا بالبكم خلال هدنة أبدية أخرى، بينما كانت تقلّب في رأسها اقتراح موظفها الغريب. فالأمر، مثلما هو مطروح، يشكل صفقة جيدة، فيها فوائد لكليهما: فهو سيتمتع بمستوى حياة عالٍ لن يحصل عليه مطلقاً بطريقة أخرى، بينما ستحصل هي على ذراع رجل، إذا ما تأملته جيداً، سيكون من أكثر الرجال وجاهة. وانفجرت في قهقهة مدوية لمجرد تصورها لما ستكون عليه وجوه أقربائها في تشيلي وحسد أخواتها لها.

– أنت أصغر مني بعشر سنوات وبثلاثين كيلوغراماً على الأقل، ألا تخشى من السخرية؟ – سألته وهي تهتز في ضحكها.

– أنا لا أخشى ذلك. وأنتِ، ألا تخشين من الظهور مع شخص في مثل مرتبتي؟

– أنا لا أخشى شيئاً في هذه الحياة، وأستمتع بإثارة حفيظة الآخرين. ما هو اسمك يا ويليامز؟

– فريدريك.

– فريديك ويليامز... اسم جيد، من أكثر الأسماء أرستقراطية.

فابتسم وليامز:

Twitter: @ketab_n

- يؤسفني أن أقول لك إنه الشيء الأرستقراطي الوحيد لدي يا سيدتي.

وهكذا كان، بعد أسبوع من ذلك، أن جدتي باولينا دل بايي، وزوجها الذي دشنته حديثاً، ومصفف شعرها، ومربيتي، وخادمتين وصيفتين، وخادم للملابس، ونادل وأنا انطلقنا في القطار إلى نيويورك مع حمولة من الصناديق، ومن هناك اجتزنا المحيط إلى أوروبا في سفينة إنكليزية. وقد حملنا معنا **كراميلو** كذلك، الذي كان قد بلغ في نموه المرحلة التي تضاجع فيها الكلاب كل ما تجده أمامها، وفي هذه الحالة وجد معطف جلد الثعلب الذي تملكه جدتي. كان للمعطف ذيول ثعالب في كل محيطه، وقد التبس الأمر على **كراميلو** حيال السلبية التي قوبلت بها هجماته الغرامية، فمزق ذلك المعطف بأسنانه. غضبت جدتي باولينا وكانت على وشك إلقاء الكلب والمعطف من حافة السفينة، ولكنهما نَجَوا بجلديهما بفضل نوبة الرعب التي أصابتني. كانت جدتي تشغل جناحاً من ثلاث غرف، وفريدريك ويليامز جناحاً بالحجم نفسه في الجانب الآخر من الممر. وكانت هي تتسلى خلال النهار بالأكل طوال الوقت، وتبديل ملابسها لكل نشاط، وتعليمي الحساب، لكي أتولى في المستقبل مسؤولية مسك دفاتر حساباتها، ورواية تاريخ الأسرة لي لكي أعرف من أين جئت، دون أن توضح قط هوية أبي، وكما لو أنني ظهرت في أسرة دل بايي بتناسل تلقائي. وإذا ما سألتُ عن أمي أو أبي، ترد عليّ بأنهما توفيا وبأن ذلك ليس مهماً، لأن اعتمادي على جدة مثلها يكفي ويزيد. وفي أثناء ذلك كان فريدريك ويليامز يلعب البريدج ويقرأ صحفاً إنكليزية، مثل بقية وجهاء الدرجة الأولى. وكان قد أطلق سالفين طويلين وشارباً كثيفاً بطرفين مصمغين، مما منحه مظهراً مهيباً، وصار يدخن الغليون والسيجار الكوبي. وقد اعترف لجدتي بأنه مُدخِّن مدمن وأن أصعب ما واجهه في عمله كقهرمان هو الامتناع عن التدخين أمام الملأ، وأن بإمكانه الآن أن يتلذذ بسيجاره وأن يلقي إلى القمامة أقراص النعنع التي كان يشتريها بالجملة والتي أتلفت معدته وثقبتها. وفي هذه السن التي يتباهى فيها الرجال المثرين بالكرش وبالغبب المزدوج تحت ذقونهم، فإن

Twitter: @ketab_n

هيئة ويليامز الرياضية والأقرب إلى النحول كانت شيئاً نادراً في المجتمع الراقي، وإن كانت أساليب تصرفه المهذبة أكثر إقناعاً بكثير من أساليب جدتي. وقبل أن ينزلا معاً في الليل إلى صالة الرقص، كانا يمران لوداعي في القمرة التي أشغلها مع المربية. لقد كانا يشكلان مشهداً استعراضياً، هي مسرحة الشعر ومتبرجة على يد حلاقها الخاص، ترتدي ثياب الحفلات وتتألق بالمجوهرات مثل صنم بدين، وهو أشبه بالأمير زوج الملكة. كنتُ أطل أحياناً إلى صالة الرقص لكي أراقبهما مفتونة: لقد كان فريدريك ويليامز يحرك باولينا دل بايي على حلبة الرقص بثقة شخص معتاد على تحميل طرود ثقيلة.

وصلنا إلى تشيلي بعد مرور سنة، حين كانت ثروة جدتي المتعثرة قد نهضت من جديد بفضل مضاربتها في السكر خلال حرب الباسفيك. لقد أثبتت نظريتها صحتها: فالناس يكثرون من أكل الحلويات في الأزمنة السيئة. وقد توافق وصولنا مع تقديم سارا بيرنارد الفريدة لأكثر أدوارها في المسرح شهرة، **غادة الكاميليا**. لم تتمكن الممثلة المشهورة من هز مشاعر الجمهور، مثلما فعلت في بقية أنحاء العالم المتحضر، لأن المجتمع التشيلي المرائي لم يتعاطف مع الخليلة المسلولة، وبدا للجميع أنه من الطبيعي أن تضحي لتتجنب كلام الناس، ولم يروا مبرراً لكل تلك المأساة ولا لكل تلك الكاميليا الذابلة. وقد غادرت الممثلة المشهورة وهي مقتنعة بأنها قد زارت بلد حمقى خطرين، وهو الرأي الذي تشاطرها إياه باولينا دل بايي دون تحفظ. كانت جدتي قد جالت مع موكبها المرافق في عدة مدن أوروبية، ولكنها لم تحقق حلمها بالذهاب إلى مصر لأنها افترضت أنها لن تجد هناك جملاً قادراً على تحمل ثقل وزنها، وأنها ستضطر لزيارة الأهرامات مشياً على الأقدام تحت شمس كأنها المهل المتوقد. في العام 1886 كنتُ في السادسة من عمري، وكنتُ أتكلم خليطاً مشوشاً من الصينية والإنكليزية والإسبانية، ولكنني أتقن العمليات الحسابية الأربع وأعرف بمهارة لا تُصدق كيف أحوّل فرنكات فرنسية إلى جنيهات

Twitter: @ketab_n

استرلينية، وكيفية تحويل هذه إلى ماركات ألمانية أو ليرات إيطالية. وكنت قد توقفت منذ زمن عن البكاء طالبة جدي تاو وجدتي إلزا، ولكن الكوابيس غير المفهومة كانت ما تزال تعذبني بصورة منهجية. كانت هناك فجوة سوداء في ذاكرتي، شيء دائم الحضور والخطر لا أستطيع تحديده بدقة، شيء مجهول يرعبني، وخصوصاً في الظلام أو وسط حشد من الناس. لم أكن أتحمل رؤية نفسي محاطة بالناس، إذ أبدأ بالصراخ كمن بها مس، فتضطر جدتي باولينا إلى إحاطتي بعناق دبّ لكي تهدئني. لقد اعتدت على اللجوء إلى سريرها كلما استيقظت مرتعبة، وهكذا نمت بيننا حميمية أنقذتني - وأنا متأكدة من ذلك - من الخبل والرعب الذي كنت سأغرق فيه في حالة أخرى. وحيال ضرورة التفريج عني، تبدل طبع باولينا دل بايي بصورة محسوسة في نظر الجميع، باستثناء فريدريك ويليامز. فقد أصبحت أكثر تسامحاً ورقة، بل إن وزنها انخفض قليلاً كذلك، لأنها كانت تتراكض ورائي وهي مشغولة جداً إلى حد نسيان حلوياتها. أظن أنها كانت مولعة بي. أقول هذا دون تواضع زائف، لأنها أظهرت لي الكثير من الأدلة على ذلك، فقد ساعدتني على النمو بكل ما يمكن من حرية في تلك الأزمنة، مثيرة فضولي ومتجولة بي في العالم. ولم تكن تسمح لي بالاستسلام للنزعة العاطفية أو النواح المتفجع، وكان أحد شعاراتها في الحياة «يجب عدم النظر إلى الوراء». وكانت تداعبني وتمزح معي، ويكون مزاحها ثقيلاً في بعض الأحيان، إلى أن تعلمتُ كيف أرد لها الصاع بالصاع، وقد وسم ذلك إيقاع علاقتنا. في إحدى المرات وجدتُ في الفناء سحلية مسحوقة بعجلة عربة، ولا بد أنها بقيت تحت الشمس عدة أيام فتحولت إلى ما يشبه المستحاثة، مثبتة إلى الأبد في مظهرها كزاحف مسطح. التقطتها وخبأتها، دون أن أدري السبب، إلى أن فكرت باستخدامها في خطة محكمة. كنت جالسة إلى طاولتي أنجز واجباتي المدرسية في الحساب حين دخلت جدتي ساهية إلى الغرفة، فتصنعتُ نوبة سعال جامحة، واقتربتْ لتربت على ظهري. فانحنيتُ على نفسي، واضعة وجهي بين راحتي، وأمام رعب المرأة المسكينة «بصقتُ» السحلية التي حطت في حضني. كان رعب جدتي لا يوصف وهي ترى

Twitter: @ketab_n

الحيوان الذي خرج ظاهرياً من رئتي، فانهارت جالسة، ولكنها ضحكت كثيراً مثلي وحفظت ذلك الكائن المسحوق والجاف بين صفحات كتاب. من الصعب فهم السبب الذي جعل تلك المرأة القوية تخشى إخباري بالحقيقة عن ماضي. يخيل إلي أنه على الرغم من موقفها المتحدي للتقاليد، لم تستطع أن تتجاوز أحكام طبقتها المسبقة. ولكي تحميني من الصد أخفت بحذر وجود الربّع الصيني من دمائي، وموقع أمي الاجتماعي المتواضع، وحقيقة أنني ابنة زنا في الواقع. وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أعاتب فيه تلك الضخامة التي كانت جدتي.

تعرفتُ في أوروبا على ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث ودل بايي. لم تحترم باولينا اتفاقها مع جدتي إلزا سوميرز بإخباري بالحقيقة، وبدلاً من أن تقدمه لي على أنه أبي، قالت إنه عم آخر، واحد من الأعمام الكثيرين الذين يملكهم أي طفل تشيلي، ذلك أن كل الأقارب أو أصدقاء الأسرة الكبار بما يكفي لحمل اللقب بجدارة، يتحولون آلياً إلى أعمام أو عمات، ولهذا كنت أدعو ويليامز الطيب عمي فريدريك. لقد علمت بأن ماتياس هو أبي بعد عدة سنوات من ذلك، عندما رجع إلى تشيلي ليموت، وكان هو نفسه من أخبرني. لم يُثر الرجل في أي انطباع يستحق الذكر، لقد كان نحيفاً، وشاحباً، ووسيماً؛ كان يبدو شاباً وهو جالس، ولكنه يبدو أكبر سناً بكثير عندما يحاول التحرك. كان يمشي بعكاز ويرافقه على الدوام خادم يفتح له الأبواب، ويُلبسه المعطف، ويُشعل له السجائر، ويناوله كأس الماء الموجود على طاولة بجانبه، لأن جهد مدّ الذراع هو عمل متعب له. وقد أوضحت لي جدتي باولينا بأن هذا العم يعاني من داء التهاب المفاصل، وقالت إنها حالة مؤلمة تجعله شديد الهشاشة كالزجاج، ولهذا عليّ أن أقترب منه بحرص شديد. وستموت جدتي بعد سنوات دون أن تعرف بأن ابنها البكر لم يكن يعاني من داء المفاصل، وإنما من السفلس.

ذهول أسرة دل بايي عند وصول جدتي إلى سنتياغو كان هائلاً. اجتزنا الأرجنتين براً من بوينس آيرس لنصل إلى تشيلي، إنها رحلة

Twitter: @ketab_n

سفاري حقيقية، مع الأخذ في الحسبان حجم الأمتعة التي جئنا بها من أوروبا إضافة إلى الإحدى عشرة حقيبة التي ضمت مشترياتنا من بوينس آيرس. سافرنا في عربة ركاب، والحمولة على قطيع من البغال، يرافقنا حراس مسلحون تحت أمرة العم فريدريك، إذ كان هناك قطاع طرق على جانبي الحدود، ولكنهم لسوء الحظ لم يهاجمونا ووصلنا إلى تشيلي دون أية أحداث مشوقة نرويها عن اجتيازنا لجبال الأنديز. لقد خسرنا في طريقنا المربية التي وقعت في حب رجل أرجنتيني وفضلت البقاء هناك، كما فقدنا خادمة قضى عليها التيفوس، ولكن العم فريدريك كان يرتب الأمر بالتعاقد مع من يساعدنا في شؤون الخدمة في كل مرحلة من مراحل رحلتنا. كانت باولينا قد قررت الاستقرار في العاصمة سنتياغو، لأنها رأت أن ميناء بالبارايسو الصغير، حيث ولدت، سيكون ضيقاً عليها بعد أن عاشت سنوات طويلة في الولايات المتحدة. أضف إلى ذلك أنها اعتادت العيش بعيداً عن عشيرتها، وكانت ترعبها فكرة اضطرارها إلى رؤية أقربائها كل يوم، وهي عادة مخيفة لدى كل أسرة تشيلية متماسكة. ولكنها لم تستطع مع ذلك التحرر منهم في سنتياغو، ذلك أن عدداً من أخواتها كن متزوجات من «كرام الناس» وهي التسمية التي يتبادلها أفراد الطبقة الراقية فيما بينهم؛ معتبرين، كما أفترضُ، أن بقية البشر يدخلون في فئة «لئام الناس». وقد جاء لتحيتنا فور وصولنا ابن أخيها سيفيرو دل بايي وزوجته، اللذان كانا يعيشان في العاصمة أيضاً. وما زلت أحتفظ من لقائي الأول بهما بذكرى أكثر نقاءً من تلك التي أحتفظ بها للقائي بأبي في أوربا، لأنهما استقبلاني بمظاهر حنان مبالغ بها أفزعتني. أبرز ما في سيفيرو هو أنه، على الرغم من عرجه وعكازه، يبدو أشبه بأمير رسوم قصة مصورة - قلما رأيتُ رجلاً بمثل تلك الوسامة - أما نيفيا فكانت تتألق ببطن ضخم مكور. في ذلك الزمن كان التناسل يعتبر أمراً غير لائق، فكانت نساء الأوساط البرجوازية يبقين حبيسات بيوتهن خلال حبلهن، أما هي فلم تكن تحاول إخفاء حالتها، بل تعرضها غير مبالية بالاضطراب الذي تسببه. فالناس في الشارع يحاولون عدم النظر إليها، كما لو أنها مصابة بداء أو تمضي عارية. ولم

Twitter: @ketab_n

أكن قد رأيت مثل ذلك المشهد، وعندما سألتُ عما أصاب هذه السيدة، أوضحت لي جدتي باولينا بأن تلك المسكينة قد ابتلعت بطيخة. وبالمقارنة مع وسامة زوجها، كانت نيفيا تبدو أشبه بجرذ، إنما يكفي التكلم معها لدقيقتين للوقوع فريسة سحرها وطاقتها الرهيبة.

كانت سنتياغو مدينة بديعة تقوم في وادٍ خصيب، تحيط بها جبال عالية بنفسجية في الصيف ومغطاة بالثلج فيّ الشتاء، مدينة هادئة، هاجعة، تعبق بمزيج من روائح الحدائق المزهرة وروث الخيول. لها مظهر متفرنس بأشجارها الهرمة، وساحاتها، ونوافيرها العربية، وبواباتها المقنطرة ومناظرها، ونسائها المتأنقات، ومتاجرها الفاخرة التي تبيع أفخم البضائع المجلوبة من أوروبا ومن الشرق، وشوارعها المشجرة ومنتزهاتها التي يتباهى فيها الأغنياء بعرباتهم وخيولهم البديعة. وكان يمر في الشوارع باعة ينادون على بضائعهم البائسة التي يحملونها في سلال، وتركض قطعان من الكلاب المتشردة، وتعشش في السقوف الحمائم وعصافير الدوري. وكانت نواقيس الكنائس تشير إلى مرور الوقت ساعة فساعة، باستثناء موعد القيلولة، حيث تبقى الشوارع مقفرة والناس يستريحون. لقد كانت مدينة إقطاعية، مختلفة تماماً عن سان فرانسيسكو المتميزة بطابعها الواضح كموقع حدودي ومظهرها متعدد الأجناس والألوان. اشترت باولينا دل بايي بيتاً كبيراً في شارع إخيرثيتو ليبرتادور (الجيش المُحرِّر)، أكثر الشوارع أرستقراطية، بالقرب من آلاميدا دي ديليثياس، حيث تمر كل ربيع العربة النابليونية بخيولها المزينة بالريش، وحرس تشريفات رئيس الجمهورية في الطريق إلى العرض العسكري بمناسبة العيد الوطني في حديقة مارتي. لا يمكن مقارنة روعة البيت بقصر سان فرانسيسكو، ولكنه كان يبدو أبهة مثيرة في سنتياغو. ومع ذلك، لم يكن إظهار الرخاء والافتقار إلى الكياسة هو الذي أذهل مجتمع العاصمة الضيق، وإنما الزوج ذو النسب الكريم الذي «اشترته» باولينا دل بايي، على حد قولهم، والتقولات التي شاعت عن السرير الضخم المذهب والمزين بأشكال ميثولوجية بحرية، حيث يقترف هذا

Twitter: @ketab_n

الثائي خطايا لا يعرفها أحد. ونسبوا إلى ويليامز لقباً نبيلاً ونوايا خبيثة. فما الذي يدفع لورداً إنكليزياً مرهفاً ووسيماً، للزواج من امرأة معروفة بسوء طباعها وأكبر منه سناً بكثير؟ لا يمكن له إلا أن يكون كونتاً حاق به الإفلاس، ومجرد متصيد ثروة مستعد لتجريدها من أموالها ليهجرها بعد ذلك. وجيمعهم كانوا يتمنون في أعماقهم أن يكون الأمر كذلك، لكي يُجبروا جدتي المتعجرفة على إحناء رأسها، ولكنهم لم ينبذوا مع ذلك زوجها، وفاء منهم للتقليد التشيلي بحسن استضافة الأجانب. أضف إلى ذلك أن فريدريك ويليامز كسب احترام الجميع بأساليب سلوكه الراقية، وبطريقتة البروسية في مواجهة الحياة، وبأفكاره الملكية، فهو يرى أن الأصل في شرور المجتمع هو انعدام الانضباط وغياب الاحترام للمراتب. فقد كان شعار من كان خادماً لسنوات طويلة «كل إنسان في موقعه، وموقع لكل إنسان». وعندما تحول إلى زوج جدتي تسنم دوره المتنفذ بالطبيعية نفسها التي كان يؤدي بها من قبل قدره كخادم؛ فهو لم يكن يحاول مطلقاً من قبل الاختلاط مع الناس الذين فوق؛ وبعد الزواج لم يعد يحتك بالذين تحت؛ فالفصل بين الطبقات يبدو له ضرورياً لتفادي الفوضى والابتذال. في أسرة البرابرة المندفعين تلك، مثلما هم آل دل بايي، كان ويليامز يثير الذهول والإعجاب بتهذبه المبالغ فيه وهدوئه البارد، حصيلة سنواته كقهرمان. كان يتكلم أربع كلمات بالإسبانية، فيختلط الأمر في تقدير صمته الاضطراري ما بين الحكمة والكبرياء والغموض. والشخص الوحيد الذي كان قادراً على نزع قناع النبيل البريطاني المزعوم هو سيفيرو دل بايي، ولكنه لم يفعل ذلك قط، لأنه كان يقدر الخادم القديم ويحترم عمته تلك التي تسخر من الجميع مزهوة بزوجها الرشيق.

انطلقت جدتي باولينا في حملة إحسان عامة لكي تُسكت الحسد والتقولات التي تثيرها ثروتها. وكانت تعرف كيف تفعل ذلك، لأنها عاشت سنوات حياتها الأولى في هذه البلاد، حيث مساعدة المحتاجين واجب إجباري على النساء الحميدات. فكلما ضحين أكثر من أجل الفقراء،

Twitter: @ketab_n

بالتجول على المشافي، والملاجئ، والمياتم، والأديرة، يعلو مقامهن في التقدير العام، ولهذا يشيعون أخبار صدقاتهن في كل الرياح. وتجاهل هذا الواجب يجلب النظرات المستنكرة والتوبيخ الكهنوتي، ولم تكن باولينا دل بايي قد تمكنت من الإفلات من الإحساس بالذنب والخوف من الإدانة. لقد دربتني على أعمال الإحسان تلك، ولكنني أعترف بأنني كنت أتضايق على الدوام من الذهاب إلى حي بائس في عربتنا الفخمة المحملة بالأطعمة، مع خادمين يتوليان توزيع الهدايا على كائنات ترتدي الأسمال وتشكرنا بمظاهر مذلة كبيرة، ولكن الحقد المتأجج يلمع في عيونها.

كان على جدتي أن تعلمني في البيت، لأنني كنت أهرب من كل مدرسة دينية سجلتني فيها. لقد أقنعتها أسرة دل بايي مرة بعد أخرى بأن تسجيلي في مدرسة داخلية دينية هو الطريقة الوحيدة لتحويلي إلى مخلوقة عادية. كانوا يؤكدون بأنني أحتاج إلى مرافقة بنات أخريات لكي أتجاوز خجلي المرضي، وإلى يد الراهبات الحازمة لإخضاعي. ويقولون «لقد دللتِ هذه البنت كثراً يا باولينيا، إنك تحولينها إلى مسخ»، وانتهت جدتي إلى تصديق ما يبدو جلياً. كنت أنام مع كراميلو في السرير، وآكل وأقرأ ما أشتهي، وأقضي النهار مشغولة بألعاب التخيل، دون كثير من الانضباط، لأنه ليس هناك أحد ممن حولي مستعداً لإزعاج نفسه لفرضه؛ وبكلمات أخرى: كنت أنعم بطفولة سعيدة إلى حد كبير. لم أطق صبراً على المدارس الداخلية براهباتها ذوات الشوارب وحشودها من التلميذات اللواتي يذكرنني بكابوسي المكرب الذي أرى فيه الأطفال ذوي البجامات السوداء؛ ولم أتحمل كذلك صرامة الأنظمة، ورتابة المواعيد، وبرودة تلك الأديرية التي تعود إلى العهد الاستعماري. لست أدري كم من المرات تكرر الروتين: تُلبسني باولينا دل بايي من الرأس إلى القدمين، وترتل على مسمعي التعليمات بنبرة متوعدة، وتأخذني محمولة بالإكراه عملياً وتتركني مع صناديقي بين يدي راهبة مستجدة قوية، ثم تهرب

Twitter: @ketab_n

بالسرعة التي يسمح لها بها وزنها، محاصرة بتأنيب الضمير. لقد كانت تلك المدارس للبنات الثريات، حيث يسود الاذعان والقباحة، ويتلخص هدفها النهائي في إعطائنا بعض التعليم حتى لا نكون جاهلات تماماً، لأن هناك قيمة لمسحة الورنيش الثقافية في سوق الزواج، ولكن ذلك التعليم لا يصل إلى حد السماح لنا بتوجيه الأسئلة. فمهمتها هي تطويع إرادتنا الفردية في سبيل المصلحة الجماعية، وتحويلنا إلى كاثوليكيات صالحات، وأمهات متفانيات، وزوجات مطيعات. وكان على الراهبات أن يبدأن بتطويع أجسادنا، مصدر الغرور وغيره من الخطايا الأخرى؛ لم يكن يسمحن لنا بالضحك، ولا الركض، ولا اللعب في الهواء الطلق. وكن يحممننا مرة في الشهر، ونحن نرتدي قمصاناً طويلة حتى لا نُظهر أعضاء حيائنا أمام عيني الرب الذي هو في كل مكان. وكن ينطلقن من مبدأ أن الحرف لا يدخل إلا بالدم، ولهذا لم يكنّ يدخرن أي نوع من القسوة. كن يخفننا من الله، ومن الشيطان، ومن كل الكبار، ومن العصا التي يضربننا بها على أصابعنا، ويبعثن فينا الخوف من الخوف. لم نكن نتلقى قط كلمة إطراء خشية أن ينمين فينا حس الزهو والغرور، أما العقوبات لتطويع طباعنا فكانت تفيض عن الحاجة. بين تلك الجدران السميكة كانت رفيقاتي ذوات الزي الموحد يحافظن على بقائهن على قيد الحياة، بجدائلهن المشدودة إلى حد نزف جلدة رؤوسهن أحياناً، وبأيديهن المغطاة بالشرث من البرد الأبدي. ولا بد أن التناقض مع حياتهن في بيوتهن، حيث يدللونهن كأميرات خلال الإجازات، يكفي لأن يسبب الجنون لأكثرهن تعقلاً. أنا لم أستطع تحمل ذلك. وفي أحد الأيام توصلت إلى التواطؤ مع جنائني لأقفز عن السور وأهرب. لا أدري كيف استطعت الوصول وحدي إلى شارع الجيش المُحرِّر، حيث تلقاني **كراميلو** بسعادة هستيرية، ولكن باولينا دل بايي كانت على وشك أن تصاب بسكتة قلبية حين رأتني أظهر بملابس متسخة وعينين متورمتين. أمضيت بضعة شهور في البيت إلى أن تمكنت الضغوط الخارجية من إجبار جدتي على تكرار التجربة. في المرة الثانية اختبأت بين بعض الشجيرات في الفناء طوال ليلة كاملة وفي نيتي الموت من البرد والجوع. وكنت أتصور وجوه الراهبات

Twitter: @ketab_n

وأفراد أسرتي عندما يكتشفون جثتي، وأبكي على نفسي، الطفلة المسكينة الشهيدة في سن مبكرة. وفي اليوم التالي نقلتْ المدرسة خبر اختفائي إلى باولينا دل بايي التي جاءت مثل خدروف مطالبة بتفسيرات. وبينما اقتادتهما، هي وفريديك ويليامز، راهبةٌ مستجدة محمرة الوجه إلى مكتب رئيسة الراهبات، تسللتُ من بين الشجيرات حيث اختبأت إلى العربة التي تنتظر في الفناء، وصعدت إليها دون أن يراني الحوذي واختبأت تحت المقعد. وقد اضطر فريديك ويليامز والحوذي ورئيسة الراهبات إلى مساعدة جدتي للصعود إلى العربة، كانت تصرخ بأنني إذا لم أظهر في أسرع وقت، فسوف يرون من هي باولينا دل بايي! وعندما خرجتُ من مخبئي قبل الوصول إلى البيت، نسيتْ دموع يأسها، وأمسكتني من قذالي وراحت تضربني لمسافة كوادرتين، إلى أن تمكن العم فريديك من تهدئتها. ولكن، لم يكن الانضباط هو ما يشغل بال السيدة، لأنها حين علمت بأنني لم آكل منذ اليوم السابق وأنني أمضيت الليلة في العراء، غمرتني بالقبلات وأخذتني لتناول المثلجات. وفي المدرسة الثالثة، حيث حاولت أن تسجلني، رفضوني على الفور لأنني أكدت في المقابلة مع المديرة بأنني رأيت الشيطان وأن قائمتيه خضراوان. وأخيراً أقرت جدتي بهزيمتها. وأقنعها سيفيرو دل بايي بأنه ليس هناك مبرر لتعذيبي، خصوصاً وأنني يمكن أن أتعلم ما هو ضروري في البيت بوساطة معلمين خاصين. لقد مرت في طفولتي سلسلة من المعلمات الانكليزيات والفرنسيات والألمانيات اللواتي هزمتهن مياهُ تشيلي الملوثة ونوبات غضب باولينا دل بايي؛ وكانت أولئك النساء عاثرات الحظ يرجعن إلى بلادهن الأصلية مصابات بإسهالات مزمنة وذكريات سيئة. وبقي تعليمي مضطرباً إلى أن دخلت حياتي معلمة تشيلية استثنائية، الآنسة ماتيلدي بينيدا، التي علمتني كل الأشياء المهمة التي أعرفها، باستثناء احترام الحس العام، لأنها هي نفسها كانت تفتقر إليه. لقد كانت عاطفية ومثالية، تكتب أشعاراً فلسفية لم تستطع نشرها قط، وتعاني من تعطش لا يرتوي إلى المعرفة، وتبدي تشدداً حيال ضعف الآخرين، مثلما هي خاصية لكائنات شديدة الذكاء. لم تكن تتسامح مع الكسل؛ وكانت عبارة «لا أستطيع» ممنوعة بحضورها.

Twitter: @ketab_n

وقد تعاقدت معها جدتي لأنها كانت تعلن على الملأ بأنها لا أدرية، واشتراكية، ونصيرة لمشاركة النساء في الاقتراع، وهي ثلاثة أسباب كافية لعدم توظيفها في أي مؤسسة تربوية. وقد قالت لها باولينا دل بايي في مقابلتها الأولى: «فلنر إذا ما كنتِ ستغيرين قليلاً من تزمت هذه الأسرة المحافظ والبطريركي»، وساندها فريدريك ويليامز وسيفيرو دل بايي، الوحيدان اللذان لمحا موهبة الآنسة بينيدا، بينما أكد الآخرون جميعهم بأن هذه المرأة ستغذي المسخ الذي يتشكل في داخلي. وصنفتها العمات فوراً بأنها «محتالة متهتكة»، وحذرن جدتي من هذه المرأة التي من طبقة دنيا و«نصف بشر» كما قلن. أما ويليامز بالمقابل، وهو أكثر الرجال الذين عرفتهم طبقية، فتعاطف معها. طوال ستة أيام في الأسبوع، ودون أي تغيب، كانت المعلمة تأتي في السابعة صباحاً إلى منزل جدتي، حيث كنتُ أنتظرها بكامل ملابسي المنشاة، وبأظفار نظيفة، وجدائل مضفرة للتو. فنتناول الفطور معاً في قاعة طعام يومية صغيرة بينما نحن نناقش الأخبار المهمة في الصحف، ثم تعطيني خلال ساعتين دروساً نظامية، ونقضي بقية النهار في الذهاب إلى المتحف وإلى مكتبة **العصر الذهبي** لشراء الكتب وتناول الشاي مع المكتبي، السيد بيدرو تيي، ونزور فنانين، ونخرج لمراقبة الطبيعة، ونقوم بتجارب كيميائية، ونقرأ قصصاً، ونكتب أشعاراً، ونُعدّ أعمالاً مسرحية كلاسيكية بشخوص مقصوصة من الكرتون. وكانت هي من اقترحت على جدتي فكرة تشكيل ناد للسيدات يتولى التصرف بالصدقات. فبدلاً من تقديم الملابس المستعملة وبقايا طعام المطابخ إلى الفقراء، يؤسس صندوق ويدار كما لو كان مصرفاً، ويمنح قروضاً للنساء لكي يبدأن مشروعاً صغيراً: تربية بعض الدجاج، مشغل خياطة، مركَن لغسل ملابس الآخرين، عربة يد للنقل، وباختصار، ما هو ضروري للخروج من الإملاق المطلق الذي يعشن فيه مع صغارهن. أما الرجال فلا، كما قالت الآنسة بينيدا، لأنهم سينفقون القرض في شراء النبيذ، كما أن خطط الحكومة الاجتماعية تتولى على كل حال مساعدتهم، أما النساء والأطفال فلا أحد يهتم بهم جدياً. وأوضحت معلمتي «الناس لا يريدون صدقات، بل يريدون كسب عيشهم بكرامة»،

Twitter: @ketab_n

وتفهمت باولينا دل بايي ذلك بحذافيره وانطلقت في هذا المشروع بالحماس نفسه الذي تحتضن به أكثر خططها لجمع المال طموحاً. «في يدٍ أجني ما أستطيعه وباليد الأخرى أمنح، وهكذا أصيب عصفورين بحجر واحد: أتسلى وأضمن الجنة»، كانت جدتي الأصيلة تقول ذلك وهي تضحك مقهقهة. وقد أوصلت المبادرة إلى أبعد من ذلك، فلم تكتف فقط بتشكيل نادي السيدات، الذي قادته بكفاءتها المعهودة - فالنساء الآخريات كن يخففنها - بل موّلت كذلك بعض المدارس، والعيادات الطبية المتجولة، ونظمت طريقة لجمع ما لا يباع في أكشاك سوق الخضار ومحلات الخبز، ويكون ما يزال في حالة جيدة، فتوزعه على المياتم والملاجئ.

عندما كانت نيفيا تأتي للزيارة، وهي حبلى دوماً ومعها عدة أبناء صغار كل واحد منهم بين ذراعي مربيته، تترك الآنسة بينيدا السبورة. وبينما تتولى المربيات أمر قطيع الأطفال، ونتناول نحن الشاي، تنهمكان هما في التخطيط لمجتمع أكثر عدالة ونُبلاً. وبالرغم من أن نيفيا لم تكن تملك فائضاً من الوقت والموارد، إلا أنها كانت أكثر سيدات نادي جدتي شباباً وفعالية. وكنا في بعض الأحيان نذهب لزيارة معلمتها القديمة، الأخت ماريا إسكابولاريو، التي كانت تشرف على ملجأ راهبات للمسنين، لأنهم ما عادوا يسمحون لها بممارسة هواها في التعليم؛ إذ قررت الأخوية التي تنتمي إليها بأن افكارها المتقدمة غير ملائمة للتلميذات، وأن ضررها سيكون وهي ترعى مسنات خرفات أقل من زرعها التمرد في العقول الطفولية. كانت الأخت ماريا إسكابولاريو تقيم في حجرة ضيقة في بناء قديم، ولكن له حديقة فاتنة، حيث كانت تستقبلنا دوماً بسعادة لأنها تحب المناقشات الفكرية، وهي متعة لا يمكن تحقيقها في ملجأ المسنات ذاك. كنا نحمل لها كتباً توصي عليها ونشتريها من مكتبة العصر الذهبي المغطاة بالغبار. وكنا نهدي إليها كذلك البسكويت أو قالب حلوى لتناوله مع الشاي الذي كانت تُعدّه على موقد بارافين صغير، وتقدمه في فناجين مثلومة. وكنا نبقى في الشتاء في غرفتها الضيقة، فتجلس الراهبة على الكرسي الوحيد المتوفر، ونيفيا والآنسة ماتيلدي بينيدا على

Twitter: @ketab_n

السرير الضيق، وأنا على الأرض، أما إذا كان الجو يسمح، فكنا نتمشى في الحديقة البديعة ما بين أشجار هرمة، وعرائش ياسمين وورد وكاميليا وأنواع كثيرة أخرى من الزهور المزروعة في فوضى بديعة، حيث كان مزيج الروائح يشوشني. لم أكن أضيع سماع كلمة واحدة من تلك الأحاديث، ومع أنني كنت لا أفهم إلا القليل منها بالتأكيد، إلا أنني لم أعد إلى سماع مثل تلك الأقوال المؤثرة. كن يتهامسن أسراراً، وينفجرن بالضحك، ويتكلمن في كل شيء باستثناء الدين، احتراماً لأفكار الآنسة ماتيلدي بينيدا، التي كانت تؤكد أن البشر هم الذين اخترعوا الرب ليفرضوا سيطرتهم على بشر آخرين، وخصوصاً على النساء. وقد كانت الأخت ماريا إسكابولاريو ونيفيا كاثوليكيتين، دون أن يبدو على أي منهما أنها متعصبة، على خلاف معظم الناس الذين كانوا يحيطون بي آنذاك. لم يكن هناك أحد يأتي على ذكر الدين في الولايات المتحدة، أما في تشيلي بالمقابل فكان موضوعاً دائماً للحديث. وكانت جدتي والعم فريدريك يأخذاني بين حين وآخر إلى القداس لكي يرانا الناس، إذ لا يمكن حتى لباولينا دل بايي، مع كل جرأتها وثروتها، أن تمنح نفسها ترف عدم حضور القداس. لأن الأسرة والمجتمع ما كانا ليتسامحا في ذلك.

وكنتُ أسألها كلما وجدت نفسي مضطرة إلى تأجيل نزهة أو كتاب من أجل الذهاب إلى القداس:

- هل أنت كاثوليكية يا جدتي؟

فترد علي:

- وهل تظنين أنه يمكن للمرء ألا يكون كذلك في تشيلي؟

- الآنسة بينيدا لا تذهب إلى القداس.

- وانظري في أي حالة سيئة تعيش تلك المسكينة. على الرغم من ذكائها الذي يتيح لها أن تكون مديرة مدرسة لو أنها تذهب إلى القداس.

وعلى خلاف أي منطق، تكيَّف فريدريك ويليامز على أحسن حال مع أسرة دل بايي الكبيرة في تشيلي. ولا بد أن أحشاءه كانت من حديد، لأنه

Twitter: @ketab_n

الوحيد الذي لم يدوِّد بطنه من ماء الشرب، والذي كان قادراً على أكل عدة «فطائر» دون أن تشتعل معدته. ولم يكن هناك تشيلي واحد بين من نعرفهم، باستثناء سيفيرو دل بايي ودون خوسيه فرانثيسكو برغارا، يتكلم الإنكليزية، لأن اللغة الثانية التي يتقنها الناس المتعلمون هي الفرنسية، على الرغم من الجالية البريطانية الكبيرة في ميناء بالبارايسو، ولهذا لم يكن أمام ويليامز مفر من تعلم الإسبانية. أعطته الآنسة بينيدا بعض الدروس، وبعد شهور قليلة تمكن من التفاهم بمشقة بإسبانية مرضضة ولكنها عملية، فصار بإمكانه قراءة الصحف وممارسة الحياة الاجتماعية في نادي الاتحاد، حيث اعتاد أن يلعب البريدج بصحبة باتريك إيغان، الدبلوماسي الأمريكي الذي يتولى شؤون المفوضية. وقد تمكنت جدتي من جعلهم يقبلون عضويته في نادي الاتحاد بالتلميح إلى أصوله الارستقراطية في البلاط الإنكليزي، وهو ما لم يسعَ أحد إلى التأكد منه، خصوصاً وأن ألقاب النبالة كانت قد أُلغيت في تشيلي منذ أزمنة الاستقلال، وكان يكفي من جهة أخرى النظر إلى الرجل لتصديق ذلك. لقد كان أعضاء نادي الاتحاد، في التعريف، ممن ينتمون إلى «الأسر المعروفة» وهم من «كرماء الرجال» - أما النساء فلا يستطعن تجاوز العتبة - ولو أنهم اكتشفوا حقيقة هوية فريدريك ويليامز، لأمكن لأي واحد من أولئك السادة أن يطلبه للمبارزة لمحو عار انطلاء الخدعة عليه من قهرمان سابق في كاليفورنيا تحول إلى أكثر أعضاء النادي تهذباً وأناقة وثقافة، وأفضل لاعب بريدج، وأحد أكثرهم ثراء دون شك. وكان على ويليامز أن يتابع الاطلاع أولاً بأول على الأعمال التجارية لكي يقدم النصح لجدتي باولينا؛ وعلى الأحوال السياسية، لأنها الموضوع الإجباري للأحاديث الاجتماعية. كان يعلن أنه محافظ بحزم، مثلما هم جميع أفراد أسرتنا تقريباً، ويأسف لواقع عدم وجود نظام ملكي في تشيلي كما هي الحال في بريطانيا العظمى، لأن الديمقراطية تبدو له مبتذلة وضيئلة الفعالية. وفي ولائم الغداء الإجبارية في أيام الآحاد في بيت جدتي، كان يتجادل مع نيفيا وسيفيرو، وهما الليبراليان الوحيدان في العشيرة. كانت أفكارهم تتباين، ولكن الثلاثة كانوا يتبادلون الاحترام والتقدير، وأظن

Twitter: @ketab_n

أنهم كانوا يسخرون سراً من بقية أفراد قبيلة دل بايي البدائيين. وفي المرات النادرة التي التقى فيها فريدريك وليامز مع دون خوسيه فرانثيسكو بيرغارا، الذي يمكنه التحدث معه بالإنكليزية، كان ويليامز يحتفظ بمسافة احترام؛ فقد كان ذاك هو الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يخيفه بتفوقه الثقافي، وربما كان الشخص الوحيد الذي استطاع أن يكتشف على الفور حقيقته كخادم سابق. ويخيل إلي أن كثيرين كانوا يتساءلون عمن أكون ولماذا تبنتني باولينا، ولكن أحداً لم يكن يأتي على ذكر الموضوع بحضوري؛ ففي ولائم الغداء الأسرية في أيام الآحاد كان يجتمع حوالى عشرين من أبناء العمومة، ولم يسألني أحد منهم على الإطلاق عن أبوي، إذ كان يكفيهم أنني أحمل كنيتهم نفسها لكي يتقبلوني بينهم.

لقد تكلفت جدتي مشقة أكبر من زوجها للتكيّف في التشيلي، على الرغم من أنه يمكن لكنيتها وثروتها أن تفتحا لها كل الأبواب. كانت تختنق من صغائر ونفاق ذلك الجو، وتفتقد الحرية القديمة؛ فهي لم تعش عبثاً طوال أكثر من ثلاثين سنة في كاليفورنيا، ولكنها ما إن فتحت أبواب منزلها حتى صارت تقف في صدارة الحياة الاجتماعية في سنتياغو، لأنها فعلت ذلك بدرجة عالية من الترفع وبكثير من الحكمة، مدركة كيف يكرهون في تشيلي الأغنياء وخصوصاً إذا كانوا متبجحين. فهي لم تستخدم خدماً من ذوي الزي الموحد مثل أولئك الذين كانت تستخدمهم في سان فرانسيسكو، وإنما خادمات متكتمات بأثواب سوداء ومرايل بيضاء؛ ولم تكن تملأ البيت بصخب سهرات فرعونية، وإنما تكتفي بحفلات متواضعة وبإيقاع عائلي، كيلا يعتبروها متصنعة أو محدثة نعمة، وهو أسوأ نعت معروف. كانت تملك بالطبع عرباتها الفخمة، وخيولها التي تُحسد عليها، وشرفتها الخاصة في المسرح البلدي، مع صالة صغيرة وبوفيه، حيث تُقدم المثلجات والشمبانيا لضيوفها. وكانت باولينا دل بايي، على الرغم من سنها وبدانتها، هي من تفرض الموضة، لأنها

Twitter: @ketab_n

جاءت للتو من أوروبا، ويفترض أنها مطلعة على آخر الصيحات والأساليب الحديثة. ففي ذلك المجتمع الصارم والمتوافق مع تقاليده، شكّلت المرأة الوحيدة التي تتكلم الإنكليزية في محيطها، والتي تتلقى مجلات وكتباً من نيويورك وباريس، وتوصي على أقمشة وأحذية وقبعات من لندن مباشرة منارة التأثير، إضافة إلى أنها تدخن في العلن السجائر المصرية نفسها التي يدخنها ابنها ماتياس. كما أنها كانت تشتري أعمالاً فنية وتقدم على مائدتها أطباقاً لم تعرف من قبل، لأن أكثر الأسر رفعة ما زالت تأكل مثلما كان يأكل القادة الأجلاف في عصر الفتح الإسباني: حساء، وسَليقة خضار ولحم، وشواء، وفاصولياء، وحلويات كولونيالية ثقيلة. في المرة الأولى التي قدمت فيها جدتها **الفوي غراس** وتشكيلة من الأجبان المستوردة من فرنسا، لم يستطع أن ياكل منها سوى السادة الذين زاروا أوروبا من قبل. ولدى شم **الكامبمبيه والبور-سالت** أصيبت إحدى السيدات بالغثيان، وكان عليها أن تخرج راكضة إلى الحمام. كان بيت جدتي مركز لقاء الفنانين والمتأدبين الشباب من الجنسين، الذين كانوا يجتمعون ليتحدثوا عن أعمالهم، ضمن الاطار الطبقي المعهود؛ فما لم يكن الشخص أبيض البشرة وذا لقب معروف، فإنه بحاجة إلى امتلاك موهبة كبيرة ليلقى القبول، ولم تكن باولينا في هذا المجال تختلف عن بقية المجتمع التشيلي الراقي. لقد كانت المسامرات الثقافية تجري في المقاهي والأندية، ولا يحضرها إلا الرجال، لأنهم كانوا ينطلقون من القاعدة القائلة بأنه من الأفضل للنساء أن يحركن الحساء لا أن يكتبن الأشعار. وبدت مبادرة جدتي بضم إناث فنانات إلى صالونها حالة جديدة على شيء من الخلاعة.

تبدلت حياتي في بيت شارع الجيش المُحرِّر. فللمرة الأولى منذ موت جدي تاو تشين أحسست بشعور من الاستقرار، من العيش في مكان لا يتحرك ولا يتبدل، في نوع من الحصن ذي الجذور الراسخة على اليابسة. فرحت أرتاد البناء بكامله، ولم أترك موقعاً دون أن اكتشفه ولا ركناً دون أن أقتحمه، بما في ذلك السقف حيث اعتدت أن أقضي ساعات في مراقبة الحمائم، وغرف الخدم، بالرغم من أنه كان محظوراً

Twitter: @ketab_n

عليّ أن أطأ ذلك المكان. لقد كان البيت الفسيح يطل على شارعين، وكان له مدخلان. مدخل رئيسي في شارع الجيش المحرِّر ومدخل للخدم في الشارع الخلفي، وفيه عشرات الصالونات والغرف والحدائق والشرفات والمخابئ وغرف المؤونة والأدراج. كان هناك صالون أحمر وآخر أزرق وثالث ذهبي، لا تُستخدم إلا في بعض المناسبات المعينة، ومقصورة بديعة من الزجاج تدور فيها الحياة العائلية بين أصص من الخزف الصيني، والنباتات المتسلقة والسرخس، وأقفاص الكناريات. وفي قاعة الطعام الرئيسية كانت هناك لوحة جدارية بومبيّة تلف القاعة مغطية الجدران الأربعة، وعدة خزائن تضم مجموعات من الخزف والأطباق، وثريا تتدلى منها قطع من الكريستال، ونافذة كبيرة تطل على نافورة عربية تسكب الماء دون انقطاع.

عندما تخلت جدتي عن إرسالي إلى المدرسة وصارت دروس الآنسة بينيدا منتظمة، غمرتني السعادة. وكلما كنت أسأل سؤالاً، كانت تلك المعلمة العظيمة، بدلاً من أن تجيب عليه، تدلني على الطريق للتوصل إلى الجواب. لقد علمتني كيف أرتب أفكاري، وأبحث، وأقرأ، وأستمع، وأبحث عن مبادرات، وأجد حلولاً جديدة لمسائل قديمة، وأناقش بمنطقية. وعلمتني قبل كل شيء، عدم الإيمان بشيء دون تبصر، وعلى الشك والسؤال حتى عما يبدو حقيقة مطلقة لا يمكن دحضها، كما هو القول في تفوق الرجل على المرأة، أو تفوق عرق أو طبقة اجتماعية على غيرها، وهي أفكار مستجدة في بلاد بطريركية حيث لا يمكن الاتيان على ذكر الهنود، وحيث يكفي نزول المرء درجة واحدة في سلم المراتبية الطبقية حتى يختفي من الذاكرة الجماعية. كانت تلك هي المرأة المثقفة الأولى التي مرت في حياتي. ولم يكن بإمكان نيفيا، بالرغم من كل ذكائها وتعليمها، أن تنافس معلمتي؛ فقد كانت تتميز ببديهتها ونبل روحها الهائل، لقد كانت متقدمة نصف قرن على زمنها، ولكنها لم تحاول الظهور بمظهر المثقفة قط، ولا حتى في اجتماعات منتدى جدتي الشهير، حيث كانت تتألق بخطاباتها المؤثرة حول حق الاقتراع وشكوكها اللاهوتية. ما كان بالإمكان اعتبار الآنسة بينيدا تشيلية من مظهرها، فهي ذلك المزيج

Twitter: @ketab_n

من المظهر الإسباني والهندي الذي يُنتج نساء قصيرات القامة، عريضات الأرداف، سوداوات العيون والشعر، بوجنات عالية، وطريقة متثاقلة في المشي، كما لو أنهن مسمرات إلى الأرض. لقد كان تفكيرها غير مألوف بالنسبة لعصرها ووضعها، فهي تنحدر من أسرة مكافحة من الجنوب، كان أبوها يعمل موظفاً في السكك الحديد وكانت هي الوحيدة بين اخوتها الثمانية التي استطاعت أن تكمل تعليمها. وكانت تلميذة وصديقة لدون بيدرو تيي، صاحب مكتبة العصر الذهبي، وهو كتلاني متجهم المظهر، ولكنه طيب القلب، كان يوجه قراءاتها ويعيرها أو يهدي إليها كتباً، لأنها لا تستطيع شراءها. وفي أي تبادل للآراء، مهما كان تافهاً، كان بيدرو تيي يعارضها. لقد سمعته يؤكد، على سبل المثال، بأن الأمريكيين الجنوبيين هم أناس مغفلون مع ميل إلى التبذير والعربدة والكسل، ولكن مجرد إيماء الآنسة بينيدا بالموافقة على رأيه كان كافياً ليضيف إنهم أفضل على الأقل من مواطنيه، الذين يبدون غاضبين على الدوام، ويتبارزون لأي سبب تافه. ومع أنه كان من المستحيل أن يتفقا في شيء، إلا أنهما كانا على علاقة جيدة. ولا بد أن دون بيدرو كان يكبر المعلمة بعشرين سنة، ولكنهما عندما يبدأان الكلام يتلاشى فارق السن: فيستعيد هو الشباب في حماسته، وتكبر هي في المهابة والنضوج.

لقد أنجب سيفيرو ونيفيا دل بايي ستة أبناء خلال عشر سنوات، وسيواصلان الانجاب إلى أن يصل العدد إلى خمسة عشر ابناً. إنني أعرف نيفيا منذ بضع وعشرين سنة، وقد رأيتها على الدوام تحمل طفلاً بين يديها؛ ولولا أنها تحب الأطفال كثيراً لكانت خصوبتها أشبه بلعنة. «ما الذي يمكنني أن أقدمه لتتولي تعليم أبنائي!»، كانت نيفيا تتنهد عندما تلتقي بالآنسة ماتيلدي بينيدا. فترد عليها معلمتي: «إنهم كثيرون يا سيدة نيفيا، وأورورا تشغل كل وقتي». كان سيفيرو قد صار محامياً مشهوراً، وتحول إلى أحد أعمدة المجتمع الأكثر شباباً، وعضواً بارزاً في الحزب الليبرالي. لم يكن يتفق في كثير من النقاط مع سياسة رئيس الجمهورية، وهو ليبرالي أيضاً، ولأن سيفيرو لم يكن قادراً على إخفاء انتقاداته، فإنه لم يُستدعَ قط للمشاركة في الحكومة. وتلك الآراء هي

Twitter: @ketab_n

التي ستقوده بعد وقت قصير إلى تشكيل جماعة منشقة انتقلت إلى المعارضة عندما اندلعت الحرب الأهلية، مثلما فعلت ماتيلدي بينيدا وصديقها صاحب مكتبة **العصر الذهبي**. كان عمي سيفيرو يميزني بين عشرات أبناء العمومة الذين يحيطون به، وكان يدعوني «بنيتي» وأخبرني بأنه هو الذي منحني كنية دل بايي، ولكنني كلما سألته إذا ما كان يعرف من هو أبي الحقيقي، كان يرد عليّ متهرباً: «فلنقل إنه أنا». وكان هذا السؤال يزعج جدتي، وإذا ما ألححت على نيفيا تطلب مني ان أكلم سيفيرو. لقد كانت دائرة بلا نهاية.

في إحدى المرات قلت لباولينا دل بايي:

- لا يمكنني أن أعيش يا جدتي محاطة بكل هذه الأسرار.

فردت:

- ولم لا؟ فالناس الذين يعيشون طفولة قاسية يكونون أكثر إبداعاً.

- أو أنهم ينتهون إلى الاصابة بالخلل العقلي...

فأكدت لي:

- لا يوجد بين آل دل بايي مجانين يربطون يا أورورا، وإنما شاذو الطباع، مثلما هو الحال في كل أسرة تحترم نفسها.

الآنسة ماتيلدي بينيدا أقسمت لي بأنها تجهل أصولي، وأكدت بأنه يجب عدم القلق من ذلك، لأنه ليس مهماً من أين يأتي المرء إلى هذه الحياة، وإنما إلى أين يمضي، ولكنها عندما علمتني نظرية ماندل في الوراثة، اضطرت إلى الاعتراف بأن هناك أسباباً حقيقية للتقصي عمن هم أسلافنا. وماذا لو كان أبي مجنوناً يمضي طليقاً ويذبح فتيات عذراوات؟

•

بدأ التحرك في اليوم نفسه الذي دخلتُ فيه مرحلة البلوغ. فقد استيقظتُ وقميص نومي ملطخ بمادة شبيهة بالشوكولاتة، فاختبأت في

Twitter: @ketab_n

الحمام لأغتسل وأنا أشعر بالخجل، وعندئذ اكتشفت أنه ليس برازاً مثلما ظننت: كان هناك دم بين ساقي. ركضت مذعورة لأخبر جدتي، ولم أجدها للمرة الأولى في سريرها الامبراطوري الكبير، وهو أمر غير عادي بالنسبة لامرأة تستيقظ دائماً عند الظهيرة. نزلتُ الأدراج راكضة يتبعني كراميلو وهو ينبح، واقتحمتُ غرفة المكتب مثل حصان جامح فاصطدمتُ مباشرة بسيفيرو وباولينا دل بايي، هو يرتدي ملابس السفر وهي بروب الساتان البنفسجي الذي يمنحها هيئة مطران في أسبوع الجمعة الحزينة.

صرخت وأنا ألقي بنفسي عليها:

- إنني أموت!

فردت جدتي بجفاء:

- ليست هذه هي اللحظة المناسبة.

كان تذمر الناس من الحكومة قد بدأ منذ سنوات، وصرنا نسمع منذ عدة شهور بأن الرئيس بالماسيدا يسعى للتحول إلى دكتاتور، محطماً بذلك تقاليد سبع وخمسين سنة من احترام الدستور. فذلك الدستور الذي صاغته الارستقراطية لكي تحكم البلاد إلى الأبد، كان يمنح الجيش صلاحيات واسعة جداً؛ وعندما سقط الحكم في يدي شخص ذي أفكار مخالفة، تمردت الطبقة الراقية. ولم يكن الرئيس بالماسيدا، الرجل اللامع ذو الأفكار الحديثة، قد حكم بصورة سيئة في الواقع. فقد شجع التعليم أكثر من أي حاكم سابق، ودافع عن ملح البارود التشيلي من الشركات الأجنبية، وأنشأ المستشفيات والكثير من المنشآت العامة، وخصوصاً السكك الحديدية، مع أنه بدأ مشاريع أكثر بكثير من تلك التي تمكن من إكمالها؛ كانت تشيلي تتمتع بقوة عسكرية وبحرية، وكانت بلداً مزدهراً وعملته هي الأقوى في أميركا اللاتينية. ومع ذلك، لم تسامحه الارستقراطية على رفعه من مكانة الطبقة الوسطى ومحاولته الحكم معها، كما أن رجال الكهنوت لم يستطيعوا التسامح مع فصل الكنيسة عن الدولة، والزواج المدني الذي حل محل الزواج الديني، والقانون الذي سمح

Twitter: @ketab_n

بدفن موتى من كل الأنواع في المقابر. لقد كان التخلص من جثث من كانوا كاثوليكيين أو غير كاثوليكيين في الحياة مشكلة عويصة من قبل، وكذلك الأمر بالنسبة للملحدين والمنتحرين، الذين كان ينتهي الأمر في الغالب بإلقاء جثثهم في الوهاد الجبلية السحيقة أو في البحر. وبسبب هذه الاجراءات، تخلت النساء عن الرئيس بالجملة. ومع أنهن لم يكن يتمتعن بسلطة سياسية، إلا أنهن كن يحكمن في بيوتهن ويمارسن فيها تأثيراً رهيباً. كما أن الطبقة الوسطى، التي دعمها الرئيس بالماسيدا، أدارت له ظهرها أيضاً، فرد على ذلك بغطرسة، لأنه كان معتاداً على أن يُصدر الأوامر ويطاع، مثل كل ثري في ذلك الحين. فقد كانت أسرته تملك مساحات شاسعة من الأراضي.. مقاطعة بالكامل، بكل ما فيها من محطات وسكك حديدية وضياع ومئات الفلاحين؛ ولم تكن لذويه سمعة الملاكين طيبي القلب، وإنما سمعة الطغاة القساة الذين ينامون والسلاح تحت وسائدهم، وينتظرون الاحترام الأعمى من فلاحيهم. وربما لهذا السبب حاول أن يدير البلاد كما لو أنها اقطاعيته الخاصة. لقد كان رجلاً طويل القامة، أنيقاً، رجولياً، له جبهة عريضة وتقاطيع نبيلة، ابن غراميات روائية، ترعرع على صهوات الجياد، يحمل كرباجاً في إحدى يديه وبندقية في اليد الأخرى. وكان قد درس الكهنوت، ولكنه لم يطق لبس مسوح الرهبنة؛ وكان عاطفياً ومعتزاً بنفسه. وكانوا يدعونه «المُشبّك» بسبب ميله إلى تبديل تسريحة شعره، وشاربه وسالفيه؛ ويعلقون على ملابسه بالغة الأناقة التي كان يوصي عليها من لندن. ويسخرون من خطابيته كثيرة الثرثرة وتصريحاته المفعمة بحب تشيلي والغيرة عليها، ويقولون إنه كان يوحد نفسه بالوطن إلى حد أنه لم يعد قادراً على تصور الوطن دون أن يكون على رأسه، وكانوا ينسبون إليه عبارة «إما لي أو لا لأحد!». لقد عزلته سنوات الحكم وصار يبدي في النهاية سلوكاً غير مستقر، ينتقل من النزوة إلى الاكتئاب، ولكنه كان يتمتع، حتى بين أسوأ خصومه، بسمعة رجل الدولة الجيد وبالنزاهة التي لا تشوبها شائبة، مثل جميع رؤساء تشيلي تقريباً، الذين على خلاف زعماء بلدان أخرى في أميركا اللاتينية، يخرجون من الحكم وهم أشد

Twitter: @ketab_n

فقراً مما كانوا عليه حين دخلوا إليه. كانت له رؤية مستقبلية، فكان يحلم بخلق أمة عظيمة، ولكن قُدّر له أن يعيش نهاية مرحلة وفساد حزب أمضى زمناً طويلاً في السلطة. لقد كانت البلاد والعالم يتغيران، وكان النظام الليبرالي قد أصيب بالفساد. فالرؤساء يختارون من سيخلفهم، والسلطات المدنية والعسكرية تمارس التزوير في الانتخابات؛ ويكسب حزب الحكومة دوماً بفضل قوة تليق بها صفة الوحشية التي أُلصقت بها: فحتى الموتى والغائبين كانوا يشاركون في التصويت للمرشح الرسمي، وكانت الأصوات تُشترى ويجري ترهيب المتشككين بالهراوى. واجه الرئيس معارضة لا تلين من المحافظين، ومن بعض الجماعات الليبرالية المنشقة، وسلك الكهنوت بمجمله والقسم الأكبر من الصحافة. ولأول مرة التقت أقصى أطراف الطيف السياسي على قضية واحدة: هزيمة الحكومة. في كل يوم كانت تجتمع مظاهرات المعارضة في ساحة السلاح، فتفرقها الشرطة الخيالة بالضرب، وفي الجولة الأخيرة للرئيس في الأقاليم كان على الجنود أن يدافعوا عنه بإعمال السيوف في الحشود الغاضبة التي راحت تشتمه وتلقي عليه الخضار. ولم تكن مظاهر الاستياء تلك تؤثر فيه، وكأنه لا يلاحظ أن البلاد آخذة بالغرق في الفوضى. وحسب رأي سيفيرو دل بايي والآنسة ماتيلدي بينيدا، فإن ثمانين بالمئة من الناس يمقتون الحكومة وأكثر تصرف وقور يمكن للرئيس القيام به هو الاستقالة، لأن أجواء التوتر صارت لا تطاق ويمكن لها أن تنفجر في أي لحظة كبركان. وهذا ما حدث في ذلك الصباح من كانون الثاني 1891، عندما تمردت القوات البحرية وعزل مجلس الشيوخ الرئيس.

سمعتُ سيفيرو دل بايي يقول:

- ستنفلت حملة قمع رهيبة يا عمتي. سأذهب إلى الشمال لأواصل النضال، وأرجو منك أن تحمي نيفيا والأطفال، لأنني لن أستطيع عمل ذلك لوقت لا أدري مداه...

- لقد فقدت إحدى ساقيك في الحرب يا سيفيرو، وإذا ما فقدت

Twitter: @ketab_n

الأخرى فستبدو قزماً.

- لا خيار لي، ففي سنتياغو سيقتلونني حتماً.

- لا تكن ميلودرامياً، فلسنا في الأوبرا!

ولكن سيفيرو دل بايي كان يملك معلومات خيراً من عمته، مثلما اتضح بعد عدة أيام، عندما انفلت الرعب. فقد تمثل رد فعل الرئيس في حلّ مجلس الشيوخ، وتنصيب نفسه دكتاتوراً، وتعيين المدعو خواكين غودوي لينظم حملة القمع، وهو سادي يؤمن بأن «الأغنياء يجب أن يدفعوا الثمن لأنهم أغنياء، والفقراء لأنهم فقراء وأما رجال الدين فيجب رميهم جميعاً بالرصاص!». حافظ الجيش على ولائه للحكومة، وما بدأ كشغب سياسي تحول إلى حرب أهلية مرعبة حين تواجه فرعا القوات المسلحة (البحرية والجيش). وسارع غودوي، بدعم حاسم من قادة الجيش، إلى اعتقال أعضاء مجلس الشيوخ المعارضين الذين استطاع إلقاء القبض عليهم. وانتهت الضمانات المواطنية، وبدأ انتهاك حرمة البيوت وأعمال التعذيب المنهجية، بينما اعتكف الرئيس في قصره مشمئزاً من تلك الأساليب، ولكنه مقتنع بأنه لا توجد وسيلة أخرى لإخضاع أعدائه السياسيين. وقد سُمع وهو يقول أكثر من مرة «لا أريد أن أعرف شيئاً عن هذه الإجراءات». لم يكن النوم ممكناً في شارع مكتبة **العصر الذهبي** بسبب صراخ المضروبين بالسياط. ولم يكن يقال شيء من هذا أمام الأطفال بالطبع، ولكنني كنتُ أعلم كل شيء لأنني أعرف كل فرجة في البيت وأتسلى بالتجسس على أحاديث الكبار، إذ لم يكن هناك ما يمكن عمله في تلك الشهور. وبينما كانت الحرب تستعر في الخارج، كنا نعيش في الداخل كما في محبس دير فاخر. وقد احتضنت جدتي نيفيا مع كتيبتها من الأبناء والمرضعات والمربيات وأغلقت البيت تماماً، واثقة من أن أحداً لن يجرؤ على مهاجمة سيدة في مثل وضعها الاجتماعي ومتزوجة من مواطن بريطاني. وتحسباً للظروف، علق فريدريك ويليامز راية إنكليزية على السطح وأبقى أسلحته جاهزة.

انطلق سيفيرو دل بايي للقتال في الشمال في الوقت المناسب

Twitter: @ketab_n

تماماً، لأنهم داهموا بيته في اليوم التالي ولو أنهم وجدوه لانتهى به المقام في سجن الشرطة السياسية، حيث كانوا يعذبون الأغنياء والفقراء على السواء. لقد كانت نيفيا مناصرة للنظام الليبرالي، مثل سيفيرو دل بايي، ولكنها تحولت إلى عدوة ضارية عندما أراد الرئيس أن يفرض خليفته عن طريق الخدع، وحاول سحق مجلس الشيوخ. وخلال شهور الثورة، بينما هي حبلى بتوأم وتربي ستة أطفال، وجدت متسعاً من الوقت والحماسة للعمل في المعارضة بصورة لو اكتُشفت لكلفتها حياتها. وكانت تمارس ذلك من وراء ظهر جدتي باولينا، التي أصدرت أوامر حاسمة بأن نبقى غير مرئيين حتى لا نلفت نظر السلطات، ولكن بمعرفة ويليامز الكاملة. لقد كانت الآنسة ماتيلدي بينيدا تقف في الجانب المناقض تماماً لفريدريك ويليامز، فهي شديدة الاشتراكية بقدر ما هو ملكي، ولكن العداء للحكومة وحدّهما. وفي إحدى الغرف الخلفية، حيث لم تكن جدتي تدخل قط، أقاموا مطبعة صغيرة بمساعدة دون بيدرو تيي، وكانوا يطبعون هناك نشرات ومنشورات ثورية، تقوم الآنسة ماتيلدي بينيدا بعد ذلك بإخفائها تحت معطفها لتوزعها من بيت لبيت. وقد جعلوني أقسم بأنني لن أقول كلمة واحدة لأحد عما يحدث في تلك الغرفة، ولم أفعل لأن السر بدا لي لعبة مشوقة، مع أنني لم أكن أدرك الخطر الذي يحوم حول أسرتي. عند انتهاء الحرب الأهلية أدركت أن ذلك الخطر كان حقيقياً، إذ على الرغم من وضع باولينا دل بايي، لم يكن هناك أحد بمنجى من ذراع البوليس السياسي الطويلة. لم يكن بيت جدتي بالمكان المقدس الذي تصورناه، فواقع أنها أرملة ثرية، لها علاقات واسعة وكنية معروفة، ما كان قادراً على إنقاذها من عملية مداهمة وربما من السجن. لقد عملت لمصلحتنا فوضى تلك الشهور وواقع أن معظم الأهالي قد تحولوا ضد النظام، مع استحالة مراقبة كل أولئك الناس. بل كان هناك في صفوف الشرطة نفسها أنصار للثورة يساعدون في هرب الأشخاص أنفسهم الذين يتوجب عليهم اعتقالهم. وفي كل بيت كانت الآنسة بينيدا تطرق بابه لتسلم منشوراتها، كانوا يستقبلونها بأذرع مفتوحة.

وهكذا، للمرة الوحيدة، صار سيفيرو وأقرباؤه في الجانب نفسه،

Twitter: @ketab_n

لأن المحافظين اتحدوا مع قسم من الليبراليين في ذلك النزاع. اعتزلت بقية أسرة دل بايي مع أرصدتها إلى أبعد ما يمكن عن سنتياغو، وذهب الرجال الشباب للقتال في الشمال، ، حيث اجتمع جيش من المتطوعين المدعومين بالقوات البحرية المتمردة. وكان الجيش الموالي للحكومة يخطط لهزيمة أولئك المدنيين المتمردين خلال أيام، دون أن يتصور قط المقاومة التي سيواجهها. توجه الاسطول والثوريون إلى الشمال للاستيلاء على مكامن ملح البارود، المصدر الأساسي لمداخيل البلاد، حيث كانت تتمركز فرق الجيش النظامي. وفي المواجهة الجدية الأولى انتصرت قوات الحكومة، وأجهزت بعد المعركة على الجرحى والأسرى، تماماً مثلما كانت تفعل في معظم الأحيان خلال حرب الباسفيك قبل عشر سنوات من ذلك. وألهبت وحشية المجزرة حماس الثوريين إلى حد أنهم حققوا نصراً ساحقاً عندما عادوا للمواجهة. وعندئذ جاء دورهم في جزر المهزومين. في أواسط شهر آذار، كان الكونغرسيون، وهي التسمية التي أطلقها المتمردون على أنفسهم، يسيطرون على خمس مقاطعات في الشمال، وشكلوا هناك مجلساً حكومياً، بينما كان الرئيس بالماسيدا في الجنوب يفقد المزيد من أتباعه في كل دقيقة. وكان على من تبقى من القوات الموالية في الشمال أن تنسحب نحو الجنوب لتنضم إلى كتلة الجيش الرئيسية؛ فاجتاز خمسة عشر ألف رجل سلسلة الجبال مشياً على الأقدام، متوغلين في أراضي بوليفيا، وانتقلوا إلى الأرجنتين، ثم اجتازوا الجبال ثانية ليصلوا إلى سنتياغو. وظهروا في العاصمة وقد هدهم التعب، مشعثي اللحى وممزقي الملابس، لقد مشوا آلاف الكيلومترات عبر طبيعة قاسية من الوديان والمرتفعات، منتقلين من مناخ ذي حرارة جهنمية وحتى ثلوج أبدية، متناولين في طريقهم حيوانات اللاما والفيكونيا في الهضبة، والقرع وآكل النمل المدرع في سهوب البامبا، والطيور في القمم العالية. وقد استقبلوا في العاصمة استقبال الأبطال. فتلك المأثرة لم تعرف مثيلاً منذ أزمنة الفاتحين الاسبان القساة البعيدة، ولكن لم يشارك الجميع في ذلك الاستقبال، لأن المعارضة كانت قد تعاظمت مثل سيل من المستحيل وقفه. بقي بيتنا مغلق المزاليج، وكانت

Twitter: @ketab_n

أوامر جدتي تمنع أي واحد منا أن يطل بأنفه إلى الشارع، ولكنني لم أستطع مقاومة الفضول وتسلقت السطح لأرى الاستعراض.

عمليات الاعتقال والسلب والتعذيب والمصادرة أبقت المعارضين على أحر من الجمر، لم تكن هناك أسرة لم تنقسم، ولم يبق أحد بمنجى من الخوف. وكانت قوات الجيش تنصب الكمائن لتجنيد الشباب، وتنقض فجأة على المآتم، والأعراس، والحقول، والمصانع لاعتقال الرجال الذين هم في سن تمكنهم من حمل السلاح واقتيادهم بالقوة. فشُلَّتْ الزراعة والصناعة بسبب الافتقار إلى اليد العاملة. بلغ تسلط العسكريين حداً لا يطاق، وأدرك الرئيس بأنه صار عليه أن يوقفهم عند حدهم، ولكنه عندما أراد عمل ذلك أخيراً، كان الوقت قد فات؛ فقد أصابت الغطرسة الجنود، وخشي أن يعزلوه لينصبوا دكتاتورية عسكرية، وهي أشد رعباً بألف مرة من القمع الذي تشنه شرطة غودوي السرية. «ليس هناك أخطر من ممارسة السلطة دون خوف من قصاص»، هكذا كانت تحذرنا نيفيا. وقد سألتُ الآنسة ماتيلدي بينيدا عن الفرق بين الموالين للحكومة والثائرين عليها، فكان الجواب بأن الجانبين يقاتلان في سبيل الشرعية. وعندما سألتُ جدتي أجابتني بأنه ليس هناك أي فرق، وقالت إنهم جميعهم أوغاد.

طرق الرعب بابنا عندما اعتقلت الشرطة دون بيدرو تي لتقتاده إلى سجون غودوي الرهيبة. لقد ارتابوا، وهم على صواب، بأنه المسؤول عن المنشورات السياسية المناهضة للحكومة المتداولة في كل مكان. وفي إحدى ليالي حزيران، واحدة من تلك الليالي ذات الأمطار الغزيرة والرياح الغادرة، وبينما كنا نتناول العشاء في غرفة الطعام اليومية، فُتح الباب فجأة واندفعت الآنسة ماتيلدي بينيدا دون انذار مسبق، وهي مضطربة، وشاحبة، ومعطفها مبلل.

- ماذا جرى؟ - سألت جدتي منزعجة لتهور المعلمة وقلة لباقتها.

Twitter: @ketab_n

فأخبرتنا الآنسة بينيدا بصوت خافت بأن أوغاد غودوي قد داهموا مكتبة **العصر الذهبي**، وضربوا من كانوا هناك ثم اقتادوا دون بيدرو تيي في عربة مغلقة. بقيتُ جدتي ممسكة بالشوكة في الهواء بانتظار شيء آخر يبرر دخول الآنسة المستنكر؛ فهي لا تكاد تعرف السيد تيي ولا تدرك سبب كون الخبر مستعجلاً. لم يكن لديها أي علم بأن المكتبي يأتي كل يوم تقريباً إلى البيت، ويدخله من الباب الخلفي وينتج فيه منشوراته الثورية على آلة طباعة مخبأة تحت سقف بيتها بالذات. أما نيفيا وويليامز والآنسة بينيدا بالمقابل، فكانوا يقدرون النتائج التي ستحدث عندما يُجبر عاثر الحظ تيي على الاعتراف، ويعرفون أنه سيفعل ذلك عاجلاً أو آجلاً، لأن أساليب غودوي لا تترك مجالاً للشك. رأيتُ الثلاثة يتبادلون نظرات يائسة، ومع أنني لم أفهم أبعاد ما كان يجري، إلا أنني تصورتُ الأسباب. فسألتُ:

- هل السبب هو الآلة الموجودة في الغرفة الخلفية؟

فصرخت جدتي:

- أي آلة؟

وسارعتُ في الرد وقد تذكرتُ العهد بحفظ السر:

- ليست هناك أي آلة.

ولكن باولينا دل بايي لم تسمح لي بمواصلة الكلام، بل أمسكتني من أذني، وهزتني بتكشيرة غير معهودة فيها، وقالت صارخة:

- لقد سألتك أي آلة هذه، يا مخاطية الشيطان!

فقال فريدريك ويليامز:

- اتركي الطفلة يا باولينا. فليست لها أي علاقة بكل هذا. والآلة هي مطبعة...

زمجرت جدتي:

- مطبعة؟ هنا في بيتي؟

Twitter: @ketab_n

فتلعثمت نيفيا:

- أخشى أن الأمر كذلك يا عمتي.

- يا للعنة! ما الذي سنفعله الآن! - وانهارت السيدة على كرسيها ورأسها بين يديها وهي تدمدم بأن أسرتها قد خانتها، وبأننا سندفع ثمن هذا العمل الأرعن، وأننا جماعة من الحمقى، وبأنها قد احتضنت نيفيا بذراعين مفتوحين وانظروا كيف تكافئها، وأن فريدريك لا يعرف بأن هذا العمل قد يكلفنا جلودنا، لأننا لسنا في إنكلترا أو في كاليفورنيا، ومتى سيفهم كيف هي الأمور في تشيلي، وأنها لا تريد أن ترى الآنسة بينيدا مرة أخرى في حياتها، وأنها تمنعها من العودة إلى بيتها أو التكلم إلى حفيدتها.

طلب فريدريك ويليامز العربة وأعلن أنه سيذهب «لحل المشكلة»، ولكن ذلك زاد من رعب جدتي بدل أن يطمئنها. أومأت لي الآنسة ماتيلدي بينيدا مودعة وخرجت، ولم أعد لرؤيتها إلا بعد سنوات طويلة. انطلق ويليامز مباشرة إلى المفوضية الأمريكية ليتكلم مع مستر باتريك إيغون، صديقه وزميله في لعب البريدج، والذي كان يرأس في تلك اللحظة مأدبة رسمية مع أعضاء آخرين في السلك الدبلوماسي. كان إيغون مؤيداً للحكومة، ولكنه ديمقراطي بعمق في الوقت نفسه، مثلما هم جميع اليانكيين تقريباً، ولهذا كان يمقت أساليب غودوي. استمع إلى ما قاله له فريدريك ويليامز على انفراد، وبدأ حملته على الفور للتحدث مع وزير الداخلية الذي استقبله في تلك الليلة بالذات، ولكنه أخبره بأنه لا يملك صلاحية التدخل من أجل السجين. وتوصل مع ذلك إلى ترتيب مقابلة مع الرئيس في صباح اليوم التالي. كانت تلك هي أطول ليلة عشناها في بيت جدتي. لم ينم أحد في تلك الليلة. وقد أمضيتها وأنا متكورة مع كراميلو على مقعد في البهو بينما كانت العاملات والخدم يمضون بحقائب وصناديق، والمرضعات والمربيات بأطفال نيفيا النائمين بين أذرعهن، والطاهيات بسلال المأكولات. بل إنهم نقلوا كذلك قفصين يضمان طيور جدتي المفضلة إلى العربات. وفكك ويليامز والجنائني، وهو

Twitter: @ketab_n

رجل ثقة، المطبعة، ودفنا أجزاءها في أقصى الفناء الثالث، وأحرقا كل الأوراق المشبوهة. وعند الفجر كانت عربتان للأسرة وأربعة خدم جاهزتين بخيولهما لنقلنا إلى خارج سنتياغو. أما بقية الخدم فقد ذهبوا ليلتجؤوا في أقرب كنيسة، حيث ستأخذهم عربات أخرى فيما بعد. ولم يشأ فريدريك ويليامز أن يذهب معنا، وقال:

- أنا المسؤول عما حدث وسأبقى لحماية البيت.

فتوسلت إليه باولينا دل بايي:

- حياتك أثمن من كل هذا البيت ومن كل ما أملك، أرجوك أن تأتي معنا.

- لن يجرؤوا على لمسي، فأنا مواطن بريطاني.

- لا تكن ساذجاً يا فريدريك، صدقني، ليس هناك من هو بمنجى في هذه الأيام.

ولكن لم تكن هناك طريقة لإقناعه. طبع قبلتين على خديّ، وأمسك يدي جدتي بين يديه مطولاً، وودع نيفيا التي كانت تتنفس مثل ثعبان بحر خارج الماء، ولستُ أدري إذا كان ذلك من الخوف أم بسبب حبلها فقط. انطلقنا عندما بدأت شمس خجولة تضيء قمم سلسلة الجبال المكللة بالثلج، كان المطر قد توقف، وكانت السماء تشير إلى يوم صحو، ولكن ريحاً باردة كانت تعصف وتتسرب من شقوق العربة. احتضنتني جدتي جيداً في حضنها، مدثرة جسمي بمعطف فرو الثعلب، وهو المعطف نفسه ذو الأذيال التي مزقها **كراميلو** في نوبة شبق. وكانت تمضي وهي تضغط شفتيها من الغضب والخوف، ولكن دون أن تنسى سلال وجبة الضحى، فما كدنا نخرج من سنتياغو في الطريق إلى الجنوب حتى فتحتها مطلقة العنان لوليمة الدجاج المشوي، والبيض المسلوق، والحلويات، والجبن، والخبز، والنبيذ وشراب اللوز، التي ستقيم أودنا لبقية الرحلة.

استقبلنا الأعمام من آل دل بايي، ممن كانوا قد التجأوا إلى الريف مع بدء التمرد في شهر كانون الثاني، مفتونين لأننا جئنا لنقطع عليهم سبعة شهور من الضجر، ونحمل إليهم أخباراً جديدة. وقد كانت الأخبار

Twitter: @ketab_n

سيئة جداً، ولكن عدم معرفتها أسوأ. التقيت مع أبناء عمومتي، وكانت تلك الأيام العصيبة بالنسبة للكبار، أشبه بإجازة لنا نحن الصغار؛ فكنا نُتخم بالحليب المحلوب لتوه، والجبن الطازج، ومأكولات مجففة محفوظة منذ الصيف، ونمتطي خيولاً، ونخوض في الوحل تحت المطر، ونلعب في الاسطبلات والمستودعات، ونقيم عروضاً مسرحية، ونشكل جوقة غنائية مخيبة للآمال، لأنه لم يكن بيننا من لديه مؤهلات موسيقية. كان الوصول إلى البيت يتم عبر طريق متعرج تحف به أشجار حور عاليه في وادٍ وعر، لم يترك المحراث فيه إلا أثراً ضئيلاً، ومرابع تبدو كأنها مهجورة؛ وبين حين وآخر نرى صفوفاً من الأغصان الجافة والمنخورة، هي كروم حسب قول جدتي. وإذا ما صادفنا فلاح في الطريق، يخلع قبعته القشية، ويخفض بصره نحو الأرض ليحيي الملاكين، أو «السادة» كما يسموننا. وصلت جدتي إلى الريف متعبة ومتعكرة المزاج، ولكنها حملت بعد أيام قليلة مظلة ومضت، وكراميلو في أثرها، تجوب المنطقة بفضول كبير. رأيتها تتفحص عيدان الكرمة الملتوية وتلتقط عينات من التراب، تحفظها في أجربة غريبة. كان البيت الذي له شكل U، مبنياً من الطين والقرميد، يبدو مظهره ثقيلاً ومتيناً، دون أي أناقة، ولكنه يعبق بسحر الجدران التي شهدت الكثير من التاريخ. لقد كان في الصيف جنة أشجار حبلى بثمار حلوة، وعبق أزهار، وتغريد عصافير صاخبة، وأزيز نحل نشيط، ولكنه يبدو في الشتاء مثل سيدة عجوز متأففة تحت المطر الشتائي والسموات المتلبدة. النهار يبدأ باكراً جداً وينتهي مع غياب الشمس، وهي الساعة التي نجتمع فيها في الغرف الفسيحة سيئة الإنارة بشموع ومصابيح كيروسين. الطقس بارد، ولكننا نجلس حول طاولات مستديرة مغطاة بشراشف سميكة يضعون تحتها مواقد جمر مشتعلة، وهكذا ندفئ أقدامنا؛ كنا نشرب نبيذاً أحمر مغلياً مع السكر وقشور البرتقال والقرفة، وهي الطريقة الوحيدة للتمكن من ابتلاعه. وكان الأعمام من آل دل بايي ينتجون هذا النوع من النبيذ للاستهلاك الأسري، ولكن جدتي كانت تؤكد أنه لم يصنع للحلوق البشرية وإنما لإذابة الدهان. وكل عزبة تحترم نفسها عليها أن تزرع أشجار كرمة وتصنع نبيذها الخاص، قد يكون

Twitter: @ketab_n

بعضه أفضل من البعض الآخر، ولكنه نبيذ حامض بصورة عامة. وفي السقوف الخشبية المنقوشة حفر تنسج العناكب فيها ملاءاتها الهشة المخرمة وتركض الجرذان بقلب مطمئن، لأن قطط البيت لا تستطيع التسلق إلى ذلك الارتفاع. الجدران المبيضة بالكلس أو المطلية بزرقة النيلة، تبدو عارية، مع أن هناك في كل مكان رسوم قديسين ظاهرة وصور للمسيح مصلوباً. وعند المدخل تنتصب دمية رأسها ويداها وقدماها من الخشب، وعيناها من الزجاج الأزرق ولها شعر بشري، تمثل مريم العذراء، وتبقى مزينة طوال الوقت بأزهار يانعة وشمعة مشتعلة نرسم جميعنا أمامها إشارة الصليب حين نمر بها، إذ لا يمكن الدخول أو الخروج دون تحية السيدة العذراء. كان يجري تبديل ملابسها مرة كل أسبوع، وكانت لها خزانة خاصة مملوءة بأثواب من طراز عصر النهضة، وفي أثناء المواكب الاحتفالية يُلبسونها مجوهرات وعباءة من جلد القاقُم باهتة بفعل السنين. كنا نأكل أربع مرات في اليوم في طقوس طويلة لا تكاد تنتهي حتى تبدأ طقوس الوجبة التالية، فلم تكن جدتي تنهض عن المائدة إلا للنوم أو للذهاب إلى المصلى. في السابعة صباحاً نحضر قداساً ومناولة برعاية الأب تيودورو ريسكو، الذي كان يعيش مع أعمامي، وهو كاهن عجوز حاز فضيلة التسامح؛ فليس هناك في نظره خطيئة لا تُغتفر، باستثناء خيانة يهوذا؛ فحتى غودوي الرهيب يمكن له، حسب رأيه، أن يجد الغفران في أحضان الرب. وقد ردت عليه نيفيا: «هذا غير ممكن يا أبتاه، وإذا كان هناك غفران لغودوي فإنني أفضل الذهاب وجميع أبنائي إلى الجحيم مع يهوذا». وبعد غياب الشمس تجتمع الأسرة مع الأطفال والخدم وفلاحي العزبة للصلاة. كل واحد يحمل شمعة مشتعلة ونمضي في رتل نحو المصلى المرتجل في الطرف الجنوبي من البيت. لقد أحببت تلك الطقوس اليومية التي تشير إلى التقويم اليومي، وإلى انقضاء الفصول والحيوات، فكنت أتسلى بترتيب زهور المذبح وتنظيف أقداح القربان الذهبية. وقد كانت الكلمات المقدسة شعراً:

لا يحركني في حبك يا رب
الجنة التي وعدتني بها،

Twitter: @ketab_n

وليس الجحيم الرهيب هو ما يحركني
لأمتنع عن إغضابك.

أنت من يحركني يا رب؛ تحركني رؤيتك
مسمراً على الصليب وهم يسخرون منك؛
تحركني رؤية جسدك المجرح؛
تحركني إهانتك وموتك.

يحركني إذن حبك، حتى
لو لم يكن هناك فردوس، سأحبك
ولو لم يكن ثمة جحيم، سأحبك.

ليس عليك أن تمنحني لأنني أحبك،
لأنني، وإن كان ما انتظره لا ينتظر،
أحبك، وسأحبك.

وأظن أن أكثر من شيء قد لان في قلب جدتي القاسي، لأنها منذ تلك الإقامة في الريف اقتربت قليلاً من الدين، وبدأت تذهب إلى الكنيسة برغبة وليس لكي يروها وحسب، وتوقفت عن عادة لعن الرهبان، مثلما كانت تفعل من قبل، وعندما رجعنا إلى سنتياغو أمرت بإقامة مصلى بديع ذي نوافذ زجاجية ملونة في بيتها في شارع الجيش المحرّر، حيث صارت تصلي على هواها. ولأنها لم تكن تشعر بالراحة في ديانتها الكاثوليكية، فقد ضبطتها على مقاسها. وبعد انتهاء صلوات الليل، كنا نعود بشموعنا إلى الصالون الكبير لتناول القهوة بالحليب، وبينما النساء يحكن أو يطرزن نستمع نحن الأطفال مرعوبين إلى حكايات الأشباح التي يرويها لنا الأعمام. ولم يكن هناك ما يخيفنا مثل **الإمبونتشي**، وهو كائن خبيث في أساطير السكان الأصليين. يقال إن الهنود يسرقون الأطفال حديثي الولادة لتحويلهم إلى **إمبونتشي**، فيخيطون أجفانهم وشروجهم، ويربونهم في مغاور، ويغذونهم على الدم، ويكسرون سيقانهم، ويديرون رؤوسهم إلى الوراء ويدخلون أحد أذرعهم تحت جلد ظهورهم، وهكذا يكتسبون كل أنواع القدرات الخارقة. ولخوفنا من أن نتحول إلى طعام

Twitter: @ketab_n

للإمبونتشي، كنا نحن الأطفال لا نجرؤ على أن نطل برؤوسنا خارج البيت بعد غياب الشمس، وكان بعضنا، مثلي أنا، ينامون وهم يخبئون رؤوسهم تحت الدثار تعذبهم الكوابيس المرعبة. «كم أنت متطيرة يا أورورا! الإمبونتشي لا وجود له. وهل تظنين أنه يمكن لطفل أن يبقى حياً بعد كل ذلك التعذيب؟»، هكذا كانت جدتي تحاول إقناعي بالحجج العقلانية، ولكن لم تكن هناك حجة قادرة على تخليصي من اصطكاك الأسنان.

لقد أمضت نيفيا جلّ حياتها وهي حبلى، لهذا قلما اهتمت بإجراء حساباتها، وكانت تقدر اقتراب موعد ولادتها من خلال عدد المرات التي تستخدم فيها مبولتها. وعندما استيقظت للتبول ثلاث عشرة مرة خلال ليلتين متتاليتين، أعلنت أثناء تناول الفطور بأن الوقت قد حان لاستدعاء الطبيب، وقد بدأت التشنجات بالفعل، في ذلك اليوم بالذات. لم يكن هناك طبيب في تلك الأنحاء، فاقترح أحدهم استدعاء قابلة الضيعة القريبة، وتبين أنها ميكا رائعة، فهي هندية مابوتشي دون سن محددة، يطغى اللون الداكن نفسه على كل ما فيها: البشرة، الجدائل، وحتى ملابسها المصبوغة بأصبغة نباتية. جاءت على حصان، ومعها حقيبة أعشاب وزيوت وأشربة طبية، متلفعة بمعطف مثبت على الصدر بمشبك فضي ضخم مصنوع من عملات استعمارية قديمة. أصيبت العمات بالذعر، لأن الميكا بدت كأنها خارجة للتو من أعماق أراوكانيا، ولكن نيفيا استقبلتها دون أي ارتياب؛ فالعملية لا تخيفها، لأنها جربتها ست مرات من قبل. كانت الهندية تتكلم قليلاً من الاسبانية، ولكنها تعرف كما يبدو مهنتها، واستطعنا أن نرى، حين خلعت المعطف، أنها نظيفة. ولم يكن ممكناً وفق التقاليد دخول من لم يلدن من قبل إلى حجرة المرأة الماخض، ولهذا ابتعدت النساء الشابات مع الأطفال إلى الطرف الآخر من البيت، واجتمع الرجال في قاعة البلياردو ليلعبوا ويشربوا ويدخنوا. أما نيفيا فأخذوها إلى الحجرة الرئيسية برفقة الهندية وبعض نساء الأسرة الكبيرات، اللواتي كن يتناوبن الصلاة والمساعدة. رحن يسلقن دجاجتين سوداوين لتحضير حساء مغذ يمكنه تقوية الأم قبل وبعد الولادة، كما

Twitter: @ketab_n

غلين أوراق نبتة لسان الثور ليكون النقيع جاهزاً إذا ما حدثت حشرجات أو إجهاد قلبي. وكان فضولي أقوى من تهديد جدتي بضربي إذا ما أمسكتني قريباً من نيفيا، فتسللتُ من الحجرات الخلفية لأرصد ما يجري. رأيت مرور الخادمات يحملن فوطاً قماشية بيضاء، وطسوت ماء ساخن وزيت البابونج من أجل تدليك البطن، وبطانيات وفحماً من أجل المواقد، إذ لم يكن هناك ما يُخشى منه مثل **تثلج البطن** أو البرودة خلال المخاض. كان يُسمع همس الأحاديث والضحك المتواصل؛ ولم يبدُ لي أن هناك في الجانب الآخر من الباب أجواء غم أو ألم، بل على العكس، فهناك أصوات نساء يحتفلن. وبما أن أحداً لم يكن يراني في مخبئي، وكانت أنفاس الممر المظلم الشبحية تبعث القشعريرة في زغب رقبتي، فقد مللت سريعاً وانطلقت للعب مع أبناء عمومتي. ولكنني اقتربتُ ثانية عند الغروب، حين اجتمعت الأسرة في المصلى. كانت الأصوات حينذاك قد توقفت وصار يُسمع أنين نيفيا المجهد، ودمدمات الصلوات وصوت المطر على قرميد السطح. بقيتُ قابعة في ركن من الممر، أرتجف من الخوف لأنني كنت موقنة بأن الهنود سيأتون لاختطاف وليد نيفيا... وماذا لو أن **الميكا** هي واحدة من أولئك الساحرات اللواتي يصنعن **الإمبونتشي** من الأطفال حديثي الولادة؟ وكيف لم تفكر نيفيا بهذا الاحتمال المرعب؟ كنت على وشك الانطلاق راكضة للعودة إلى المصلى، حيث يوجد ضوء وناس، ولكن إحدى النساء خرجت في تلك اللحظة بحثاً عن شيء، وتركتْ الباب موارباً فاستطعتُ أن ألمح ما يجري داخل الغرفة. لم يرني أحد لأن الممر كان مظلماً، بينما كان يسود في الداخل ضوء مصابيح الدهن والشموع الموزعة في كل الأنحاء. وكانت هناك ثلاثة مجامر مشتعلة في الآركان تُبقي الهواء أكثر سخونة بكثير من بقية البيت، وقدر تغلي فيها أوراق أوكالبتوس تضمخ الجو بأريج غابة نديّ. كانت نيفيا، ترتدي قميص نوم قصير، وصدرية وجراباً سميكاً من الصوف، وتقرفص فوق بطانية، متشبثة بكلتا يديها بحبلين ثخينين يتدليان من دعامة السقف، وتسندها من الخلف **الميكا** التي كانت تدمدم بصوت خافت كلمات بلغة أخرى. كان بطن الأم المنتفخ والمرشوم بالأوردة الزرقاء يبدو،

Twitter: @ketab_n

على ضوء الشموع المتذبذب، مثل مسخ مشوه، غريب عن جسدها، بل وكأنه ليس بشرياً. كانت نيفيا تدفع وهي مبللة بالعرق، وكان شعرها ملتصق بجبهتها، وعيناها مغمضتين ومحاطتين بدوائر بنفسجية، وشفتاها متورمتين. وكانت إحدى عماتي تصلي جاثية إلى جانب طاولة صغيرة وضع عليها تمثال صغير للقديس رامون نوناتو، شفيع الماخضات، وهو القديس الوحيد الذي لم يولد بطريق طبيعي، وإنما أخرجوه من شق في بطن أمه؛ وعمة أخرى كانت بالقرب من الهندية تحمل طست ماء ساخن وكدسة من الخرق النظيفة. توقفت نيفيا لبرهة استنشقت خلالها الهواء ووقفت **الميكا** من أمام لتدلك لها بطنها بيديها الثقيلتين، وكأنها تسوي وضع الطفل داخلها. وفجأة اندفعت دفقة سائل مختلط بالدم وبللت البطانية. فأوقفتها **الميكا** بخرقة تشبعت بالسائل فوراً، ثم أتبعتها بخرقة أخرى، وأخرى. وسمعتُ الهندية تقول بالإسبانية: «بَركَة، بركة، بركة». تشبثت نيفيا بالحبلين ودفعت بقوة جعلت أورتار رقبتها وأوردة صدغيها تبدو وكأنها على وشك الانفجار. خرجت آنّة صماء من شفتيها وعندئذ أطل شيء من بين ساقيها، فتلقفته **الميكا** برفق وأمسكت به لحظة، إلى أن التقطت نيفيا أنفاسها ودفعت من جديد، فخرج الطفل. أحسستُ أنه سيُغمى علي من الرعب والقرف، فتراجعت متعثرة عبر الممر الطويل والمشؤوم.

بعد ساعة من ذلك، وبينما الخادمات يلتقطن الخرق المتسخة والأشياء الأخرى التي استُخدمت في الولادة لإحراقها - فهذا يحول دون حدوث حالات نزيف على حد اعتقادهم - وبينما **الميكا** تلف المشيمة وحبل السرّة لتدفنهما تحت شجرة تين، كما هي العادة في تلك الأنحاء، كان بقية أفراد الأسرة قد اجتمعوا في الصالة حول الأب تيودورو ريسكو ليحمدوا الله على ميلاد توأم، ابنين ذكرين سيحملان بشرف اسم دل بايي، مثلما قال الكاهن. وكانت اثنتان من العمات تحملان بين أذرعهما الوليدين المدثرين جيداً ببطانيتين صوفيتين، وطاقيتين مطرزتين على رأسيهما، بينما أفراد الأسرة يتقدمون واحداً بعد الآخر ليقبلوا كلاً منهما من جبهته قائلين «فليحمه الله» ليحولوا بذلك دون إصابتهما بالعين. لم

Twitter: @ketab_n

أستطع أن أرحب بابني عمي الجديدين مثل الآخرين، لأنهما بديا لي دودتين قبيحتين، ولأن رؤية بطن نيفيا المزرق وهو يلفظهما ككتلة دامية ستبقى في ذاكرتي إلى الأبد.

في الأسبوع الثاني من شهر آب جاء فريدريك ويليامز بحثاً عنا، وكان شديد التأنق كعادته، وهادئاً جداً كما لو أن خطر الوقوع في يد الشرطة السياسية لم يكن سوى هلوسة جماعية. استقبلت جدتي زوجها كعروس، بعينين متألقتي البريق وخدين أحمرين من التأثر، مدت له يديها فقبلهما بما هو أكثر من الاحترام؛ وقد تنبهت للمرة الأولى إلى أن هذا الثنائي يرتبط برابطة أقرب ما تكون إلى المحبة. كان عمرها في ذلك الحين نحو خمس وستين سنة، وهي سن تهرم فيها النساء الأخريات مهزومات بطقوس الحداد المفروضة وخيبات أمل الحياة، ولكن باولينا دل بايي كانت تبدو وكأنها لا تُهزم. لقد كانت تصبغ شعرها، وهو تغنج لا تسمح به لنفسها أي سيدة أخرى من وسطها، وتزيد تسريحتها بشعر مستعار؛ وتلبس بالبهرجة المعهودة نفسها، على الرغم من سمنتها، وتتمكيج بكل دقة بحيث لا يخامر الشك أحداً في حمرة خديها أو سواد رموشها. كان فريدريك أصغر سناً منها بصورة ملحوظة، ويبدو أن النساء كن يجدنه جذاباً جداً، لأنهن يحركن مراوحهن ويُوقعن مناديلهن بحضوره دوماً. ولكنه لم يكن يُثيب تلك المجاملات قط، بل يبدو متفرغاً لزوجته. لقد تساءلتُ مرات كثيرة عما إذا كانت علاقة فريدريك ويليامز وباولينا دل بايي هي مجرد ترتيب مصلحي، أو إذا ما كانت أفلاطونية حقاً مثلما يفترض الجميع، أو إذا ما كان بينهما شيء من الانجذاب. هل توصلا إلى تبادل الحب؟ لا يمكن لأحد معرفة ذلك لأن فريدريك لم يشر إلى الموضوع قط، وجدتي التي كانت قادرة في النهاية على إخباري بأشد الأمور خصوصية، حملت معها الجواب على هذا التساؤل إلى العالم الآخر.

علمنا من العم فريدريك أنه تمكن، بتدخل من الرئيس شخصياً، من

Twitter: @ketab_n

إطلاق سراح دون بيدرو تيي قبل أن يتمكن غودوي من انتزاع أي اعتراف منه، ولهذا يمكننا العودة إلى البيت في سنتياغو، لأن اسم أسرتنا لم يذكر قط في قوائم الشرطة. بعد تسع سنوات من ذلك، عندما ماتت جدتي وعدتُ لرؤية الآنسة ماتيلدي بينيدا ودون بيدرو تيي، عرفت تفاصيل ما حدث، وما أراد فريدريك ويليامز الطيب إخفاءه عنا. فبعد مداهمة المكتبة، وضرب العاملين وتكديس مئات الكتب وإضرام النار فيها، اقتادوا المكتبي الكتلاني إلى مراكز الاعتقال المشؤومة، حيث أخضعوه للتعذيب المعهود. ومع انتهاء العقاب كان تيي قد فقد الوعي دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وعندئذ أفرغوا عليه سطل ماء وبراز، وقيدوه إلى كرسي أمضى عليه بقية الليل. وفي اليوم التالي، بينما كانوا يقتادونه من جديد إلى جلاديه، وصل الوزير المفوض الأمريكي باتريك إيفون مع أحد مرافقي رئيس الجمهورية للمطالبة بإطلاق سراح السجين. وقد سمحوا له بالذهاب بعد أن حذروه من أنه إذا قال كلمة واحدة عما جرى له فسوف يواجه فصيلة الإعدام. اقتادوه وهو يقطر دماً وبرازاً إلى سيارة الوزير، حيث كان ينتظره فريدريك ويليامز وطبيب، أخذاه من هناك إلى مفوضية الولايات المتحدة كلاجئ. وبعد شهر من ذلك سقطت الحكومة فخرج دون بيدرو تيي من المفوضية ليترك المكان لأسرة الرئيس المخلوع، التي وجدت لها ملجأ تحت الراية نفسها. بقي المكتبي عليلاً عدة شهور إلى أن شفيت جراح السياط، واستعادت عظام الكتفين حركتها وتمكن من العودة إلى متجر كتبه. لم ترعبه الفظائع التي لقيها، ولم تخطر له فكرة الرجوع إلى كتالونيا، وبقي في المعارضة على الدوام، أياً كانت الحكومة القائمة. وعندما شكرتُه بعد سنوات طويلة على تحمله العذاب الرهيب ليحمي أسرتي، قال لي إنه لم يفعل ذلك من أجلنا، وإنما من أجل الآنسة ماتيلدي بينيدا.

أرادت جدتي باولينا البقاء في الريف إلى أن تنتهي الثورة، ولكن فريدريك ويليامز أقنعها بأن النزاع قد يستمر لسنوات، وعلينا ألا نتخلى عن المكانة التي لنا في سنتياغو؛ والحقيقة أن البقاء مع الفلاحين البائسين، والقيلولات الأبدية، والاسطبلات المملوءة بالروث والذباب، بدت

Twitter: @ketab_n

له أسوأ بكثير من السجن، وقال:

- الحرب الأهلية استمرت أربع سنوات في الولايات المتحدة، ويمكن لها أن تستمر لمثل هذا الوقت هنا.

فردت جدتي:

- أربع سنوات؟ لن يبقى حتى ذلك الحين تشيلي واحد حياً. فابن أخي سيفيرو يقول إنه قد مات خلال شهور قليلة عشرة آلاف شخص في المعارك وأكثر من ألف شخص تم اغتيالهم من الظهر.

أرادت نيفيا الرجوع معنا إلى سنتياغو، بالرغم من أن إرهاق الولادة المزدوجة ما يزال يثقل كاهلها، وقد ألحت على الرجوع كثيراً مما جعل جدتي توافق في النهاية. ومع أن جدتي لم تكن تكلم نيفيا في بداية الأمر بسبب قضية المطبعة، إلا أنها سامحتها تماماً حين رأت التوأمين. وسرعان ما وجدنا أنفسنا جميعنا في الطريق إلى العاصمة ومعنا الأمتعة نفسها التي كنا قد نقلناها قبل بضعة أسابيع، إضافة إلى وليدين جديدين، ومن دون الطيور التي ماتت مختنقة من الرعب في الطريق. حملنا معنا العديد من سلال الأطعمة، وجرة مشروب كريه الطعم يتوجب على نيفيا أن تتناول منه كيلا تصاب بفقر الدم، هو خليط مقزز من النبيذ المعتق ودم العجل الطازج. كانت نيفيا قد أمضت عدة شهور دون أن تعرف شيئاً عن زوجها، وقد بدأت عزيمتها تخور، مثلما اعترفت لنا في إحدى لحظات ضعفها. لم يخامرها الشك قط في أن سيفيرو دل بايي سيعود إليها من الحرب سليماً معافى، إذ كانت تتمتع بنوع من البصيرة في رؤية قدرها. فمثلما كانت تعرف دوماً أنه سيكون زوجها، حتى عندما أخبرها بأنه قد تزوج من أخرى في سان فرانسيسكو، كانت تعرف كذلك أنهما سيموتان معاً في حادث. وقد سمعتها تقول ذلك مرات ومرات، حتى أن تلك الجملة قد تحولت إلى طرفة في الأسرة. لقد كانت تخشى البقاء في الريف لأنه سيكون من الصعب على زوجها التواصل معها، لأن البريد كان يضيع بكثرة في فوضى الحرب، وخصوصاً في المناطق الريفية.

Twitter: @ketab_n

منذ بدء غرامياتها مع سفيرو، حين اتضحت خصوبتها الجامحة، أدركت نيفيا بأنها إذا ما التزمت بأعراف الاحتشام والوقار السائدة واعتكفت في بيتها خلال كل حمل وولادة، فإنها ستقضي ما تبقى من حياتها محبوسة، فقررت ألا تجعل من الأمومة سراً، ومثلما كانت تختال ببطنها المنتفخ مثل فلاحة مستهترة، أمام ذعر المجتمع «الراقي»، كانت تلد دون تصنع، وتكتفي بالاعتزال ثلاثة أيام -بدلا من الأربعين يوماً التي يطالب بها الطبيب - ثم تخرج إلى أي مكان، بما في ذلك اجتماعات الداعيات إلى حق التصويت، مع معيتها من الأبناء والمربيات. وهؤلاء الأخيرات كن مراهقات يؤتى بهن من الريف ويتفرغن للخدمة طوال ما تبقى من حياتهن، اللهم إلا إذا حبلن أو تزوجن، وهو أمر ضئيل الاحتمال. فهؤلاء الفتيات المتفانيات يكبرن ويجف عودهن ويمتن في البيت، ينمن في حجرات قذرة وبلا نوافذ، ويأكلن فضلات المائدة الرئيسية؛ ويتعلقن حتى العبادة بالأطفال الذين يتولين تربيتهم، وخصوصاً الذكور منهم، وعندما تتزوج بنات الأسرة يأخذنهن معهن كجزء من جهازهن، لمواصلة خدمة الجيل الثاني. في ذلك الزمن الذي كان فيه كل ما يتعلق بالأمومة يبقى في الخفاء، علمني العيش مع نيفيا وأنا في الحادية عشرة من عمري أموراً تجهلها أي فتاة كبيرة من وسطي. فعندما كانت الحيوانات تتسافد أو تولد، في الريف، كانوا يدخلوننا نحن البنات إلىالبيت ويغلقون النوافذ، منطلقين من قاعدة أن تلك المشاهد ستؤذي أرواحنا الحساسة وتغرس أفكاراً خبيثة في رؤوسنا. وقد كانوا على حق، لأن المشهد الشبقي لامتطاء حصان لفرس، الذي رأيته بالصدفة في عزبة أعمامي، ما زال يغلي في دمي. واليوم، في أوج عام 1910، وبعد أن تلاشت العشرون سنة التي تشكل فارق السن بيني وبين نيفيا، وصارت صديقتي أكثر مما هي عمتي، عرفتُ أن ولاداتها السنوية لم تكن عقبة جدية أمامها على الإطلاق؛ فسواء أكانت حبلى أم لا، كانت تقوم بشقلبات غير محتشمة مع زوجها. وفي إحدى محادثاتنا الحميمة تلك سألتُها لماذا أنجبت كل هذا العدد من الأبناء - خمسة عشر ابناً، بقي منهم أحد عشر على قيد الحياة - فردت علي بأنها لم تستطع تجنب ذلك، لأن أياً من

Twitter: @ketab_n

وسائل القابلات الفرنسيات المجرية لم تنفع معها. وقد أنقذتها بنيتها الجسدية المتينة من الاستنزاف، مثلما أنقذتها خفة قلبها من التورط في شباك المشاعر العاطفية. فهي تربي أبناءها بالطريقة نفسها التي تُسيّر بها الشؤون المنزلية: بالإنابة. فما إن تنتهي من عملية الولادة حتى تشدّ حزاماً على ثدييها وتسلم الوليد إلى مرضعة؛ وقد كان في بيتها من المربيات بقدر ما فيه من أطفال تقريباً. فسهولة ولادات نيفيا، وصحتها الجيدة، وتخلصها من أبنائها هي التي أنقذت علاقتها الحميمة بسيفيرو، ومن السهل لمس مشاعر الحب العميقة التي تربط بينهما. وقد أخبرتني بأن الكتب المحظورة التي درستها بدقة في مكتبة خالها، قد علمتها الاحتمالات الخيالية لممارسة الحب، بما في ذلك الأوضاع الهادئة المفيدة للمحبين ذوي القدرات البهلوانية المحدودة، مثلما هي حالتهما: هو بسبب ساقه المبتورة وهي بسبب ضخامة بطنها في أوقات الحمل. لست أدري ما الحركات والتلويات المناسبة لهما، ولكن يخيل إلي أن ألذ لحظاتهما ما زالت هي تلك التي يتداعبان فيها في الظلام، دون أن يصدرا أدنى ضجة، كما لو أن هناك في الغرفة معهما راهبة تتردد ما بين إغفاءة الشكولاتة مع المنوم والرغبة في الخطيئة.

كانت أخبار الثورة تخضع لرقابة صارمة من جانب الحكومة، ولكن كل شيء كان يُعرف حتى قبل حدوثه. وقد عرفنا بأمر المؤامرة لأن أحد أبناء العمومة الكبار أعلنها، فقد جاء متخفياً إلى البيت يرافقه أحد فلاحي العزبة، كخادم وحارس شخصي. وبعد تناول العشاء اختلى بفريدريك ويليامز وجدتي لوقت طويل في المكتب، بينما كنتُ أتظاهر بالقراءة في أحد الأركان، ولكنني لم أضيع كلمة مما قالوه. كان ابن عمي ذاك فتى أشقر، مربوعاً، له شعر أجعد وعينا امرأة، وكان مندفعاً ولطيفاً؛ وقد تربى في الريف وله معصمان قويان لترويض الخيول، وهذا هو الشيء الوحيد الذي أتذكره منه. أوضحَ أن بعض الشبان، وهو واحد منهم، ينوون نسف بعض الجسور لإزعاج الحكومة.

Twitter: @ketab_n

فسألته جدتي ساخرة:

- ومن الذي خطرت له هذه الفكرة الباهرة؟ هل لديكم قائد؟

- ليس هناك قائد حتى الآن، ولكننا سنختاره عندما نجتمع.

- وكم عددكم يا بني؟

- حوالي مئة، ولكنني لا أعرف كم عدد الذين سيحضرون. لم نخبر الجميع عن سبب استدعائهم، سنطلعهم على ذلك فيما بعد، لأسباب أمنية، هل تفهمينني يا عمتي؟

- أفهمك. وهل جميعهم أبناء سادة مثلك؟ - أرادت جدتي أن تعرف وقد بدأ قلقها يزداد.

- هناك حرفيون، وعمال، وأناس من الريف وبعض أصدقائي كذلك.

وسأله فريدريك ويليامز:

- وما هي الأسلحة التي بحوزتكم؟

- سيوف، سكاكين، وأظن أنه ستكون هناك بعض البنادق. ويجب علينا أن نحصل على البارود بالطبع.

فانفجرت جدتي:

- هذا الأمر يبدو لي حماقة كبيرة.

حاولا أن يثنياه عن ذلك واستمع إليهما كمن يتصنع الصبر، ولكن بدا واضحاً أنه كان قد اتخذ قراره، ولم يكن الوقت مناسباً لتغيير رأيه. وعندما خرج من البيت كان يحمل في جراب بعض الأسلحة النارية من مجموعة فريدريك ويليامز. بعد يومين من ذلك عرفنا بما حدث في مزرعة المتآمرين على بعد عدة كيلومترات من سنتياغو. تواصل مجيء المتمردين طوال النهار إلى بيت رعاة بقر، حيث ظنوا أنهم سيكونون في مأمن، وأمضوا ساعات وهم يتناقشون، ونظراً إلى قلة ما بحوزتهم من الأسلحة، ولأن خطتهم كانت تتفلت كالماء من كل جهة، فقد قرروا تأجيل

Twitter: @ketab_n

العملية إلى موعد آخر، وقضاء الليل هناك في رفقة مرحة والتفرق في اليوم التالي. لم يخطر لهم بأن هناك من وشى بهم. وفي الساعة الرابعة فجراً انقض عليهم تسعون خيالاً وأربعون من مشاة القوات الحكومية في مناورة سريعة ومحكمة، لم يستطع معها المحَاصَرون من الدفاع عن أنفسهم، واستسلموا موقنين بأنهم في أمان، ذلك أنهم لم يقترفوا أي جريمة بعد، اللهم إلا الاجتماع دون تصريح. أما العقيد الذي كان يقود قوة المداهمة، ففقد عقله في خضم المناوشة، فسحب أول أسير في المقدمة وقد أعماه الغضب ومزقه بالرصاص والحربة، ثم اختار بعد ذلك ثمانية آخرين وأعدمهم بإطلاق النار على ظهورهم، وهكذا واصلوا الضرب والقتل إلى أن صار هناك مع طلوع النهار ستة عشر جسداً ممزقاً. فتح العقيد قبو تخزين النبيذ في العزبة، ثم سلم نساء الفلاحين لقوته المخمورة والمتمادية لمعرفتها بأنها لن تتعرض للعقاب. أحرقوا البيت وعذبوا وكيل المزرعة بوحشية مما أضطرهم في النهاية إلى إعدامه وهو جالس. وفي أثناء ذلك كانت الأوامر تذهب وتجيء من سنتياغو، ولكن الانتظار لم يخفف من حماس الجنود، وإنما ضاعف حمى العنف لديهم. وفي اليوم التالي، بعد ساعات جهنمية طويلة، وصلت التعليمات مكتوبة بخط أحد الجنرالات: «فليتم إعدام الجميع فوراً.» وهذا ما فعلوه. ثم نقلوا الجثث بعد ذلك في خمس عربات لدفنها في قبر جماعي، ولكن الضجة الكبيرة التي ثارت دفعتهم إلى تسليم الجثث لذويها.

أحضروا جثمان ابن عمي في ساعة الغسق، وكانت جدتي قد طالبت به مستغلة مكانتها الاجتماعية ونفوذها؛ جاء الجسد ملفوفاً ببطانية دامية، وأدخلوه بتكتم إلى إحدى الغرف لتهيئته قليلاً قبل أن تراه أمه وأخواته. وبينما أنا أتجسس من السلّم، رأيت مجيء سيد يرتدي سترة سوداء طويلة ويحمل حقيبة، دخل وحيداً إلى حيث الجثة، بينما الخادمات يعلقن قائلات إنه معلم تحنيط، يمكنه إخفاء آثار الرصاص باستخدام المكياج والحشوات وإبرة مُنجد. كان فريدريك ويليامز وجدتي قد حولا الصالون المذهب إلى قاعة لتسجية الميت وأقاما فيها مذبحاً مرتجلاً وأوقدا شموعاً صفراء في شمعدانات عالية. عندما بدأت تصل

Twitter: @ketab_n

في الصباح العريات وفيها أفراد الأسرة والأصدقاء، كان البيت قد امتلأ بالزهور، وكان جثمان ابن عمي نظيفاً وجيد اللباس ودون آثار التعذيب، مسجى في تابوت مهيب من خشب الماهاغوني وتبشيمات فضية. كانت النساء بملابس الحِداد الصارمة يجلسن على صفين من الكراسي وهن يبكين ويصلين، بينما الرجال يخططون للانتقام في الصالون المذهب، والخادمات يقدمن سندويتشات صغيرة كما لو أننا في نزهة، أما نحن الأطفال، فكنا نرتدي السواد كذلك، ونلعب ونحن نغص بالضحك لعبة إعدام بعضنا للبعض رمياً بالرصاص. جرى السهر على جثمان ابن عمي وعدد من رفاقه طوال ثلاثة أيام في بيوتهم، بينما كانت أجراس الكنائس تُقرع دون توقف حزناً على الشبان المقتولين. ولم تتجرأ السلطات على التدخل. وعلى الرغم من الرقابة الصارمة، لم يبق هناك أحد في البلاد إلا وعرف بما جرى، فقد طار الخبر كالبارود وهز الرعب أنصار الحكومة والثوار على السواء. لم يشأ الرئيس سماع أية تفاصيل ونأى بنفسه عن أي مسؤولية، مثلما فعل تجاه كل الممارسات المشينة التي اقترفها عسكريون آخرون وغودوي الرهيب.

- لقد قتلوهم دون أن يشكلوا خطراً، بحقد، ووحشية. لا يمكن انتظار شيء آخر، فنحن بلد دموي - أشارت نيفيا، وهي أشد غضباً بكثير مما هي حزينة، وبادرت إلى التوضيح بأننا عرفنا خمس حروب خلال ما مضى من القرن؛ وأننا نحن التشيليين نبدو مسالمين، لنا سمعة الهيابين، بل إننا نتكلم بالتدليل والتصغير (*من فضلك أعطني كؤيس مي*)، ولكننا نتحول إلى آكلة لحم بشري عندما تلوح أول فرصة. وقالت إنه علينا أن نعرف من أين ننحدر لكي نفهم جنوننا الوحشي، فأسلافنا هم أشد الفاتحين الاسبان تمرساً وقسوة، والوحيدون الذين تجرؤوا على الوصول مشياً إلى تشيلي، بدروعهم الملتهبة من شمس الصحراء، متغلبين على أسوأ العقبات الطبيعية. واختلطوا مع الهنود الأروكانيين الذين لا يقلون عنهم بسالة، الشعب الوحيد في القارة الذي لم يخضع للعبودية قط. وكان الهنود يأكلون أسراهم، وكان زعماؤهم، **التوكي**، يستخدمون أقنعة احتفالية مصنوعة من جلود مضطهِديهم الجافة، مفضلين جلود

Twitter: @ketab_n

أولئك الذين لهم لحى وشوارب، لأنهم كانوا مرد الوجوه، منتقمين بذلك من البيض، الذين كانوا بدورهم يحرقونهم أحياء، ويضعونهم على الخوازيق، ويقطعون أذرعهم ويسملون عيونهم. «كفى! إنني أمنعك من قول هذه الفظاعات أمام حفيدتي»، هكذا قاطعتها جدتي.

مجزرة الشبان المتآمرين كانت الصاعق الذي فجر المعارك الأخيرة في الحرب الأهلية. ففي الأيام التالية أنزل الثوريون جيشاً من تسعة آلاف رجل تدعمهم المدفعية البحرية، وتقدموا نحو ميناء بالبارايسو بأقصى سرعة وبفوضى ظاهرية، مثل جيش من قبائل الهون، ولكن كانت هناك خطة واضحة جداً في تلك الفوضى، لأنهم سحقوا أعداءهم خلال ساعات قليلة. فقدت قوات الحكومة الاحتياطية ثلاثة من كل عشرة رجال، واحتل الجيش الثوري بالبارايسو وسارع من هناك للزحف على سنتياغو والسيطرة على بقية البلاد. وفي أثناء ذلك كان الرئيس يدير الحرب من مكتب البرق والهاتف التابع له، ولكن التقارير التي تصله كانت مزيفة، وكانت أوامره تضيع في سديم الموجات اللاسلكية، ذلك أن معظم عاملي التلغراف هم من أنصار الجانب الثوري. سمع الرئيس خبر الهزيمة أثناء العشاء. فأكمل تناول الطعام دون تأثر، ثم أمر أسرته باللجوء إلى المفوضية الأمريكية، وتناول لفاعه، ومعطفه وقبعته ومضى مشياً على الأقدام برفقة صديق له نحو المفوضية الأرجنتينية، وهي على بعد كوادرات قليلة من القصر الرئاسي. هناك كان يلتجئ أحد السيناتورات المعارضين لحكمه، وكانا على وشك التقابل عند الباب، أحدهما يدخل مهزوماً والآخر يخرج منتصراً. فقد تحول المُطَارِد إلى مُطَارَد.

دخل الثوريون إلى العاصمة وسط هتافات الجمهور نفسه الذي كان يصفق قبل شهور للقوات الحكومية؛ فخلال ساعات قليلة خرج سكان سنتياغو إلى الشوارع وهم يربطون أشرطة حمراء على أذرعهم، معظمهم ليشاركوا في الاحتفال وآخرون ليختبئوا خائفين الأسوأ من الجنود

Twitter: @ketab_n

والجمهور المستكبر. أصدرت السلطات الجديدة نداء للتعاون في فرض النظام والسلام، وفسرته جموع الرعاع على هواها. تشكلت عصابات يرأس كل واحدة منها زعيم، تجوب المدينة ولديها قوائم بالبيوت التي ستُنهب، كل بيت محدد على خريطة وبعنوان دقيق. وقد قيل فيما بعد بأن القوائم أعدت بخبث ورغبة في الانتقام من قبل سيدات ينتمين إلى المجتمع الراقي. قد يكون ذلك ممكناً، ولكنني أؤكد أنه لا يمكن لباولينا دل بايي ونيفيا أن تقدما على مثل تلك الخِسة، على الرغم من كراهيتهما للحكومة المهزومة؛ بل قامتا، على العكس من ذلك، بإيواء أسرتين مطاردتين ريثما يهدأ الغضب الشعبي ويعود الهدوء الممل الذي كان سائداً قبل الثورة، والذي صرنا جميعنا نتلهف إليه. كان نهب مدينة سنتياغو منهجياً، بل ومسلياً، إذا ما نظرنا إليه من بعيد بالطبع. ففي مقدمة «اللجنة»، وهي التسمية الملطفة للعصابات، يمضي زعيمها وهو يقرع جرساً صغيراً ويصدر التعليمات: «هنا يمكنكم أن تسرقوا، ولكن لا تكسروا شيئاً يا صغاري»، «وهنا، أخرجوا لي الوثائق وبعد ذلك احرقوا البيت»، «هنا يمكنكم أن تأخذوا ما تشاؤون وأن تحطموا كل شيء وحسب». وتنفذ «اللجنة» بكل احترام تلك التعليمات، فإذا كان أصحاب البيت موجودين، يحيونهم باحترام ولباقة ثم يبدؤون النهب بمرح سعيد، مثل صبية في احتفال. يفتحون مناضد المكاتب ويُخرجون الأوراق والوثائق الخاصة ويسلمونها للزعيم، ثم يحطمون الأثاث بالفؤوس، ويأخذون ما يروقهم، وأخيراً يرشون الجدران بالبارافين ويشعلون فيها النار. ومن الغرفة التي يشغلها في المفوضية الأرجنتينية، كان الرئيس المعزول بالماسيدا يسمع صخب فوضى الشوارع، وبعد أن حرر وصيته السياسية، وخوفاً من أن تدفع أسرته ثمن الأحقاد السياسية، أطلق رصاصة على صدغه. الموظفة التي حملت إليه العشاء ليلاً كانت آخر من رآه حياً؛ وفي الساعة الثامنة صباحاً وجدوه على السرير بكامل ملابسه المتقنة، ورأسه على الوسادة المبللة بالدم. لقد حولته تلك الرصاصة فوراً إلى شهيد، وسيتحول في السنوات التالية إلى رمز للحرية والديمقراطية، يحظى باحترام حتى ألد أعدائه. فتشيلي، مثلما قالت جدتي، بلاد

Twitter: @ketab_n

ضعيفة الذاكرة. لقد قُتل من التشيليين خلال الشهور القليلة التي دامتها الثورة أكثر مما قتل خلال سنوات حرب الباسفيك الأربع.

في خضم تلك الفوضى حضر إلى البيت سيفيرو دل بايي، ملتحياً وملطخاً بالوحل، باحثاً عن زوجته التي لم يرها منذ شهر كانون الثاني. وقد فوجئ مفاجأة عظيمة عندما وجدها مع ابنين جديدين، لأنها نسيت في اضطرابات الثورة أن تخبره بأنها حبلى عندما ذهب. كان التوأمان قد بدأا بالانتفاش، واكتسبا خلال أسبوعين مظهراً بشرياً إلى هذا الحد أو ذاك، فلم يعودا الحشرتين المجعدتين والزرقاوين اللتين كاناها حين ولدا. قفزت نيفيا إلى عنق زوجها، وكان من نصيبي أن أشهد عندئذ، لأول مرة في حياتي، قبلة طويلة على الفم. أرادت جدتي المبهورة أن تشغلني، ولكنها لم تتمكن من ذلك، وما زلت أتذكر تأثير تلك القبلة الرهيب عليّ. فقد شكلت تلك القبلة إشارة بدء تحولات انقلاب المراهقة. وصرت خلال شهور قليلة غريبة عن نفسي، ولم أعد قادرة على التعرف على الفتاة المستغرقة في الشرود التي رحت أتحول إليها، ووجدت نفسي حبيسة جسد متمرد ومتماد، يكبر ويترسخ، يتألم وينبض. وصار يبدو لي أنني مجرد امتداد لبطني، هذه الفجوة التي كنت أتخيلها فراغاً أجوف ودامياً، تختمر فيه خلائط سائلة وتنمو نباتات غريبة ورهيبة. ولم أعد قادرة على نسيان مشهد نيفيا الهذياني وهي تلد مقرفصة على ضوء الشموع، ومشهد بطنها الضخم المتوج بسرة متفتحة، وذراعيها النحيلتين المتشبثتين بالحبال المتدلية من السقف. صرت أبكي فجأة دون أي سبب ظاهر، أو أعاني من نوبات غضب جامحة، أو أستيقظ متعبة غير قادرة على النهوض. وعادت أحلام الأطفال ذوي البيجامات السوداء بمزيد من الزخم والتواتر؛ وصرت أحلم كذلك برجل رقيق له رائحة البحر يحيطني بذراعيه، وأستيقظ متشبثة بالوسادة راغبة بيأس في أن يُقبّلني أحد مثلما قبَّل سيفيرو دل بايي زوجته. كنت أطير من الحر في الخارج بينما أنا مثلجة من الداخل، ولم أعد أجد السلام للقراءة أو الدراسة، فأنطلق جرياً في الحديقة وأدور راكضة مثل ممسوسة لكي أمنع نفسي من الصراخ، وأنزل بملابسي إلى البركة فأدوس أزهار النيلوفر وأُخيف

Twitter: @ketab_n

الأسماك الحمراء التي تعتز بها جدتي. وسرعان ما اكتشفتُ أكثر أجزاء جسدي حساسية، وصرت أداعب نفسي خفية، دون أن أفهم كيف يهدئني ذلك العمل الذي يجب أن يكون خطيئة. واستنتجت بفزع أنني أتحول إلى الجنون، مثل الكثير من الفتيات اللواتي ينتهين إلى الهستيريا، ولكنني لم أجرؤ على التحدث عن ذلك إلى جدتي. كانت باولينا دل بايي تتبدل أيضاً، فبينما جسدي يتفتح كان جسدها يجف مثقلاً بعلل غامضة لا تناقشها مع أحد، ولا حتى مع الطبيب، وفيّة لنظريتها القائلة بأنه يكفي أن تمشي مستوية القامة وألا تُخرج أصوات امرأة مسنة، لتوقف الشيخوخة عند حدها. كانت السمنة تثقل عليها، فهناك دوالٍ في ساقيها، وعظامها تؤلمها، وتشعر أنها بحاجة إلى الهواء، وتتبول في قطرات، وهي أشياء أدركتُها من إشارات صغيرة، أما هي فكانت تحافظ عليها في سرية متكتمة. لقد ساعدتني الآنسة ماتيلدي بينيدا كثيراً في مرحلة المراهقة الحرجة، ولكنها اختفت تماماً من حياتي بعد أن طردتها جدتي. وذهبت نيفيا أيضاً مع زوجها وأبنائها والمربيات، غير مبالية وسعيدة مثلما كانت عند مجيئها، تاركة فراغاً رهيباً في البيت. لقد أصبح هناك فائض من الغرف ونقص من الضجيج؛ وتحول بيت جدتي الكبير من دونها ومن دون أطفالها إلى ضريح.

احتفلت سنتياغو باسقاط الحكومة بسلسلة لامتناهية من العروض العسكرية، والاحتفالات، والرقص، والمآدب؛ ولم تتخلف جدتي في هذا الميدان، فأعادت فتح البيت وحاولت تجديد حياتها الاجتماعية ومسامراتها الثقافية، ولكن كان هناك جو خانق لم يتمكن شهر أيلول، بربيعه الرائع، من تبديله. فآلاف الموتى، والخيانات، وأعمال السلب، كانت تُثقل على أرواح المنتصرين والمهزومين على السواء. لقد كنا نشعر بالعار: فقد كانت الحرب الأهلية حفلة عربدة مضمخة بالدم.

كانت تلك حقبة غريبة من حياتي، فقد تبدل جسدي، وتوسعت روحي، وبدأت أتساءل بجدية عمن أكون ومن أين أنحدر. وكان الصاعق

Twitter: @ketab_n

هو مجيء ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث، أبي، مع أنني لم أكن أعرف بعد أنه كذلك. لقد استقبلته على أنه العم ماتياس الذي تعرفتُ عليه قبل عدة سنوات في أوروبا. وكان قد بدا لي آنذاك معلولاً، ولكنني حين رأيته مجدداً لم أستطع التعرف عليه، فهو يكاد لا يكون أكثر من طائر سيئ التغذية على كرسي المقعدين الذي يستخدمه. وقد جاءت به امرأة جميلة متقدمة في السن، مرفهة، ذات بشرة حليبية، ترتدي فستاناً بسيطاً من بوبلين بلون الخردل وشالاً حائل اللون على كتفيها، وأبرز ملامحها شعرها الجموح المجعد، المتشابك والرمادي، والمثبت على الرقبة بشريطة رفيعة. كانت تبدو أشبه بملكة اسكندينافية قديمة في المنفى، وليس هناك أي مشقة في تخيلها تقف في مقدمة مركب فايكنغ يبحر بين جبال جليدية.

لقد تلقت باولينا دل بايي برقية تخبرها بأن ابنها الأكبر سيصل إلى ميناء بالبارايسو، فبدأت تستعد على الفور للانتقال إلى الميناء معي ومع العم فريدريك وبقية موكبها المعهود. ذهبنا لاستقباله في عربة قطار خاصة وضعها تحت تصرفنا المدير الإنكليزي لشركة السكك الحديدية. وكانت العربة مبطنة بخشب لامع وتبشيمات برونزية مصقولة ومقاعد مخملية بلون دم الثور، يقوم على الخدمة فيها عاملان يرتديان زياً رسمياً قاما بخدمتنا كما لو كنا أسرة ملكية. وقد أقمنا في فندق قبالة البحر بانتظار السفينة التي ستصل في اليوم التالي. ذهبنا إلى المرفأ بكامل أناقتنا وكأننا ذاهبون لحضور حفلة زفاف؛ وأنا واثقة إلى هذا الحد مما أقوله لأن لدي صورة ملتقطة في الساحة قبل رسو السفينة بقليل. باولينا دل بايي ترتدي ثوباً من الحرير الفاتح له كشاكش كثيرة وثنيات، وأطواق من اللؤلؤ، وتضع قبعة ضخمة ذات حواف عريضة تتوجها حزمة من الريش تسقط في شلال نحو جبهتها، وتحمل مظلة مفتوحة لتحتمي من الضوء. ويتألق زوجها فريدريك ويليامز ببدلة سوداء، وقبعة عالية وعكاز فاخر؛ أما أنا فأرتدي كل شيء أبيض مع شريطة من حرير على رأسي، وكأنني علبة هدية عيد ميلاد. وضعوا سلّم السفينة ودعانا القبطان بنفسه للصعود إلى سطح المركب، ورافقنا بحفاوة بالغة نحو قمرة دون

Twitter: @ketab_n

ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث.

وكان آخر ما تنتظره جدتي هو اللقاء وجهاً لوجه مع آماندا لويل. مفاجأة رؤيتها أوشكت أن تقتلها غماً؛ فحضور ضرتها القديمة أثر فيها أكثر من مظهر ابنها الذي في حالة يرثى لها. لم يكن لدي بالطبع في ذلك الحين معلومات كافية لأفهم ردّ فعل جدتي، وظننت أنها أصيبت بإغماءة من الحر. أما بارد الطباع فريدريك ويليامز، فلم تتحرك فيه بالمقابل شعرة واحدة حين رأى لويل، بل حياها بإيماءة خفيفة، إنما لطيفة، ثم انهمك في إراحة جدتي على كرسي وتقديم الماء لها، بينما ماتياس يراقب المشهد بشعور أقرب إلى المتعة.

- ما الذي تفعله هذه المرأة هنا؟ - تعلثمت جدتي بذلك عندما تمكنت من التنفس.

فقالت ملكة الفايكنغ تلك وهي تخرج بكرامة تامة:

- أعتقد أنكم ترغبون في التحدث ضمن الأسرة، سأخرج لاستنشاق الهواء.

وقال ماتياس بإسبانية مرتبكة وبلكنه فرنسية - سكسونية غريبة:

- الآنسة لويل هي صديقتي، ولنقل إنها صديقتي الوحيدة يا أماه. لقد رافقتني إلى هنا، ومن دونها ما كان بإمكاني أن أسافر. هي التي أصرت على عودتي إلى تشيلي، مقدرة بأنه من الأفضل لي أن أموت قرب الأسرة بدل أن أموت وأنا ملقى في مستشفى في باريس.

عندئذ نظرت إليه باولينا دل بايي للمرة الأولى وانتبهت إلى أن ابنها لم يعد سوى هيكل عظمي يغطيه جلد أفعى، وأن عينيه المائلتين إلى الخضرة غائرتان في محجريهما، وخديه نحيلان إلى حد تظهر معه أضراسه تحت الجلد. كان مستلقياً على أريكة، يستند إلى وسائد، وساقاه يغطيهما شال. كان يبدو عجوزاً حائراً وحزيناً، بالرغم من أنه لم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره في الواقع.

- رباه، ما الذي أصابك يا ماتياس؟ - سألته جدتي مذعورة.

Twitter: @ketab_n

- شيء لا يمكن علاجه يا أماه. ستدركين بأنه كانت لدي مبررات قوية جداً للعودة إلى هنا.

- هذه المرأة...

- أعرف كل القصة عن آماندا لويل وعلاقتها بأبي؛ لقد حدث ذلك منذ ثلاثين سنة وفي الجانب الآخر من العالم. ألا يمكنك نسيان سخطك؟ جميعنا صرنا في سن تتيح لنا أن نلقي إلى البحر بالمشاعر التي لا نفع فيها ونحتفظ فقط بتلك التي تساعدنا على العيش. والتسامح هو أحد تلك المشاعر يا أماه. إنني أدين بالكثير للآنسة لويل، فهي رفيقتي منذ أكثر من خمس عشرة سنة...

- رفيقتك؟ ما الذي يعنيه هذا؟

- ما تسمعينه: رفيقتي. فهي ليست ممرضتي، ولا زوجتي، ولم تعد كذلك عشيقتي. إنها ترافقني في رحلاتي، في حياتي، وها هي الآن، كما ترين، ترافقني في مماتي.

- لا تتكلم بهذه الطريقة! لن تموت يا بني، سنعتني بك هنا كما يجب وعما قريب ستنهض سليماً معافى... - أكدت باولينا دل بايي ذلك، ولكن صوتها انكسر ولم تستطع مواصلة الكلام.

لقد انقضت ثلاثة عقود على غراميات جدي فيليثيانو دي سانتا كروث مع آماندا لويل، وقد رأتها جدتي مرتين فقط، ومن بعيد، ولكنها تعرفت عليها على الفور. فليس عبثاً أنها نامت كل ليلة في السرير المسرحي الذي أوصت عليه من فلورنسا لكي تتحداها، ولا بد أن ذلك كان يذكّرها في كل لحظة بالغيظ الذي أحست به بسبب عشيقة زوجها الفضائحية. وعندما ظهرت أمام عينيها هذه المرأة الهرمة دون تيه أو بهرجة، والتي لا تشبه في شيء تلك المهرة التي كانت توقف حركة المرور في سان فرانسيسكو حين تمر في الشارع وهي تهز مؤخرتها، لم ترها باولينا مثلما هي في الواقع، وإنما باعتبارها الخصم الذي كانته من قبل. فالحنق من آماندا لويل بقي ساكناً ينتظر ساعة الظهور، ولكنها حيال كلمات ابنها بحثت عنها في أركان روحها ولم تستطع العثور عليها. ولكنها

Twitter: @ketab_n

وجدت بالمقابل غريزة أمومة لم تكن من ملامح شخصيتها المهمة، وهي تداهمها الآن بشفقة مطلقة لا تُحتمل. ولم تكن تلك الشفقة كافية لابنها المحتضر وحسب، وإنما كذلك للمرأة التي رافقته طوال سنوات، وأحبته بإخلاص، واعتنت به في نكبة المرض، وهي تجتاز العالم اليوم لتأتي به في ساعة موته. بقيت باولينا جامدة في مقعدها وعيناها مثبتتان على ابنها المسكين، بينما الدموع تتدحرج بصمت على خديها، وقد تحولت فجأة إلى عجوز متضائلة وهشة. فرحتُ أربت على ظهرها مواسية دون أن أفهم جيداً ما الذي يجري. ولا بد أن فريدريك ويليامز كان يعرف جدتي جيداً، لأنه خرج دون ضجة، وذهب ليبحث عن آماندا لويل واقتادها عائدة إلى الحجرة.

- اعذريني يا آنسة لويل - دمدمت جدتي من كرسيها.

- سامحيني أنت يا سيدتي - ردت الأخرى وهي تدنو بخوف إلى أن أصبحت في مواجهة باولينا دل بايي.

أمسكت كل منهما بيدي الأخرى، أحداهما واقفة والأخرى جالسة، وكلتاهما بعيون مغرورقة بالدموع، لبرهة بدت لي أبدية، إلى أن لاحظتُ فجأة أن كتفي جدتي يهتزان، وانتبهتُ إلى أنها تضحك بصوت خافت. وكانت الأخرى تبتسم كذلك وهي تغطي فمها في أول الأمر، مرتبكة، ولكنها بعد ذلك، حين رأت ضرتها تضحك، أطلقت قهقهة سعيدة اختلطت بقهقهة جدتي، وهكذا كانت الاثنتان خلال لحظات قصيرة تتلويان من الضحك، متبادلتين عدوى سعادة هستيرية لا كابح لها، كانستين بالضحك النظيف سنوات الغيرة غير المجدية، والأحقاد المعتقة، وخيانة الزوج وذكريات بغيضة أخرى.

لقد احتضن البيت في شارع الجيش المحرِّر أناساً كثيرين في سنوات الثورة المضطربة، ولكن لم يكن هناك ما هو أكثر تعقيداً وتشويقاً بالنسبة لي من مجيء أبي لانتظار الموت. كانت الأوضاع السياسية قد هدأت بعد الحرب الأهلية، التي انتهت بتداول حكومات ليبرالية للسلطة

Twitter: @ketab_n

خلال سنوات طويلة. وقد حصل الثوريون على التغييرات التي أريقت من أجلها دماء كثيرة: فقد كانت الحكومة في السابق تفرض مرشحها عن طريق الرشوة والتخويف، بدعم من السلطات المدنية والعسكرية؛ أما الآن، فمن يمارس الرشوة هم الملاكون ورجال الدين والأحزاب على السواء؛ وكان النظام أكثر عدالة، لأن ما يدفعه هذا الجانب يعوض من الجانب الآخر، ولا يدفع ثمن الفساد من الأموال العامة. وقد أطلق على كل ذلك اسم الحرية الانتخابية. وأقام الثوريون كذلك نظاما برلمانيا كما في بريطانيا العظمى، ولكنه لم يستمر طويلا. «إننا إنكليز أميركا»، هذا ما قالته جدتي في أحد الأيام، ولكن نيفيا ردت عليها فورا بأن الإنكليز هم تشيليو أوروبا. وعلى أي حال، ما كان يمكن للتجربة البرلمانية أن تستمر في بلاد يتحكم بها الوجهاء التقليديون؛ فالوزراء يستبدلون بكثرة إلى حد يستحيل معه ملاحقة تواليهم؛ وفي النهاية فقدت حفلة رقص سان فيتو السياسية بريقها في نظر أسرتنا، باستثناء نيفيا التي كانت، في سعيها لاثارة الاهتمام بحق النساء في التصويت، تتسلق سور مجلس الشيوخ مع سيدتين أو ثلاث سيدات لا يقل حماسهن عن حماسها، أمام سخرية المارة وغضب الشرطة وخجل أزواجهن.

وكانت تقول:

- عندما تتمكن النساء من التصويت، فسيفعلن ذلك بالاجماع. وحينئذ ستكون لدينا القوة لترجيح كفة السلطة وتغيير هذه البلاد.

فترد جدتي:

- أنت مخطئة يا نيفيا، سوف يصوتن وفق أوامر أزواجهن أو الخوري، فالنساء أحمق مما تتصورين بكثير. ومن جهة أخرى، هناك بعضنا يحكمن من وراء العرش، وقد رأيت كيف هزمنا الحكومة السابقة. وأنا لا أحتاج إلى حق التصويت لكي أفعل ما أشتهي.

- لأنك تملكين الثروة والتعليم يا عمتي. كم من النساء في مثل وضعك؟ علينا أن نناضل من أجل حق التصويت، هذا هو أول شيء.

- لقد فقدت عقلك يا نيفيا.

Twitter: @ketab_n

- ليس بعد يا عمتي، ليس بعد...

رتبوا أمر إقامة أبي في الطابق الأول، في أحد الصالونات المحولة إلى غرف للنوم، لأنه لا يستطيع صعود الدرج، وخصصوا موظفة ترافقه دائما، مثل ظله، لكي تخدمه ليلا ونهارا. وقد قدم طبيب العائلة تشخيصا شاعريا للحالة «اصطخاب مستأصل في الدم»، وقال ذلك لجدتي لأنه فضل عدم مواجهتها بالحقيقة، ولكنني أعتقد بأنه كان واضحا للآخرين جميعهم بأن ما يستنزف أبي هو مرض زهري. لقد كان في المرحلة الأخيرة، حيث لم تعد هناك مراهم أو لزقات أو مركبات زئبقية أكالة قادرة على مساعدته، وهي المرحلة التي كان ينوي تجنبها بأي ثمن؛ ولكن كان عليه أن يعانيها لأنه لم يجد الجرأة للانتحار قبلها، مثلما خطط لسنوات. كان لا يكاد يستطيع التحرك بسبب آلام العظام؛ ولم يكن قادرا على المشي، وتفكيره آخذ في الوهن. في بعض الأيام يبقى مستغرقا في الكوابيس، دون أن يستيقظ تماما، ويتلعثم بقصص غير مفهومة، ولكن كانت لديه لحظات صحو كامل، بل وكان قادرا على الضحك والتذكر حين يسكن المورفين من كربه. وعندئذ كان يستدعيني لكي أجلس إلى جانبه. لقد كان يقضي اليوم على أريكة قبالة النافذة وهو ينظر إلى الحديقة، مستندا إلى وسائد ومحاطا بكتب وصحف وصوان عليها أدوية. وكانت الموظفة تجلس لتطرز على مقربة منه، مستعدة على الدوام لتلبية طلباته، صامتة، وعابسة مثل عدو. وهي الوحيدة التي يتسامح مع وجودها إلى جانبه لأنها لا تعامله بشفقة. لقد سعت جدتي لاحاطة ابنها بجو سعيد، فوضعت ستائر تشينتز وورق جدران ذي تدرجات صفراء، وكانت تحتفظ بباقات زهر مقطوفة للتو من الحديقة على الطاولات، وقد تعاقدت مع رباعي وتريات للمجيء عدة مرات كل أسبوع لعزف ألحانها الكلاسيكية المفضلة، ولكن لم يكن بإمكان شيء أن يخفي رائحة الأدوية واليقين بأن هناك من يتعفن في تلك الغرفة. لقد كانت تلك الجثة الحية تثير في الاشمئزاز في البداية، ولكن عندما استطعت التغلب على رعبي، وبدأت أتردد عليه، بإلحاح من جدتي، تبدلت حياتي. لقد وصل ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث إلى البيت في الوقت الذي كنت أتفتح فيه على

Twitter: @ketab_n

المراهقة، وقدم لي ما كنتُ بحاجة إليه: **الذاكرة**. ففي إحدى نوبات ذكائه، وبينما هو تحت مواساة المخدر، أعلن أنه أبي، وكان ذلك بصورة عرضية لم تتوصل إلى مفاجأتي. فقد قال:

- أمك لين سوميرز، كانت أجمل امرأة رأيتها. وأنا سعيد لأنك لم ترثي جمالها.

- ولماذا يا عمي؟

- لا تقولي لي عمي يا أورورا. أنا أبوك. الجمال يكون لعنة في العادة لأنه يوقظ أسوأ الأهواء في الرجال. ولا يمكن للمرأة باهرة الجمال أن تهرب من الشهوة التي تثيرها.

- هل أنت أبي حقاً؟

- أجل.

- وأنا كنتُ أعتقد بأن أبي هو سيفيرو.

فأوضح لي:

- كان يجب على سيفيرو أن يكون أبوك، فهو رجل أفضل مني بكثير. وأمك كانت تستحق زوجاً مثله. لقد كنتُ طائشاً على الدوام، ولهذا صرت مثلما ترينني، متحولاً إلى فزاعة عصافير. يمكن لسيفيرو على أي حال أن يخبرك عنها أكثر مني بكثير.

- وهل كانت أمي تحبك؟

- نعم، ولكني لم أعرف ما الذي أفعله بذلك الحب وخرجت هارباً. إنك ما تزالين صغيرة لفهم هذه الأمور يا ابنتي. يكفي أن تعرفي بأن أمك كانت رائعة، ومن المؤسف أنها ماتت باكراً.

لقد كنتُ متفقة معه، فقد كنت أحب أن أعرف أمي، ولكنني كنت أشعر بفضول أكبر نحو شخصيات أخرى من طفولتي الأولى تظهر لي في الأحلام أو في تذكرات غامضة من المستحيل تحديدها بدقة. في أحاديثي مع أبي راح يظهر شبح جدي تاو تشين، الذي لم يره ماتياس إلا

Twitter: @ketab_n

مرة واحدة. كان يكفي أن يذكر اسمه كاملاً وان يقول لي إنه كان صينياً طويلاً ووسيماً، حتى تبدأ ذكرياتي بانفلات في سلسلة، قطرة فقطرة، كما المطر. فوضع اسم لذلك الحضور غير المرئي الذي يرافقني على الدوام، انتزع جدي من كونه اختلاقاً من تخيلاتي ليتحول إلى شبح شديد الواقعية، وكأنه شخص من لحم وعظم. أحسست براحة عميقة حين تأكدت من أن ذلك الرجل الرقيق العابق برائحة البحر الذي أتخيله، لم يكن موجوداً وحسب، وإنما أحبني أيضاً، وإذا كان قد اختفى فجأة فإنه لم يفعل ذلك لرغبة في التخلي عني.

وقد أوضح لي أبي:

- أعرف أن تاو تشين قد مات.

- وكيف مات؟

- أظن أنه مات في حادث، ولكنني لست متأكداً.

- وما الذي جرى لجدتي إلزا سوميرز؟

- ذهبت إلى الصين. وقد رأت أنك ستكونين في وضع أفضل مع أسرتي، ولم تخطئ في ذلك. فأمي كانت راغبة على الدوام في أن تكون لها ابنة، وقد أغدقت عليك من الحنان أكثر بكثير مما أغدقته علي وعلى أخوي - قال لي مؤكداً.

- وما معنى لاي-مينغ؟

- ليست لدي أي فكرة، لماذا تسألين؟

- يخيل إلي بأنني أسمع هذه الكلمة أحياناً...

كانت عظام ماتياس منخورة من المرض، فكان يتعب بسرعة ولم يكن من السهل استخراج المعلومات منه؛ لقد كان يشرد أحياناً في هذر طويل لا علاقة له بما يهمني، ولكنني رحت أجمع شيئاً فشيئاً رقع الماضي، غرزة فغرزة، ودائماً من وراء ظهر جدتي التي كانت تشكرني لأني أزور المريض، فهي لا تجد الحماس لعمل ذلك؛ إنها تدخل غرفة ابنها مرتين في اليوم، فتطبع على جبهته قبلة سريعة وتخرج متعثرة وعيناها

Twitter: @ketab_n

مغرورقتان بالدموع. لم تسألنا قط عم نتكلم، وأنا لم أقل لها ذلك بالطبع. كما أنني لم أجرؤ على فتح الموضوع أمام سيفيرو ونيفيا دل بايي؛ فقد كنت أخشى بأن يؤدي أي تصرف متهور من جانبي إلى وضع حد لأحاديثي مع أبي. ودون أن نتفق على ذلك، كلانا كان يعرف أنه يجب الحفاظ على أحاديثنا سراً، وقد وحدّنا ذلك في تواطؤ غريب. لا يمكنني القول إنني توصلت إلى أن أحب أبي، إذ لم يكن هناك متسع من الوقت لذلك، ولكنه خلال الشهور القصيرة التي تعايشنا فيها، وضع بين يدي كنزاً عندما قدم لي تفاصيل من قصتي، وخصوصاً كلامه عن أمي لين سوميرز. لقد كرر لي مراراً بأنني أحمل في عروقي دماء آل دل بايي، ويبدو أن هذا الأمر كان مهماً جداً في نظره. وعلمت فيما بعد أنه بإيعاز من فريدريك ويليامز، الذي يمارس تأثيراً كبيراً على كل واحد من أفراد هذا البيت، أوصى لي في حياته بالجزء الذي يخصه من الإرث العائلي، فضلاً عن عدة حسابات مصرفية وأسهم بورصة، أمام إحباط كاهن كان يزوره يومياً على أمل الحصول على شيء من الميراث للكنيسة. كان ذلك الكاهن رجلاً كثير الهمهمة وتنبعث منه رائحة القداسة – فهو لم يستحم أو يبدل ثيابه طوال سنوات – مشهور بتشدده الديني وموهبته في تشمم أخبار المحتضرين الأغنياء وإقناعهم بتخصيص جزء من ثرواتهم لأعمال الخير. وكانت الأسر الثرية تنظر إلى حضوره برعب، لأنه ينذر بالموت، ولكن أحداً لم يكن يتجرأ على صفق الباب في وجهه. حين أدرك أبي بأن النهاية قد أزفت، استدعى سيفيرو دل بايي، الذي لم يكن يكلمه عملياً، لكي يتفقا بشأن وضعي. أحضرا كاتباً بالعدل إلى البيت، ووقع كلاهما وثيقة تخلى فيها سيفيرو عن أبوته واعترف بي ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث كابنة له. وهكذا حماني من ابني باولينا الآخرين اللذين استوليا، بعد تسع سنوات من ذلك، على كل ما استطاعا الحصول عليه.

تمسكت جدتي بآماندا لويل بمحبة متطيّرة، معتقدة بأنها طالما بقيت قريبة، فإن ماتياس سيبقى حياً. لم تكن باولينا تقيم صداقة حميمة

Twitter: @ketab_n

مع أحد، اللهم إلا معي أحياناً، فهي ترى أن معظم الناس حمقى لا خلاص لهم، وتقول ذلك لكل من يود سماعه، ولم تكن هذه بالطريقة المثلى لكسب الأصدقاء، ولكن تلك المومس الاسكتلندية تمكنت من اختراق الدرع الذي تحتمي به جدتي. لم يكن ممكناً تصور امرأتين أشد اختلافاً منهما، فلويل لا تطمع في أي شيء، تعيش ليومها، غير مبالية، حرة، ودون خوف؛ فهي لا تخشى الفقر، ولا الوحدة، ولا الهرم، وتتقبل كل شيء بنفس راضية، فالحياة في نظرها هي رحلة مسلية تقود دون مهرب إلى الشيخوخة والموت؛ وليس هناك من مبرر لجمع الثروات، كما تؤكد، لأن المرء سيذهب في كل الأحوال إلى القبر عارياً. لقد صارت من الماضي تلك الشابة المغوية التي زرعت الكثير من الغراميات في سان فرانسيسكو، وصارت من الماضي كذلك تلك الجميلة التي اقتحمت باريس؛ وهي الآن امرأة في الخمسينات من عمرها، دون أي نوع من التغنج أو الندم. لم تكن جدتي تمل من سماعها تتحدث عن ماضيها، عن المشهورين الذين تعرفت عليهم، وتصفّح ألبومات قصاصات الصحف والصور التي تظهر في العديد منها شابة متألقة مع أفعى بوا تلتف على جسدها. وقد أخبرتنا: «لقد ماتت التعيسة مصابة بالدوار في إحدى الرحلات؛ فالأفاعي لا تتحمل السفر». وبفضل ثقافتها الكونية وجاذبيتها – القادرة، دون رغبة منها، على هزيمة نساء أكثر منها شباباً وجمالاً بكثير – تحولت إلى روح المسامرات في منتدى جدتي، مثيرة فيها البهجة بنطقها السيئ للإسبانية، وبفرنسيتها ذات اللكنة الاسكتلندية. لم يكن هناك موضوع لا يمكنها الجدل فيه، ولا كتاب لم تقرأه، ولا مدينة أوروبية مهمة لم تعرفها. وكان أبي الذي يحبها ويدين لها بالكثير، يقول إنها هاوية، تعرف قليلاً من كل شيء والكثير من لا شيء، ولكنها تملك فائضاً من المخيلة تعوض به ما تفتقر إليه من المعرفة أو الخبرة. لم تكن هناك، في نظر آماندا لويل، مدينة أكثر وجاهة من باريس ولا مجتمع أشد زهواً من المجتمع الفرنسي، وهو المجتمع الوحيد الذي لا يتوفر فيه أدنى احتمال لانتصار الاشتراكية بافتقارها المريع إلى اللباقة. وكانت باولينا تتفق معها تماماً في هذا الأمر. وقد اكتشفت المرأتان أنهما لا تضحكان

Twitter: @ketab_n

فقط من الحماقات نفسها، بما في ذلك حماقة السرير الأسطوري، وإنما هما تتفقان تقريباً في كل الشؤون الأساسية. وفي أحد الأيام، بينما نحن نتناول الشاي في الردهة ذات الزخارف الحديدية والزجاج، أبدت المرأتان أسفهما لأن تعارفهما لم يحدث من قبل. فلو أن ذلك حدث، بوجود فيليثيانو وماتياس أو بعدم وجودهما، لكانتا صديقتين حميمتين. هذا ما قررتاه. وقد بذلت باولينا كل ما تستطيعه لإبقائها معها في البيت، فغمرتها بالهدايا وقدمتها للمجتمع كما لو أنها إمبراطورة، ولكن الأخرى كانت طائراً غير قادر على العيش في الأسر. بقيت حوالي شهرين، ولكنها اعترفت أخيراً لجدتي على انفراد بأن قلبها لا يحتمل رؤية تردي ماتياس، وبأن سنتياغو تبدو لها، بكل صراحة، مدينة ريفية على الرغم من ترف وبذخ الطبقة الراقية، المماثل لترف طبقة النبلاء الأوروبية. لقد ضجرت، فمكانها في باريس، حيث أمضت أفضل سنوات حياتها. أرادت جدتي أن تقيم لوداعها حفلة رقص تدخل التاريخ في سنتياغو، يحضرها عيون المجتمع، لأن أحداً لا يستطيع رفض دعوتها، على الرغم من الاشاعات التي تدور حول ماضي الضيفة الضبابي، ولكن آماندا لويل أقنعتها بأن ماتياس مريض جداً وإقامة حفلة في مثل تلك الظروف سيكون قلة حياء، فضلاً عن أنها لا تملك ما تلبسه في مناسبة كهذه. عرضت عليها باولينا ملابسها بكل طيب نية، دون أن يخطر لها كم يُغضب لويل التلميح إلى أن لهما المقاس نفسه.

بعد ثلاثة أسابيع من مغادرة آماندا لويل، أطلقت الموظفة التي تعنى بأبي صرخة الإنذار. استدعوا الطبيب فوراً؛ وخلال لحظات امتلأ البيت بالناس، جاء أصدقاء جدتي، وأناس من الحكومة، وأقرباء، وعدد كبير من الكهنة والراهبات، بمن فيهم الكاهن رث الثياب صياد الثروات، الذي بدأ يحوم الآن حول جدتي على أمل أن ينقلها الحزن على فقدان ابنها إلى الحياة الأفضل. ولكن باولينا لم تكن تفكر في هجر هذا العالم، وكانت قد ارتضت منذ زمن بمأساة ابنها البكر، وأظنها نظرت إلى مجيء نهايته براحة، لأن رؤيته في ذلك العذاب البطيء أسوأ بكثير من دفنه. لم يسمحوا لي برؤية أبي لاعتقادهم بأن الاحتضار ليس بالمشهد المناسب

Twitter: @ketab_n

للصغيرات، وبأنني قد عانيت ما يكفي من الجزع بمقتل ابن عمي وبأعمال عنف أخرى تالية، ولكنني تمكنت من وداعه برفق بفضل فريدريك ويليامز الذي فتح لي الباب في لحظة لم يكن فيها أحد في المكان. اقتادني من يدي إلى السرير الذي يرقد عليه ماتياس رودريغيث دي سانتا كروث، والذي لم يبق منه شيء ملموس، وإنما مجرد حزمة من العظام البارزة، مدفوناً ما بين وسائد وملاءات مطرزة. كان ما يزال يتنفس، ولكن روحه كانت ترحل نحو أبعاد أخرى. قلت له «وداعاً يا بابا». وكانت تلك هي المرة الأولى التي أدعوه هكذا. احتضر طوال يومين آخرين وعند فجر اليوم الثالث مات مثل صوص.

كنتُ في الثالثة عشرة من عمري عندما أهدى إليَّ سيفيرو دل بايي آلة تصوير فوتوغرافية حديثة، تستخدم الورق بدل البلاكات القديمة، ولا بد أنها واحدة من أول تلك الآلات التي وصلت إلى تشيلي. كان أبي قد توفي منذ وقت قريب، وكانت الكوابيس تعذبني إلى حد لا أستطيع معه النوم، فأهيم في الليل على وجهي في أنحاء البيت مثل شبح، يتبعني **كراميلو** المسكين، الذي كان على الدوام كلباً أحمق وضعيفاً، إلى أن تشفق علينا جدتي باولينا وتقبلنا في سريرها الذهبي الفسيح. كانت تملأ نصفه بجسدها الضخم، الدافئ، المعطر، وأنكمش أنا على نفسي على الطرف المقابل، مرتجفة من الخوف، و**كراميلو** عند قدمي. «ما الذي سأفعله بكما أنتما الاثنين؟»، كانت جدتي تتنهد وهي نصف نائمة. وكان سؤالاً بلاغياً، لأنه لم يكن لي أو للكلب أي مستقبل، فهناك قناعة عامة لدى الأسرة بأنني «سأنتهي نهاية سيئة». كانت قد تخرجت في ذلك الحين أول طبيبة في تشيلي، وكانت نساء أخريات قد دخلن الجامعة. فأوحى ذلك لنيفيا بفكرة أنه يمكن لي أن أفعل شيئاً مشابهاً، ولو لمجرد تحدي الأسرة والمجتمع، إنما كان واضحاً أنني لا أتمتع بأي أهلية للدراسة. عندئذ ظهر سيفيرو دل بايي بآلة التصوير ووضعها في حضني. كانت آلة كوداك بديعة، خلابة في كل برغي، أنيقة، رقيقة،

Twitter: @ketab_n

كاملة، ومصنوعة لتستخدمها يدا فنان. ما زلت أستخدمها؛ وهي لا تخيب أملي أبداً. لم تكن لدى أي فتاة في مثل عمري مثل تلك اللعبة. تناولتها بتوقير وبقيت أتأملها دون أن تكون لدي أدنى فكرة عن كيفية استعمالها. «فلنر إذا كنت تستطيعين تصوير كوابيسك»، قال لي سيفيرو دل بايي مازحاً، دون أن يساوره شك بأن ذلك سيكون هدفي الوحيد طوال شهور، وأنني في سعيي لكشف ذلك الكابوس انتهيت إلى عشق العالم. أخذتني جدتي إلى ساحة السلاح، إلى استوديو دون خوان ريبيرو، افضل مصور في سنتياغو، وهو رجل جاف مثل خبز يابس في مظهره، ولكنه أريحي وعاطفي في دخيلته.

- إنني أُحضر إليك حفيدتي لتعلمها - قالت جدتي ذلك وهي تضع على منضدة الفنان شيكاً، بينما أنا أتشبث بثوبها بإحدى يدي وأحتضن بيدي الأخرى آلة تصويري القشيبة.

دون بيدرو ريبيرو الذي كان أقصر من جدتي بنصف رأس، وله نصف وزنها، وضع نظارته على أنفه، وقرأ بدقة الرقم المدون على الشيك، ثم أعاده وهو ينظر إليها من رأسها إلى قدميها بازدراء غير محدود.

فترددت جدتي:

- المبلغ ليس مشكلة... حدد حضرتك الأجر.

ورد وهو يقود باولينا دل بايي نحو الباب:

- ليست المسألة هي الأجر يا سيدتي، وإنما الموهبة.

في هذه اللحظة أُتيحت لي الفرصة لألقي نظرة على ما حولي. كانت أعماله تغطي الجدران: مئات الصور لأناس من كل الأعمار. لقد كان ريبيرو مصور الطبقة الراقية المفضل، ومصور صفحات المجتمع، ولكن من كانوا ينظرون إليّ من جدران الاستوديو لم يكونوا محافظين منتصبين ولا مبتدئات جميلات، وإنما هنود، وعمال مناجم، وصيادون، وغسالات، وأطفال فقراء، وشيوخ، ونساء كثيرات مثل أولئك اللواتي تساعدهن جدتي بقروض نادي السيدات. لقد كان مُمَثَّلاً هناك وجه

Twitter: @ketab_n

تشيلي متعدد الوجوه. وقد هزتني تلك الوجوه من الأعماق، وأردت أن أعرف قصة كل واحد من أولئك الأشخاص، أحسست بانقباض في صدري، مثل طعنة خنجر، ورغبة جامحة في البكاء، ولكنني ابتلعت انفعالاتي وتبعت جدتي برأس مرفوع. وقد حاولت هي أن تواسيني ونحن في العربة، فقالت إنه علي ألا أقلق، فسوف نجد شخصاً آخر يعلمني استخدام الكاميرا، فهناك ما يكفي ويزيد من المصورين؛ وما الذي يتصوره هذا الحثالة وضيع الأصل ليكلمها، هي باولينا دل بايي، بهذه النبرة المتعجرفة. وواصلت خطبتها، ولكنني لم أكن أسمعها لأنني صممت ألا يكون معلمي إلا دون خوان ريبيرو. خرجت في اليوم التالي من البيت قبل أن تستيقظ جدتي، وأمرت الحوذي بأن يوصلني إلى الاستوديو ووقفت في الشارع مستعدة للانتظار إلى الأبد. حضر دون خوان ريبيرو في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، فوجدني أمام بابه وأمرني بالعودة إلى بيتي. لقد كنتُ خجولة آنذاك - وما زلت كذلك إلى اليوم - وشديدة الكبرياء، ولم أكن معتادة على طلب شيء لأنهم كانوا يدللونني منذ مولدي كملكة، ولكن تصميمي كان راسخاً جداً كما يبدو. فلم أتحرك من أمام الباب. وبعد حوالي ساعتين خرج المصور، فألقى علي نظرة غاضبة ومضى في الشارع نزولاً. وعندما رجع من غدائه وجدني ما أزال مسمرة هناك، وأنا أشد آلة التصوير إلى صدري. «لا بأس»، دمدم مهزوماً، ثم أضاف «ولكنني أنبهك أيتها الشابة، لن يكون هناك أي اعتبار لوضعك. فأنت تأتين هنا لتطيعي بصمت وتتعلمي بسرعة، مفهوم؟». هززت رأسي موافقة، لأن صوتي لم يخرج. وافقت جدتي، المعتادة على المساومة، على ولعي بالتصوير بشرط أن أخصص عدداً مماثلاً من الساعات للمواد المدرسية المعتادة في مدارس الرجال، بما في ذلك اللغة اللاتينية واللاهوت، لأن ما ينقصني على حد قولها ليس القدرة الذهنية، وإنما الصرامة.

- ولماذا لا ترسلينني إلى مدرسة عامة؟ - طلبت منها ذلك بحماس، بسبب الاشاعات حول التعليم العلماني للأطفال، الذي كان يبعث الذعر بين عماتي.

Twitter: @ketab_n

فقالت جدتي بتصميم:

- هذه المدارس لطبقة أخرى من الناس، لن أسمح بذلك مطلقاً.

وهكذا ترددت على البيت مجموعة أخرى من المعلمين، كان عدد منهم كهنة مستعدين لتعليمي مقابل المنح السخية التي تقدمها جدتي لجمعياتهم الدينية. وقد كنت محظوظة، إذ تعاملوا معي بتساهل، لأنهم ما كانوا ينتظرون من دماغي أن يستوعب مثل أدمغة الذكور. أما دون خوان ريبيرو بالمقابل، فكان يطالبني بالمزيد لأنه على المرأة، كما قال، أن تبذل من الجهد أكثر ألف مرة مما يبذله الرجل لتحرز مكانة فكرية أو فنية. وكان هو من علمني كل ما أعرفه عن التصوير، ابتداء من اختيار العدسة وحتى عملية التظهير المجهدة؛ ولم يكن لي معلم سواه قط. وعندما تركت الاستوديو بعد سنتين من ذلك، كنا قد أصبحنا صديقين. إنه الآن في الرابعة السبعين من عمره، ولم يعد يعمل منذ عدة سنوات، لأنه أصيب بالعمى، ولكنه ما زال يوجه خطواتي المترددة ويساعدني. الجدية هي شعاره. الحياة تفتنه ولم يمنعه العمى من مواصلة النظر إلى الدنيا. فقد طور طريقة خاصة في التبصر. فمثلما هناك عميان لديهم من يقرؤون لهم، لديه هو أناس يراقبون ويخبرونه. فتلاميذه، وأصدقاؤه، وأبناؤه، يزورونه يومياً ويتناوبون في وصف ما يرونه له: منظر طبيعي، مشهد من الحياة، وجه، تأثير ضوئي. عليهم أن يرصدوا بمنتهى الحذر لكي يتحملوا استجواب دون خوان ريبيرو المضني؛ وهكذا تتغير حيواتهم، لأنهم لا يعودون قادرين على المضي في الدنيا بعدم المبالاة المعهودة، لأن عليهم أن يروا بعيني المعلم. وأنا أيضاً أزوره بكثرة. يستقبلني في عتمة شقته الأبدية في شارع مونخيتاس، وهو جالس على كرسيه قبالة النافذة، وقطته فوق ركبتيه، مضيافاً وحكيماً على الدوام. إنني أُطلعه على آخر الانجازات التقنية في عالم التصوير، وأصف له بالتفصيل كل صورة في الكتب التي أطلبها من نيويورك وباريس، وأستشيره حول شكوكي. وهو يتابع كل ما يحدث في هذه المهنة، ويتعاطف مع مختلف الاتجاهات والنظريات، ويعرف أسماء المعلمين البارزين في أوروبا والولايات المتحدة.

Twitter: @ketab_n

لقد عارض بضراوة على الدوام البوزات المصطنعة، والمشاهد المرتبة في الاستوديوهات، والصور المفذلكة التي تُطبع بتركيب عدة نيغاتيفات فوق بعضها، والتي كانت شائعة قبل عدة سنوات. إنه يؤمن بالصورة كشهادة شخصية: باعتبارها طريقة في رؤية العالم مع وجوب أن تكون هذه الطريقة نزيهة، باستخدام التكنولوجيا وسيلة لتجسيد الواقع لا لتشويهه. عندما مررتُ بمرحلة انهمكتُ فيها بتصوير فتيات في أوان زجاجية ضخمة، سألني عن سبب ذلك بقدر كبير من الازدراء، فلم أواصل في ذلك الطريق، ولكنني عندما وصفت له الصورة التي التقطتها لأسرة فناني سيرك فقير، عراة وهشين، أبدى اهتماماً كبيراً على الفور. لقد التقطت عدة صور لتلك الأسرة وهي تقف أمام عربة مخلعة، يستخدمونها للتنقل وللعيش فيها، وفي أثناء ذلك خرجت من العربة طفلة في الرابعة أو الخامسة، عارية تماماً. عندئذ خطر لي أن أطلب من الأبوين خلع ملابسهما. ففعلا ذلك دون انزعاج ووقفا أمام الكاميرا بالتركيز نفسه الذي كانا عليه وهما بملابسهما. إنها إحدى أفضل صوري، وواحدة من الصور القليلة التي نلت عليها جوائز. وسرعان ما تبين لي أنني أميل إلى تصوير الأشخاص أكثر من ميلي إلى تصوير الأشياء أو المناظر. فلدى التقاط الصورة تقوم علاقة مع الموديل، بالرغم من قصرها، تكون تواصلاً على الدوام. فالصورة لا تكشف الملامح وحدها، وإنما المشاعر التي تطفو بين الاثنين أيضاً. كان دون خوان ريبيرو يعجب بصوري، المختلفة اختلافاً شديداً عن صوره. وكان يقول لي: «أنت تشعرين بأنك معادل لموديلاتك يا أورورا، فلا تحاولي السيطرة عليهم وإنما فهمهم، ولهذا تتمكنين من إظهار روحك». وكان يحثني على ترك جدران الاستوديو الآمنة والخروج إلى الشارع، وعلى التنقل بالكاميرا، والنظر بعينين مفتوحتين جيداً، وتجاوز خجلي، والتخلص من الخوف، والاقتراب من الناس. وقد لاحظت أن الناس يستقبلونني جيداً ويقفون أمام الكاميرا بكل جدية، بالرغم من أنني كنت ما أزال صغيرة: فالكاميرا توحي بالاحترام والثقة، ينفتح الناس أمامها، ويستسلمون. كان صغر سني يحد من تطلعاتي، فلم أستطع السفر عبر البلاد إلا بعد سنوات عديدة،

Twitter: @ketab_n

وكذلك الدخول إلى المناجم، والإضرابات، والمستشفيات، وأكواخ الفقراء، والمدارس البائسة، والبنسيونات الرخيصة، والساحات المغبرة حيث تتردى حال المتقاعدين، والأرياف وقرى الصيادين. «الضوء هو لغة الصورة، وروح العالم. ولا وجود لضوء دون ظل، مثلما لا توجد سعادة دون ألم»، هذا ما قاله لي دون خوان ريبيرو قبل سبعة عشر عاماً، في الدرس الذي أعطاني إياه في ذلك اليوم الأول في الاستوديو في ساحة السلاح. لم أنس ذلك. ولكن يجب عليّ ألا أستبق الأمور. فقد قررت أن أروي هذه القصة خطوة خطوة، وكلمة كلمة، مثلما يجب أن تُروى.

بينما أنا أمضي متحمسة للتصوير ومشوشة من التغييرات في جسدي الذي راح يكتسب أبعاداً غير مألوفة، لم تكن جدتي باولينا تضيع الوقت في تأمل سرتها، وإنما تفكر بعقلها الفينيقي في أعمال تجارية جديدة. وقد ساعدها ذلك في تجاوز فقدانها ابنها ماتياس ومنحها زهواً في سنٍ يكون فيها الآخرون قد وضعوا قدماً في القبر. استعادت حيويتها، وتألقت نظرتها، واكتسبت رشاقة في مشيتها، وسرعان ما خلعت ملابس الحِداد وأرسلت زوجها إلى أوروبا في مهمة سرية جداً. غاب فريدريك ويليامز المخلص سبعة شهور ليعود بعدها محملاً بالهدايا لها ولي، إضافة إلى صنف سيجار جيد له، وهي رذيلته الوحيدة التي نعرفها. وأدخل بين أمتعته، تهريباً، آلاف العيدان الجافة، طول كل واحد منها حوالي خمسة عشر سنتمتراً، تبدو في ظاهرها غير ذات فائدة، ولكن تبين أنها جذوع من كروم بوردو تريد جدتي أن تزرعها في الأراضي التشيلية لتنتج نبيذاً محترماً. «ستنافس الأنبذة الفرنسية»، هذا ما أوضحته لزوجها قبل سفره. ولم يجدِ تكرار فريدريك ويليامز لها بأن الفرنسيين يسبقوننا بقرون في هذا الميدان، وأن الظروف هناك فردوسية، بينما تشيلي هي بلاد كوارث مناخية وسياسية، وأن مشروعاً بهذا الاتساع سيحتاج إلى سنوات طويلة من العمل. ثم أومأ وهو يتنهد:

- لسنا، أنا أو أنت، في سن تمكننا من انتظار نتائج هذه التجربة.

Twitter: @ketab_n

- بمثل هذه النظرة لن نصل إلى شيء يا فريدريك. أتعرف كم جيلاً من الحرفيين يتطلبه بناء كتدرائية؟

- نحن لا تهمنا الكتدرائيات يا باولينا. يمكن لنا في أي يوم من هذه الأيام أن نسقط ميتين.

فردت جدتي:

- لن يكون هذا القرن هو قرن العلم والتكنولوجيا إذا ما فكر كل مخترع بموته، ألا ترى ذلك؟ أريد أن أكوّن سلالة وأن يستمر اسم آل دل بايي في العالم، ولو في قعر كل كأس يشربه سكير من نبيذي.

وقد انطلق الإنكليزي على أي حال مستسلماً في تلك الرحلة إلى فرنسا، بينما راحت باولينا تربط خيوط العملية في تشيلي. كانت أول الكروم التشيلية قد زُرعت على يد المبشرين في العهد الاستعماري لإنتاج نبيذ في البلاد تبين أنه لا بأس به، بل جيد في الواقع، إلى حد أن إسبانيا منعت إنتاجه لتحول دون منافسته لنبيذ الوطن الأم. ثم توسعت صناعة النبيذ بعد الاستقلال. ولم تكن باولينا هي الوحيدة التي فكرت بإنتاج نبيذ من نوعية فاخرة، ولكن بينما كان الآخرون يشترون الأراضي قريباً من العاصمة سنتياغو بحثاً عن الراحة، ولكي لا يتطلب الوصول إليها أكثر من يوم واحد، بحثت هي عن أراض أبعد، ليس لأنها أرخص ثمناً وحسب، وإنما لأنها أكثر ملاءمة كذلك. ودون أن تقول لأحد ما الذي يجول في ذهنها، طلبت تحليل بنية التربة، ونزوات المياه وتحركات الرياح، بادئة بتلك الحقول التي تمتلكها أسرة دل بايي. دفعت ثمناً بخساً مقابل أراض فسيحة مهجورة لا يقدرها أحد، لأنها بلا أي مصدر للري سوى المطر. وقد أوضحت لي جدتي بأن ألذ الأعناب التي تُنتج أفضل الأنبذة تركيباً ونكهة، وأكثرها عذوبة وفخامة، لا تنمو في الوفرة، وإنما في أراض حَصِبة؛ حيث تتغلب النبتة، بعناد أم، على العوائق لتصل بجذورها عميقاً وتمتص كل قطرة من الماء، وهكذا تتركز نكهة العنب.

- الكرمة مثل البشر يا أورورا، كلما كانت الظروف أصعب تكون الثمار أفضل. من المؤسف أنني اكتشفت هذه الحقيقة متأخرة، لأنني لو

Twitter: @ketab_n

عرفتها من قبل لكنت توخيت الصرامة في تربية ابنائي وتربيتك.

- لقد حاولتِ معي أنا يا جدتي.

- بل كنتُ رفيقة معك. كان عليّ أن أرسلك إلى مدارس الراهبات.

- ألكي أتعلم التطريز والصلاة؟ الآنسة ماتيلدي...

- أمنعك من ذكر اسم هذه المرأة في بيتي!

- حسن يا جدتي، ولكنني أتعلم التصوير على الأقل. وبهذا يمكنني أن أكسب قوتي.

فصرخت باولينا دل بايي:

- كيف تخطر لك مثل هذه الحماقة! لا يمكن لحفيدتي أن تكون مضطرة لكسب قوتها. ما يعلمك إياه ريبيرو هو للتسلية، ولكنه ليس مستقبلاً لفتاة من آل دل بايي. لن يكون مصيرك التحول إلى مصورة في الساحة، وإنما ستتزوجين من رجل من طبقتك وتنجبين أبناء لهذه الدنيا.

- أنت فعلتِ ما هو أكثر من هذا يا جدتي.

- أنا تزوجت من فيليثيانو، وانجبت ثلاثة أبناء وحفيدة. وكل ما عدا ذلك كان إضافة.

- الأمر لا يبدو كذلك بكل صراحة.

تعاقد فريدريك ويليامز في فرنسا مع خبير حضر بعد وقت قصير ليقدم مساعدة فنية. كان رجلاً ضئيلاً موسوساً بالمرض، جاب أراضي جدتي على الدراجة وهو يربط منديلاً على فمه وأنفه لاعتقاده بأن رائحة روث البقر والغبار التشيلي يسببان سرطان الرئة، ولكنه لم يترك أي شك حول معارفه العميقة في زراعة الكرمة. كان الفلاحون يراقبون بذهول ذلك السيد الذي يرتدي ملابس المدينة وهو يتنقل على دراجة بين الأراضي الصخرية، ويتوقف بين حين وآخر ليشم الأرض مثل كلب يتتبع أثراً. ولأنهم لم يكونوا يفهمون كلمة واحدة من كلامه المتدفق بلغة موليير، فقد كان على جدتي شخصياً، وهي تنتعل خفاً وتعتمر قبعة، أن تلحق

Twitter: @ketab_n

بدراجة الفرنسي طوال أسابيع لتترجم ما يقوله. كان أول ما استرعى انتباه باولينا هو عدم تشابه كل النباتات، فهناك على الأقل ثلاثة أنواع مختلفة متشابكة. وقد أوضح لها الفرنسي بأن بعضها ينضج قبل البعض الآخر، فإذا ما خرب المناخ أكثرها حساسية، يبقى على الدوام إنتاج النوعين الأخريين. وتأكد لها أيضاً أن العملية ستستغرق سنوات، لأن المسألة ليست في جني أفضل الأعناب وحسب، وإنما في إنتاج نبيذ فاخر وتسويقه في الخارج، حيث يتوجب منافسة خمور فرنسا وإيطاليا وإسبانيا. تعلمت باولينا كل ما يمكن للخبير أن يعلمها إياه، وعندما أحست بالثقة بنفسها صرفته ليعود إلى بلاده. وكانت في أثناء ذلك مستنزفة القوى، وأدركت بأن العملية تحتاج إلى من هو أكثر شباباً وخفة منها.. إلى شخص مثل سيفيرو دل بايي، ابن أخيها المفضل، والذي يمكنها أن تثق به. «إذا كنتَ ستواصل بذر أبناء في الدنيا فسوف تحتاج إلى كثير من المال لإعالتهم. ولن تحقق ذلك من عملك كمحام، اللهم إلا إذا سرقت ضعف ما يسرقه الآخرون، أما النبيذ فسوف يجعلك ثرياً»، قالت له ذلك لإغرائه. وفي تلك السنة بالذات كان سيفيرو ونيفيا دل بايي قد أنجبا ملاكاً كما يقول الناس، أي طفلة جميلة مثل حورية مصغرة، وقد أسمياها روسا. وكان رأي نيفيا أن جميع الأبناء السابقين كانوا تدريباً من أجل إنتاج هذه المخلوقة الكاملة أخيراً. وربما يرضى الرب الآن عن صنيعه ولا يبعث إليها بمزيد من الأبناء، لأنه صار لديهما قطيع منهم. بدت فكرة الكروم الفرنسية لسيفيرو جنونية، ولكنه كان قد تعلم احترام حاسة الشم التجارية لدى عمته ورأى أن خوض التجربة يستحق العناء؛ ولم يكن يدري بأن الكروم ستبدل مسار حياته خلال شهور قليلة. فما إن تأكدت جدتي من أن سيفيرو دل بايي قد صار مهووساً بالكروم مثلها، حتى قررت تحويله إلى شريك لها، وتركت له مسؤولية الريف لتنطلق مع ويليامز ومعي إلى أوروبا، ذلك أنني كنتُ قد بلغت السادسة عشرة من عمري وصرت، كما قالت، في سن تتطلب مسحة ورنيش كونية وجهاز عرس.

- أنا لا أفكر بالزواج يا جدتي.

Twitter: @ketab_n

فردت بحسم:

- ليس بعد، ولكنك ستتزوجين قبل بلوغك العشرين وإلا ستبقين عانساً تبدلين ملابس القديسين.

لم تخبر أحداً بالسبب الحقيقي للرحلة. لقد كانت مريضة وتعتقد بأنهم سيتمكنون من إجراء عملية جراحية لها في إنكلترا. فقد تطورت الجراحة كثيراً هناك منذ اكتشاف التخدير والتعقيم. كانت قد فقدت الشهية في الشهور الأخيرة، وبدأت تعاني للمرة الأولى في حياتها من نوبات غثيان ومغص في البطن بعد تناول وجبة ثقيلة. لم تعد تأكل لحماً، وصارت تفضل الأطعمة الطرية، كالعصائد المحلاة، والشوربات، والحلويات التي لم تكن تتخلى عنها بالرغم من أنها كانت تسقط في كرشها كالأحجار. وكانت قد سمعت عن المستشفى المشهور الذي أسسه طبيب يدعى إيبانيزر هويز، مات قبل عقد من السنين، حيث يعمل أفضل أطباء أوروبا. وهكذا، ما إن انقضى الشتاء وصار الطريق عبر سلسلة جبال الأنديز سالكاً، حتى انطلقنا في الرحلة إلى بوينس آيرس، حيث سنستقل عابرة المحيطات إلى لندن. وقد أخذنا معنا،كالعادة، كوكبة من الخدم، وطِناً من الأمتعة، وعدة حراس مسلحين لحمايتنا من قطاع الطريق الذين يرابطون في تلك العزلات، ولكن كلبي **كراميلو** لم يستطع مرافقتنا في هذه المرة، لأن قوائمة قد تراخت. كان اجتياز سلسلة الجبال في عربة، وعلى الخيول، ثم أخيراً على البغال رحلة لا تُنسى عبر منحدرات تنفتح من الجانبين عن أشداق جهنمية متأهبة لابتلاعنا. كان الدرب يبدو مثل أفعى رفيعة لا متناهية تنزلق بين تلك الجبال الهائلة التي تشكل العمود الفقري لأميركا. ما بين الصخور تنمو بعض الشجيرات المزعزعة بقسوة المناخ والتي تتغذى على خطوط ماء خفيفة. ماء في كل مكان، شلالات، جداول، ثلوج مائعة؛ الصوت الوحيد هو الماء ووقع حوافر الدواب على قشرة الأنديز القاسية. حين نتوقف، يلفنا صمت سحيق مثل دثار ثقيل، فقد كنا دخلاء ننتهك حرمة العزلة التامة في تلك الارتفاعات. جدتي التي كانت تناضل ضد الدوار والتوعك

Twitter: @ketab_n

اللذين داهماها منذ بدأنا المسير صعوداً، كانت تستند إلى إرادتها الفولاذية وإلى عناية فريدريك ويليامز الذي يبذل كل ما يستطيعه لمساعدتها. كانت ترتدي معطف سفر ثقيلاً، وقفازات جلدية وقبعة مستكشف مع خمار سميك، لأنها لا تسمح لأي شعاع شمسي، مهما كان خفيفاً، بملامسة بشرتها، فهي تفكر بأنها ستتمكن بفضل ذلك من الوصول حتى القبر دون تجعيدات. أنا كنتُ أمضي مبهورة. لقد قمنا بهذه الرحلة من قبل، عندما جئنا إلى تشيلي، ولكنني كنتُ آنذاك صغيرة جداً لا يمكن لي تقدير هذه الطبيعة المهيبة. كانت البهائم تتقدم خطوة خطوة وهي معلقة ما بين هاويات تقطعها الدروب، وجدرانٍ شاهقة من الصخر الأصم مشطتها الريح ونحتها الزمن. كان الهواء خفيفاً مثل خمار رقيق، والسماء بحر بلون الفيروز يجتازه أحياناً نسر كندور يبحر بجناحيه البديعين، سيداً مطلقاً لتلك الممالك. ما إن نزلت الشمس حتى تبدل المشهد تماماً؛ فقد اختفى السلام الأزرق لتلك الطبيعة الوقورة المهيمنة ليحل محله عالم من الظلال الهندسية تتحرك متوعدة من حولنا، تحاصرنا، وتلفنا. خطوة خاطئة ويمكن للبغال أن تتدحرج ونحن فوقها إلى أعمق تلك المهاوي، ولكن الدليل كان يقدر المسافة بدقة، وهكذا لم يقابلنا الليل إلا وكنا قد وصلنا إلى كوخ وسخ مشيد من الواح خشبية، هو ملجأ للمسافرين. أنزلوا الحمولة عن البهائم وأجلسونا على السروج التي من جلود الغنم وعلى البطانيات، مستضيئين بعيدان مطلية بالقطران، مع أنه لم تكن هناك حاجة للإنارة، إذ كان يهيمن على قبة السماء العميقة قمر متلألئ يطل مثل شعلة كوكبية فوق الصخور العالية. كنا نحمل معنا حطباً، فأشعلوه لنتدفأ ولغلي الماء من أجل المتة؛ وسرعان ما كان شراب هذه العشبة الخضراء والمُرّة يتنقل من يد إلى يد، والجميع يمصونه من القصبة نفسها؛ فأعاد ذلك الحماس واللون إلى جدتي المسكينة التي أمرت بإحضار سلالها وجلست، مثل بائعة خضار في السوق، لتوزع مأكولات نخدع بها الجوع. راحت تظهر زجاجات النبيذ والشمبانيا، وأجبان الريف العطرة، وقطع لحم الخنزير الباردة واللذيذة المحضرة بيتياً، والخبز والعجة الملفوفة بمناديل كتانية بيضاء، ولكنني لاحظت أنها

Twitter: @ketab_n

تأكل قليلاً جداً ولا تتذوق الكحول. وفي أثناء ذلك، ذبح الرجال الماهرون باستخدام سكاكينهم عنزتين جلبناهما معنا وكانتا تسيران وراء البغال، ثم سلخوا جلديهما وثبتوهما على عمودين خشبيين لشيهما. لم أدرِ كيف انقضت تلك الليلة، فقد غرقت في نوم كأنه الموت ولم أستيقظ حتى الفجر، عندما بدؤوا بتسعير الجمر لصنع القهوة والإجهاز على ما تبقى من العنزتين. وقبل أن نغادر، تركنا في المكان حطباً، وكيس فاصولياء، وزجاجة خمر للمسافرين التالين.

Twitter: @ketab_n

القسم الثالث

١٨٩٦ - ١٩١٠

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تأسس مستشفى هوبز على يد الجراح الشهير ايبانيزر هوبز في منزله بالذات، وهو دارة متينة المظهر وأنيقة في وسط حي كينسنغتاون، هدموا فيه جدراناً وأغلقوا نوافذ وزرعوه بالبورسلين إلى أن حولوه إلى مسخ قبيح المنظر. وكان وجود المستشفى في ذلك الشارع الراقي يزعج الجيران، فلم يجد من ساروا على خطى هوبز صعوبة في شراء البيوت المجاورة لتوسيع المستشفى، ولكنهم ابقوا على الواجهات الإدواردية، بحيث لم يكن تمييزها ممكناً من الخارج عن صفوف بيوت الشارع الأخرى، المتشابهة تماماً. أما في الداخل فكانت متاهة من الغرف والأدراج والممرات والنوافذ الداخلية التي لا تؤدي إلى أي مكان. ولم يكن هناك، كما في مستشفيات المدينة القديمة، رملة العمليات التقليدية التي لها مظهر ميدان مصارعة ثيران - دائرة مركزية مغطاة بالنشارة أو الرمل ومحاطة بمقصورات للمتفرجين -، وإنما قاعات جراحة صغيرة يغطي جدرانها وسقفها وأرضها بلاط ورقائق معدنية تُفرك بمحلول الصودا والصابون مرة كل يوم، لأن الدكتور المتوفى هوبز كان من أول من تقبلوا نظرية كُوخ في انتقال التلوث، وتبنى أساليب ليستر في التعقيم، التي كان معظم الجهاز الطبي ما يزال يرفضها تعنتاً أو تكاسلاً. لم يكن من السهل تغيير العادات، فقد كانت النظافة مكروهة ومعقدة، كما أنها تعرقل سرعة العمليات الجراحية، وهي العلامة المميزة للجراح الجيد، لأنها تقلل من خطر الصدمة وفقدان الدم. وعلى العكس من كثيرين من معاصريه الذين يرون أن الالتهابات تحدث تلقائياً في جسد المريض، أدرك ايبانيزر هوبز على الفور بأن الجراثيم موجودة في الخارج، في اليدين، في الأرض، في الأدوات، وفي الجو، ولهذا كان يرش مطراً من الفينول على كل شيء، ابتداء من الجراح وحتى جو غرفة العمليات. وقد استنشق الرجل

Twitter: @ketab_n

المسكين الكثير من الفينول حتى انتهى جلده إلى الامتلاء بالقروح ومات قبل موعده بعلة كلوية، فأعطى ذلك ذريعة لمنتقديه ليتشبثوا أكثر بأفكارهم البالية. ولكن تلامذة هوبز حللوا الهواء واكتشفوا بأن الجراثيم لا تطفو فيه مثل طيور جارحة غير مرئية متأهبة للهجوم المتخفي، وإنما هي تتركز على السطوح القذرة؛ وأن الالتهابات تحدث من الملامسة المباشرة، ولهذا فإن الأمر الأساسي هو تنظيف الأدوات جيداً، واستخدام أضمدة معقمة، وإنه لا يتوجب على الجراحين أن يغسلوا أيديهم بإلحاح وحسب، وإنما عليهم، ضمن الإمكان، أن يستخدموا قفازات من المطاط كذلك. وهي غير القفازات الخشنة التي يستخدمها المشرحون عند تشريحهم الجثث، أو التي يستخدمها بعض العمال عند تعاملهم مع مواد كيماوية، بل قفازات من مادة رقيقة وحساسة مثل البشرة البشرية تُصنع في الولايات المتحدة. وقد كان لهذه القفازات منشأ رومنسي: فقد أراد طبيب متيم بممرضة أن يحميها من الأكزيما التي تسببها المطهرات، فأمر بصنع أول القفازات المطاطية، وتبنى استخدامها الجراحون بعد ذلك في العمليات الجراحية. كل هذه المعلومات قرأتها باولينا دل بايي في مجلة علمية أعارها إياها قريبها دون خوسيه فرانثيسكو بيرغارا، الذي كان مريضاً آنذاك بالقلب ومعتزلاً في قصره في بينيا دل مار، ولكنه ما يزال الدارس المواظب الذي كانه دوماً. لم تكتفِ جدتي بانتقائها الجيد للطبيب الذي سيُجري لها العملية الجراحية والتواصل معه مذ كانت في تشيلي قبل شهور من سفرها، بل أوصت على عدة أزواج من القفازات المطاطية الشهيرة من بالتيمور، ووضعتها مغلفة جيداً في صندوق ملابسها الداخلية.

أرسلت باولينا دل بايي فريدريك ويليامز إلى فرنسا ليتقصى عن الأخشاب المستخدمة في صنع براميل تخمير النبيذ، واستطلاع صناعة الأجبان، لأنه ليس هناك مبرر يجعل الأبقار التشيلية غير قادرة على إنتاج أجبان لذيذة مثل أجبان الأبقار الفرنسية، مع أنها أبقار حمقاء مثل تلك أيضاً. خلال اجتياز سلسلة الأنديز، ثم في عابرة المحيطات بعد ذلك، استطعتُ أن أراقب جدتي عن قرب وانتبهت إلى أن هناك شيئاً

Twitter: @ketab_n

أساسياً آخذاً بالضعف فيها، شيئاً لا علاقة له بالإرادة، ولا بالذهن، ولا بالطمع، وإنما بالشراسة. لقد صارت رقيقة، ناعمة، وشديدة السهو إلى حد أنها كانت تخرج لتتمشى على سطح السفينة وهي ترتدي الموسلين واللؤلؤ، ولكن دون أن تضع طقم أسنانها الاصطناعية. كان جلياً أنها تقضي ليالي سيئة، فهي تمضي بعينين تحيط بهما دوائر من الزرقة، وبنعاس دائم. لقد فقدت الكثير من وزنها، فكان لحمها يترهل عندما تخلع المشد. وكانت تريدني قريبة منها على الدوام «كيلا تتغازلي مع البحارة»، وهي مزحة قاسية منها، ذلك أن حياتي في تلك السن كان حاسماً، إذ تكفي أن تتوجه نحوي نظرة ذكورية بريئة لأكتسي بالحمرة مثل جرادة بحر مسلوقة. أما السبب الحقيقي فهو أن باولينا دل بايي كانت ضعيفة، وتريدني قريبة منها لتشغل الموت عنها. لم تكن تأتي على ذكر أمراضها، بل هي تتحدث، على العكس من ذلك، عن قضاء بضعة أيام في لندن ثم مواصلة الرحلة إلى فرنسا من أجل مسألة البراميل والأجبان، ولكنني حزرت منذ البداية أن خططها هي غير ذلك، وقد اتضح الأمر تماماً فور وصولنا إلى إنكلترا، حين بدأت عملها الدبلوماسي لإقناع فريدريك ويليامز ليذهب وحيداً، بينما نقوم نحن بالمشتريات ثم ننضم إليه فيما بعد. لا أدري إذا ما كان ويليامز قد غادر دون أن يرتاب بأن المرأة مريضة، أم أنه خمن الحقيقة، وتفهم حياءها، وتركها بسلام؛ فالواقع أنه رتب أمر إقامتنا في فندق سافوي، وبعد أن تأكد من أنه لا ينقصنا أي شيء، أبحر عبر القنال دون حماس كبير.

لم تكن جدتي ترغب في وجود شهود على انحدارها وكانت تحترس بصورة خاصة من ويليامز. وكان هذا جزءاً من التغنج الذي اكتسبته بعد زواجها منه، ولم يكن موجوداً لديها حين كان قهرمانها. إذ لم تكن تجد حرجاً آنذاك من أن تُبدي له أسوأ ما في طباعها، ومن الظهور أمامه بأي حال تكون عليها، ولكنها صارت تحاول إبهاره فيما بعد بأفضل زينتها. لقد كانت تلك العلاقة الخريفية تعني لها الكثير، ولم تشأ أن يقوض اعتلال الصحة اعتدادها الراسخ بنفسها، لهذا سعت إلى إبعاد زوجها، ولولا أنني وقفت بثبات لكانت استثنتني أنا أيضاً؛ فقد تطلب

Twitter: @ketab_n

الأمر خوض معركة لكي تسمح لي بمرافقتها في زياراتها الطبية، ولكنها استسلمت أخيراً أمام عنادي وضعفها. كانت موجوعة ولا تكاد تقدر على البلع، ولكنها لم تبدُ مذعورة، وإن اعتادت على المزاح حول المضايقات في الجحيم والضجر في الفردوس. كان مستشفى هوبز يبعث على الثقة منذ عتباته، بردهته المحاطة بخزائن كتب ولوحات زيتية للجراحين الذين مارسوا المهنة بين هذه الجدران. استقبلتنا ممرضة بدينة مهيبة، واقتادتنا إلى مكتب الطبيب، وهي غرفة مريحة فيها مدفأة، حيث تقرقع النار في قطع حطب كبيرة، وأثاث إنكليزي أنيق مغلف بجلد بني. كان مظهر الدكتور جيرالد سفولك مهيباً مثل سمعته. له هيئة تيتونيكية، ضخم ومتورد، مع ندبة على الخد لا توحي بالقبح في أي حال، ولكنها تجعله شخصاً لا يُنسى. كانت على طاولته الرسائل التي تبادلها مع جدتي، وتقارير الاختصاصيين التشيليين، وحزمة القفازات المطاطية التي كانت قد أرسلتها إليه في ذلك الصباح مع رسول. وقد علمنا فيما بعد بأن إحضارها كان احتياطاً لا لزوم له، لأنهم كانوا يستخدمون مثلها في المستشفى منذ ثلاث سنوات. رحب بنا سفولك وكأننا في زيارة ودية، وقدم لنا قهوة تركية معطرة بحب الهيل. ثم أخذ جدتي إلى حجرة مجاورة، وبعد أن فحصها رجع إلى المكتب وأخذ يتصفح مجلداً ضخماً ريثما ترجع. وفور مجيء المريضة أكد لها الجراح صحة التشخيصات السابقة للأطباء التشيليين: فجدتي مصابة بورم معوي. وأضاف أن العملية الجراحية ستكون خطرة بسبب تقدم سنها ولأن هذه الجراحة ما زالت في المراحل التجريبية، ولكنه توصل إلى تقنية متكاملة من أجل هذه الحالات، وأن أطباء من كل أنحاء العالم يأتون للتعلم منه. كان يتكلم باستعلاء ذكّرني بمعلمي دون خوان ريبيرو الذي يرى أن العجرفة هي امتياز الجهلة؛ فالعالِم متواضع لأنه يعرف مدى ضآلة ما يعرفه. طالبته جدتي بأن يشرح لها بالتفصيل ما ينوي أن يفعله بها، ففوجئ بذلك الطبيب المعتاد على استسلام المرضى بوداعة الدجاج لسلطة يديه التي لا جدال فيها، ولكنه انتهز الفرصة على الفور ليتوسع في محاضرة، همه منها أن يبهرنا ببراعة مبضعه أكثر من طمأنة المريضة عاثرة الحظ. رسمَ

Twitter: @ketab_n

أحشاءً وأجهزة بدت أشبه بآلة جنونية وأشار إلى موضع الورم وكيف يفكر باستئصاله، بل إنه تحدث عن نوع الغرزات التي سيخيط بها الجرح، وهي معلومات تلقتها باولينا دل بايي ببرود أعصاب، ولكنها أثارت في الغثيان واضطررتُ إلى الخروج من المكتب. جلست في ردهة الصور الزيتية لأصلي متمتمة. والحقيقة أنني كنت أشعر بخوف على نفسي أكثر من خوفي عليها، ففكرة البقاء وحيدة في هذه الدنيا كانت تخيفني. وكنت على هذه الحال، أجتر احتمال تيتمي، عندما مرّ من هناك رجل، ولا بد أنه رآني شاحبة، لأنه توقف. «هل حدث لك شيء أيتها الصغيرة؟»، سألني بالإسبانية وباللهجة التشيلية. أنكرت بحركة من رأسي وقد فوجئت، دون أن أتجرأ على النظر إليه مواجهة، ولكن لا بد أنني تفحصته بطرف عيني، لأنني استطعت أن أقدر أنه شاب، حليق الوجه، وله وجنتان عاليتان، وفك ثابت، وعينان زائغتان؛ إنه يشبه رسم جنكيز خان في كتاب التاريخ، وإن كان أقل منه فظاظة. كان كل ما فيه بلون العسل، شعره، عيناه، بشرته، ولكن لم يكن هناك أي شيء من العسل في نبرة صوته عندما أوضح لي أنه تشيلي مثلنا ويواظب على حضور عمليات الدكتور سفولك.

ثم قال دون أدنى تواضع:

- السيدة دل بايي بين أيد أمينة.

فسألته متلعثمة، مثلما يجري لي على الدوام عندما أكون عصبية:

- وما الذي سيحدث إذا لم تُجر لها العملية الجراحية؟

قال:

- سيواصل الورم النمو. ولكن لا تقلقي يا صغيرة، فقد تطورت الجراحة كثيراً، وقد أحسنت جدتك صنعاً بالمجيء إلى هنا.

أردتُ أن أستفسر عما يفعله تشيلي في تلك الأنحاء، ولماذا له هذا المظهر التتري - لم يكن هناك ما يحول دون تخيله يحمل رمحاً ويغطي جسده بالفرو - ولكنني صمت مرتبكة. فلندن، والمستشفى، والأطباء،

Twitter: @ketab_n

ومأساة جدتي، كانت أموراً أكبر مما يمكنني أن أصرفه بمفردي. وكنتُ أجد صعوبة في فهم حياء باولينا دل بايي من حالتها الصحية ومبرراتها لإرسال فريدريك ويليامز إلى الجانب الآخر من القنال في الوقت الذي هي أشد ما تكون بحاجة إليه. ربت جنكيز خان على يدي متفضلاً وانصرف.

على عكس كل تنبؤاتي المشؤومة تجاوزت جدتي العملية الجراحية وهي على قيد الحياة، وبعد الأسبوع الأول، حيث كانت الحرارة تعلو وتنخفض دون كابح، استقرت حالتها وصار بإمكانها تناول الأطعمة الصلبة. لم أكن أتحرك من جانبها إلا للذهاب إلى الفندق مرة كل يوم لكي أستحم وأبدل ملابسي، لأن رائحة البنج، والأدوية، والمطهرات كانت تُنتج خليطاً لزجاً يلتصق بالبشرة. كنتُ أنام في إغفاءات متقطعة، جالسة على كرسي بجانب المريضة. وعلى الرغم من رفض جدتي القاطع، فقد ارسلتُ برقية إلى فريدريك ويليامز في اليوم نفسه الذي أجريت لها العملية الجراحية، فوصل إلى لندن بعد ثلاثين ساعة من ذلك. لقد رأيته يفقد تماسكه الذي يُضرب به المثل أمام السرير الذي ترقد فيه امرأته فاقدة الوعي من المسكنات، تئن مع كل نفس، بأربع شعرات على رأسها ودون أسنان، مثل عجوز متيبسة الجلد. جثا إلى جانبها ووضع جبهته على يد باولينا دل بايي الخامدة وهو يهمس باسمها؛ وعندما نهض كان وجهه مبللاً بالدمع. بدت جدتي مهزومة تماماً في سرير المستشفى ذاك، هي التي كانت تؤكد دوماً بأن الشباب ليس مرحلة في الحياة وإنما هو حالة معنوية، وأن المرء يحصل على الصحة التي هو جدير بها. هذه المرأة التي كانت رغبتها في الحياة تعادل شراهتها، ولّت وجهها ناحية الجدار، غير مبالية بما حولها، ومستغرقة في نفسها. فقوة إرادتها الهائلة، وحزمها، وفضولها، وميلها إلى المغامرة، وحتى جشعها، اختفى كله أمام آلام الجسد.

لقد أتيحت لي في تلك الأيام فرص كثيرة لرؤية جنكيز خان الذي

Twitter: @ketab_n

كان يراقب حالة المريضة، وتبين، كما كان متوقعاً، أنه أكثر ليونة من الدكتور الشهير سفولك أو من ممرضات المحل. لم يكن يرد على مخاوف جدتي بإجابات الغموض المواسية، وإنما بشروحات عقلانية، وكان الوحيد الذي يحاول التخفيف من كربها، بينما يهتم الآخرون بحالة الجرح والحرارة متجاهلين تأوهات المريضة. وهل تريد ألا تتألم؟ من الأفضل لها أن تصمت شاكرة أنهم قد أنقذوا حياتها. أما الطبيب التشيلي الشاب بالمقابل، فلم يكن يدخر مسكناً إلا ويقدمه لها، لأنه يعتقد، مثلما أوضح لويليامز، بأن الألم المتواصل يقضي على مقاومة المريض الجسدية والمعنوية، فيؤخر الشفاء أو يحول دونه. علمنا أن اسمه إيفان رادوفيتش، وأنه ينحدر من أسرة أطباء، وأن أباه هاجر من البلقان إلى تشيلي في أواخر الخمسينيات، وأنه تزوج من معلمة تشيلية من الشمال، وأنجب ثلاثة أبناء، اثنان منهم اقتفوا أثره في الطب. وقال إن أباه توفي بالتيفوس خلال حرب الباسفيك، حيث خدم كجراح طوال ثلاث سنوات، فكان على أمه أن تنهض وحدها بأعباء الأسرة. كنت قادرة على مراقبة العاملين في المستشفى على هواي، كما أنني سمعت تعليقات ليست مناسبة لمثل مسمعي، لأن أياً منهم، باستثناء الدكتور رادوفيتش، لم يبد ما يشير مطلقاً إلى أنه يلحظ وجودي. كنت على وشك إكمال ست عشرة سنة، وما زلت أمضي بشعر معقود بشريطة وبملابس تختارها لي جدتي التي كانت تأمر بتفصيل ملابس طفلات مضحكة لي، لتُبقيني في الطفولة أطول وقت ممكن. والمرة الأولى التي لبست فيها شيئاً مناسباً لسني كانت عندما أخذني ويليامز دون إذن منها إلى محلات ويتني ووضع المتجر كله تحت تصرفي. وحين رجعنا إلى الفندق وظهرت بشعري المعقوص وبملابس الآنسات، لم تتعرف جدتي عليّ، ولكن هذا جرى بعد عدة أسابيع. ولا بد أن باولينا دل بايي كانت تتمتع بقوة جاموسة، فقد شقوا معدتها، واستأصلوا منها ورماً بحجم ثمرة كريفون، وخاطوها مثل حذاء، ولكنها قبل انقضاء شهرين عادت مثلما كانت دائماً. لم يبق لها من تلك المغامرة الرهيبة سوى ندبة مخيطة كندبة قرصان على عرض كرشها، وشهية نهمة إلى الحياة، وإلى الطعام بالطبع. غادرنا إلى فرنسا

Twitter: @ketab_n

فور أن تمكنت من المشي دون عكاز. واستبعدتْ تماماً الحمية التي طلبها منها الدكتور سفولك لأنها، كما قالت لي، لم تأتِ من عجيزة العالم إلى باريس لكي تأكل عصيدة حديثي ولادة. وبحجة دراسة صناعة الأجبان وتقاليد فرنسا المطبخية، أتخمت بكل اللذائذ التي يمكن لتلك البلاد أن تقدمها.

ما إن استقر بنا المقام في الفندق الذي استأجره ويليامز في بوليفار هاوسمان، حتى اتصلنا بآماندا لويل العصية على الوصف، والتي ما زالت مثل ملكة فايكنغ في المنفى. لقد كانت باريس هي جوها، فهي تعيش في علّية منخورة ولكنها حميمة، تظهر من خلال نوافذها الفسيحة الحمائم على أسطحة حيّها وسماوات المدينة النقية. وقد ثبت لنا أن حكاياتها عن الحياة البوهيمية وصداقاتها للفنانين المشهورين كانت صحيحة تماماً؛ فبفضلها تمكنا من زيارة مراسم سيزان، وسيسلي، وديغا، ومونيه وآخرين. وكان على لويل أن تعلمنا كيفية تقدير تلك اللوحات، لأننا لم نكن نملك العين المدربة على تفهم الانطباعية، ولكن سرعان ما وقعنا في الغواية تماماً. وقد اقتنت جدتي مجموعة لا بأس بها من الأعمال التي أثارت موجات ضحك صاخبة عندما علقتها في بيتها في تشيلي؛ إذ لم يقدر أحد سماوات فان جوخ الشاذة أو ضربات فرشاة لوتريك المتعبة، وظنوا بأنهم قد استغفلوا باولينا دل بايي البلهاء في باريس. وعندما لاحظت آماندا لويل أنني لا أتخلى عن آلة تصويري وأقضي ساعات حبيسة الحجرة المظلمة التي ارتجلتها في الفندق، عرضت عليّ أن تعرفني على أشهر مصوري باريس. وقد كانت ترى، مثل معلمي خوان ريبيرو، بأن التصوير لا ينافس الرسم، فهما فنان مختلفان من حيث الأساس؛ فالرسام يفسر الواقع بينما الكاميرا تجسده. كل شيء في لوحة الرسام خيال، بينما الصورة هي خلاصة الواقع مضافاً إليها حساسية المصور. لم يكن ريبيرو يسمح لي باللجوء إلى خدع عاطفية أو استعراضية، ولا شيء من ترتيب الأشياء أو الموديلات لتبدو مثل لوحة؛ فقد كان عدواً للتركيب المصطنع، كما لم يكن يسمح لي بالتلاعب بالنيغاتيفات أو بعملية طبع الصور، وكان يزدري عموماً لعبة الأضواء

Twitter: @ketab_n

والمصابيح المشتتة، لأنه يريد الصورة النزيهة والبسيطة، حتى ولو كانت واضحة في أدق تفاصيلها. وكان يقول لي باستمرار: «إذا كان ما تسعين إليه هو تأثير اللوحة، فارسمي يا أورورا. أما إذا كان ما ترغبين فيه هو الحقيقة، فتعلمي استخدام الكاميرا». لم تعاملني آماندا لويل على أنني طفلة قط، بل عاملتني بجدية منذ البداية. وكانت هي أيضاً مفتونة بالتصوير الذي لم يكن هناك من يعتبره فناً، ولم يكن في نظر الكثيرين سوى ترهة أخرى من الترهات الغريبة الكثيرة لهذا العصر المبتذل. وكانت تقول لي: «أنا مستهلَكة جداً ولم يعد بمقدوري تعلم التصوير، أما أنت فلك عينان فتيتان يا أورورا.. أنت تستطيعين رؤية العالم وإجبار الآخرين على رؤيته على طريقتك. فالصورة الجيدة تروي قصة، تكشف مكاناً، أو حدثاً، أو حالة معنوية، وهي أكثر تأثيراً من صفحات وصفحات مكتوبة». أما جدتي بالمقابل، فكانت تتعامل مع هواي للكاميرا على أنه نزوة مراهقة وكانت أكثر اهتماماً بتهيئتي للزواج وباختيار جهازي كعروس. فقد أدخلتني إلى مدرسة للآنسات، حيث كنت أحضر دروساً يومية لتعلم كيفية صعود الدرج ونزوله برشاقة، وكيفية طي الفوطة في المآدب، وإعداد وجبات متنوعة حسب المناسبات، وتنظيم ألعاب الصالونات، وتنسيق باقات الزهور، وهي المواهب التي تعتبرها جدتي كافية للانتصار في الحياة الزوجية. كانت تحب الشراء، فكنا ننفق أمسيات بكاملها في البوتيكات لننتقي خرقاً، وهي أمسيات كان بإمكاني استغلالها بصورة أفضل في التجول عبر باريس والكاميرا في يدي.

لا أعرف كيف انقضت السنة. فعندما كانت باولينا دل باي قد شفيت ظاهرياً من عللها، وكان فريدريك ويليامز قد تحول إلى خبير في أخشاب براميل النبيذ وفي صناعة الأجبان، من أشدها تعفناً إلى أكثرها ثقوباً، تعرفنا على دييغو دومينغث في حفلة رقص أقامتها المفوضية التشيلية في 18 أيلول، بمناسبة يوم الاستقلال. أمضيتُ ساعات أبدية بين يدي مصفف الشعر الذي بنى فوق رأسي برجاً من اللفائف والغدائر

Twitter: @ketab_n

المزينة باللآلئ، وقد كانت مأثرة باهرة إذا ما أخذنا في الاعتبار أن شعري كان أشبة بناصية حصان. وكان فستاني ابتكاراً زبدياً لكريما السكر ملطخاً بالخرز، وقد راحت حباته تتفلت خلال الليل وتزرع أرض المفوضية بالحصى. «لو كان بإمكان أبيك أن يراكِ الآن!»، هتفت جدتي بإعجاب عندما انتهيت من زينتي. كانت هي مزينة من رأسها حتى قدميها باللون الخبازي، لونها المفضل، مع فضيحة لآلئ وردية في عنقها، وخصل شعر اصطناعية مركبة ذات لون مريب يشبه لون خشب الماهاغوني، وأسنان خزفية لا تشوبها شائبة، ومعطف من القطيفة السوداء مطرز بالكهرمان الأسود من ياقته حتى الأرض. دخلت جدتي حفلة الرقص ممسكة بذراع فريدريك ويليامز، وأنا بذراع بحار من إحدى سفن الأسطول التشيلي كانت تقوم بزيارة ودية لفرنسا، وهو شاب باهت لم أعد قادرة على تذكر هيئته أو اسمه، تولى بمبادرة خاصة مهمة تعليمي كيفية استخدام الاسطرلاب في الإبحار. وقد أحسست براحة عظيمة عندما وقف دييغو دومينغث أمام جدتي ليقدم نفسه بكل ألقابه ويسألها إن كان بإمكانه الرقص معي. هذا ليس هو اسمه الحقيقي، فقد استبدلته في هذه الصفحات لأن كل ما يتعلق به وبأسرته يجب أن يبقى طي الكتمان. يكفي أن أعرف أنه كان موجوداً، وأن قصته صحيحة وأنني قد غفرت له. لمعت عينا باولينا دل بايي بحماس حين رأت دييغو دومينغث، لأننا وجدنا أمامنا أخيراً عريساً مقبولاً بقوة، ابن أناس معروفين، وثرياً بالتأكيد، وذا أساليب مهذبة، فضلاً عن وسامته. أومأت برأسها موافقة، فمدّ لي يده وخرجنا للإبحار. بعد الفالس الأول أخذ السيد دومينغيث بطاقة الرقص الخاصة بي، وملأها بخط يده، وشطب منها اسم خبير الاسطرلاب ومرشحين آخرين للرقص معي. عندئذ نظرت إليه بمزيد من الحذر ولا بد أنني وافقت على أنه يبدو جيداً، فهو يشع صحة وقوة، وله وجه لطيف، وعينان زرقاوان وقسمات رجولية. كان يبدو متضايقاً بسترة الفراك، ولكنه يتحرك بثقة ويرقص جيداً، أو أفضل مني بكثير على أي حال، فأنا أرقص مثل بجعة على الرغم من سنةٍ من الدروس المكثفة في مدرسة إعداد الآنسات؛ كما أن الارتباك كان يزيد من خراقتي. في تلك

Twitter: @ketab_n

الليلة، أحببت بكل عاطفة وطيش الحب الأول. كان دييغو دومينغث يقودني بيد حازمة في حلبة الرقص، وينظر إليّ بزخم وبصمت دائم تقريباً، لأن محاولاته لفتح حوار اصطدمت بإجاباتي المقتضبة. لقد كان حيائي تعذيباً، فلم أكن أستطيع تحمل نظرته، ولا أدري أين أوجه نظراتي؛ وحين أحسست بدفء أنفاسه على خدي، تراخت ساقاي؛ وكان علي أن أناضل بيأس ضد رغبتي في الخروج راكضة والاختباء تحت إحدى الطاولات. لقد قمتُ بدور محزن دون شك، وقد تسمر هذا الشاب عاثر الحظ إلى جانبي حين تهور بصلف وملأ بطاقتي باسمه وحده. قلت له في إحدى اللحظات بأنه غير مضطر إلى مواصلة الرقص معي إذا كان لا يريد ذلك. فرد علي بقهقهة، هي الوحيدة في تلك الليلة، ثم سألني عن عمري. لم تكن قد احتضنتي ذراعا رجل من قبل، ولم أكن قد شعرت مطلقاً بضغط راحة رجولية على فجوة خاصرتي. كانت إحدى يدي تستند إلى كتفه والأخرى في يده ذات القفاز، ولكن من دون الخفة البلهاء التي تطالب بها أستاذة الرقص، إذ كان يشدني بتصميم. وفي أثناء بعض الوقفات القصيرة كان يقدم لي كؤوساً من الشمبانيا، فأشربها لأنني لا أتجرأ على رفضها بالرغم من النتيجة المتوقعة بأن أدوس على قدميه أكثر خلال الرقص. وعندما بدأ وزير تشيلي بإلقاء كلمة في نهاية الرقص ليرفع نخب وطنه البعيد وفرنسا الجميلة، وقف دييغو دومينغث ورائي، قريباً بقدر ما يسمح به فستاني الرغوي، وهمس عند عنقي بأنني «لذيذة»، أو كلمة من هذا القبيل.

في الأيام التالية جالت باولينا دل بايي على أصدقائها الدبلوماسيين لتتقصى دون أي مداراة كل ما يمكنها معرفته عن أسرة دييغو دومينغث وخلفياته، قبل أن تسمح له بأخذي في جولة على الخيول عبر الشانزليزيه، تحت رقابتها المتكتمة هي والعم فريدريك من عربتهما. ثم تناولنا بعد ذلك المثلجات تحت بعض المظلات، ورمينا فتات خبز للبط، واتفقنا على الذهاب إلى الأوبرا في ذلك الأسبوع نفسه. ومن نزهة إلى نزهة، ومن مثلجات إلى أخرى وصلنا إلى شهر تشرين الأول. كان دييغو قد سافر إلى أوروبا مبعوثاً من أبيه في الرحلة الاجبارية التي يقوم بها

Twitter: @ketab_n

تقريباً جميع الشبان التشيليين من الطبقة الراقية، مرة في الحياة، من أجل أن يتفتحوا ويتحلحلوا. وبعد أن يجوب الشاب عدة مدن، ويزور بعض المتاحف والكاتدرائيات كجزء من الواجب، وينغمس في الحياة الليلية وفي الشيطنات النسائية، التي يُفترض أن تشفيه نهائياً من هذه الرذيلة وتمنحه مادة للتبجح أمام أصدقائه، يصبح جاهزاً للعودة إلى تشيلي برأس هادئ، لكي يعمل ويتزوج ويشكّل أسرة. ولو أنني قارنت دييغو دومينغث بسيفيرو دل بايي، الذي أحببته في طفولتي، لبدا قبيحاً، وبمقارنته بالآنسة ماتيلدي بينيدا، يبدو أحمق؛ ولكنني لم أكن في وضع يتيح لي إجراء مثل تلك المقارنات: فقد كنت واثقة من أنني قد وجدت الرجل الكامل ولم أكن قادرة على تصديق معجزة أنه قد نظر إلي. كان رأي فريدريك ويليامز أنه ليس من المناسب التشبث بأول عابر في الحياة، فأنا ما أزال فتية وسأجد فائضاً من المتوددين لكي أختار منهم بهدوء، ولكن جدتي تمسكت بأن هذا الشاب هو أفضل ما يمكن لسوق الزواج أن يقدمه، على الرغم من عقبة كونه مزارعاً ويعيش في الريف، بعيداً جداً عن العاصمة.

وقالت:

- ولكن السفر ممكن بالسفن والقطارات دون أي مشكلة.

فأوضحت لها وأنا مضرجة بالحمرة حتى أذني:

- لا تتسرعي كثيراً يا جدتي، فالسيد دومينغث لم يلمح إليّ بأي شيء مما تتصورينه.

- من الأفضل أن يفعل ذلك سريعاً، وإلا فإنني سأضطر إلى حشره ما بين الجدار والسيف.

فصرختُ مذعورة:

- لا!

- لن أسمح بأن يساء إلى حفيدتي. ولا يمكننا إضاعة الوقت. فإذا لم تكن لدى هذا الشاب نوايا جدية، فعليه أن يترك الميدان فوراً.

Twitter: @ketab_n

- ولكن، لماذا هذا التسرع يا جدتي؟ لقد تعارفنا للتو...

- أتعرفين كم سنة صار عمري يا أورورا؟ أربع وسبعون سنة. وقلة من الناس هم الذين يعيشون إلى هذه السن. يجب عليّ أن أؤمن لك زواجاً لائقاً قبل أن أموت.

- أنت خالدة يا جدتي.

فردت:

- لا يا بنيتي، إنني أبدو كذلك وحسب.

لا أدري إذا ما كانت قد حشرت دييغو في ذلك الموقع الذي خططت له، أو إذا ما كان هو نفسه قد فهم التلميحات واتخذ القرار بنفسه. فالآن، وقد أصبحت قادرة على النظر إلى تلك الواقعة عن بعد وبفكاهة، أدركُ أنه لم يقع قط في حبي، وإنما شعر ببساطة بمجاراة حبي غير المشروط، ولا بد أنه وضع في الميزان فوائد الزواج مني. ربما كان يشتهيني، لأننا كلانا كنا شابين ومهيئين للحب؛ وربما اعتقد أنه سيتوصل إلى محبتي مع مرور الزمن؛ وربما تزوج مني بدافع التكاسل والمنفعة. صحيح أن دييغو كان عرضاً مغرياً، ولكنني كنتُ كذلك أيضاً: فأنا أملك الدخل الذي خلّفة لي أبي، ويُفترض أنني سأرث ثروة من جدتي. ومهما تكن أسبابه ودوافعه، فإن ما جرى هو أنه طلب يدي ووضع في إصبعي خاتماً ماسياً. لقد كانت امارات الخطر جلية لكل من له عينان في وجهه، باستثناء جدتي التي أعماها الخوف من تركي وحيدة في الدنيا، وأنا التي كنت مجنونة حباً، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى العم فريدريك الذي أكد منذ البداية بأن دييغو ليس بالرجل المناسب لي. وبما أنه لم يكن يحب أن يقترب مني أحد خلال السنوات الأخيرة، فإننا لم نولِ رأيه اهتماماً، وظننا أنها الغيرة الأبوية. «يخيل إلي أن هذا الشاب بارد الطبع نوعاً ما»، هكذا كان يعلق في أحيان كثيرة، ولكن جدتي كانت تدحض قوله بأن ذلك ليس برودة وإنما احترام، مثلما يليق بسيد تشيلي كامل.

دخلت باولينا في دوامة مشتريات جنونية. فكانت حزم المشتريات في ذلك التسرع تمضي مباشرة إلى الصناديق دون فتحها، وفيما بعد،

Twitter: @ketab_n

عندما أخرجناها إلى الضوء في سنتياغو، وجدنا أن هناك قطعتين من كل شيء وأن نصف ما اشتريناه لا يناسب مقاسي. فعندما علمت أن دييغو دومينغث سيرجع إلى تشيلي، اتفقت معه على الرجوع في الباخرة نفسها، لأن ذلك سيمنحنا بعض الأسابيع للتعارف بصورة أفضل، على حد قولهما. أبدى فريدريك ويليامز الاستياء وحاول أن يحبط هذه الخطط، ولكن لم تكن هناك قوة في هذا العالم قادرة على مواجهة تلك السيدة عندما يتغلغل أمر ما بين أذنيها، وقد كان هاجسها في تلك اللحظة هو تزويج حفيدتها. ما أتذكره من الرحلة قليل، فقد مضت في غمامة من التمشي على سطح المركب، وألعاب الكرة والورق، وحفلات الكوكتيل والرقص حتى بوينس آيرس، حيث انفصلنا لأن عليه أن يشتري بعض ثيران التلقيح ويقتادها من دروب الأنديز الجنوبية إلى مزرعته. ولم تُتَح لنا إلا فرص قليلة للقاء منفردين أو لتبادل الحديث دون شهود، وقد عرفتُ ما هو أساسي عن سنوات ماضيه الثلاث والعشرين وعن أسرته، ولكنني لم أكد أعرف شيئاً عن أذواقه ومعتقداته وطموحاته. وقد قالت له جدتي إن أبي ماتياس رودريغيث دل سانتا كروث قد توفي، وإن أمي أمريكية لا نعرفها لأنها ماتت أثناء ولادتي، وهو ما يتفق مع الحقيقة. ولم يبد دييغو فضولاً لمعرفة المزيد؛ كما أنه لم يهتم بشغفي بالتصوير، وعندما أوضحتُ له بأنني لا أفكر بالتخلي عن التصوير، قال إنه لا يمانع في ذلك، فأخته ترسم رسوماً مائية وزوجة أخيه تطرز بالغرزة المصلبة. ولم نتوصل في الحقيقة، خلال الرحلة البحرية الطويلة، إلى التعارف، ولكننا رحنا نتورط في الشبكة العنكبوتية المتينة التي نسجتها جدتي، بنوايا طيبة، من حولنا.

بما أنه لم يكن هناك في الدرجة الأولى في عابرة المحيطات إلا القليل مما يستحق التصوير، اللهم إلا فساتين السيدات وتنسيقات الزهور في قاعة الطعام، فقد كنتُ أُكثر من النزول إلى الطوابق السفلى لألتقط صوراً، وخصوصاً لمسافري الدرجة الأخيرة الذين يمضون مكومين في بطن السفينة: إنهم عمال ومهاجرون إلى أميركا في محاولة للثراء، روس، وألمان، وإيطاليون، ويهود، وأناس يسافرون وليس في جيوبهم إلا

Twitter: @ketab_n

القليل، ولكن قلوبهم مفعمة بالآمال. بدا لي أنهم، بالرغم من عدم الراحة وقلة الموارد، يقضون وقتهم بصورة أفضل من مسافري الدرجة العليا، حيث كل شيء متصنع واحتفالي وممل. فقد كانت تسود بين المهاجرين رفاقية سهلة، الرجال يلعبون الورق أو الدومينو، والنساء يشكلن جماعات ليتحدثن عن حيواتهن، والأطفال يرتجلون قصبات لصيد السمك أو يلعبون لعبة الاختباء؛ وفي المساء تتألق الجيتارات والأكورديونات والنايات والكمانات، وتُقام حفلات غناء ورقص وبيرة مرحة. ولم يبد أن هناك من يهتم منهم بوجودي، فهم لا يوجهون إلي أسئلة، وبعد أيام قليلة صاروا يتقبلونني كواحدة منهم، فأتاح لي ذلك تصويرهم على هواي. لم يكن بإمكاني معالجة النيغاتيفات في السفينة، ولكنني كنت أصنفها بدقة لأقوم بذلك في سنتياغو فيما بعد. وفي إحدى تلك النزهات في الطبقات السفلية التقيت وجهاً لوجه مع آخر شخص أنتظر وجوده هناك. فهتفت لدى رؤيته:

- جنكيز خان!

- أظن أنك مخطئة يا آنسة...

فاعتذرت وأنا أشعر ببلاهتي:

- أرجو المعذرة يا دكتور رادوفيتش...

سألني مستغرباً:

- هل نعرف بعضنا؟

- ألا تتذكرني؟ أنا حفيدة باولينا دل بايي.

- أأنت أورورا؟ يا للمفاجأة، ما كان بمقدوري التعرف عليك مطلقاً. كم تغيرت!

صحيح أنني كنت قد تغيرت. فقد عرفني قبل سنة ونصف وأنا أرتدي ملابس طفلة وهو يجد الآن أمام عينيه امرأة كاملة، تحمل آلة تصوير معلقة في عنقها وخاتم خطوبة في إصبعها. في هذه الرحلة بدأت الصداقة التي ستغير في النهاية مسار حياتي. لم يكن بإمكان

Twitter: @ketab_n

الدكتور إيفان رادوفيتش، مسافر الدرجة الثانية، أن يصعد إلى الدرجة الأولى دون دعوة، أما أنا فأستطيع النزول لزيارته، وقد فعلت ذلك بكثرة. كان يحدثني عن عمله بالشغف نفسه الذي أحدثة به أنا عن التصوير؛ كان يراني أستخدم الكاميرا، ولكنني لم أستطع أن أريه شيئاً مما فعلته من قبل، لأن الصور كانت في أعماق صناديق الأمتعة، فوعدته بأن أريه إياها عندما نصل إلى سنتياغو. ولم تجر الأمور على هذا النحو مع ذلك، لأنني خجلت فيما بعد من استدعائه من أجل هذا الهدف؛ فقد بدا لي ذلك علامة غرور، ولم أشأ إضاعة وقت رجل مشغول بإنقاذ حيوات الناس. وحين علمت جدتي بوجوده في السفينة، دعته على الفور لتناول الشاي في شرفة جناحنا. وقالت له مازحة: «بوجودك هنا أشعر بالأمان وأنا في عرض البحر يا دكتور. فإذا ما خرجت لي كريفونة أخرى في بطني، فسوف تأتي وتنتزعها بسكين مطبخ». وتكررت الدعوات لتناول الشاي مرات كثيرة، تتلوها ألعاب الورق. وقد أخبرنا إيفان رادوفيتش بأنه أنهى تدربه العملي في مستشفى الدكتور هوبز، وهو عائد إلى تشيلي للعمل في مستشفى.

فالحت جدتي التي أحست بالتعاطف معه:

- لماذا لا تفتتح مشفى خاصة يا دكتور؟

- لن أستطيع مطلقاً امتلاك رأس المال والعلاقات اللازمة لذلك يا سيدة دل بايي.

- أنا مستعدة للاستثمار إذا ما وافقت.

- لا يمكنني بأي حال أن أسمح بأن...

فقاطعته جدتي:

- لن أفعل ذلك من أجلك، وإنما لأنه استثمار جيد يا دكتور رادوفيتش. فالجميع يمرضون، والطب تجارة عظيمة.

- أعتقد بأن الطب ليس تجارة، وإنما هو حق يا سيدتي. وأنا مجبر كطبيب على تقديم خدماتي، وآمل أن تصبح الخدمات الصحية يوماً في

Twitter: @ketab_n

متناول كل تشيلي.

- هل أنت اشتراكي؟ - سألته جدتي بتكشيرة قرف، لأنها صارت ترتاب بالاشتراكيين منذ «خيانة» الآنسة ماتيلدي بينيدا.

- أنا طبيب يا سيدة دل بايي. ومعالجة الناس هي كل ما يهمني.

رجعنا إلى تشيلي في أواخر كانون الأول 1898 فوجدنا أنفسنا في بلد في خضم أزمة أخلاقية. لم يكن هناك أحد، ابتداء من ملاكي الأراضي الأغنياء، وحتى معلمي المدراس أو عمال ملح البارود، راضياً عن قدره أو عن الحكومة. بدا كما لو أن التشيليين قد استسلموا لنقاط ضعفهم، مثل السكر والكسل والسرقة، أو العيوب الاجتماعية، مثل البيروقراطية المتعبة، والبطالة، وتقصير العدالة، والفقر الذي يتناقض مع بذخ الأغنياء الوقح، ويولد سخطاً متنامياً وأصم ينتشر من الشمال إلى الجنوب. لا نتذكر أن سنتياغو كانت بمثل تلك الوساخة، وبمثل تلك الأعداد من الناس البائسين، والبيوت التي تعيث بها الصراصير، وكل أولئك الأطفال الذين يموتون قبل أن يستطيعوا المشي. الصحافة تؤكد أن معدل الوفيات في العاصمة يضاهي معدل الوفيات في كلكوتا. كان بيتنا في شارع الجيش المحرّر قد بقي في رعاية عمتين بعيدتي القرابة ومفتقرتين، مثل المنتسبين الكثيرين الذين لا تخلو منهم أي أسرة تشيلية، وعدد محدود من الخدم. كانت العمتان تحكمان تلك الممتلكات منذ أكثر من سنتين، وقد استقبلتانا دون حماسة كبيرة، وبرفقتهما **كراميلو** الذي هرم كثيراً إلى حد لم يستطع معه التعرف عليّ. كانت الحديقة قد تحولت إلى دغل متشابك، وبحيرات النوافير العربية كانت ظامئة، الصالونات تنبعث منها رائحة قبر، والمطابخ تبدو أشبه بزرائب، وكان هناك براز فئران تحت الأسرة، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يثبط من عزيمة باولينا دل بايي التي جاءت وهي مستعدة لإقامة زفاف القرن، ولن تسمح لشيء، لا لسنها، ولا لحر سنتياغو، ولا لطبعي الانزوائي، بأن يحول دون ذلك. لديها شهور الصيف التي يذهب فيها الجميع إلى

Twitter: @ketab_n

الساحل أو إلى الريف، لكي تعيد ترتيب البيت، لأن الحياة الاجتماعية تبدأ زخمها في الخريف، ويجب التحضير لحفلة زفافي في شهر أيلول، بداية الربيع، وهو شهر الأعياد الوطنية والعرائس، بعد سنة بالضبط من لقائي الأول مع دييغو. تولى فريدريك ويليامز التعاقد مع جيش من البنائين، والنجارين، والبستانيين، والخدم الذين انهمكوا في مهمة تجديد تلك الكارثة بالإيقاع التشيلي المعهود، أي دون تسرع شديد. جاء الصيف مغبراً وقائظاً، برائحته العابقة بالدراقن وصرخات الباعة المتجولين المنادين على لذائذ الفصل. القادرون خرجوا في إجازات إلى الريف أو الشاطئ؛ وكانت المدينة تبدو ميتة. جاء سيفيرو دل بايي لزيارتنا محملاً بأكياس خضار، وسلال فواكه، وأخبار جيدة عن الكروم؛ وكانت بشرته محمصة، وأكثر سمنة ووسامة من أي وقت مضى. نظر إلي بفم مفتوح من الدهشة، متفاجئاً بأنني البنية نفسها التي ودعها قبل سنتين من ذلك، جعلني أدور حول نفسي كخذروف ليتفحصني من كل الزوايا، وكان حكمه الكريم بأن هناك في هيئتي شبهاً مع أمي. وقد تلقت جدتي ذلك التعليق باستياء، إذ لا يمكن الإتيان على ذكر ماضيّ بحضورها، فحياتي في نظرها تبدأ حين اجتزت عتبة قصرها في سان فرانسيسكو، وأنا في الخامسة من عمري، وما قبل ذلك لا وجود له. كانت نيفيا قد بقيت في العزبة مع الأطفال، لأنها على وشك وضع مولود جديد، وهي ثقيلة بحيث لا يمكنها القيام بهذه الرحلة إلى سنتياغو. وقال سيفيرو دل بايي إن إنتاج الكروم يبشر بمحصول وفير لهذه السنة، وهم يفكرون بجني محصول النبيذ الأبيض في آذار ومحصول النبيذ الأحمر في شهر نيسان، ثم أضاف بأن هناك بعض دوالي النبيذ الأحمر مختلفة تماماً وتنمو مختلطة مع الأخريات، فهي أكثر حساسية، وتتعفن بسهولة، وتتاخر في النضوج. ومع أنها تعطي ثماراً ممتازة، إلا أنه يفكر في اقتلاعها لتجنب المشاكل. أوقفت باولينا دل بايي أذنيها على الفور، ورأيتُ في حدقتيها وميض الجشع الخافت الذي يشير عادة إلى أن فكرة مريحة قد خطرت لها. وقالت:

- انقلها فور بدء الخريف وازرعها منفصلة عن الأخريات. اعتن بها

Twitter: @ketab_n

جيداً، وسنصنع منها في السنة القادمة نبيذاً خاصاً.

فسالها سيفيرو:

- ولماذا نُورط أنفسنا في كل هذا؟

- إذا كانت هذه الأعناب تنضج متأخرة، فلا بد أن تكون أكثر جودة وتركيزاً. ولا شك في أن نبيذها سيكون أفضل بكثير.

- إننا ننتج أحد أفضل الأنبذة في البلاد يا عمتي.

فتوسلت إليه جدتي بالنبرة الملاطفة التي تستخدمها قبل أن تصدر أمراً:

- أمنحني هذه المتعة يا ابن أخي، أفعل ما أطلبه منك...

لم أستطع رؤية نيفيا حتى يوم زفافي بالذات، عندما جاءت وهي تحمل وليداً جديداً لتهمس لي بسرعة المعلومات الأساسية التي يتوجب على كل عروس أن تعرفها قبل شهر العسل، ولم يكن أحد قد أزعج نفسه بإخباري بها. ولكن عذريتي لم تكن تحميني مع ذلك من الطفرات العاطفية الغريزية التي لم أكن أعرف كيف أسميها، فقد كنت أفكر بدييغو ليلاً ونهاراً، ولم تكن أفكاري عفيفة دوماً. كنت أشتهيه، ولكن دون أن أعرف جيداً لماذا. أرغب في أن أكون بين ذراعيه، وأن يقبلني مثلما فعل في مناسبتين سابقتين، وأن أراه عارياً. ولم أكن قد رأيت رجلاً عارياً من قبل، وأعترف بأن الفضول كان يؤرقني. كان هذا هو كل شيء، أما بقية الطريق، فكانت سراً مغلقاً. وكانت نيفيا باستقامتها الوقحة هي الوحيدة القادرة على تعليمي، ولكنها لن تفعل ذلك إلا بعد عدة سنوات، عندما توفر الوقت والفرصة لتعميق صداقتنا، وستروي لي عندئذ أسرار علاقتها الحميمية بسيفيرو دل بايي وتكشف لي بالتفصيل، وهي تموت من الضحك، الأوضاع التي تعلمتها من مجموعة خالها خوسيه فرانثيسكو بيرغارا. وكنتُ في ذلك الحين قد خلّفت البراءة ورائي، ولكنني ما أزال جاهلة في الشؤون الايروتيكية، مثلما هن جميع النساء، ومعظم الرجال أيضاً، حسب رأي نيفيا. وقالت لي: «لولا كتب خالي، لكنت أنجبت

Twitter: @ketab_n

خمسة عشر ابناً دون أن أعرف كيف». وقد أفادتني نصائحها، التي جعلت شعر عماتي ينتصب، في حبي الثاني، ولكنها ما كانت ستفيدني شيئاً في حبي الأول.

عشنا طوال أكثر من ثلاثة شهور معسكرين في أربع غرف من البيت في شارع الجيش المحرِّر، نلهث من الحر. لم أضجر، لأن جدتي جددت على الفور أعمالها الخيرية، بالرغم من أن جميع عضوات نادي السيدات كن قد ذهبن للاصطياف. كان الانضباط قد تراخى في غيابها، وكان عليها أن تمسك مجدداً بزمام أعمال الإحسان القسرية؛ عدنا لزيارة المرضى والأرامل والمخبولين، ولتوزيع الطعام والاشراف على القروض للنساء الفقيرات. هذه الفكرة التي كانوا يسخرون منها حتى في الصحف، لأن أحداً لم يكن يفكر بأن المستفيدات - وجميعهن في الحالة الأخيرة من العوز - سيُعدن النقود، أعطت نتائج طيبة إلى حد قامت معه الحكومة بمحاكاتها. فالنساء لم يكن يدفعن القروض بدقة في مبالغ شهرية وحسب، بل كن يتبادلن المساندة فيما بينهن، فإذا لم تستطع إحداهن الدفع، تدفع الأخريات عنها. أظن أنه قد خطر لباولينا دل بايي أنه يمكنها أن تتقاضى منهن فوائد، وأن تحوّل الإحسان إلى تجارة، ولكنني أوقفتها بحزم حين انتهرتها: «كل شيء له حدود يا جدتي، حتى الجشع». وقد جعلتني مراسلاتي العاطفية مع دييغو أتتبع وصول البريد. واكتشفت أنني قادرة في الرسائل على التعبير عما لا أستطيع أن أعبر عنه أبداً وجهاً لوجه؛ فالكلمة المكتوبة تطلق العنان بعمق. وفأجأتُ نفسي أقرأ أشعار حب بدلاً من الروايات التي كانت تروقني من قبل؛ فإذا كان شاعر ميت في الجانب الآخر من العالم قد استطاع أن يصف مشاعري بكل تلك الدقة، فلا بد لي من الاعتراف بمذلة بأن حبي ليس حدثاً استثنائياً، وبأنني لم أخترع جديداً، وبأن الجميع يحبون بالطريقة نفسها. كنتُ أتخيل خطيبي يعدو على صهوة جواد عبر أراضيه كبطل خرافي ذي مظهر متين، نبيل، ثابت، مهيب.. رجل قوي سأكون في مأمن بين يديه؛ وسيجعلني سعيدة، ويمنحني حماية، وأبناء، وحباً سرمدياً. كنتُ ألمح مستقبلاً قطنياً وسكرياً نطفو فيه متعانقين إلى الأبد. كيف هي رائحة

Twitter: @ketab_n

جسد الرجل الذي أحبه؟ إنها رائحة دُبال الغابات التي ينحدر منها، أو شذى فرن الخبز العذب، أو ربما رائحة ماء البحر، مثل ذلك العبق المتفلت الذي يداهم أحلامي منذ الطفولة. ويُثقل علي فجأة، مثل نوبة ظمأ، الإحساس بحاجتي إلى شم دييغو، فأتوسل إليه في رسالة أن يبعث إليّ أحد مناديله التي يربطها حول عنقه أو قميصاً من قمصانه دون غسل. كانت ردود خطيبي على هذه الرسائل الملتهبة سرداً رصيناً لوقائع الحياة في الريف - الأبقار، القمح، العنب، السماء الصيفية دون مطر - وتعليقات متحفظة حول أسرته. ولم يبعث بالطبع أياً من مناديله أو قمصانه. وفي السطور الأخيرة يذكرني بكم يحبني، وكم سنكون سعداء في البيت الطيني والقرميدي البارد الذي يشيده لنا أبوه في أراضيهم، مثلما بنى من قبل لأخيه إدواردو حين تزوج من سوزانا، ومثلما سيفعل من أجل أخته آديلا حين تتزوج. منذ أجيال وآل دومينغث يعيشون معاً على الدوام؛ ويقول لي دييغو إن حب المسيح، واتحاد الاخوة، واحترام الأبوين، والعمل القاسي، هي مرتكزات أسرته.

كان لدي فائض من الوقت بالرغم من كل ما كنت أكتبه وأتنهده وأنا أقرأ الأشعار، وهكذا رجعت إلى استوديو دون خوان ريبيرو، وصرت أجول في المدينة لألتقط صوراً، وأعمل ليلاً في غرفة التظهير التي أقمتها في البيت. كنت أجرب الطبع بالبلاتين، وهي تقنية محدثة تنتج صوراً جميلة جداً. الطريقة بسيطة، وإن كانت أكثر كلفة، ولكن جدتي كانت تتحمل النفقات. وتتمثل العملية في طلاء الورق بفرشاة مغموسة في محلول البلاتين، وتكون النتيجة صوراً ذات تدرجات لون دقيقة، مشرقة، واضحة، وذات عمق كبير، وتبقى ثابتة لا تتبدل. لقد انقضت عشر سنوات وما زالت تلك الصور هي الأكثر بهاء في مجموعتي. حين أراها، تبرز ذكريات كثيرة أمامي بالصفاء نفسه الذي تبدو به تلك الصور المطبوعة بالبلاتين. يمكنني رؤية جدتي باولينا، وسيفيرو، ونيفيا، وأصدقاء وأقارب آخرين، كما يمكنني رؤية نفسي في بعض الصور الذاتية مثلما كنتُ آنذاك، قبل وقوع الأحداث التي ستبدل حياتي بالضبط.

عندما طلع صباح يوم الثلاثاء الثاني من شهر آذار، كان البيت

Twitter: @ketab_n

متشحاً بالأبهة، فقد أقيمت تمديدات غاز حديثة، وهاتف، ومصعد لجدتي، وورق جدران مجلوب من نيويورك، وسجاجيد صغيرة قشيبة على الأثاث، وكانت الأرضية الخشبية قد شُمِّعت للتو، والبرونز قد لُمِّع، والزجاج قد غُسل، ومجموعة اللوحات الانطباعية عُلقت في الصالات. وكان هناك جيش جديد من الخدم يرتدون زياً موحداً تحت إمرة قهرمان أرجنتيني استولت عليه باولينا دل بايي من فندق كريتون بأن دفعت له أجراً مضاعفاً، وقد حذرتها:

- سينتقدوننا يا جدتي. لا وجود لقهرمان عند أحد... هذا تصنع متبجح.

- ليس مهماً. فأنا لا أريد أن أتصارع مع خادمات هنديات مابوتشيات ينتعلن الصنادل ويُفلتن من شعورهن في الحساء، ويقدمن لي الأطباق خبطاً على المائدة - ردّت عليّ وهي مصممة على إبهار مجتمع العاصمة عموماً وأسرة دييغو دومينغث بصورة خاصة.

وهكذا انضم الخدم الجدد إلى القدماء الذين يعملون في البيت منذ سنوات، ولا يمكن صرفهم بالطبع. فصارت هناك أعداد من العاملين في الخدمة يقضون الوقت في البطالة ويتعثر بعضهم بالبعض، وكثرت الدسائس والأقاويل، مما اضطر ويليامز في النهاية إلى التدخل لفرض النظام، لأن القهرمان الأرجنتيني لم يعرف من أين يبدأ. وقد أحدث ذلك صدمة قوية، لأن أحداً لم ير من قبل سيد بيت يتنازل إلى مستوى الأمور المنزلية، ولكنه أنجز ذلك على أكمل وجه؛ وأفادت في شيء خبرته الطويلة في المهنة. لا أظن أن دييغو دومينغث وأسرته، وهم أول الزائرين الذين جاؤونا، قد أعجبوا بأناقة الخدم، بل على العكس، فقد ارتبكوا أمام كل تلك الأبهة. إنهم ينتمون إلى إحدى أقدم السلالات الاقطاعية في الجنوب، ولكنهم على خلاف معظم مالكي الأراضي في تشيلي، ممن يقضون حوالي شهرين في أراضيهم ويعيشون بقية الوقت من دخلها في سنتياغو أو في أوروبا، كانوا يولدون ويكبرون ويموتون في الريف. فهم أناس ذوو تقاليد أسرية راسخة، عميقة الكاثوليكية والبساطة، دون شيء

Twitter: @ketab_n

من مظاهر التكلف التي تفرضها جدتي، والتي بدت لهم بالتأكيد منحطة بعض الشيء وقليلة المسيحية. وقد لفت اهتمامي أن عيونهم جميعهم زرقاء، باستثناء سوزانا، زوجة أخ دييغو، فهي حسناء سمراء ذات مظهر ناعس، مثل لوحة رسم إسبانية. وقد ارتبكوا على المائدة من تعدد أدوات الطعام من الملاعق والشّوك والسكاكين، ومن أكواب الشراب الستة المتنوعة، ولم يذق أي منهم البط المتبل بالبرتقال، وارتعبوا قليلاً حين جاءت الحلوى على نار مشتعلة. ولدى رؤية استعراض الخدم ذوي الزي الموحد، سألت دونيا إلفيرا، والدة دييغو، لماذا يوجد كل هؤلاء العسكريين في البيت. ووقفوا مذهولين أمام اللوحات الانطباعية، موقنين من أنني قد رسمتُ تلك السخافات، ومن أن جدتي - بحماقة خالصة - علقتها على الجدران، ولكنهم استمتعوا بكونشيرتو القيثارة والبيانو القصير الذي قدمناه لهم في قاعة الموسيقى. وكانت المحادثة معهم تموت عند الجملة الثانية، إلى أن فتحت ثيران التلقيح باب الحديث عن إنتاج المواشي، وقد شدّ الموضوع اهتمام باولينا دل بايي، التي كانت تفكر دون شك في إقامة صناعة الأجبان بالاشتراك معهم، نظراً لأعداد الأبقار التي يملكونها. وإذا ما كانت لدي شكوك حول حياتي المستقبلية في الريف إلى جانب قبيلة خطيبي، فإن هذه الزيارة قد بددتها تماماً. لقد أحببت هؤلاء الفلاحين المتحدرين من أرومة قديمة، الطيبين دون ادعاء، أحببت الأب المتورد بحمرة الدم والضحوك، والأم شديدة البراءة، والأخ الأكبر اللطيف والرجولي، والكنة الغامضة والأخت الصغرى المرحة كطائر كناري، هؤلاء الناس الذين قاموا برحلة تستغرق عدة أيام لكي يتعرفوا عليّ. لقد تقبلوني بتلقائية، وأنا واثقة من أنهم انصرفوا وهم حائرون بعض الشيء من أسلوب حياتنا، ولكن دون أن ينتقدونا، لأنهم يبدون غير قادرين على إساءة الظن بأحد. فلأن دييغو قد اختارني، اعتبروني فرداً من الأسرة، وكان ذلك كافياً بالنسبة إليهم. لقد أتاحت لي بساطتهم أن أسترخي، وهو نادراً ما يحدث لي مع الغرباء، وبعد قليل وجدت نفسي أتبادل الحديث مع كل واحد منهم، فأروي لهم أشياء عن الرحلة إلى أوروبا وعن ولعي بالتصوير. «أريني صورك يا أورورا»، طلبت مني ذلك دونيا إلفيرا،

Twitter: @ketab_n

وعندما فعلتُ لم تستطع مواراة خيبة أملها. أظنها كانت تنتظر شيئاً أكثر إنعاشاً من تجمعات العمال المضربين، والبيوت المشتركة البائسة، والأطفال ذوي الأسمال الذين يلعبون في السواقي، والاضطرابات الشعبية العنيفة، والمواخير، والمهاجرين المحزونين فوق حزم أمتعتهم في عنبر سفينة. فتلعثمت السيدة القديسة: «ولكن، لماذا لا تلتقطين صوراً جميلة يا ابنتي؟ لماذا تدخلين مثل هذه المجاهل؟ هناك مناظر جميلة كثيرة في تشيلي...» وكنت أود أن أشرح لها بأنني لا أهتم بالأشياء الجميلة، وإنما بهذه الوجوه المدبوغة بالجهد والمعاناة، ولكنني أدركت أنها ليست اللحظة المناسبة. سيكون هناك متسع من الوقت فيما بعد لكي أُعرِّف بنفسي أمام حماتي المستقبلية وبقية أفراد الأسرة.

وقد أنبتني باولينا دل بايي بعد أن غادروا:

– لماذا أريتهم هذه الصور؟ آل دومينغث دقة قديمة، وما كان عليك أن ترعبيهم بأفكارك الحديثة يا أورورا.

فرددتُ عليها:

– لقد كانوا مرعوبين على أي حال من أبهة هذا البيت ومن اللوحات الانطباعية، ألا ترين ذلك يا جدتي؟ ثم لا بد لدييغو وأسرته من أن يعرفوا أي نوع من النساء أنا.

– أنت لست امرأة بعد، وإنما طفلة. ستتبدلين، وستنجبين أبناء، وعليك أن تتقولبي وفق أجواء زوجك.

– سأبقى دائماً الشخص نفسه، ولا أريد التخلي عن التصوير. فهو ليس مثل الرسوم المائية التي ترسمها أخت دييغو، أو مثل تطريز زوجة أخيه، إنه جزء أساسي من حياتي.

فاختتمت جدتي:

– حسن، تزوجي أولاً ثم افعلي بعد ذلك ما تشائين.

لم ننتظر حتى أيلول، مثلما كان مخططاً، وإنما كان علينا أن نتزوج في منتصف نيسان، لأن دونيا إلفيرا دومينغث أصيبت بنوبة قلبية

Twitter: @ketab_n

خفيفة، وبعد أسبوع من ذلك، حين استعادت عافيتها بما يكفي لتخطو عدة خطوات بمفردها، أعربت عن رغبتها في رؤيتي زوجة لابنها دييغو قبل أن تغادر هذا العالم. وقد وافقتها بقية الأسرة الرأي، لأنه إذا ما ماتت السيدة فسوف يتأجل الزواج مدة سنة على الأقل من أجل الحِداد النظامي. اضطرت جدتي للرضوخ وتعجيل الأمور، ونسيان الحفلة الأميرية التي كانت تخطط لها، وتنفستُ أنا الصعداء، لأن عرض نفسي أمام عيون نصف أهالي سنتياغو وأنا أدخل الكتدرائية ممسكة بذراع فريدريك ويليامز أو سيفيرو دل بايي، تحت وابل من القصاصات البيضاء، مثلما خططت جدتي، كان يثير قلقي.

ما الذي يمكنني أن أقوله عن لقائي الغرامي الأول مع دييغو دومينغث؟ القليل. لأن الذاكرة تطبع الأمور بالأبيض والأسود، أما الذكريات الرمادية فتضيع في الطريق. ربما لم يكن ذلك اللقاء بائساً مثلما أتذكره، ولكنني نسيت التلونات الخفيفة، ولم أعد أحتفظ إلا بإحساس عام من الاحباط والحنق. بعد حفلة الزفاف المحدودة في بيت شارع الجيش المحرِّر، ذهبنا إلى الفندق لقضاء تلك الليلة، قبل أن نغادر لمدة أسبوعين إلى بوينس آيرس، لأن صحة دونيا إلفيرا المزعزعة لم تكن تسمح بالذهاب أبعد من ذلك. عندما ودّعت جدتي أحسست بأن مرحلة من حياتي قد انتهت تماماً. وحين عانقتها أيقنت من مدى حبي لها ومن مقدار تضاؤلها، فقد كنتُ أطول منها قامة بمقدار نصف رأس، وراودني هاجس بأنه لم يبق لها وقت طويل في الحياة، فهي تبدو ضئيلة وهشة.. عجوزاً مرتعشة الصوت وبركبتين صوفيتين. لم يبق فيها إلا القليل من السيدة المهيبة التي جعلت معطفها فستاناً طوال أكثر من سبعين سنة، وتحكمت بمقدرات أسرتها مثلما شاءت لها أهواؤها. وكان فريدريك ويليامز إلى جانبها يبدو مثل ابنها، لأن السنين لم تؤثر به، كما لو أنه منيع على تردي الفانين. وحتى اليوم السابق للزفاف، بقي العم فريدريك الطيب يتوسل إليّ، من وراء ظهر جدتي، بألا أتزوج إذا كنتُ غير متأكدة،

Twitter: @ketab_n

وفي كل مرة كنتُ أقول له إنني لم أكن متأكدة من شيء على الإطلاق مثلما أنا متأكدة هذه المرة. لم يكن يخامرني الشك في حبي لديغو دومينغث. وكلما اقترب موعد حفلة الزفاف كان نفاد صبري يزداد. أنظر إلى نفسي وأنا عارية أو مرتدية قمصان النوم الرقيقة المخرمة التي اشترتها لي جدتي من فرنسا، وأتساءل جزعة إن كان سيجدني جميلة. وكانت شامة العنق أو قتامة حلمتي صدري تبدو لي عيوباً مريعة. هل سيشتهيني مثلما أشتهيه؟ وقد تقصيت ذلك في تلك الليلة الأولى في الفندق. كنا متعبين، فقد أكلنا كثيراً، وشرب هو أكثر من المطلوب، وكنتُ أنا أيضاً قد أفرغت ثلاث كؤوس من الشمبانيا في جسدي. حين دخلنا الفندق تظاهرنا بعدم المبالاة، ولكن الرز الذي كان يتساقط منا على الأرض كشف وضعنا كعريسين حديثين. وكان خجلي عظيماً من وجودي وحيدة مع ديغو، وافتراضي بأن هناك في الخارج من يتخيلنا نمارس الحب، فحبست نفسي في الحمّام وأنا أشعر بالغثيان، وبقيت هناك طويلاً إلى أن طرق زوجي المتألق الباب برفق ليستفسر إذا كنت ما أزال على قيد الحياة. أخذني من يدي إلى الغرفة، وساعدني في خلع القبعة المعقدة، وحلّ دبابيس شعري، وخلصني من سترة جلد الغزال، وفكّ الألف زر لؤلؤي في بلوزتي، وحررني من التنورة الثقيلة والتنانير الداخلية إلى أن لم يبق عليّ سوى القميص القطني الرقيق الذي أرتديه تحت المشد. وكلما كان يجردني من ملابسي، كنتُ أشعر بأنني أذوب كالماء، أتلاشى، أُختزل إلى مجرد هيكل عظمي وهواء. قبلني ديغو من شفتي، ولكن ليس مثلما تخيلت مرات ومرات في الشهور السابقة، وإنما بقوة وسرعة؛ ثم صارت القبلة أكثر هيمنة بينما يداه تجردانني من القميص الذي كنت أحاول تثبيته لرعبي من فكرة أن يراني عارية. وقد وضعتني مداعباته المتسرعة وانكشاف جسده الملتصق بجسدي، في موقف دفاعي شديد الزخم إلى حد رحتٍ أرتعش معه وكأنني أشعر بالبرد. سألني متضايقاً عما أصابني وأمرني بأن أحاول الاسترخاء، ولكنه حين رأى أن هذا الأسلوب يزيد الأمور سوءاً، بدّل نبرة صوته، وطلب مني ألا أخاف ووعدني بأن يكون حذراً. نفخ على المصباح وتدبر الأمر بطريقة ما

Twitter: @ketab_n

ليقتادني إلى السرير، وأما ما تبقى فقد حدث بسرعة. لم أفعل شيئاً لمساعدته. بقيت جامدة مثل دجاجة منومة، محاولة أن أتذكر، دون جدوى، نصائح نيفيا. وخلال لحظات قصيرة اخترقني سيفه، وتمكنت من كبح صرخة وأحسست بطعم الدم في فمي. أشد ذكرياتي صفاء من تلك الليلة هي خيبة الأمل. أهذه هي العاطفة التي أراق من أجلها الشِّعرُ كل ذلك الحبر؟ واساني دييغو بالقول إن المرة الأولى تكون هكذا على الدوام، وأننا سنتعلم مع مرور الوقت كيف نعرف بعضنا وكل شيء سيكون أفضل، ثم قبلني قبلة عفيفة على جبهتي، وأدار لي ظهره دون أن يقول كلمة أخرى، واستغرق في النوم مثل طفل رضيع، بينما بقيت أنا أحرس الظلمة بخرقة بين ساقي وألم حارق في البطن والروح. كنت على درجة من الجهل لا تتيح لي إدراك سبب خيبة أملي، بل إنني لم أكن أعرف تعبير اللذة الجنسية، ولكنني كنتُ قد استكشفتُ جسدي من قبل وعرفت بعض المواضع التي تختبئ فيها هذه اللذة المزلزلة القادرة على قلب الحياة رأساً على عقب. لقد أحس بها دييغو في داخلي، وهذا جلي تماماً، أما أنا فلم أذق سوى الغم. أحسست بأنني ضحية ظلم بيولوجي فظيع: فالجنس بالنسبة للرجل أمر سهل - بل ويمكنه الحصول عليه بالقوة - أما بالنسبة إلينا فهو بلا لذة وبنتائج خطرة. هل يجب أن نضيف إلى اللعنة الإلهية بالولادة في الألم، لعنة الحب دون استمتاع؟

عندما استيقظ دييغو في صباح اليوم التالي، كنت قد ارتديت ملابسي منذ وقت طويل وقررت العودة إلى بيتي واللجوء إلى ذراعي جدتي الآمنتين، ولكن الهواء البارد والمشي في شوارع مركز المدينة، المقفرة تقريباً في تلك الساعة من يوم الأحد، أعادت إليّ الطمأنينة. كان مهبلي يلتهب، وكنت ما أزال أشعر بحضور دييغو فيه، ولكن الغضب راح يغادرني خطوة خطوة، وتأهبت لمواجهة المستقبل كامرأة وليس كصبية مدللة. لقد كنت واعية لمقدار الدلال الذي لقيته خلال تسع عشرة سنة من حياتي، ولكن تلك المرحلة قد انتهت؛ وبدأت منذ الليلة السابقة حياتي كمتزوجة، وتوصلت إلى أنه يتوجب علي أن أتصرف وأفكر بنضوج. فسعادتي هي مسؤوليتي أنا وحدي. وزوجي لن يجلب لي السعادة الأبدية

Twitter: @ketab_n

كهدية ملفوفة بورق الحرير، وإنما علي أن أصوغها يوماً فيوماً بكاء وجهداً. ولحسن الحظ أنني كنت أحب ذلك الرجل وأظن، مثلما أكد لي هو، بأن الأمور ستتحسن كثيراً بيننا بمرور الزمن والممارسة. وفكرت: يا لدييغو المسكين، لا بد أنه محبط مثلي. رجعت إلى الفندق في الوقت المناسب لإغلاق الحقائب والانطلاق في رحلة شهر العسل.

تقع إقطاعية **كاليوفو** في أجمل منطقة في تشيلي. فردوس بري من الغابات الباردة، والبراكين، والبحيرات والأنهار، تعود ملكيتها إلى آل دومينغث منذ العهد الاستعماري، عندما جرى توزيع الأراضي ما بين قادة الفتح المتميزين. كانت الأسرة قد ضاعفت ثروتها بشراء مزيد من الأراضي من الهنود مقابل بضع زجاجات من الخمر، إلى أن امتلكت إحدى أكثر الاقطاعيات ازدهاراً في المنطقة. ولم يجر اقتسام تلك الممتلكات قط؛ فالابن الأكبر يرثها كاملة، ويتوجب عليه أن يقدم عملاً أو مساعدة لاخوته، وأن يعيل أخواته ويقدم لهن دوطتهن، وأن يراعي الفلاحين المستأجرين. كان حموي، دون سيباستيان دومينغث، واحداً من تلك الكائنات التي أنجزت ما هو مأمول منها، وهو يشيخ بضمير مطمئن، ويبدي امتنانه للتعويضات التي قدمتها له الحياة، وخصوصاً محبة زوجته، دونيا إلفيرا. لم يكن في شبابه إلا عابثاً وجامحاً، وهو نفسه يعترف بذلك، والدليل على ذلك هو عدة فلاحين زرق العيون في إقطاعيته، ولكن يد دونيا إلفيرا الرقيقة والصارمة راحت تروضه دون أن يلاحظ هو نفسه ذلك. كان يتسنم دوره كبطريرك بكل طيبة؛ ففلاحوه يهرعون بمشاكلهم إليه قبل أي شخص آخر، لأن ابنيه إدوارد ودييغو كانا أكثر صرامة منه، ودونيا إلفيرا لا تفتح فمها خارج جدران بيتها. الصبر الذي كان دون سيباستيان يبديه مع فلاحيه، الذين يعاملهم كأطفال على شيء من التخلف، يتحول إلى صرامة مع ابنيه الذكرين. كان يقول: «نحن نتمتع بامتيازات كبيرة، وعلينا بالتالي أن نتحمل واجبات كبيرة. لا وجود لأعذار أو حجج لنا، فواجبنا هو القيام بالواجب تجاه الرب ومساعدة

Twitter: @ketab_n

معشرنا، وهذا ما سنُحاسب عليه في السماء». لا بد أنه في حوالي الخمسين من عمره، ولكنه يبدو أصغر من ذلك لأنه يعيش حياة صحية جداً، فهو يقضي النهار على صهوة جواده يجوب أراضيه، وأول من يستيقظ وآخر من يذهب إلى الفراش، ويكون موجوداً عند درس القمح، وترويض الخيول، ومحاصرتها، ويساعد بنفسه في وسم المواشي وإخصائها. يبدأ يومه بفنجان من القهوة مع ست ملاعق سكر ودفقة من البراندي؛ وبهذا تكون لديه القوة للقيام بأعمال الحقل حتى الساعة الثانية ظهراً، عندما يتغدى أربعة أطباق وثلاث حصص من الحلوى المضمخة بكمية وافرة من النبيذ برفقة الأسرة كلها. لم يكن عددنا كبيراً في تلك الدارة الرحبة؛ فألم حَمَويّ العظيم هو أنهما لم ينجبا سوى ثلاثة أبناء. ويقولان: هذا ما شاءته إرادة الله. وفي موعد العشاء نجتمع نحن جميع من كنا متفرقين في أشغال مختلفة خلال النهار، ولا يمكن لأحد أن يتغيب. كان إدواردو وسوزانا يعيشان مع أبنائهما في بيت آخر، بنياه على بعد مئتي متر من البيت الكبير، ولكنهما لا يتناولان هناك سوى وجبة الفطور، أما بقية الوجبات فيتناولانها على مائدة حمويّ. ولأنه كان لا بد من تقديم موعد زفافنا، فإن البيت المخصص لدييغو ولي لم يكن جاهزاً وأقمنا في جناح من بيت حَمَوَيّ. كان دون سيباستيان يجلس على رأس المائدة على كرسي مزخرف وأكثر ارتفاعاً؛ وفي الجهة المقابلة تجلس دونيا إلفيرا، ويتوزع على الجانبين الابنان مع زوجتيهما، وعمتان أرملتان، وبعض أبناء العمومة والأقارب، وجدة هرمة جداً إلى حد أنهم كانوا يغذونها بزجاجة رضاعة، فضلاً عن المدعوين الذين لا يتغيبون قط. وتوضع حول المائدة عدة كراسي أخرى لضيوف يأتون دون إنذار مسبق ويبقون في بعض الأحيان أسابيع. وهم دائماً موضع ترحيب، لأن تلك الزيارات هي المتعة الكبرى في عزلة الريف. إلى الجنوب أكثر تعيش بعض الأسر التشيلية المبثوثة في أراضي الهنود، وكذلك بعض المستوطنين الألمان، الذين لولا جهودهم لبقيت تلك المناطق وحشية تقريباً. كان اجتياز أملاك آل دومينغث التي تصل حتى حدود الأرجنتين، يحتاج لعدة أيام على صهوة جواد. وكانت الأسرة تؤدي الصلوات في الليل، وتقويمها

Twitter: @ketab_n

السنوي محكوم بالتواريخ الدينية، ولكنني لم أواجه مشاكل في هذا المجال، لأنني كنت أحترم معتقداتهم جداً، ولم يحاولوا هم أن يفرضوها عليّ. لقد بينت لي دونيا إلفيرا بأن الإيمان هو هبة إلهية، وقالت: «الرب ينادي اسمك، ويختارك». وكان ذلك يحررني من الذنب أمامهم، فالرب لم يناديني باسمي بعد، ولكنه إذا كان قد أدخلني إلى هذه الأسرة شديدة المسيحية، فلأنه سيفعل ذلك عما قريب. وكان حماسي في مساعدتها بمهماتها الخيرية يعوض عن ضعف حماسي الديني؛ كانت تظن أنني أفعل ذلك بدافع من روحي الرحيمة، وهي علامة تدل على طيب طباعي، دون أن تدري أن ذلك كان تسليتي في نادي السيدات الذي ترأسه جدتي، واهتماماً مني للتعرف على العمال الريفيين وتصويرهم. لم يكن هناك من هو قادر على تصور حجم العالم في تلك الأنحاء، باستثناء دون سيباستيان وإدواردو ودييغو الذين تعلموا في مدارس داخلية جيدة، وقاموا بالرحلة الاجبارية إلى أوروبا. ولم تكن الروايات مسموحة في ذلك البيت، وأعتقد بأن دون سيباستيان كان يفتقد الحماس للقيام بمراقبتها، ولكي يتجنب إقدام أحد على قراءة رواية من قائمة الكنيسة السوداء، فقد فضل أن يختار طريق السلامة ويمنع الروايات كلها. وكانت الصحف تصل متأخرة جداً، فلم يكن ما تأتي به أخباراً وإنما تاريخاً. كانت دونيا إلفيرا تقرأ في كتب صلواتها، وآديلا، شقيقة دييغو الصغرى تملك عدة مجموعات شعرية، وسير بعض الشخصيات التاريخية وكتب رحلات، تقرؤها وتعيد قراءتها مرة بعد أخرى. وقد اكتشفتُ فيما بعد بأنها تحصل على روايات ألغاز، فتنزع أغلفتها وتغلفها بأغلفة الكتب التي يسمح بها أبوها. وعندما وصلت صناديقي وأمتعتي من سنتياغو وظهرت مئات الكتب، طلبت مني دونيا إلفيرا بعذوبتها المعهودة بألا أعرضها أمام بقية أفراد العائلة. في كل أسبوع كانت جدتي أو نيفيا ترسلان لي مواد للقراءة، فأخبئها في غرفتي. ولم يكن حمواي يقولان شيئاً، واثقين على ما أعتقد من أنني سأتخلص من هذه العادة السيئة عندما أنجب أبناء، ولا تتوفر لي كل ساعات الكسل هذه، مثلما هو حال سلفتي سوزانا التي لديها ثلاثة أبناء رائعين وسيئي الطباع. ولكنهما لم يعارضا مع ذلك

Twitter: @ketab_n

التصوير، فقد أدركا أنه سيكون من الصعب ليّ ذراعي في هذه النقطة، ومع أنهما لم يبديا أي نوع من الفضول لرؤية عملي، إلا أنهما خصصا لي حجرة في أقصى البيت يمكنني أن أقيم فيها مختبري.

ترعرعتُ في المدينة، في الأجواء المريحة والكوزموبوليتية لبيت جدتي، وبحرية أكبر من أي تشيلية أخرى في ذلك الحين، ومن تشيليات اليوم أيضاً، فمع أننا نشرف على انتهاء العقد الأول من القرن العشرين، إلا أن الأمور لم تتطور كثيراً بالنسبة لفتيات هذه الأنحاء. لقد كانت النقلة فظة عندما حططت بين آل دومينغث، على الرغم من أنهم فعلوا كل ما بإمكانهم لكي أشعر بالراحة. لقد تصرفوا معي على أحسن وجه، وكان من السهل عليّ أن أتعلم كيف أحبهم؛ وقد عوضني تعاطفهم عن طبع دييغو المحافظ والمتوحد في الغالب، إذ كان يعاملني في العلن كأخت له ولا يكاد يكلمني ونحن على انفراد. وقد كانت الأسابيع الأولى من محاولتي التأقلم مشوقة جداً. فقد أهدى إلي دون سيباستيان مهرة سوداء جميلة لها نجمة بيضاء في جبهتها، وأرسلني دييغو مع مراقب العمال لأجوب الاقطاعية وأتعرف على عمالها وساكنيها المقيمين على بعد كيلومترات عديدة، حتى أن كل زيارة إليهم تستغرق ثلاثة أو أربعة أيام. ثم تركني حرة. كان زوجي يخرج مع أخيه وأبيه لانجاز أعمال الحقل والصيد، وكانوا يخيمون في الخارج لعدة أيام. ولم أكن أتحمل ضجر البيت بمهماته المتواصلة، من مداعبة أطفال سوزانا، وصنع الحلويات والمربيات، والتنظيف والتهوية، والخياطة والحياكة، فعندما أنتهي من عملي في المدرسة أو في مستودع المؤونة، أرتدي أحد بناطيل دييغو وأنطلق على الجواد. كانت حماتي قد نبهتني إلى عدم الركوب فرشخة، مثل الرجال، لأنني سأعاني بذلك من «مشاكل نسائية»، وهي عبارة ملطفة لم أستطع فهم معناها بالكامل قط، ولكن لم يكن هناك من هو قادر على ركوب الحصان مجانبة في تلك الطبيعة الجبلية والصخرية دون أن يهشم رأسه في واحدة من السقطات. كان المشهد يحبس أنفاسي، يفاجئني في كل منعطف من الطريق، يدهشني. كنت أعدو على الحصان صعوداً أو نزولاً حتى بلوغ الغابات الملتفة، فردوس من الأشجار

Twitter: @ketab_n

الأرزية، والغار، والقرفة، والمانيو، والريحان، وأشجار الأروكاريا الألفية، إنها الغابة المطيرة، ذلك العبق الحسي الذي ينبعث من التربة الحمراء والنسغ والجذور؛ سلام الدغل الذي يحرسه أولئك المردة الخضر الصامتون؛ الهمس السري للغابة: خرير مياه غير مرئية، رقص هواء مشتبك بالأغصان، هسيس جذور وحشرات، هديل حمائم رقيقة، وزعيق الجوارح الصاخب. كانت الدروب تصل حتى موقع منشرة الأخشاب، ويتوجب عليّ في ما وراءها أن أشق طريقي وسط الأدغال الكثيفة، معتمدة على غريزة فرسي التي كانت قوائمها تغوص في وحل له لون البترول، كثيف وعابق برائحة الدم النباتي. الضوء يتسرب من قبة الأشجار الضخمة في حزم أشعة لامعة ومائلة، ولكن هناك مناطق شديدة البرودة حيث تقبع نمور البوما، تترصدني بعيون متوقدة. كنتُ أحمل بندقية مثبتة إلى سرج دابتي، ولكنني ما كنت سأجد الوقت لإخراجها في حال وقوع أي طارئ، كما أنني لم أكن على أي حال قد جربت إطلاق النار منها قط. صوّرت الغابات القديمة، وبحيرات الرمال السوداء، والأنهار الصاخبة ذات الأحجار المفردة، والبراكين الناهضة التي تكلل الأفق كتنانين نائمة على أبراج من رماد. والتقطت كذلك صوراً لفلاحي الإقطاعية، وكنت آخذها وأهديها إليهم فيما بعد فيتلقونها حائرين، لا يدرون ما يفعلون بصورهم هذه التي لم يطلبوها. كانت تفتنني وجوههم المدبوغة بعوامل المناخ والفقر، ولكنهم ما كانوا يحبون رؤية أنفسهم في تلك الحال، مثلما هم في الواقع، بأسمالهم وأحزانهم التي تثقل كاهلهم، لأنهم يريدون صوراً ملونة باليد يظهرون فيها وهم يلبسون البدلة الوحيدة التي يملكونها، بدلة الزفاف، وهم مستحمون ومسرحو الشعور، مع أبنائهم النظيفين من المخاط.

كان العمل يتوقف في أيام الآحاد ويقام قداس – عندما يكون ثمة كاهن – أو «تبشير» تقوم به نساء الأسرة بزيارة الفلاحين في بيوتهم لتعليمهم أصول الدين. وهكذا كن يقارعن بالهدايا والعناد معتقدات السكان الأصليين التي تختلط مع المقدسات المسيحية. لم أكن أشارك في المواعظ الدينية، ولكنني كنت أنتهز الفرصة للتعرف على الفلاحين.

Twitter: @ketab_n

كثيرون منهم كانوا هنوداً أقحاحاً يستخدمون كلمات من لغاتهم ويحافظون على تقاليدهم، وآخرون مهجنين، وجميعهم بائسين وخجولين في الأوقات العادية، ولكنهم مشاكسون وصاخبون عندما يشربون. فالخمر هو البلسم المر الذي يخفف لبضع ساعات من الضيق الأرضي اليومي، بينما هو يقرض أحشاءهم مثل فأر معاد. كان السكر والشجار بالسلاح الأبيض يكلف دفع غرامة، كما هو الأمر مع مخالفات أخرى، مثل قطع شجرة دون إذن، أو ترك حيواناتهم الخاصة خارج مساحة النصف كوادرا المخصصة لكل واحد منهم ليزرعها لأسرته. وكان الجلد هو عقوبة السرقة أو التطاول على من هم أعلى مرتبة، ولكن دون سيباستيان كان يمقت العقوبات الجسدية؛ كما أنه ألغى حق «ضربة الساق»، وهو تقليد قديم يعود إلى العهد الاستعماري، ويسمح للملاكين بفض بكارة بنات الفلاحين قبل أن يتزوجن من آخرين. وكان هو نفسه قد مارس هذه العادة في شبابه، ولكن بعد مجيء دونيا إلفيرا إلى الإقطاعية انتهت تلك العادات. ولم يكن يسمح كذلك بالتردد على مواخير القرى المجاورة، ويصر على تزويج أبنائه في سن مبكرة، من أجل تجنب الغواية. وهذا ما فعله إدواردو وسوزانا منذ ست سنوات، حين كان عمر كل منهما عشرين سنة، أما دييغو الذي كان حينذاك في السابعة عشرة، فقد اختاروا له فتاة من أقرباء الأسرة، ولكنها ماتت غرقاً في البحيرة قبل إتمام الخطوبة. لقد كان الأخ الأكبر إدواردو أكثر مرحاً من دييغو، فهو يمتلك موهبة رواية النوادر والغناء، ويعرف كل أساطير وحكايات المنطقة، ويحب تبادل الحديث ويعرف كيف يستمع. وكان مولهاً بحب سوزانا، فعيناه تتألقان حين يراها، ولا يضيق صدره أبداً بنزوات حالتها المعنوية. فقد كانت سلفتي تعاني من آلام رأس تجعلها سيئة المزاج، فتحبس نفسها في غرفتها وتغلقها بالمفتاح، وعندما تغادرها الآلام تخرج وقد استعادت حالتها الطبيعية تماماً، باسمة وحانية؛ وكأنها امرأة أخرى. وقد لاحظت أنها تنام وحدها ولا تسمح لزوجها أو أبنائها بالدخول إلى حجرتها دون دعوتها لهم، وكان الباب يبقى مغلقاً دوماً. وكانت الأسرة معتادة على نوبات صداعها واكتئابها، أما رغبتها بالعزلة فتبدو لهم إهانة،

Twitter: @ketab_n

مثلما أثار استغرابهم عدم سماحي لأحد بالدخول دون إذن مني إلى الحجرة الصغيرة التي كنت أُظهّر فيها صوري، بالرغم من أنني أوضحت لهم الضرر الذي يمكن لشعاع ضوء أن يلحقه بنيغاتيفات الصور. لم تكن هناك في إقطاعية **كاليوفو** أبواب أو أدراج مقفلة، باستثناء أقبية تخزين الخمر وصندوق الخزنة الحديدي في المكتب. لقد كانت تحدث بعض السرقات بالطبع، ولكنها لم تكن ذات أهمية، لأن دون سيباستيان يبقى متيقظاً على الدوام. وكان يقول: «هؤلاء الناس جاهلون جداً، لا يسرقون بدافع الادمان أو الحاجة، وإنما كعادة قبيحة»، مع أن الفلاحين في الحقيقة كانوا يعانون الحاجة أكثر مما يعترف به السيد المالك. صحيح أن الفلاحين كانوا أحراراً، ولكنهم عاشوا عملياً لأجيال في تلك الأراضي، ولا يتصورون أن الحياة يمكن أن تكون غير ذلك، كما أنه ليس لديهم مكان يذهبون إليه. وقلة منهم هم الذين يصلون إلى سن الشيخوخة. فأطفال كثيرون يموتون منذ الطفولة بالتهابات معوية، والرجال يموتون في حوادث، أو بسبب جراح ملتهبة أو بالتسمم الكحولي. وكان أقرب مشتشفى هو الذي يملكه الألمان، حيث يوجد طبيب بافاري مشهور، ولكنهم لم يكونوا يذهبون إليه إلا في حالة الضرورة القصوى، أما الأمراض الصغرى فتعالج بأسرار الطبيعة، والأدعية، وبمساعدة **الميكا**، وهم مداوون من السكان الأصليين، يعرفون قدرة أعشاب المنطقة أكثر من أي شخص.

في أواخر شهر أيار هبط الشتاء دون ملطفات، بغلالة من المطر التي تغسل المشهد مثل غسالة صبور، وبظلامه المبكر، فصرنا نضطر إلى الالتمام في الساعة الرابعة مساء، وتحول الليل إلى أبدية. فلم يعد بإمكاني الخروج في مشاويري الطويلة على صهوة الفرس أو لتصوير أناس الإقطاعية. كنا معزولين، وكانت الدروب مخاضات وحل، ولم يكن هناك من يزورنا. فكنت أتسلى باختبار تقنيات تظهير متنوعة في الغرفة المظلمة، وبالتقاط صور للأسرة. ورحت أكتشف بأن هناك علاقة بين كل ما هو موجود، وأنه جزء من تصميم متزاحم؛ فما يبدو أجمة من المصادفات للوهلة الأولى، يأخذ بالكشف أمام ملاحظة الكاميرا الدقيقة

Twitter: @ketab_n

عن هندساته المتقنة. ليس هناك شيء عرضي، ولا شيء مبتذل. هناك علاقة سبب وتأثير صارمة في الفوضى النباتية الظاهرية للغابة، ففي كل شجرة هناك مئات الطيور، وفي كل طير آلاف الحشرات، وفي كل حشرة ملايين الجزيئيات العضوية؛ وبالطريقة نفسها فإن الفلاحين في أعمالهم والأسرة في احتمائها من الشتاء ببيتها، هم جزء لا غنى عنه من اللوحة الهائلة. ما هو الجوهري يكون غير ملحوظ في الغالب؛ فالعين لا تلتقطه، وإنما القلب وحده، ولكن الكاميرا تتمكن أحياناً من رصد ذلك الجوهر. وهذا ما كان يحاول المعلم ريبيرو أن يحققه بفنه، وسعى إلى تعليمي إياه: تجاوز ما هو محض وثائقي والوصول إلى نخاع الواقع، إلى روحه بالذات. كانت هذه العلاقات المرهفة التي تبرز على ورق التصوير تهزني من الأعماق وتشجعني على مواصلة التجريب. وفي ذلك الحبس الشتائي تزايد فضولي؛ فكلما صار المحيط خانقاً وضاغطاً أكثر بين هذه الجدران الطينية السميكة، إزداد فضولي الذهني. بدأت باستكشاف محتويات البيت وأسرار غرفه بتدقيق مهووس. تفحصت الجو العائلي بعينين جديدتين، وكأنني أراه للمرة الأولى، دون أن أفترض شيئاً. فقد كنت أنقاد للبديهة، متخلية عن أفكاري المسبقة، «إننا نرى ما نريد أن نراه فقط»، هذا ما كان يقوله دون خوان ريبيرو، ويضيف بأن عملي يجب أن يكون في إظهار ما لم يره أحد من قبل. في البدء كان آل دومينغث يقفون أمام الكاميرا بابتسامات اضطرارية، ولكنهم سرعان ما اعتادوا على حضوري المتكتم وانتهى بهم الأمر إلى تجاهل الكاميرا، وعندئذ استطعت أن أفاجئهم وهم ساهون، مثلما هم في الواقع. لقد حملت الأمطار الأزهار والأوراق، وأُغلق البيت بأثاثه الثقيل ومساحاته الفسيحة الفارغة عن العالم الخارجي، وبقينا محبوسين في ذلك الأسر البيتي. كنا نتنقل في الغرف المضاءة بالشموع، متفادين تيارات الهواء الجليدية؛ وكانت الأخشاب تئن مثل أنين الأرامل، ويسمع دبيب الفئران في مهامها المستعجلة الاضطرارية؛ وتعبق رائحة الطين، والقرميد المبلل، والملابس المتعفنة بالرطوبة. وكان الخدم يوقدون المجامر والمدافئ، والعاملات يحضرن لنا زجاجات الماء الساخن، والبطانيات وفناجين الشوكولاتة

Twitter: @ketab_n

الساخنة، ولكن لم تكن ثمة طريقة للتحايل على الشتاء الطويل. وعندئذ بدأت أنوء تحت وطأة العزلة.

لقد كان دييغو شبحاً. إنني أحاول الآن أن أتذكر لحظة تقاسمتها معه، ولكنني لا أتمكن من رؤيته إلا كممثل إيمائي فوق منصة، بلا صوت وتفصله عني فجوة واسعة. هناك في ذهني - وفي مجموعات صوري عن ذلك الشتاء - صور كثيرة له وهو يقوم بأعمال الحقل وداخل البيت، يبدو فيها مشغولاً طوال الوقت مع آخرين، وليس معي على الاطلاق، إنه ناءٍ وغريب. كان من المستحيل إقامة علاقة حميمة معه، فهناك صمت سحيق يفصل بيننا، ومحاولاتي لتبادل الآراء أو للتقصي عن مشاعره كانت تصطدم بميله المتمادي إلى أن يكون الحاضر الغائب. كان يؤكد أن كل ما بيننا قد قيل، وأننا إذا كنا قد تزوجنا فلأننا متحابان، فما الحاجة إلى التعمق في ما هو جلي. في البدء كان صمته يغيظني، ولكنني أدركت فيما بعد أنه يتصرف على هذا النحو مع الجميع، باستثناء أبناء أخيه؛ فهو قادر على أن يكون سعيداً ورقيقاً مع الأطفال، وربما كان يرغب في إنجاب أبناء مثلما أرغب أنا، ولكننا في كل شهر نشعر بالخيبة. ولم نكن نتحدث في هذا الأمر أيضاً، فهو واحد من الموضوعات الكثيرة المرتبطة بالجسد أو الحب التي يمنعنا الحياء من التطرق إليها. حاولت في بعض المناسبات أن أقول له كيف أحب أن تكون مداعباته لي، ولكنه كان يتحفظ على الفور، لأنه يتوجب على المرأة الوقورة ألا تشعر بمثل هذا النوع من الحاجات، فما بالك بالتحدث عنها. وسرعان ما أدى تكتمه، وخجلي، وكبرياء كلينا، إلى انتصاب سورٍ صينٍ في ما بيننا. كنتُ مستعدة لتقديم أي شيء مقابل أن أتحدث إلى أحد عما يحدث وراء بابنا المغلق، ولكن حماتي كانت أثيرية كملاك، ولم تكن تربطني صداقة حقيقية بسوزانا، ولم تكن آديلا قد أكملت ستة عشر عاماً من عمرها بعد، أما نيفيا فكانت بعيدة جداً، ولم أكن أتجرأ على ذكر مخاوفي تلك كتابةً. كنت أواصل أنا ودييغو ممارسة الحب - وهذا لمجرد إطلاق تسمية على ما كنا

Twitter: @ketab_n

نفعله - في أوقات متباعدة، ودائما كما في المرة الأولى، ولم يقرّب التعايش ما بيننا، ولكن ذلك كان يؤلمني أنا وحدي، أما هو فكان يشعر بالراحة التامة في ذلك الوضع الذي كنا عليه. فنحن لا نتناقش ونتعامل فيما بيننا بلياقة اضطرارية، مع أنني كنت أفضل ألف مرة أن تكون بيننا حرب معلنة بدل ذلك الصمت المخادع. كان زوجي يتجنب فرص البقاء على انفراد معي؛ فهو يطيل في الليل جولات ألعاب الورق إلى أن أنصرف للنوم وقد استنفدني التعب؛ ويقفز من الفراش في الصباح مع صياح الديك، بما في ذلك في أيام الآحاد، حين ينهض بقية أفراد العائلة متأخرين، وكان يجد أعذاراً للخروج باكراً. أما أنا بالمقابل، فكنت أعيش معلقة بحالته المعنوية، أبادر إلى خدمته في ألف تفصيل، أعمل كل ما هو ممكن لاجتذابه وجعل حياته سعيدة؛ وكان قلبي يتقافز في صدري عندما أسمع وقع خطواته أو صوته. لا أمل من النظر إليه، ويبدو لي وسيماً جداً مثل أبطال الحكايات؛ وفي السرير ألمس كتفيه العريضين والقويين محاولة عدم إيقاظه، وشعره الغزير والمتموج، وعضلات ساقيه ورقبته. كنت أحب رائحة العرق والتراب والخيل التي تنبعث منه حين يعود من الحقول، ورائحة الصابون الإنكليزي بعد أن يستحم. أغمر وجهي في ملابسه لأستنشق شذاه الرجولي، لأنني لا أستطيع عمل ذلك بجسده. أما الآن، مع مرور الزمن والحرية التي اكتسبتها في السنوات الأخيرة، أدرك كم أهنت نفسي في سبيل الحب. فقد تركت كل شيء جانباً، ابتداء من شخصيتي وحتى عملي، لكي أحلم بفردوس بيتيٍ لم يكن لي.

خلال الشتاء الطويل والمتكاسل، كان على الأسرة أن تستخدم أساليب تخيل متنوعة لمقاومة الضجر. وكان الجميع يتمتعون بقدرة جيدة على سماع الموسيقى، ويعزفون عدة آلات، فكانت الأمسيات تمضي في حفلات عزف مرتجلة. وكانت سوزانا تمتعنا وهي ترتدي عباءة مهترئة من القطيفة، وعمامة تركية على رأسها، مغنية بصوت غجرية أبح. ونظمت دونيا إلفيرا وآديلا دروساً في الخياطة للنساء وبذلتا جهديهما للحفاظ على نشاط المدرسة، ولكن أبناء الفلاحين الذين يعيشون قريباً جداً هم وحدهم الذين تمكنوا من تحدي المناخ والمجيء إلى الدروس؛

Twitter: @ketab_n

وفي كل يوم ترتلان صلوات المسبحة الشتائية التي تجتذب الجميع كباراً وصغاراً، لأنهما تقدمان بعدها شوكولاتة وحلوى. وخطر لسوزانا أن تهيئ عملاً مسرحياً للاحتفال بنهاية القرن، وقد شغلنا ذلك لعدة أسابيع في كتابة النص وحفظ أدوارنا، وفي إقامة منصة في أحد مستودعات الحبوب، وفي خياطة الملابس التنكرية والتدرب. وكان الموضوع بالطبع ترميزاً تكهنياً حول رذائل الماضي وتعاساته التي سيهزمها السيف المتوهج لعلم وتكنولوجيا وتقدم القرن العشرين. وإضافة إلى المسرح، أقمنا مسابقاتِ رماية ومسابقة حول كلمات المعجم، وبطولات من كل الأنواع، ابتداء من الشطرنج وحتى صناعة الدمى وبناء قرى من عيدان الثقاب، ولكن كان هناك فائض من الوقت على الدوام. حوّلتُ آديلا إلى مساعدة لي في مختبر التصوير وكنا نتبادل الكتب خفية، فأعيرها أنا ما يرسلونه لي من سنتياغو وتعيرني هي روايات الألغاز التي لديها، فالتهمها بلهفة. وقد تحولتُ إلى تحرٍ مجرب، فكنت أحزر عموماً هوية القاتل قبل أن أصل إلى الصفحة الثمانين. لقد كانت قائمة الكتب المتوفرة محدودة، وعلى الرغم من إطالتنا أمد القراءة، فقد انتهت الكتب سريعاً، عندئذ صرت العب مع آديلا لعبة تعديل مضمون القصص، أو اختراع جرائم معقدة جداً يتوجب على الأخرى أن تحلها. فكانت حماتي تسألنا: «ما الذي تتوشوشان به؟». فترد آديلا بابتسامة الأرنب البريئة التي تبديها: «لا شيء يا أماه، إننا نخطط لعمليات اغتيال وحسب». فتضحك دونيا إلفيرا، غير قادرة على تصديق مدى صحة جواب ابنتها.

كان على إدوارد، باعتباره الابن البكر، أن يرث الاقطاعية عند موت دون سيباستيان، ولكنه شكل شراكة مع أخيه ليديراها معاً. لقد كان شقيق زوجي يعجبني، فهو رقيق ومحب للعب، وقد اعتاد أن يمازحني أو يحضر لي بعض الهدايا الصغيرة: أحجار عقيق شفافة من قاع النهر، أو عقد متواضع من محفوظات تقاليد هنود المابوتشي، أو أزهار برية، أو مجلة أزياء يوصي عليها من القرية، محاولاً بذلك أن يعوض عن عدم مبالاة أخيه تجاهي، التي كانت ظاهرة للأسرة كلها. وكان يمسك يدي ويسألني قلقاً إذا ما كنتُ على ما يرام، أو إذا كنت بحاجة إلى شيء،

Twitter: @ketab_n

أو مشتاقة إلى جدتي، وإذا ما كنت قد ضجرت من العيش في **كاليوفو**. أما سوزانا بالمقابل، المستغرقة في خمولها كجارية من الحريم، كثير الشبه بالتكاسل، فكانت تتجاهلني في معظم الأوقات، وكانت لديها طريقة وقحة في إدارة ظهرها لي حين أود التحدث إليها، تاركة إياي والكلمة في فمي. إنها آية في الحسن، فهي منعمة، ذات بشرة ذهبية وعينين كبيرتين سوداوين، ولكنني لا أظن أنها كانت تعي جمالها. إذ لم يكن هناك من تظهر أمامه باستثناء الأسرة، ولهذا السبب لم تكن تكثر من الاعتناء بمظهرها، بل إنها لم تكن تسرح شعرها أحياناً وتمضي اليوم وهي متشحة برداء الاستيقاظ وبخف من جلد الغنم، ساهمة وكئيبة. ولكنها في مناسبات أخرى كانت تظهر متألقة مثل أميرة عربية، بشعرها الطويل الفاحم المثبت في عقيصة بمشبك من درع سلحفاة وطوق من الذهب يحدد استداره عنقها الكاملة. وكانت تحب أن تقف أمامي لأصورها عندما تكون رائقة المزاج؛ وقد اقترحت عليّ في أحد الأيام، ونحن على المائدة، أن أصورها عارية. فكان ذلك استفزازاً له وقع القنبلة على تلك الأسرة المحافظة، فأوشكت دونيا إلفيرا أن تصاب بنوبة قلبية أخرى، ونهض دييغو المستنكر بنزق كاد معه أن يقلب الكرسي. ولولم يسارع إدواردو إلى رواية طرفة، لوقعت عندئذ مأساة. لقد كانت آديلا، الأقل ملاحة بين الاخوة دومينغث، بوجهها الأرنبي وعينيها الزرقاوين الضائعتين في بحر من النمش، هي الأكثر لطفاً دون ريب. فسعادتها مضمونة تماماً مثلما هو ضوء كل صباح؛ ويمكننا أن نعتمد عليها في رفع المعنويات حتى في أعمق ساعات الشتاء، حين تنبح الريح ما بين القرميد ونكون قد ضجرنا من لعب الورق على ضوء شمعة. كان أبوها دون سيباستيان يعبدها، ولا يرفض لها طلباً، وكان يطلب منها ما بين المزاح والجد أن تبقى عازبة لكي تعتني به في شيخوخته.

جاء الشتاء ومضى مخلفاً بين فلاحي الاقطاعية موت طفلين وشيخ بذات الرئة؛ كما ماتت الجدة التي كانت تعيش في البيت والتي يقدرون بأنها عاشت أكثر من قرن، لأنها كانت قد شاركت في مناولتها الأولى عندما أعلنت تشيلي استقلالها عن إسبانيا في العام 1810. وقد دُفنوا

Twitter: @ketab_n

جميعهم بطقوس بسيطة في مقبرة كاليوفي، المتحولة إلى مخاضة وحل تحت وابل الأمطار. لم يتوقف المطر حتى شهر أيلول، عندما بدأ الربيع في التفتح في كل الجهات واستطعنا أخيراً الخروج إلى الفناء لنشر الملابس والفراش المتعفن بالرطوبة تحت الشمس. لقد أمضت دونيا إلفيرا تلك الشهور متنقلة من السرير إلى الأريكة وهي متلفعة بالشالات، وكانت تزداد ضعفاً كل يوم. وفي كل شهر تسألني بتكتم إذا كان هناك «من جديد»، وبما أنه ليس ثمة جديد، فإنها تضاعف أدعيتها إلى الله لكي ننجب لها أنا ودييغو مزيداً من الأحفاد. وبالرغم من ليالي ذلك الشتاء الطويلة جداً، إلا أن الحميمية مع زوجي لم تتحسن. كنا نلتقي في الظلام بصمت كما الأعداء تقريباً، وأبقى أنا دائما بمشاعر الاحباط والغم الطاغي التي أحسست بها في المرة الأولى. كان يخيل إليّ بأننا لا نتعانق إلا عندما أبادر أنا، ولكنني قد أكون مخطئة، وربما لم يكن الأمر كذلك على الدوام. مع مجيء الربيع عدت إلى الخروج وحدي في رحلات إلى الغابات والبراكين؛ وكان عدوي على فرسي في تلك الاتساعات يهدئ قليلاً من جوعي إلى الحب، فالانهاك ورضرضة مؤخرتي على السرج يتغلبان على رغباتي المقموعة. كنت أعود في المساء مضمخة بالغابة وعرق الحصان، فأعد حماماً ساخناً وأنقع جسدي لساعات في الماء المعطر بأوراق البرتقال. فكانت حماتي الحزينة تنبهني: «حاذري يا بنيتي، فامتطاء الخيل والاستحمام سيئان للبطن، ويؤديان إلى العقم«. لقد كانت دونيا إلفيرا امرأة بسيطة، إنها طيبَةُ قلب خالصة ونفسٌ خدومة، روحها تشف منعكسة في ماء عينيها الزرقاوين الصافيتين.. إنها الأم التي أتمنى لو أنها كانت أمي. كنت أقضي ساعات إلى جانبها، هي تحوك لأحفادها وتروي لي مرة بعد أخرى القصص القليلة نفسها عن حياتها وعن عزبة كاليوفو، وأنا أستمع إليها بقلق من يعرف أنها لن تبقى طويلاً في هذا العالم. في ذلك الحين كنت قد بدأت أشك في أنه يمكن لابن أن يقرب المسافة ما بين دييغو وبيني، ولكنني كنت أرغب فيه لمجرد أن أقدمه هدية إلى دونيا إلفيرا. وعندما كنت أتخيل حياتي في العزبة من دونها أشعر بقلق لا خلاص منه.

Twitter: @ketab_n

انتهى القرن وكان التشيليون يجاهدون للالتحاق بركب التقدم الصناعي الذي شهدته أوروبا وأميركا الشمالية، ولكن آل دومينغث، مثل أسرٍ محافظة كثيرة، كانوا ينظرون بذعر إلى الابتعاد عن التقاليد الموروثة والميل إلى محاكاة الأجانب. «إنها مجرد ألاعيب من الشيطان»، هذا ما كان يقوله دون سيباستيان كلما قرأ عن منجزات التقدم التكنولوجي في جرائده المتأخرة. كان ابنه إدواردو هو الوحيد المهتم بالمستقبل، أما دييغو فيعيش سادراً في تأملاته، وسوزانا تقضي الوقت بصداعها، وآديلا لم تكد تخرج من البيضة بعد. ولكننا مهما كنا بعيدين، فإن أصداء التقدم كانت تصلنا ولا يمكننا تجاهل التبدلات في المجتمع. كانت قد بدأت في سنتياغو موجة هستيرية من الرياضة، ألعاب ونزهات في الهواء الطلق، وهو أمر أكثر ملاءمة لغريبي الأطوار الإنكليز منه لأناس مستريحين يتحدرون من نبلاء قشتالة وليون. وبدأت رياح فن وثقافة آتية من فرنسا تبرد الجو، وصهيل آلات ألمانية يقطع قيلولة تشيلي الاستعمارية الطويلة. كانت تبرز طبقة وسطى وصولية ومتعلمة تسعى لأن تحيا مثل الأثرياء. الأزمة الاجتماعية التي كانت تهز مرتكزات البلاد في إضرابات، وأعمال عنف، وبطالة، وهجمات خيالة الشرطة بسيوف مشهرة، كلها كانت إشاعات بعيدة لا تعكر إيقاع حياتنا في **كاليوفو**، ولكننا وإن واصلنا العيش في الاقطاعية مثلما عاش الأسلاف الذين ناموا في هذه الأسرة نفسها قبل مئة عام، إلا أن القرن العشرين داهمنا نحن أيضاً.

كانت جدتي باولينا قد ترددت كثيراً، وقد أخبرني بذلك فريدريك ويليامز ونيفيا دل بايي في رسائلهما؛ فهي تنوء تحت ثقل آفات الشيخوخة وهواجس الموت. وقد لاحظوا مدى هرمها حين حمل إليها سيفيرو دل بايي أول زجاجات النبيذ التي أنتجها من الدوالي التي تنضج متأخرة، وعرفوا أنها من نوع يدعى **كارمينير**، وكان نبيذاً أحمر خفيفاً وفاخراً، قليل الدبغ، ولا يقل جودة عن أفضل الأنبذة الفرنسية، وقد عمدوه باسم **كرمة باولينا**. لقد صار لديهم أخيراً نتاج فريد سيمنحهم

Twitter: @ketab_n

الشهرة والمال. تذوقته جدتي بحساسية وقالت: «من المؤسف أنني لن أستطيع الاستمتاع به.. سيشربه آخرون»، ولم تعد بعد ذلك تأتي على ذكره قط. لم يحدث انفجار السعادة والتعليقات المتعجرفة التي ترافق عادة انتصاراتها التجارية؛ فقد بدأت تتحول إلى المسكنة بعد حياة الاستهتار. وكانت أكثر علامات ضعفها وضوحاً الحضور اليومي للكاهن المعروف ذي الثوب الملطخ، الذي يجول على المحتضرين لينتزع منهم ثرواتهم. ولست أدري إذا ما كانت جدتي قد تصرفت بمحض إرادتها أم بإيحاء من نذير الموت القديم ذاك، حين نفت إلى أعماق أحد الأقبية، سريرها الأسطوري الشهير الذي أمضت عليه نصف حياتها، ووضعت مكانه سريراً عسكرياً وفرشة من شعر الخيل. بدا لي هذا الأمر من الأعراض المثيرة للهلع، وما كاد وحل الدروب يجف حتى أخبرت زوجي بأنه علي أن أذهب إلى سنتياغو لرؤية جدتي. كنت أنتظر بعض الممانعة، ولكن ما جرى هو العكس تماماً، فخلال أقل من أربع وعشرين ساعة رتب دييغو أمر انتقالي في عربة حتى المرفأ، حيث سأركب السفينة إلى بالبارايسو، ومن هناك أواصل في القطار إلى سنتياغو. تأججت آديلا بالرغبة في مرافقتي، فراحت تجلس في حضن أبيها، وتعض أذنيه، وتشد سوالفه وتتوسل إليه، فلم يستطع دون سيباستيان أخيراً رفض نزوتها الجديدة هذه، بالرغم من أن إلفيرا وإدواردو ودييغو لم يوافقوا على ذلك. ولم يكن عليهم أن يوضحوا أسبابهم، فقد حدست أنهم يرون بأن الجو الذي أحسوا به في بيت جدتي ليس مناسباً، ويعتقدون بأنني أفتقر إلى ما يكفي من النضوج للعناية بالصغيرة مثلما يجب. انطلقنا إلى سنتياغو، برفقة زوجين ألمانيين صديقين سيسافران في الباخرة نفسها. وقد حملنا معنا صدرية قلب يسوع المقدس معلقة على صدرينا لتحمينا من كل شر، آمين، والنقود مخيطة في كيس تحت المشد، وتعليمات محددة بألا نكلم غريباً، وأمتعة أكثر مما نحتاج إليه للدوران حول العالم.

أمضيت أنا وآديلا حوالي شهرين في سنتياغو، كنا سنمضيهما على أروع وجه لو لم تكن جدتي مريضة. لقد استقبلتنا بحماس متصنع، ممتلئة بالخطط للقيام بنزهات والذهاب إلى المسرح، وركوب القطار إلى

Twitter: @ketab_n

بينيا دل مار لاستنشاق هواء الساحل، ولكنها كانت تبعثنا في اللحظة الأخيرة مع فريدريك ويليامز وتبقى هي في البيت. وهكذا كان الحال عندما ذهبنا في العربة لزيارة سيفيرو ونيفيا دل بايي في الكروم التي بدأت تنتج حينذاك أول زجاجات نبيذ التصدير. وقد قدرت جدتي أن **كرمة باولينا** هو اسم شديد المحلية. وأرادت استبداله بتسمية فرنسية لبيعه في الولايات المتحدة، حيث لا أحد، على حد قولها، يفهم في النبيذ، ولكن سيفيرو عارض مثل تلك الخدعة. وجدتُ نيفيا وقد لطخ الشيب شعرها، وصارت أثقل وزناً بعض الشيء، ولكنها ما زالت رشيقة، سليطة، لعوباً، محاطة بأبنائها الصغار. «أظن أنني قد دخلت في انقطاع الحيض، وصار بإمكاننا الآن ممارسة الحب دون الخوف من انجاب مزيد من الأطفال»، همست في أذني بذلك، دون أن تتخيل مطلقاً أنها ستنجب إلى الدنيا بعد عدة سنوات ابنتها كلارا، المتبصرة، والأكثر غرابة بين مواليد عشيرة دل بايي. وكانت الصغيرة روسا التي يثير جمالها الكثير من التعليقات قد بلغت الخامسة من عمرها. يؤسفني أنه لا يمكن للصورة أن تلتقط تلوناتها، فهي تبدو أشبه بمخلوقة بحرية بعينيها الصفراوين وشعرها الأخضر مثل البرونز العتيق. لقد كانت آنذاك كائناً ملائكياً، متخلفة بعض الشيء عن سنها، وتمر طافية مثل رؤيا، فكانت أمها تقول مازحة: «من أين خرجت؟ لا بد أنها ابنة الروح القدس». لقد جاءت هذه الطفلة الجميلة عزاءً لنيفيا بعد فقدان اثنين من صغارها، ماتا بالدفتريا، هذا المرض طويل الأجل الذي كان يفتك برئتي ابن ثالث من أبنائها. حاولت أن أكلم نيفيا بهذا الشأن - يقال إنه ليس هناك ألم أشد رهبة من فقدان ابن - ولكنها كانت تغير الموضوع. وأقصى ما توصلت إلى قوله لي هو أن النساء عانين منذ قرون وقرون من آلام انجاب الأبناء ودفنهم، وهي ليست استثناء. وأضافت: «سيكون استكباراً من جانبي أن أفكر بأن الرب يباركني بمنحي أطفالاً كثيرين، وأن يجعلهم فوق ذلك يعيشون أكثر مني».

لم تكن باولينا دل بايي ولو مجرد ظل لما كانت عليه، فهي لم تعد تهتم بالطعام ولا بالصفقات التجارية، وصارت تكاد لا تقدر على المشي لأن ركبتيها تخونانها، ولكنها كانت أشد صفاء ذهن من أي وقت مضى.

Twitter: @ketab_n

كانت علب الأدوية على الكوميدينو إلى جوار سريرها، وكانت هناك ثلاث راهبات يتناوبن العناية بها. وقد أدركت جدتي بأنه لن تتاح لنا فرص كثيرة نلتقي فيها معاً، وأبدت استعدادها، للمرة الأولى خلال علاقتنا، للإجابة على استفساراتي. كنا نتصفح ألبومات الصور، وتشرح لي عنها واحدة واحدة؛ فروت لي قصة السرير الذي أوصت عليه من فلورنسا وخصومتها مع آماندا لويل التي بدت، بعد أن صارت في هذه السن، أقرب إلى الكوميديا، وحدثتني عن أبي وعن دور سيفيرو دل بايي في طفولتي، ولكنها تجنبت بحزم الحديث عن جديّ لأمي وعن تشايناتاون، وقالت لي إن أمي كانت موديلاً أمريكية جميلة جداً، ولا شيء سوى ذلك. كنا نجلس في بعض الأمسيات في الردهة الزجاجية لنتبادل الحديث مع سيفيرو ونيفيا دل بايي. وبينما هو يتحدث عن سنوات سان فرانسيسكو وتجاربه التالية في الحرب، ذكّرتني هي بتفاصيل من أحداث الثورة، عندما كان عمري إحدى عشرة سنة فقط. لم تكن جدتي تشكو، ولكن فريدريك نبهني إلى أنها تعاني آلاماً مبرحة في المعدة، وتتكلف مشقة هائلة في ارتداء ملابسها كل صباح. وفي وفائها لإيمانها بأنها ليست في السن التي تبدو عليها، واصلت صبغ الشعر القليل الذي ما زال على رأسها، ولكنها لم تعد تتبجح بمجوهراتها كإمبراطورة، مثلما كانت تفعل من قبل، «لم يبق لديها إلا القليل منها»، هكذا همس لي زوجها بصورة سرية. كان البيت يبدو مهملاً مثل سيدته، فاللوحات المختفية خلّفت مساحة فاتحة اللون على ورق الجدران، وكان هناك أثاث وسجاجيد أقل. ونبتات الردهة المدارية تحولت إلى أجمة متشابكة، ذاوية ومعفرة بالغبار، والعصافير صامتة في أقفاصها. وما أخبرني به العم فريدريك مسبقاً في رسالته عن السرير العسكري الذي تنام عليه جدتي كان صحيحاً. لقد كانت تشغل على الدوام أكبر غرفة في البيت، وكان سريرها الأسطوري ينتصب في الوسط على عرش بابوي، ومن هناك كانت توجه إمبراطوريتها. كانت تمضي الأصباح ما بين الملاءات، محاطة بالأشكال المائية الملونة التي نحتها حرفي فلورنسي قبل أربعين سنة، تراجع دفاتر حساباتها، وتملي الرسائل، وتخترع صفقات تجارية. كانت البدانة تختفي

Twitter: @ketab_n

تحت الملاءات، وتتمكن من خلق وهم بالرشاقة والجمال. كنت قد التقطت لها ما لا حصر له من الصور في ذلك الفراش الذهبي، وقد خطر لي الآن أن أصورها بقميص نومها المتواضع وشال العجوز الذي تضعه وهي في سرير التوبة، ولكنها رفضت بحزم. لاحظتُ أن الأثاث الفرنسي البديع المغلف بالحرير قد اختفى من حجرتها، وكذلك المكتب الضخم المصنوع من خشب الورد والمرصع بالصدف الذي جيء به من الهند، والسجاجيد واللوحات، وكانت زينة الغرفة تقتصر على مسيح ضخم مصلوب. «إنها تهدي الأثاث والمجوهرات إلى الكنيسة»، هذا ما أوضحه لي فريدريك ويليامز، ونظراً لذلك قررنا استبدال الراهبات بممرضات، وإيجاد طريقة نمنع بها، ولو بالقوة، زيارات الكاهن القيامي، لأنه فضلاً عن أخذ تلك الأشياء، كان يساهم في زرع الرعب. وقد وافق إيفان رادوفيتش، وهو الطبيب الوحيد الذي تثق به باولينا دل بايي، على هذه الإجراءات موافقة مطلقة. لقد سعدتُ بالعودة لرؤية هذا الصديق القديم – فالصداقة الحقيقية تصمد للزمن والبعد والصمت، على حد قوله – وبالاعتراف له، ونحن نضحك، بأنه يظهر في ذاكرتي دائماً متنكراً بهيئة جنكيز خان. فأوضح لي بمزاج رائق «السبب هو وجنتاي السلافيتان». ما زال لديه لمسة خفيفة من مزاج زعيم تتري، ولكن الاتصال مع مرضى مستشفى الفقراء الذي يعمل فيه قد هذب طباعه وجعلها أكثر رقة، كما أنه لم يكن يبدو غريباً جداً في تشيلي مثلما كان عليه في إنكلترا؛ إذ يمكن اعتباره توكي من الهنود الأروكانيين، أطول قامة وأكثر نظافة. لقد كان رجلاً صموتاً، يستمع باهتمام كبير حتى لثرثرات آديلا المتواصلة، التي أُغرمت به على الفور، ولأنها معتادة على غواية أبيها، فقد استخدمت الأسلوب نفسه لتملق إيفان رادوفيتش. ولكن الدكتور، لسوء حظها، كان يراها بنية صغيرة بريئة وظريفة، ولكنها بنية صغيرة على أي حال. ولم يكن جهل آديلا السحيق والصلف الذي تؤكد به على أشد الحماقات جسامة يضايقه، وأظن أنه كان يستمتع بذلك، بالرغم من أن نوبات تغنجها الساذجة كانت تصبغ وجهه بحمرة الخجل. كان الدكتور يوحي بالثقة، وقد وجدتُ سهولة في التحدث إليه في مواضيع نادراً ما

Twitter: @ketab_n

كنتُ أفتحها أمام أشخاص آخرين خوفاً من إضجارهم، كما هو الحديث عن التصوير مثلاً. أما هو فكان يهتم به لأن استخدامه في الطب قد بدأ منذ عدة سنوات في أوروبا والولايات المتحدة؛ وقد طلب مني أن أعلمه استخدام الكاميرا، لكي يكون لديه سجل لعملياته الجراحية والأعراض الغريبة التي تظهر على مرضاه، يمكنه استخدامه كوسيلة إيضاح في محاضراته ودروسه. بهذه الذريعة ذهبنا لزيارة دون خوان ريبيرو، ولكننا وجدنا الاستوديو مغلقاً وعليه إعلان يعرضه للبيع. وقد أخبرنا الحلاق المجاوربأن المعلم لم يعد يعمل لأنه أصيب بداء الماء الأزرق في عينيه كلتيهما، ولكنه أعطانا عنوانه وذهبنا لزيارته. كان يعيش في مبنى في شارع مونخيتاس عرف أزمنة عز أفضل من هذه، فهو بناء كبير، قديم، تجوبه الأشباح. وقد اقتادتنا عاملة عبر عدة غرف متصلة فيما بينها، ومغطاة من الأرض حتى السقف بصور ريبيرو، حتى بلغنا صالة ذات أثاث قديم من خشب الماهاغوني وآرائك مخلعة، مغلفة بالمخمل. لم تكن هناك مصابيح مضاءة، وقد احتجنا إلى عدة ثوان لكي تعتاد عيوننا على الضوء الخافت ونرى المعلم جالساً، وعلى ركبتيه هرة، إلى جانب النافذة التي كانت تدخل منها آخر انعكاسات ضوء المساء. نهض واقفاً وتقدم بثقة كبيرة لتحيتنا، ولم يكن هناك في خطواته ما يشي بعماه.

– الآنسة دل بايي! المعذرة، فأنت الآن السيدة دومينغث، أليس كذلك؟ – هتف وهو يمد كلتا يديه.

– بل أورورا أيها المعلم، أورورا نفسها مثلما كنتُ على الدوام – رددت وأنا أعانقه. ثم قدمت إليه الدكتور رادوفيتش وأخبرته برغبته في تعلم التصوير لأغراض طبية.

– لم يعد بإمكاني تعليم شيء يا صديقي. لقد عاقبتني السماء في أشد المواضع إيلاماً: في الرؤية. تصور.. مصور أعمى، يا للسخرية!

سألتُ مذعورة:

– ألا ترى شيئاً أيها المعلم؟

– بعيني لا أرى شيئاً، ولكنني ما زلت أرى الدنيا. أخبريني يا أورورا،

Twitter: @ketab_n

هل تغيرتِ أنت؟ كيف تبدين الآن؟ أوضح صورة أذكرك فيها هي صورة طفلة في الثالثة عشرة مسمرة أمام باب الاستوديو بعناد بغلة.

- ما زلت أنا نفسي يا دون خوان، خجولة، بلهاء، وعنيدة.

- لا، لا، أخبرني مثلاً كيف هي تسريحتك، وما هو لون ملابسك.

فقال رادوفيتش:

- السيدة ترتدي ثوباً أبيض، خفيفاً، فيه تطريز حول العنق، لا أدري من أي قماش مصنوع لأنني لا أفهم في هذه الأمور، وتضع حزاماً أصفر، مثل ربطة القبعة. وأؤكد لك أنها تبدو جميلة جداً.

فقاطعته:

- لا تُشعرني بالخجل يا دكتور، أرجوك.

- وقد اصطبغ وجه السيدة الآن بالحمرة... - أضاف ذلك وضحك الاثنان في الوقت نفسه.

قرع المعلم جرساً صغيراً فدخلت العاملة حاملة صينية القهوة. أمضينا ساعة ممتعة ونحن نتحدث عن التقنيات الجديدة وآلات التصوير التي تُستخدم في بلدان أخرى، وعن مدى تقدم التصوير العلمي، وقد كان دون خوان ريبيرو مطلعاً على كل ذلك.

- أورورا تتمتع بالزخم والتركيز والصبر الذي يحتاج إليه كل فنان. وأظن أنه ما يحتاجه الطبيب الجيد أيضاً، أليس كذلك؟ اطلب منها أن تريك أعمالها يا دكتور، إنها متواضعة ولن تريك أعمالها إذا أنت لم تلح على ذلك - اقترح المعلم على إيفان رادوفيتش عند الوداع.

وقد توفرت فرصة لذلك بعد عدة أيام. كانت جدتي قد استيقظت وهي تشعر بآلام مبرحة في المعدة ولم تستطع مهدئاتها المعهودة مساعدتها، فاستدعينا الدكتور رادوفيتش، الذي جاء على عجل وأعطاها مسكناً قوياً مركباً من صبغة الأفيون. تركناها تستريح في سريرها، وخرجنا من الغرفة، وأوضح لي في الخارج بأن هناك ورماً آخر، ولكنها

Twitter: @ketab_n

صارت عجوزاً جداً ولم تعد محاولة إجراء عملية جراحية أخرى ممكنة، لأنها لن تتحمل التخدير؛ وإنما يمكن فقط التحكم بالألم ومساعدتها لكي تموت براحة. أردت أن أعرف كم من الوقت بقي لها، ولكن تحديد ذلك لم يكن سهلاً، لأن جدتي قوية جداً بالرغم من شيخوختها، كما أن الورم ينمو ببطء شديد. وقال لي: «عليك أن تكوني مستعدة يا أورورا، فقد يحدث الانفصال بينكما خلال بضعة شهور». لم أستطع كبح دموعي، فباولينا دل بايي تمثل جذري الوحيد، ومن دونها سأبقى في مهب الريح، وواقع أن زوجي هو دييغو لم يخفف من إحساسي بالغرق، وإنما في تفاقمه. قدم لي رادوفيتش منديله وبقي صامتاً، دون أن ينظر إليّ، مرتبكاً بسبب بكائي. طلبتُ منه أن يعدني بإخباري قبل وقت مناسب ليتسنى لي المجيء من الريف لمرافقة جدتي في لحظاتها الأخيرة. أعطى المسكّن مفعوله وهدأت هي بسرعة؛ وعندما نامت رافقتُ إيفان رادوفيتش إلى الصالة. سألني ونحن عند الباب إذا ما كان بإمكانه البقاء لبعض الوقت، فلديه ساعة من الفراغ والحر شديد في الشارع. كانت آديلا تنام القيلولة، وفريدريك ويليامز ذهب للسباحة في النادي، وبدا البيت الفسيح في شارع الجيش المحرِّر أشبه بسفينة بلا حراك. قدمت له كأساً من عصير اللوز وجلسنا في ردهة نباتات السرخس وأقفاص الطيور.

- صفِّر يا دكتور - قلتُ له.

- صفير؟ لماذا؟

- التصفير يستدعي الرياح حسب اعتقاد الهنود. ونحن بحاجة إلى نسمة هواء لتخفيف هذا الحر.

فطلب مني:

- وبينما أنا أصفر، لماذا لا تحضري لي صورك؟ إنني راغب في رؤيتها.

أحضرتُ عدة علب وجلست إلى جانبه محاولة أن أشرح له عملي. أريه في البدء بعض الصور الملتقطة في أوروبا، عندما كنتُ أهتم

Twitter: @ketab_n

بجمالية الشكل أكثر من اهتمامي بالمضمون، ثم أريته بعد ذلك الصور التي طبعتها بالبلاتين في سنتياغو، وصور هنود الاقطاعية وفلاحيها، وأخيراً صور آل دومينغث. وقد تأملها بالانتباه نفسه الذي يفحص به جدتي، وكان يسأل عن هذا الشيء أو ذاك بين وقت وآخر. وتوقف عند صور أسرة دييغو. وسأل:

- من هي هذه المرأة الجميلة؟

- إنها سوزانا، زوجة إدواردو، شقيق زوجي.

- وأظن أن هذا هو إدواردو، أليس كذلك؟ - قال وهو يشير إلى دييغو.

- لا، هذا هو دييغو. لماذا تظنه زوج سوزانا؟

- لا أدري، هكذا بدا لي...

في تلك الليلة نشرتُ الصور على الأرض وأمضيت ساعات وأنا أتأملها. ثم ذهبت إلى الفراش في وقت متأخر وأنا مكدرة.

كان عليّ أن أودع جدتي لأن موعد الرجوع إلى **كاليوفو** قد أزف. وقد أحست باولينا دل بايي بالتحسن في شهر كانون الأول القائظ - وكان الشتاء طويلاً ومتوحداً بالنسبة إليها أيضاً -، فوعدتني بأن تزورني مع فريدريك ويليامز بعد بداية العام الجديد، بدل الذهاب للاصطياف على شاطئ البحر، مثلما يفعل من يستطيعون الهرب من قيظ سنتياغو. لقد كانت في حالة جيدة، حتى إنها رافقتنا في القطار إلى بالبارايسو، حيث ركبنا أنا وآديلا السفينة إلى الجنوب. رجعنا إلى الريف قبل عيد الميلاد، لأنه لا يمكن لنا أن نتغيب عن أهم حفلة في السنة بالنسبة لآل دومينغث. فقبل شهور من ذلك كانت دونيا إلفيرا تشرف على إعداد الهدايا للفلاحين، وهي هدايا تصنع في البيت أو تشترى من المدينة: ثياب وألعاب للأطفال، أقمشة للملابس وصوف حياكة للنساء، وأدوات عمل للرجال. وتُوزع في هذه المناسبة حيوانات، وأكياس دقيق، وبطاطا،

Twitter: @ketab_n

وتشانكاكا أو سكر أسود، وفاصولياء وذرة، وتشاركي أو لحم مقدد، وعشبة المتة، وملح، وقوالب حلوى السفرجل، تُعدّ في قدور نحاسية ضخمة على مواقد في الهواء الطلق. جاء فلاحو الإقطاعية من الجهات الأربع، بعضهم مشى لأيام مع نسائهم وأبنائهم لحضور الحفلة. وذُبحت أبقار وماعز، وسُلقت البطاطا وعرانيس الذرة الطازجة، وأُعدت قدور من الفاصولياء. وكان عليّ أن أزين بالأزهار وأغصان الصنوبر الموائد الطويلة الممدودة في الفناء، وأن أُعدّ أباريق النبيذ الممزوج بالماء والسكر، بحيث لا يُسكر الكبار، ويمكن للصغار أن يشربوه مخلوطاً مع الدقيق المحمص. جاء كاهن وقام خلال يومين أو ثلاثة بتعميد الأطفال، وتلقي اعترافات الخاطئين، وعقد قران أزواج يعيشون معاً، وتوبيخ الزناة. وفي منتصف ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول حضرنا قداس منتصف الليل قبالة مذبح مرتجل في الهواء الطلق، لأن مصلى العزبة الصغير لا يتسع لكل أولئك الناس، وعند الفجر، بعد تناول فطور لذيذ من القهوة بالحليب، والخبز المحمص، والقشدة، والمربى، والثمار الصيفية، مروا بتمثال الطفل يسوع في موكب مرح، لكي يتمكن كل واحد من تقبيل قدميه الخزفيتين. وكان دون سيباستيان يختار الأسرة التي تميزت بسلوكها الأخلاقي ليسلم إليها تمثال الطفل. وخلال سنة كاملة، حتى عيد الميلاد القادم، يوضع الصندوق الزجاجي وفيه التمثال الصغير في موضع الشرف في كوخ تلك الأسرة الفلاحية، ليأتيها بالبركات. فطالما هو هناك لا يمكن حدوث شيء خبيث. وكان دون سيباستيان يرتب الأمور بحيث يتيح لكل أسرة فرصة احتضان المسيح تحت سقفها. وقد كان لدينا في هذه السنة كذلك العمل التمثيلي حول قدوم القرن العشرين، والذي شارك فيه جميع أفراد الأسرة، باستثناء دونيا إلفيرا، التي اشتد ضعفها، وديبغو الذي فضل تولي الاشراف على المظاهر التقنية، كالمصابيح وستائر الرسوم الخلفية. وقد تقبل دون سيباستيان بكل رحابة صدر أن يمثل دور العام المنصرم الكئيب الذي يمضي متأففاً، بينما قام أحد أبناء سوزانا - وهو ما يزال بالأقمطة - بتشخيص العام الجديد.

ومع انتشار نبأ الطعام المجاني، جاء بعض الهنود البيهونتشيين. لقد

Twitter: @ketab_n

كانوا فقراء جداً - فقد فقدوا أراضيهم وخطط الحكومة التطويرية تتجاهلهم - ولكن كبرياءهم تمنعهم من المجيء بأيد خاوية؛ فأحضروا معهم بعض ثمار التفاح تحت عباءاتهم، وقدموها لنا ملوثة بالعرق والوساخة، وأرنباً ميتاً يفوح بعفونة جيفة، وبعض ثمار القرع المملوءة بالموتشي، وهذه خمرة يحضرونها من ثمار صغيرة لها لون ضارب إلى البنفسجي، يمضغونها ويبصقونها في إناء مع اللعاب، ثم يتركونها لتتخمر. كان يتقدمهم زعيمهم المسن مع نسائه الثلاث وكلابه، يتبعه حوالي عشرين شخصاً من أفراد قبيلته، الرجال لا يتخلون عن رماحهم، فهم لم يفقدوا مظهرهم الشرس على الرغم من أربعة قرون من التعسف والهزائم. ولم يكن في النساء أي شيء من الخجل، فهن يتمتعن باستقلالية وسلطة كما الذكور، وهناك مساواة بين الجنسين لا بد أن نيفيا دل بايي كانت ستصفق لها. حيّوا باحتفالية بلغتهم وهم يطلقون تسمية «أخ» على دون سيباستيان وابنيه الذين رحبوا بهم ودعوهم للمشاركة في الوليمة، ولكنهم بقوا يراقبونهم عن قرب، لأنهم قد يسرقون عند أول سهو. وكان حموي يؤكد بأنهم يفتقرون إلى حس التملك لأنهم معتادون على العيش في جماعة مشاعية تتقاسم كل شيء، ولكن دييغو يزعم أن الهنود، السريعين في أخذ ما للآخرين، لا يسمحون لأحد بلمس ما يملكونه. ولخشية دون سيباستيان من أن يسكروا ويصبحوا عنيفين، قدّم إلى زعيمهم برميل خمر هدية ليشربوه حين يذهبون، لأنهم لا يستطيعون أن يفتحوه وهم ضمن أراضيه. جلسوا في دائرة كبيرة ليأكلوا، ويشربوا، ويدخنوا جميعهم من الغليون نفسه، ويلقوا خطابات مطولة لا يصغي إليها أحد، دون أن يختلطوا بفلاحي **كاليوفو**، مع أن الأطفال كانوا يتراكضون جميعهم معاً. لقد أتاحت لي تلك الحفلة فرصة تصوير الهنود على هواي، وعقد صداقات مع بعض النساء معتقدة بأنهن قد يسمحن لي بزيارة مخيمهن على الضفة الأخرى للبحيرة، حيث استقروا لقضاء الصيف. فعندما ينفد المرعى أو يملون المشهد، ينتزعون من الأرض العصي التي تستند إليها سقوفهم، ويلفون أقمشة الخيام وينطلقون بحثاً عن موقع آخر. فإذا ما أتيح لي قضاء بعض الوقت معهم، فربما يعتادون

Twitter: @ketab_n

على حضوري وحضور الكاميرا. كنت أرغب في تصويرهم وهم يمارسون حياتهم اليومية، ولكن الفكرة أثارت ذعر حمويّ، إذ كانت تدور كل أنواع الحكايات المرعبة عن عادات تلك القبائل التي لم يخلف فيها كل نشاط المبشرين الصبور والدؤوب أكثر من طبقة رقيقة من الورنيش.

لم تأتِ جدتي باولينا لزيارتي في ذلك الصيف مثلما وعدت. فالسفر في القطار أو بالسفينة أمر محتمل، ولكن رحلة اليومين في العربة التي تجرها جواميس من المرفأ حتى **كاليوفو** أخافتها. كانت رسائلها الأسبوعية تمثل اتصالي الأساسي مع العالم الخارجي؛ وكلما انقضت الأسابيع كان حنيني إليها يزداد. تبدل مزاجي، وصرت نفورة، أمضي أكثر صمتاً من المعتاد، أجرجر إحباطي مثل ذيل فستان عروس ثقيل. قرّبتني الوحدة من حماتي، تلك المرأة الرقيقة والمتكتمة، والتابعة تماماً لزوجها، دون أن تكون لديها أفكار خاصة، وغير القادرة على الصراع بأدنى قدر من الجهد في الحياة، ولكنها تعوض قلة معارفها بطيبة هائلة. فكانت خبطات صمتي تتحول فتاتاً بحضورها، إذ أن دونيا إلفيرا تتمتع بفضيلة توجيهي وتهدئة الجزء الذي يخنقني أحياناً.

في شهور الصيف تلك كنا مشغولين بالحصاد، وبالحيوانات حديثة الولادة، وبصنع الأطعمة المحفوظة؛ وكانت الشمس تغيب في التاسعة ليلاً، ويبدو النهار أبدياً. وفي أثناء ذلك كان البيت الذي بناه حمواي لدييغو ولي قد صار جاهزاً، متيناً، بارداً، بديعاً، محاطاً بممرات مسقوفة من الجهات الأربع، يعبق برائحة الطين الطازج، والخشب المقطوع حديثاً والحبق الذي زرعه الفلاحون على امتداد الجدران لإبعاد سوء الطالع والسحر. أعطاني حمواي بعض الأثاث الذي تملكه الأسرة منذ أجيال، واشترى دييغو الباقي من القرية دون أن يسألني رأيي. فبدلاً من السرير الفسيح الذي كنا ننام عليه حتى ذلك الحين، اشترى سريرين ضيقين من البرونز ووضعهما متباعدين يفصل بينهما كوميدينو. كان أفراد الأسرة يعتكفون في غرفهم بعد الغداء وحتى الساعة الخامسة مساء في راحة إجبارية، لأن هناك اعتقاداً بأن الحر يشل عملية الهضم. كان دييغو يستلقي في أرجوحة نوم تحت عريشة الدالية ليدخن لبعض الوقت ثم

Twitter: @ketab_n

يذهب بعد ذلك ليسبح في النهر؛ كان يحب الذهاب وحيداً، وفي المرات القليلة التي أردت مرافقته فيها أبدى انزعاجه، فلم أعد ألح في الذهاب. ونظراً إلى أننا لم نكن نتقاسم ساعات القيلولة تلك في حميمية غرفتنا، فإنني كنت أكرسها للقراءة أو للعمل في مختبر تصويري الصغير، لأنني لم أستطع التعود على النوم في منتصف النهار. لم يكن دييغو يطلب مني شيئاً، ولا يسألني شيئاً، ولا يكاد يبدي اهتماماً مهذباً بنشاطاتي أو مشاعري، ولم يجزع مطلقاً لتبدل حالتي المعنوية، أو لكوابيسي التي رجعت بتواتر أكبر وزخم أشد، أو لصمتي المخادع. كانت تمر أيام دون أن نتبادل كلمة واحدة، ولكنه يبدو كما لو أنه لا يلاحظ ذلك. كنت أحبس نفسي في الصمت كما في درع، أحصي الساعات لأرى إلى متى يمكننا إطالة الوضع، ولكنني أتنازل في النهاية على الدوام، لأن الصمت يُثقل عليّ أكثر بكثير مما يثقل عليه. عندما كنا في السابق نتقاسم السرير نفسه، كنت أدنو منه متظاهرة بأنني نائمة، فألتصق بظهره وأشبك ساقيّ بساقيه، فأتخطى بذلك، في بعض الأحيان، الهوة الآخذة بالانفتاح بقسوة فيما بيننا. لم أكن أبحث عن اللذة في تلك المعانقات النادرة، لأنني أعرف أن ذلك لن يكون ممكناً، وإنما كنت أبحث عن عزاء ورفقة فقط. كنت أعيش لساعات وهم أنني استطعت استعادته، ولكن الفجر يأتي بعد ذلك ويعود كل شيء إلى ما كان عليه. وعندما انتقلنا إلى بيتنا الجديد، اختفت حتى تلك الحميمية المؤقتة، لأن البعد بين السريرين كان أكثر اتساعاً وعدائية من مياه النهر الصاخبة. ومع ذلك، عندما كنت أستيقظ أحياناً صارخة ومحاصرة بأطفال أحلامي ذوي البيجامات السود، ينهض هو، ويأتي إليّ ويحتضنني بقوة إلى أن أهدأ؛ وربما كانت هذه هي لقاءاتنا العفوية الوحيدة. كانت تقلقه تلك الكوابيس، ويرى أنها قد تؤدي إلى الخبل، ولهذا حصل على زجاجة أفيون صغيرة، وصار يعطيني في بعض الأحيان بضع نقاط ممزوجة مع ليكور البرتقال، ليساعدني على النوم ورؤية أحلام سعيدة. وباستثناء الأعمال التي نشارك فيها بقية أفراد الأسرة، كانت الأوقات التي أقضيها أنا ودييغو معاً قليلة جداً. فكثيراً ما كان يذهب في رحلات مجتازاً سلسلة الجبال باتجاه منطقة باتاغونيا

Twitter: @ketab_n

الأرجنتينية، أو يمضي إلى القرية لشراء المؤن، وقد يختفي أحياناً ليوم أو يومين دون أن يقدم تفسيراً لغيابه بينما أغرق أنا في الغم متصورة وقوع حادث، ولكن إدواردو كان يهدئني بالقول إن أخاه كان هكذا على الدوام، متوحداً ترعرع في اتساعات هذه الطبيعة البرية الخشنة، معتاداً على الصمت، ومنذ طفولته يشعر بالحاجة إلى فضاءات فسيحة، له روح متشرد ولو أنه لم يولد في شباك هذه الأسرة المتراصة، فربما كان سيتحول إلى بحار. كانت قد مضت سنة على زواجنا، وكنت أشعر بأنني مقصرة، ليس لأنني عجزت عن منحه ابناً وحسب، وإنما لأنني لم أتوصل إلى إثارة اهتمامه بي، ناهيك عن أن يحبني؛ لا بد أن ثمة شيئاً أساسياً ناقصاً في أنوثتي. كنتُ أفترض بأنه قد اختارني لأنه كان في سن الزواج، واضطرته ضغوط أبويه إلى البحث عن عروس؛ وكنت أنا أول من ظهرت أمامه، وربما الوحيدة. لم يكن دييغو يحبني. لقد عرفت ذلك منذ البداية، ولكنني في كبرياء الحب الأول وسنوات عمري التسع عشرة، لم أرَ في ذلك عقبة لا يمكن تجاوزها، بل ظننت بأنني قادرة على إغوائه بقوة الاصرار، والفضيلة، والتغنج، مثلما يحدث في القصص الرومنسية. وفي كرب التقصي عن مصدر الإخفاق فيَّ، كرستُ ساعات وساعات لالتقاط صور ذاتية، بعضها قبالة مرآة كبيرة نقلتها إلى مشغلي، وأخرى بوقوفي أمام الكاميرا. التقطت لنفسي مئات الصور، بعضها وأنا بملابسي، وأخرى وأنا عارية، وكنت أتفحص نفسي من كل الزوايا، وكان الشيء الوحيد الذي اكتشفته هو حزن غسقي.

كانت دونيا إلفيرا تراقب حياة الأسرة من كرسي مرضها دون أن يغيب عنها أي تفصيل، وقد انتبهت إلى تغيبات دييغو وخيبة أملي، فجمعت اثنين زائد اثنين وتوصلت إلى بعض النتائج. وكانت حساسيتها والعادة التشيلية المتأصلة بعدم التكلم عن المشاعر تمنعانها من مواجهة المشكلة مباشرة، ولكن في الساعات الكثيرة التي كنا نمضيها معاً وحيدتين راح يحدث تقارب حميم بيني وبينها، وتوصلنا إلى أن نكون مثل أم وابنتها. وهكذا راحت تخبرني، بتحفظ وتدرج، بالصعوبات التي واجهتها مع زوجها في بداية زواجهما. لقد تزوجت وهي فتية جداً ولم

Twitter: @ketab_n

تنجب ابنها الأول إلا بعد خمس سنوات من ذلك، وبعد عدة إسقاطات خلّفت قلبها وروحها في حالة يرثى لها. في ذلك الحين لم يكن سيباستيان دومينغث يتمتع بالنضوج وحس المسؤولية اللازمين للحياة الزوجية؛ فقد كان مندفعاً، محباً للعربدة والمضاجعات، هي لم تستخدم هذه الكلمة بالطبع، ولا أظنها تعرفها. كانت دونيا إلفيرا تشعر بأنها معزولة، بعيدة جداً عن أسرتها، وحيدة وخائفة، مقتنعة بأن زواجها لم يكن سوى خطأ رهيب والمخرج الوحيد منه هو الموت. «ولكن الله استمع إلى تضرعاتي، وأنجبنا إدواردو، فتبدل سيباستيان تماماً بين ليلة وضحاها؛ ليس هناك أب أو زوج أفضل منه، إننا نعيش معاً منذ أكثر من ثلاثين سنة، وفي كل يوم أشكر السماء على السعادة التي نتقاسمها. لا بد من الصلاة يا بنيتي، فهي تساعد كثراً»، قالت لي ناصحة. صليتُ، ولكن ليس بالزخم والإلحاح اللازمين بكل تأكيد، لأن شيئاً لم يتغير.

كانت الشكوك قد بدأت تراودني منذ شهور، ولكنني استبعدتها مشمئزة من نفسي؛ لا يمكن القبول بتلك الشكوك دون الكشف عن شيء من الخبث في طبيعتي نفسها. وكنت أردد بيني وبين نفسي بأن تلك التكهنات لا يمكن لها إلا أن تكون أفكار الشيطان تمد جذورها وتبرز كأورام قاتلة في دماغي، أفكار يجب علي أن أقارعها دون هوادة، ولكن نهش الضغينة كانت أقوى من نواياي الطيبة. في البدء كانت الصور العائلية التي أريتها لإيفان رادوفيتش. وما لم يكن جلياً للوهلة الأولى - بحكم العادة في رؤية ما نود رؤيته فقط، مثلما يقول معلمي خوان ريبيرو - ظهر معكوساً بالأسود والأبيض على الورق. لغة الجسد، والإيماءات، والنظرات التي لا تخطئ، كانت ظاهرة هناك. انطلاقاً من تلك الظنون لجأت أكثر فأكثر إلى الكاميرا؛ وبحجة إعداد ألبوم لدونيا إلفيرا، صرت ألتقط لحظات فورية من الحياة الأسرية، ثم أُظهِّرها فيما بعد في خصوصية مشغلي وأدرسها باهتمام خبيث. وهكذا حصلت على مجموعة بائسة من الأدلة الدقيقة، بعضها خفية الدلالة ولا يمكن إلا لي أنا،

Twitter: @ketab_n

المسممة بالغيظ، أن ألحظها. وبوضع الكاميرا أمام وجهي، كقناع يجعلني غير مرئية، كنت أستطيع التركيز على المشهد والاحتفاظ في الوقت نفسه بمسافة برود جليدية. وفي أواخر شهر نيسان، عندما انخفض الحر، وتكللت بالغيوم قمم البراكين وبدأت الطبيعة بالانكماش تأهباً للخريف، بدت لي الإشارات التي كشفتها الصور كافية وبدأت بمهمة مراقبة دييغو البغيضة، مثل أي امرأة غيورة. وعندما وعيت أخيراً ذلك المخلب الذي يشد على حنجرتي واستطعت تسميته باسمه الذي يمنحه المعجم إياه، أحسست أنني أغرق في مستنقع. **الغيرة**. ومن لم يشعر بها لن يعرف كم هي مؤلمة، ولن يتصور الأعمال الجنونية التي ترتكب باسمها. في الثلاثين سنة من حياتي لم أعان هذه الأحاسيس إلا في تلك المرة، ولكن الحروق كانت فظة إلى حد أن ندوبها لم تلتئم، وآمل ألا تمحي أبداً، لتبقى ذكرى تجنبني الوقوع فيها مستقبلاً. لم يكن دييغو لي - لا يمكن لأحد أن ينتمي إلى سواه مطلقاً - وكوني امرأته لا يمنحني الحق بفرض نفسي عليه وعلى مشاعره، فالحب هو عقد حرّ يبدأ بوميض شرارة، ويمكن له أن ينتهي بالطريقة نفسها. هناك ألف خطر يتهدده، وقد ينجو إذا ما دافع عنه الثنائي المحب، فينمو مثل شجرة ويمنح الظل والثمار، ولكن هذا لا يحدث إلا إذا شارك الاثنان معاً. ودييغو لم يفعل ذلك قط، فقد كان محكوماً على علاقتنا منذ البداية. إنني أدرك ذلك اليوم، أما في ذلك الحين فكنت عمياء، عمياء بالغضب في أول الأمر ثم بالغم بعد ذلك.

عندما صرت أتجسس عليه والساعة في يدي، أخذت ألاحظ أن تغيبات زوجي لا تتوافق مع تفسيراته. فحين يكون قد خرج، ظاهرياً، للصيد مع إدواردو، يأتي عائداً قبل، أو بعد، ساعات طويلة من أخيه؛ وعندما يكون بقية رجال الأسرة في منشرة الأخشاب أو في حلبة الحظائر يسِمون المواشي، يظهر هو فجأة في فناء البيت ويتبين لي بعد ذلك، إذا ما طرحتُ الموضوع على المائدة، بأنه لم يكن معهم طوال اليوم؛ وعندما يقول إنه ذاهب للشراء من القرية، يرجع عادة دون شيء، لأنه يدعي بأنه لم يجد ما يبحث عنه، حتى ولو كان ما يريده شيئاً تافهاً مثل

Twitter: @ketab_n

فأس أو منشار. وخلال الساعات الطويلة التي تقضيها الأسرة مجتمعة، يتجنب المحادثات بأي ثمن، فهو دوماً من يرتب أمر ألعاب الورق أو يطلب من سوزانا أن تغني. فإذا كانت تعاني إحدى نوبات صداعها، فإنه يمل بسرعة ويمضي ممتطياً الحصان وبندقيته على كتفه. لم يكن بمقدوري متابعة رحلاته دون أن يلاحظ هو ذلك ودون أن أثير شكوك العائلة، ولكنني بقيت متيقظة لمراقبته حين يكون قريباً. وهكذا انتبهت إلى أنه ينهض في منتصف الليل أحياناً ولا يذهب إلى المطبخ ليأكل شيئاً، مثلما كنت أتصور، وإنما يرتدي ملابسه، ويخرج إلى الفناء ويختفي طوال ساعة أو ساعتين، ثم يرجع بعد ذلك ليندس في السرير بصمت. وكانت ملاحقته في الليل أسهل من عمل ذلك في النهار، حيث تكون هناك أكثر من عشر عيون تنظر إلينا، وكان كل شيء يتمثل في بقائي مستيقظة بتجنب تناول النبيذ خلال العشاء وقطرات الأفيون الليلية. وفي إحدى الليالي في أواسط أيار تنبهت إلى أنه ينسل من الفراش، وعلى ضوء مصباح الزيت الخافت الذي نبقيه مضاء أمام الصليب، رأيته يرتدي بنطاله وجزمته، ويأخذ قميصه وسترته ويخرج. انتظرتُ للحظات، ثم نهضت بسرعة ولحقت به وقلبي يوشك أن ينفجر في صدري. لم أستطع أن أراه بوضوح داخل البيت المعتم، ولكنه حين خرج إلى الفناء بدا شبحه بوضوح على ضوء القمر الذي كان يتبدى للحظات كاملاً في القبة السماوية. لقد كانت السماء غائمة عملياً، وكانت الغيوم تحجب القمر أحياناً، وتلفنا بالظلام. سمعت نباح الكلاب وفكرت بأنها ستكشف وجودي إذا ما اقتربت، ولكنها لم تجئ، وعندئذ أدركت أن دييغو قد قيدها في وقت سابق. دار زوجي دورة كاملة حول البيت وتوجه بسرعة نحو أحد الاسطبلات، حيث خيول الركوب الخاصة بالأسرة، التي لا تُستخدم في أعمال الحقل، رفع مزلاج الباب ودخل. بقيتُ أنتظر، محتمية بسواد شجرة دردار على بعد أمتار قليلة من الاسطبلات، وكنتُ حافية ولا يغطيني سوى قميص نوم خفيف، دون أن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى، مقتنعة بأن دييغو سيعود للظهور ممتطياً جواداً ولن أستطيع ملاحقته. انقضى وقت بدا لي طويلاً جداً دون أن يحدث شيء.

Twitter: @ketab_n

وفجأة لمحت ضوءاً ينبعث من فجوة الباب الموارب، ربما هي شمعة أو مصباح صغير. كانت أسناني تصطك وأنا أرتجف مختلجة من البرد والخوف. وكنت على وشك الاقرار بهزيمتي والرجوع إلى الفراش، حين رأيت شبحاً آخر يقترب من البناء من جهة الشرق - كان واضحاً أنه ليس آتياً من البيت الكبير -، ويدخل إلى الاسطبل أيضاً، ويغلق الباب خلفه. بقيت مدة ربع ساعة تقريباً قبل أن أحزم أمري، ثم أجبرت نفسي على السير بضع خطوات، كنتُ مخدرة ولا أكاد أستطيع الحركة. دنوت من الاسطبل بخوف، دون أن أدري كيف سيكون ردّ فعل دييغو إذا ما اكتشف أنني أتجسس عليه، ولكنني كنت عاجزة عن التراجع. دفعتُ البوابة برفق، فانفتحت دون صعوبة، لأن مزلاجها من الخارج، ولا يمكن اغلاقها من الداخل، واستطعت التسلل مثل لص من فرجة الباب الضيقة. كان الظلام مخيماً في الداخل، ولكن هناك ضوء خافت يتذبذب في أقصى المكان، تقدمت نحوه على رؤوس أصابعي ودون أن أتنفس تقريباً، وهو احتياط لا طائل منه، لأن القش كان يكتم وقع خطواتي، كما أن عدة حيوانات كانت مستيقظة، وكنتُ أسمعها تتحرك وتلهث في مذاودها.

على الضوء الخافت لمصباح معلق بإحدى الدعائم، ينوس من الهواء المتسرب من بين شقوق الخشب، رأيتهما. كانا قد وضعا بعض البطانيات فوق حزمة من القش، كأنها العش، حيث كانت هي تستلقي على ظهرها، مرتدية معطفاً سميكاً مفتوحاً، وعارية تحته تماماً. كانت تفتح ذراعيها وساقيها، ورأسها يميل نحو أحد كتفيها، وشعرها الأسود يغطي وجهها، وبشرتها تلمع مثل خشب أشقر تحت ضوء المصباح البرتقالي. وكان دييغو، الذي لا يغطيه سوى القميص، يجثو أمامها ويلحس عضوها. كان هناك استسلام في وضع سوزانا، وقدر من العاطفة المكبوتة في حركات دييغو، أدركتُ معه خلال برهة كم أنا غريبة عن كل ذلك. الحقيقة أنه لم يكن لي وجود، وأنه ليس هناك من وجود كذلك لإدواردو أو الأبناء الثلاثة، لا وجود لأحد، إلا هما الاثنين في حبهما المحتم. لم يداعبني زوجي قط بهذه الطريقة. كان من السهل إدراك أنهما فعلا ذلك ألف مرة من قبل، وأنهما متحابان منذ سنوات؛ وأدركت أخيراً بأن دييغو قد تزوج مني لأنه

Twitter: @ketab_n

بحاجة إلى ستارة يحجب بها غرامياته مع سوزانا. وخلال لحظات احتلت أجزاء تلك اللعبة التركيبية مواقعها، واستطعت أن أجد تفسيراً لعدم مبالاته معي، وغيابه الذي يتوافق مع نوبات صداع سوزانا، وعلاقته المتوترة مع أخيه إدواردو، وطريقته المتكتمة في التعامل مع بقية أفراد الأسرة، وكيف يرتب الأمور دوماً ليكون قريباً منها، يلامسها، قدمه بجانب قدمها، ويده على مرفقها أو كتفها، وأحياناً، وكأن الأمر صدفة، على فجوة ظهرها أو عنقها، وهي علامات مؤكدة كشفتها لي الصور. تذكرتُ كم يحب دييغو الأطفال، وهجست بأنهم ربما لا يكونون أبناء أخيه وإنما أبناءه، فالثلاثة عيونهم زرقاء، وهي العلامة المميزة لآل دومينغث. بقيت دون حراك، أكاد أن أتجمد، بينما هما يمارسان الحب بشهوانية، مستمتعين بكل لمسة، كل آهة، دون تعجل، وكأن الحياة بطولها متاحة لهما. لم يبدوا كعاشقين في لقاء سري متعجل، وإنما عروسين جديدين في الأسبوع الثاني من شهر عسلهما، حين تكون العاطفة ما تزال سليمة، ولكن تتوفر الثقة ومعرفة اللحم المتبادلة. أما أنا بالمقابل، فلم أكن قد جربت مثل هذه الحميمية مع زوجي، كما أنني لم أستطع أن أصوغها حتى في أكثر تخيلاتي جرأة. كان لسان دييغو يجوب باطن فخذي سوزانا، ابتداء من الرسغين نحو الأعلى، متوقفاً ما بين ساقيها ثم نازلاً من جديد، بينما يداه تصعدان من خصرها وتهصران نهديها المدورين والمكورين، مداعبتين الحلمتين المنتصبتين واللامعتين مثل حبتي عنب. كان جسد سوزانا اللدن والناعم يهتز ويرتعش، مثل سمكة في الماء، ورأسها يميل من جانب إلى آخر في قنوط اللذة، وشعرها يغطي وجهها طوال الوقت، وشفتاها مفتوحتان في أنَّة طويلة، ويداها تبحثان عن دييغو لتوجهاه عبر طبوغرافية جسدها البديعة، إلى أن جعلها لسانه تنفجر بالنشوة. قوّست سوزانا ظهرها إلى الوراء من اللذة التي تجوبها مثل ومضة برق وأطلقت صرخة مبحوحة خنقها هو بإطباق فمه على فمها. ثم حملها دييغو بعد ذلك بين ذراعيه، مؤرجحاً ومداعباً إياها مثل هرة، وهو يهمس بمسبحة من الكلمات السرية في مسمعها، برقة وعذوبة لم أتصورها ممكنة لديه قط. في إحدى اللحظات جلست هي على القش،

Twitter: @ketab_n

خلعت المعطف وبدأت تقبله، من جبهته أولاً، ثم من جفونه، ومن صدغيه، ومن الفم مطولاً، واستكشف لسانها اللعوب أذني دييغو، قافزاً فوق تفاحة آدم في عنقه، مضمخاً العنق، وقضمت أسنانها برفق الحلمتين الذكوريتين، وتشابكت أصابعها بشعر الصدر. وعندئذ جاء دوره في الاستسلام الكامل للمداعبات، فانبطح على بطنه فوق البطانية وامتطت هي ظهره وهي تعض قذاله ورقبته، وتمر على كتفيه في قبلات سريعة لعوبة، نازلة حتى الإليتين، مستكشفة، متشممة، متذوقة، وتاركة أثراً من اللعاب في طريقها. انقلب دييغو حينئذ، فتلقفت بفمها عضوه المنتصب والنابض في عملية لذة لا تنتهي، عملية أخذ وعطاء في أشد أشكال الحميمية خفية، إلى أن لم يعد قادراً على الصمود وارتمى فوقها، مخترقاً إياها، وتقلبا مثل عدوين متشابكين في اختلاط من الأذرع والسيقان والقبلات واللهاث والتنهدات وألفاظ الحب التي لم أسمعها قط. وبعد ذلك غفوا في عناق دافئ متدثرين بالبطانيات ومعطف سوزانا، مثل طفلين بريئين. تراجعتُ بصمت وعدت إلى سريري، بينما برودة الليل الجليدية تسيطر دون رحمة على روحي.

انفتحت هوة أمامي، أحسست بالدوار يسحبني إلى الأعماق، وبرغبة في القفز والضياع في أعماق الألم والرعب. لقد خلّفتني خيانة دييغو، والخوف من المستقبل، طافية دون سند، تائهة ومخذولة؛ الغضب الذي عصف بي في البداية لم يستمر طويلاً، فقد هزمني على الفور إحساس بالموت، بحِداد مطلق. كنت قد أسلمت حياتي لدييغو، ووثقت بحمايته كزوج، وفهمت كلمات طقوس الزواج بحذافيرها: سنبقى متحدين حتى الموت. ليس هناك من مفر. لقد وضعني مشهد الاسطبل أمام واقع كنت أتوجسه منذ وقت لا بأس به، ولكنني أرفض مواجهته. كان أول ما فكرت به هو الجري باتجاه البيت الكبير، والوقوف وسط الفناء، والصراخ مثل مجنونة، وإيقاظ الأسرة، والفلاحين، والكلاب، لأجعلهم شهوداً على الخيانة وزنى المحارم. ولكن خجلي كان أكبر من القنوط، فجرجرت نفسي

Twitter: @ketab_n

صامتة ومتلمسة طريقي حتى الغرفة التي أتقاسمها مع دييغو، وجلست على السرير وأنا أرتعش، بينما كانت دموعي تسيل على خديّ، وتبلل صدري وقميص النوم. خلال الدقائق أو الساعات التالية، وجدت الوقت الكافي لأفكر بما حدث وأتقبل عجزي. لم تكن مجرد مغامرة جسدية؛ فما يربط دييغو وسوزانا هو حب مؤكد، مستعد لأن يواجه كل المخاطر وأن يجرف في طريقه كل العوائق التي قد تعترض سبيله، مثل نهر مهل بركانية ملتهب لا يلين. فلا إدواردو ولا أنا نعني شيئاً، لأننا لسنا أكثر من نفاية، أو مجرد حشرتين ضئيلتين في اتساعات مغامرتهما العاطفية. وقررت أنه لا بد لي من إخبار حمي قبل أي شخص آخر، ولكنني حين تخيلت ضربة الفأس التي سيسببها مثل هذا الاعتراف لذلك الرجل الطيب، أدركت أنني لا أملك الشجاعة لعمل ذلك. إدواردو سيكتشف ذلك بنفسه في أحد الأيام أو أنه، بشيء من الحظ، لن يعرف ذلك إلى الأبد. ربما هو يراوده الشك، مثلي، ولكنه لا يرغب في التأكد من ذلك لكي يحافظ على توازن أوهامه الهش؛ فهناك ثلاثة أطفال في المسألة، وحبه لسوزانا، والحفاظ على تماسك الأسرة كصخرة واحدة.

رجع دييغو في وقت من الليل، قبيل الفجر بقليل. وعلى ضوء مصباح الزيت رآني جالسة على السرير، محتقنة بالبكاء، وغير قادرة على النطق بكلمة واحدة، فظن بأنني قد استيقظت في كابوس آخر من كوابيسي. جلس إلى جانبي وحاول جذبي إلى صدره، مثلما يفعل في مثل هذه المناسبات، ولكنني انكمشت على نفسي في حركة غريزية، ولا بد أنني أبديت تعبير حقد رهيب، لأنه تراجع فوراً. بقي كل منا ينظر إلى الآخر، هو بنظرة متفاجئة وأنا بنظرة كراهية، إلى أن انتصبت الحقيقة بين السريرين غير قابلة للاستئناف ودامغة بحجم تنين.

- ما الذي سنفعله الآن؟ - كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعت أن أتلعثم به.

لم يحاول الإنكار أو التبرير، بل تحداني بنظرة فولاذية، مستعداً للدفاع عن حبه بأي طريقة، حتى لو اضطر إلى قتلي. عندئذ تحطم وازع

Twitter: @ketab_n

الكبرياء، والتربية، واللباقة، الذي كان يكبحني طوال شهور الاحباط وتشظى فتاتاً، وتحول اللوم الصامت إلى سيل من التعنيف لا ينتهي، تلقاه هو بسلبية وصمت، ولكن بانتباه لكل كلمة. اتهمته بكل ما خطر في ذهني من اتهامات، وأخيراً توسلت إليه بأن يفكر في الأمر، وقلت له إنني مستعدة للصفح والنسيان، وإنه يمكننا الذهاب بعيداً، حيث لا يعرفنا أحد، ويمكننا البدء من جديد. وعندما نفدت مني الدموع والكلمات، كان النهار قد طلع. تخطى دييغو المسافة الفاصلة بين سريرينا، وجلس إلى جانبي، وتناول يديّ وأوضح لي بهدوء وجدية بأنه يحب سوزانا منذ سنوات عديدة، وأن هذا الحب هو أهم ما في حياته، أهم من الشرف، ومن بقية الأسرة، ومن خلاص روحه بالذات؛ وقال إن بإمكانه أن يعدني بالانفصال عنها ليطمئنني، ولكنه سيكون وعداً كاذباً. وأضاف أنه حاول ذلك حين ذهب إلى أوروبا، مبتعداً عنها طوال ستة شهور، ولكن دون نتيجة. بل إنه تزوج مني ليرى إن كان قادراً على تحطيم تلك العلاقة مع زوجة أخيه، ولكن الزواج، بدلاً من أن يساعده في قراره بالابتعاد عنها، سهّل له الأمور، لأنه خفف من شكوك إدواردو وبقية الأسرة. وقد كان سعيداً مع ذلك لأني اكتشفت الحقيقة أخيراً، لأنه يشعر بالأسى لخداعي؛ وأكد لي بأنه ليس لديه ما يؤاخذني عليه، فقد كنت زوجة طيبة وهو يأسف كثيراً لأنه لم يستطع منحي الحب الذي أستحقه. وإنه يشعر بالحقارة في كل مرة يتسلل فيها من جانبي ليذهب إلى سوزانا، وسيشعر بالراحة لأنه لن يكون مضطراً إلى الكذب علي أكثر. فالوضع صار واضحاً الآن.

سألته:

- أليس هناك اعتبار لإدواردو؟

- ما يحدث بينه وبين سوزانا هو من شأنهما. وما علينا أن نحسم أمره الآن هو علاقتنا نحن.

فقلت له:

- لقد حسمت أمرها أنت يا دييغو. لم يعد لدي ما افعله هنا،

Twitter: @ketab_n

سأعود إلى بيني.

- هذا هو بيتك الآن.. فنحن متزوجان يا أورورا. وما جمعه الرب لا يمكن تفريقه.

وبينت له:

- أنتَ من خرقت عدة تعاليم إلهية.

- يمكننا أن نعيش كأخوين. لن تحتاجي إلى شيء وأنت بجانبي، فسأحترمك دوماً، وستنالين الحماية والحرية لتكريس وقتك لصورك أو ما تشائين. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو ألا تثيري فضيحة.

- لم يعد بإمكانك أن تطلب مني شيئاً يا دييغو.

لست أطلب ذلك من أجلي. فأنا لدي جلد قاس ويمكنني المواجهة كرجل. إنني أطلبه منك من أجل أمي. فهي لن تتحمل ذلك...

وهكذا بقيتُ من أجل دونيا إلفيرا. لست أدري كيف استطعت ارتداء ملابسي، وإلقاء حفنة من الماء على وجهي، وتسريح شعري، وتناول القهوة والخروج من البيت إلى أعمالي اليومية. لست أدري كيف واجهت سوزانا في موعد الغداء، ولا أي تفسير قدمت لحمويّ عن انتفاخ عيني. لقد كان ذلك اليوم هو الأسوأ، أحسست فيه بأنني مضروبة ومشوشة، أوشك أن أنفجر في البكاء لدى أول سؤال. أصابتني في الليل حمى وآلام في العظام، ولكنني كنت أكثر هدوء في اليوم التالي، أسرجت حصاني وانطلقت نحو الجبال. سرعان ما بدأ المطر بالهطول، ولكنني واصلت العدو إلى أن لم يعد بإمكان الفرس المسكينة المزيد، عندئذ ترجلت وشققت طريقي مشياً على الأقدام ما بين السرخس والوحل، تحت الأشجار، فكنت أنزلق وأسقط أرضاً وأعود للنهوض، وأصرخ ملء رئتي، بينما الماء يبللني. صارت عباءة البنونتشو المشبعة بالماء ثقيلة جداً، فألقيتها عني وواصلت التقدم وأنا ارتجف من البرد وأحترق في داخلي. رجعت عند غروب الشمس، محمومة وفاقدة الصوت، تناولت شراباً ساخناً واندسست في الفراش. ما سوى ذلك لا أذكر منه إلا القليل،

Twitter: @ketab_n

لأنني كنت مشغولة جداً في الأسبوع التالي في مقاومة الموت، ولم يكن لدي الوقت ولا الحماس للتفكير في مأساة زواجي. فالليلة التي أمضيتها حافية وشبه عارية في الاسطبل، وركوب الجواد تحت المطر تسببا في التهاب رئوي كاد أن يودي بي. حملوني في عربة إلى مستشفى الألمان، حيث وضعوني بين يدي ممرضة تيوتونية ذات ضفيرتين شقراوين، تمكنت بقوة العناد من إنقاذ حياتي. لقد كانت تلك الفالكيرا النبيلة قادرة على رفعي مثل طفل رضيع بين ذراعيها اللتين كذراعي حطاب، ولكنها كانت قادرة كذلك على إعطائي حساء الدجاج بملعقة صغيرة وبصبر مرضعة.

في أوائل شهر تموز، عندما استقر الشتاء نهائياً، وصار المشهد مجرد ماء وحسب – أنهار فيضانية جارفة، سيول، مخاضات وحل، مطر ومزيد من المطر –، ذهب مع فلاحين لإحضاري من المستشفى وأعادوني إلى **كاليوفو** مدثرة ببطانيات وجلود، مثل حزمة أمتعة. كانوا قد ركّبوا مظلة من قماش الخيم فوق العربة، ووضعوا فيها سريراً، بل ومجمراً مشتعلاً كذلك لمقاومة الرطوبة. وقد قمت بالرحلة البطيئة إلى البيت وأنا أتعرق في لفافتي من الأغطية، بينما دييغو يمتطي حصانه ويمضي بجانبي. انغرست عجلات العربة في الوحل عدة مرات؛ ولم تكن قوة الجواميس كافية لسحب العربة، فكان على الرجال أن يضعوا ألواحاً من الخشب فوق الوحل ويدفعوها. لم نتبادل أنا ودييغو كلمة واحدة خلال ذلك اليوم الطويل على الطريق. وعندما بلغنا **كاليوفو** خرجت دونيا إلفيرا لتستقبلني وهي تبكي من الفرح، وكانت تحث العاملات بعصبية لكي لا يهملن المدافئ وزجاجات الماء الساخن، والحساء الممزوج بدم عجل لإعادة اللون والرغبة في الحياة إليّ. وقالت إنها قد صلّت كثيراً من أجلي، وإن الرب قد أشفق واستجاب. وبحجة أنني ما أزال أشعر بالتوعك الشديد، طلبت منها أن تسمح لي بالنوم في البيت الكبير، فخصصت لي غرفة إلى جوار غرفتها. ووجدتُ للمرة الأولى في حياتي رعاية أم. فجدتي باولينا دل بايي التي أحبتني كثيراً وقدمت لي الكثير، لم تكن تميل إلى إظهار الحنان، بالرغم من أنها عاطفية في أعماقها. فقد كانت تقول إن الحنان،

Twitter: @ketab_n

هذا المزيج المبالغ به من العاطفة والشفقة، والذي يُمثل عادة في التقاويم برسم لأم منذهلة أمام مهد رضيعها، يكون مقبولاً عند إغداقه على حيوانات مسالمة، كالقطط حديثة الولادة مثلاً، ولكنه حماقة كبرى بين الكائنات البشرية. لقد كان في علاقتنا على الدوام لمسة من السخرية والاستهتار؛ وقلما كنا نتلامس، اللهم إلا عندما كنا ننام معاً في طفولتي، وكنا نتعامل عموماً بشيء من الخشونة المريحة لكلتينا. كنت ألجأ إلى نوع من الحنان الساخر حين أريد أن ألوي ذراعها، وأتوصل إلى ذلك دوماً، لأن جدتي الضخمة كانت ترّق بسهولة كبيرة، هرباً من المظاهر العاطفية أكثر مما هو ضعف في طبعها. أما دونيا إلفيرا من جهتها، فكانت إنسانة بسيطة يمكن لسخرية من تلك التي كنا نتبادلها أنا وجدتي أن تغضبها. فهي عاطفية بطبعها، تأخذ يدي وتبقيها بين يديها، تقبلني، تعانقني، تحب أن تسرح شعري، تقدم لي بنفسها مقويات من نقي العظام وزيت السمك، وتضع لي لزقات الكافور للسعال، وتجعلني أتعرق الحمى بتدليكي بزيت الأوكالبتوس وتدثيري ببطانيات دافئة. وتهتم بأن آكل جيداً وأستريح، وتقدم لي في الليل قطرات الأفيون وتبقى إلى جانبي تصلي حتى أغفو. وفي كل صباح تسألني إذا ما رأيتُ كوابيس، وتطلب مني أن أصف لها ما رأيته بالتفصيل، «لأن التكلم في هذه الأمور يُفقد الكوابيس قدرتها على التخويف» كما كانت تقول. لم تكن صحتها جيدة، ولكنني لا أدري من أين كانت تأتي بالقوة لتعتني بي وترافقني، بينما كنتُ أتظاهر بأنني أكثر ضعفاً مما أنا عليه في الواقع لأطيل أمد مغازلاتي مع حماتي. وقد اعتادت أن تقول لي بقلق: «تحسني بسرعة يا بنيتي، فزوجك يحتاجك إلى جانبه»، مع أن دييغو كان يكرر القول لها عن أفضلية بقائي طوال ما تبقى من الشتاء في البيت الكبير. لقد كانت تلك الأسابيع التي أمضيتها تحت سقفها، لأشفى من ذات الرئة، تجربة غريبة. فقد أحاطتني حماتي بالرعاية والمحبة اللتين لن أحصل عليهما من دييغو أبداً. ذلك الحب العذب وغير المشروط كان له مفعول البلسم، وراح يشفيني ببطء من رغبتي في الموت ومن الحقد الذي أشعر به نحو زوجي. استطعت تفهم مشاعر دييغو وسوزانا، والقدر المحتوم الذي لا

Twitter: @ketab_n

يمكن رده في ما حدث؛ لا بد أن عاطفتيهما هي قوة أرضية طاغية،زلزال جرفهما دون خلاص. تخيلت كيف ناضلا ضد ذلك الانجذاب قبل أن يسقطا فيه، وكم من المحرمات كان عليهما أن يخرقا ليكونا معاً، وكم كان رهيباً عذابهما اليومي للتظاهر بعلاقة أخوية أمام الجميع بينما هما يتأججان بالرغبة في دخيلتيهما. توقفت عن التساؤل كيف يمكن لهما ألا يترفعا عن شبقهما، وكيف يمكن لأنانيتهما أن تمنعهما من رؤية الغرق الذي قد يسبباه لأقرب الناس إليهما، لأنني أدركت مدى التمزق الذي يعانيانه دون ريب. كنت قد أحببت دييغو بيأس، ويمكنني أن أتفهم ما تشعر به سوزانا تجاهه. أتراني كنتُ سأتصرف مثلها لو أنني في الظروف نفسها؟ أظن أن لا، ولكن من المستحيل تأكيد ذلك. وبالرغم من أن مشاعر الإخفاق ما زالت على حالها، إلا أنني استطعت التخلص من الحقد، والوقوف عن بعد ووضع نفسي في موقع أبطال تلك المحنة الآخرين؛ لقد أحسست بالشفقة على إدواردو أكثر من حزني على نفسي، فلديه ثلاثة أبناء، وهو مغرم بزوجته، ووقع مأساة خيانة زنى المحارم هذه سيكون أشد وطأة عليه مني. يجب عليّ كذلك أن أحتفظ بالصمت من أجل شقيق زوجي، ولكن السّر لم يعد يُثقل مثل رحى طاحون على كاهلي، لأن الإحساس بفظاعة دييغو راح يخفت، مغسولاً بيدي دونيا إلفيرا. أُضيف امتناني لهذه المرأة إلى الاحترام والمحبة اللذين شعرت بهما تجاهها منذ البداية، فالتصقت بها مثل كلب أليف؛ فقد كنتُ بحاجة إلى حضورها، إلى صوتها، إلى شفتيها تقبلان جبهتي. وكنتُ أشعر بأنني مجبرة على حمايتها من الكارثة التي كانت تتفاعل في أحشاء أسرتها؛ وكنت مستعدة للبقاء في **كاليوفو** مدارية مذلتي كزوجة مرفوضة، لأنني إذا ذهبتُ ستكتشف الحقيقة، وتموت من الألم والعار. فحياتها تدور حول هذه الأسرة، وحول حاجات كل واحد من الأشخاص الذين يعيشون بين جدران بيتها، وكان هذا هو كل عالمها. لقد كان اتفاقي مع دييغو بأن انجز ما هو مترتب علي في البقاء ما دامت دونيا إلفيرا على قيد الحياة، ثم أصبحُ حرة التصرف بعد ذلك، وسيتركني أذهب عندئذ ولن يعود للاتصال بي. يجب علي أن أتحمّل هذا الوضع - وهو وضع مشين في

Twitter: @ketab_n

نظر الكثيرين - بأن أكون «زوجة منفصلة» ولا أعود قادرة على الزواج من جديد، ولكنني لن أكون مضطرة على الأقل على العيش إلى جوار رجل لا يحبني.

في أواسط شهر أيلول، حين لم تبق لدي ذريعة للبقاء في بيت حموي، وحان وقت العودة لأعيش مع دييغو، وصلت برقية إيفان رادوفيتش. ففي سطرين اثنين أخبرني الطبيب بأنه عليّ أن أرجع إلى سنتياغو لأن نهاية جدتي تقترب. كنتُ أنتظر هذا الخبر منذ شهور، ولكنني عندما تلقيت البرقية كانت المفاجأة والحزن أشبه بضربة هراوة، فأُصبتُ بالوجوم. لقد كانت جدتي خالدة. لم يكن بإمكاني تخيلها على أنها تلك العجوز الضئيلة الصلعاء والهشة التي صارت إليها حقاً، وإنما كأمازونية تضع باروكتين، شرهة وماكرة مثلما كانت قبل سنوات. احتضنتني دونيا إلفيرا بين ذراعيها وقالت لي إنه علي ألا أشعر بالوحدة، فلدي الآن أسرة أخرى، وإنني أنتمي إلى **كاليوفو**، وستحاول هي أن تعتني بي وتحميني مثلما فعلت باولينا دل بايي من قبل. ساعدتني في إعداد حقيبتي الاثنتين، وعادت تعلق على عنقي صدرية قلب يسوع المقدس، وأثقلتني بألف توصية؛ فسنتياغو في نظرها هي مغارة ضياع، والرحلة إليها مغامرة خطرة جداً. كانت تلك فترة العودة لتجديد العمل في منشرة الأخشاب، بعد شلل الشتاء، ووجدها دييغو ذريعة جيدة ليتملص من مرافقتي إلى سنتياغو، بالرغم من إصرار أمه على ذلك. فذهب معي إدواردو ليوصلني إلى حيث السفينة. وعند بوابة البيت الكبير في **كاليوفو**، بينما أنا ألوح بيدي مودعة، كان الجميع يقفون هناك: دييغو، حمواي،آديلا، سوزانا، الأطفال، وعدة فلاحين. ولم أكن أعرف أنني لن أعود إلى رؤيتهم.

وقبل أن أسافر تفحصت مختبري الذي لم أدخله منذ الليلة المشؤومة في الاسطبل، واكتشفت أن هناك من أخذ صور دييغو وسوزانا، ولكن بما أنه يجهل بالتأكيد أي شيء عن عملية التظهير، فإنه لم يبحث

Twitter: @ketab_n

عن النيغاتيفات. ولكن هذه الأدلة الخسيسة لن تفيدني في شيء؛ فأتلفتها. ووضعت النيغاتيفات الأخرى التي فيها الهنود، وأناس **كاليوفو** وبقية أفراد الأسرة في حقيبتي، لأنني لم أكن أعرف كم من الوقت سأغيب، ولم أشأ لها أن تتلف. قمت مع إدواردو بالرحلة على الخيول، وكانت الأمتعة محزمة على بغلة، وكنا نتوقف في المزارع لتناول الطعام والراحة. لقد كان لشقيق زوجي، ذلك الرجل الضخم الذي له هيئة دب، طباع والدته الرقيقة نفسها، والسذاجة شبه الطفولية نفسها. وقد أتيح لنا الوقت خلال الطريق للتحدث على انفراد، مثلما لم نفعل من قبل قط. اعترف لي بأنه يكتب أشعاراً مذ كان طفلاً، «وكيف لا يفعل أحدنا ذلك وهو يعيش وسط كل هذا الجمال؟»، أضاف وهو يشير إلى منظر الغابة والماء الذي يحيط بنا. روى لي أنه لا يطمح إلى شيء، ولا يشعر بالفضول نحو آفاق أخرى، مثل دييغو، وأن **كاليوفو** تكفيه. وأنه عندما سافر إلى أوروبا في شبابه أحس بالضياع وبالتعاسة العميقة، فهو لا يستطيع العيش بعيداً عن هذه الأرض التي يحبها. وقال إن الله كان كريماً جداً معه، فقد وضعه وسط الفردوس الأرضي. جرى الوداع بيننا في المرفأ بعناق حار، وقلتُ له أثناء ذلك «فيحفظك الله دائماً يا إدواردو». فوقف مشوشاً بعض الشيء لهذا الوداع الاحتفالي.

كان فريدريك ويليامز ينتظرني في محطة القطار، وأخذني في العربة إلى البيت في شارع الجيش المحرِّر. وقد استغرب رؤيتي مغمومة إلى ذلك الحد، ولم يقنعه تفسيري بأنني كنت مريضة جداً، فكان يتأملني بطرف عينه وهو يسأل بإلحاح عن دييغو، وهل هو سعيد، وكيف هي أسرة حموي، وإذا ما كنتُ قد اعتدت على الحياة في الريف. بيت جدتي الذي كان أجمل بيوت هذا الحي الفخمة، أصابه الهرم مثل صاحبته. فهناك عدة مصاريع تتدلى من محاور مفصلاتها، والجدران تبدو حائلة اللون، والحديقة مهجورة تماماً، كأن الربيع لم يصلها وبقيت غارقة في شتاء كئيب. وكان الخراب في الداخل أكبر، فالصالونات البديعة السابقة صارت شبه مقفرة، اختفى منها الأثاث والسجاد واللوحات؛ لم تبق أي واحدة من اللوحات الانطباعية الشهيرة التي أثارت كثيراً من الاستنكار

Twitter: @ketab_n

قبل عدة سنوات. أوضح لي العم فريدريك بأن جدتي، وهي تستعد للموت، تبرعت بها كلها تقريباً للكنيسة. «ولكن أموالها ما تزال سليمة على ما أظن يا أورورا، لأنها ما زالت تحسب كل سنت وتحتفظ بدفاتر حساباتها تحت السرير»، أضاف ذلك وهو يغمز بمكر. فهي التي لم تكن تدخل معبداً إلا لكي يراها الناس، وكانت تمقت تلك الحشود من الرهبان اللجوجين والراهبات المتملقات اللواتي يحمن على الدوام حول بقية الأسرة، خصصت في وصيتها مبلغاً كبيراً للكنيسة الكاثوليكية. إنها ماكرة دوماً في الصفقات التجارية، فقد رتبت عند الممات أمر شراء ذاك الذي لم يكن يفيدها كثيراً في الحياة. لقد كان ويليامز يعرف جدتي خيراً من سواه، وأظن أنه أحبها كثيراً مثلما أحببتها أنا تقريباً، وهو على خلاف كل تقولات الحاسدين، لم يسرق ثروتها ليهجرها في الشيخوخة، وإنما دافع عن مصالح العائلة طوال سنوات، وكان زوجاً جديراً بها، ومستعداً لمرافقتها حتى زفرتها الأخيرة، وسيفعل أكثر من ذلك بكثير من أجلي، مثلما ثبت في السنوات التالية. لم يكن قد تبقى لدى باولينا إلا القليل من صفاء الذهن، فالمخدرات التي تخفف آلامها أوصلتها إلى ليمبوس دون ذاكرة ولا رغبات. لقد تضاءلت خلال تلك الشهور واختُزلت إلى مجرد جلد، لأنها لم تعد قادرة على الابتلاع وصاروا يغذونها بالحليب عبر أنبوب مطاطي أدخلوه من أنفها. لم يبق على رأسها إلا خصل شعر قليلة بيضاء، وضاقت عيناها السوداوان الواسعتان، فصارتا نقطتين صغيرتين وسط خريطة من التجاعيد. انحنيتُ لأقبلها، ولكنها لم تتعرف عليّ ومالت بوجهها عني؛ بينما كانت يدها تتلمس في الهواء باحثة عن يد زوجها، وعندما أمسكها هو، انبسطت ملامح وجهها بتعبير من الاطمئنان.

أوضح لي العم فريدريك:

- إنها لا تتألم يا أورورا، فنحن نعطيها الكثير من المورفين.

- هل أخطرت ابنيها؟

- أجل، أرسلت إليهما برقية قبل حوالي شهرين، ولكنهما لم يردا

Twitter: @ketab_n

عليها، ولا أظنهما سيصلان في الوقت المناسب، فلم يبق لباولينا الكثير في الحياة. - قال ذلك بتأثر.

وهذا ما جرى. فقد ماتت باولينا دل بايي بصمت في اليوم التالي. وكان إلى جانبها زوجها، والدكتور رادوفيتش، وسيفيرو، ونيفيا وأنا؛ أما ابناها فجاءا بعد وقت طويل مع المحامين ليصارعوا من أجل الإرث الذي لم ينازعهم أحد فيه. كان الطبيب قد نزع أنبوب التغذية من جدتي وألبسها ويليامز قفازين، لأن يديها كانتا متجمدتين. تحولت شفتاها إلى الزرقة وشحب وجهها جداً، وراحت تتنفس بطريقة لا تكاد تكون محسوسة، دون غم، ثم توقفت فجأة عن ذلك. جس رادوفيتش نبضها؛ مرت دقيقة، وربما اثنتان، وأعلن عندئذ بأنها قد مضت. كانت هناك سكينة عذبة في الحجرة، وثمة شيء غامض يحدث، ربما هي روح جدتي قد انطلقت وبدأت تحوم مثل طائر مرتبك فوق جسدها، مودعة. لقد أثار فيَّ ذهابها غماً هائلاً، إحساس قديم عرفته من قبل، ولكنني لم أستطع تسميته أو تفسيره إلا بعد حوالي سنتين من ذلك، عندما اتضح أخيراً سرّ ماضيّ الغامض وأدركت أن موت جدي تاو تشين، قبل سنوات طويلة، قد أغرقني في كآبة مماثلة. لقد بقي الجرح نابضاً وها هو ينفتح الآن بالألم الحارق نفسه. فالإحساس باليتم الذي خلفتني فيه جدتي يتطابق مع ذاك الذي أصابني وأنا في الخامسة من عمري، عندما اختفى تاو تشين من حياتي. وأظن أن آلام طفولتي - خسارة إثر خسارة - المدفونة طوال سنوات في أعمق تلافيف ذاكرتي، قد رفعت متوعدة رأس ميدوزا الذي لها لتلتهمني: فأمي توفت وهي تلدني، بينما كان أبي يجهل وجودي، وجدتي لأمي هجرتني دون تفسير بين يدي باولينا دل بايي، وهناك بصورة خاصة فقدان الكائن الذي كان يحبني أكثر من الجميع، جدي تاو تشين.

لقد مضت تسع سنوات على ذلك اليوم الأيلولي الذي غادرت فيه باولينا دل بايي؛ وقد خلّفتُ ورائي هذه النكبة وغيرها، ويمكنني الآن أن أتذكر جدتي الضخمة بقلب مطمئن. لم تختفِ في الظلمة الفسيحة لميّتة

Twitter: @ketab_n

نهائية، مثلما بدا لي الأمر للوهلة الأولى، فقد بقي جزء منها في هذه الأنحاء، وهو يحف بي على الدوام جنباً إلى جنب مع تاو تشين، روحان شديدتا الاختلاف ترافقاني وتساعداني، الأولى في أمور الحياة العملية، والثانية في حلّ المسائل العاطفية؛ ولكن عندما توقفت جدتي عن التنفس في السرير العسكري الذي أمضت عليه أيامها الأخيرة، لم أكن أتوقع لها أن ترجع، وأطبق عليّ الحزن. ربما كنت سأشعر بقدر أقل من الألم لو أنني كنت قادرة على التعبير عن مشاعري، ولكن هذه المشاعر تبقى مختنقة في داخلي، مثل كتلة جليد هائلة، ويمكن أن تمضي سنوات قبل أن يبدأ الجليد بالذوبان. لم أبكِ عندما مضت. كان الصمت في الحجرة أشبه بخطأ برتوكولي، لأن امرأة عاشت مثل باولينا دل بايي، يجب أن تموت مغنية مع أوركسترا، كما في الأوبرا، ولكن وداعها كان صامتاً مع ذلك، وهو الشيء الوحيد الرصين الذي فعلته في الوجود. خرج الرجال من الغرفة، وألبستها أنا ونيفيا، من أجل رحلتها الأخيرة، ثوب الراهبات الكرمليات الذي كانت تعلقه في خزانتها منذ سنة، ولكننا لم نستطع مقاومة إغراء إلباسها تحته أفضل ملابسها الداخلية الفرنسية المصنوعة من حرير ذي لون خبازي. عندما رفعنا جسدها لاحظتُ كم صارت خفيفة، لم يبق منها سوى هيكل عظمي هش وجلد مخلخل. شكرتُها بصمت على كل ما فعلته من أجلي، وقلت لها الكلمات الحانية التي ما كنتُ لأجرؤ على النطق بها لو أنها تسمعني. قبّلت يديها الجميلتين، وجفونها السلحفائية، وجبهتها النبيلة، وطلبت منها الصفح عن مشاكسات طفولتي، وعن تأخري في المجيء لوداعها، وعن السحلية الجافة التي بصقتُها في نوبة سعال زائفة، وغيرها من المداعبات الثقيلة التي تحمّلتها، وفي أثناء ذلك انتهزت نيفيا الفرصة المناسبة التي توفرها لها باولينا دل بايي لتبكي دون صخب على أطفالها الميتين. بعد أن ألبسنا جدتي، ضمخناها بعطر الياسمين الذي كانت تستخدمه، وفتحنا الستائر والنوافذ ليدخل منها الربيع، مثلما كانت تفضل. لا شيء من النواح، ولا ملابس سوداء، ولا تغطية للمرايا. لقد عاشت باولينا دل بايي باستهتار إمبراطورة، وهي تستحق أن يُحتفى بها في نور أيلول. وهكذا فهم ويليامز

Twitter: @ketab_n

الأمر أيضاً، فذهب بنفسه إلى السوق وملأ العربة بأزهار غضة لتزيين البيت.

عندما وصل الأقارب والأصدقاء - بملابس الحداد والمناديل في أيدهم - استنكروا ما رأوه، لأنهم لم يروا من قبل مأتماً يدخله ضوء الشمس، مع أزهار زفاف ودون دموع. ومضوا وهم يغمغمون بالمكائد، وبعد مرور كل هذه السنوات ما زال هناك من يشيرون إليّ بالإصبع موقنين بأنني قد ابتهجت عندما ماتت باولينا دل بايي، لأنني كنت أسعى للاستيلاء على الميراث. لم أرث شيئاً مع ذلك، لأن ابنيها ومحامييهما تولوا ذلك الأمر بسرعة، ولكنني لم أكن بحاجة لعمل ذلك أيضاً، إذ كان أبي قد ترك لي ما يكفي لكي أعيش بوقار وما تبقى يمكنني أن أُموّله من عملي. فعلى الرغم من نصائح جدتي ودروسها غير النهائية، لم أستطع أن أطور مثل حاسة شمها للصفقات الجيدة؛ فلن أكون ثرية قط، وأنا سعيدة بذلك. وفريدريك ويليامز لم يصارع أيضاً مع المحامين، لأن اهتمامه بالمال أقل بكثير مما كانت تشيعه ألسنة السوء. إضافة إلى أن زوجته أعطته الكثير وهي حية، وقد تمكن هو، الرجل المتبصر، من انقاذه. لم يستطع ابنا باولينا إثبات أن زواج أمهما من القهرمان السابق غير شرعي، واضطرا إلى ترك العم فريدريك بسلام، كما أنهما لم يستطيعا الاستيلاء على الكروم، لأنها كانت مسجلة باسم سيفيرو دل بايي، ونظراً لذلك انطلق المحامون في أثر الرهبان لعلهم يستردون الثروات التي حصل عليها هؤلاء بتخويف المريضة من مراجل الجحيم، ولكن ليس هناك حتى الآن من استطاع كسب قضية قضائية ضد الكنيسة الكاثوليكية التي يقف الرب إلى جانبها، مثلما يعرف الجميع. ولكن كان هناك من الأموال ما يكفي على كل حال، وقد استطاع الابنان وعدة أقارب، بل والمحامون أيضاً، أن يعيشوا عليها حتى الآن.

السعادة الوحيدة في ذلك الأسبوع الكئيب تمثلت في عودة ظهور الآنسة ماتيلدي بينيدا في حياتنا. فقد قرأت في الجريدة أن باولينا دل بايي قد توفيت، وواتتها الشجاعة لتأتي إلى البيت الذي خرجت منه

Twitter: @ketab_n

مطرودة في زمن الثورة. جاءت تحمل باقة زهور كهدية، يرافقها المكتبي بيدرو تيي. لقد نضجت خلال هذه السنوات ولم أستطع التعرف عليها للوهلة الأولى، أما هو بالمقابل، فكان ما يزال ذلك الرجل النحيل والأصلع نفسه، بحاجبيه الشيطانيين الكثيفين وحدقتيه المتوقدتين.

بعد الانتهاء من المقبرة، وبعد الصلوات المغناة، والصلوات التساعية التي طُلب ترتيلها، وبعد توزيع الصدقات والحسنات التي أوصت بها جدتي المتوفاة، هدأ غبار المأتم الفاخر، والتقيتُ مع فريدريك ويليامز في البيت المقفر. جلسنا معاً في الردهة الزجاجية نندب غياب جدتي برصانة، لأننا لا ننفع للنواح، ونتذكرها في مواقف عظمتها الكثيرة ومواقف بؤسها القليلة.

- ما الذي تفكر بعمله الآن أيها العم فريدريك؟ - أردت أن أعرف منه.

- هذا يعتمد عليك يا أورورا.

- عليّ؟

- لم أستطع إلا أن ألحظ شيئاً غريباً فيك يا صغيرتي. - قال بتلك الطريقة الحاذقة الخاصة به في الاستفهام.

- لقد كنتُ مريضة جداً، وغياب جدتي أحزنني كثيراً أيها العم فريدريك. هذا هو كل ما في الأمر، وليس هناك أي شيء غريب.. أؤكد لك.

- يؤسفني أنك تستخفين بي يا أورورا. فلا بد أن أكون أبله أو غير محب لك حتى لا أنتبه إلى حالتك المعنوية. أخبريني ما الذي جرى لكِ، فلعلني أستطيع مساعدتك.

- لا يمكن لأحد أن يساعدني يا عماه.

فطلب مني:

- جربيني، هيا...

وعندئذ أدركتُ أنه ليس لدي في هذا العالم أحد سواه أثق به، وأن

Twitter: @ketab_n

فريدريك ويليامز قد أثبت من قبل أنه ناصح ممتاز والشخص الوحيد في الأسرة الذي يتمتع بالحصافة. ولهذا يمكنني أن أخبره بمأساتي. استمع إليّ حتى النهاية باهتمام كبير، ودون أن يقاطعني ولو مرة واحدة.

- الحياة طويلة يا أورورا. أنت ترين الآن كل شيء أسود، ولكن الزمن يُشفي ويمحو كل شيء تقريباً. أنت في هذه المرحلة كمن يمشي في نفق على العماء، ويبدو لك أنه ليس ثمة مخرج، ولكنني أعدك بأن يكون هناك مخرج. واصلي السير قدماً يا صغيرتي.

- ما الذي سيجري لي أيها العم فريدريك؟

فقال لي:

- ستعيشين غراميات أخرى، وربما ستنجبين أبناء أو تكونين أفضل مصورة في هذه البلاد.

- أشعر بأنني مشوشة ووحيدة!

- لستِ وحيدة يا أورورا، أنا معك الآن، وسأبقى معك ما دمتِ بحاجة إليّ.

أقنعني بأنه يجب عليّ ألا أعود إلى زوجي، وأنه يمكنني أن أجد الكثير من الذرائع لتأخير عودتي لسنوات، بالرغم من ثقته بأن دييغو لن يلح على عودتي إلى **كاليوفو**، لأنه من الملائم له أن يُبقيني بعيدة ما أمكن. أما بالنسبة إلى دونيا إلفيرا الطيبة، فلن تكون هناك من وسيلة إلا مواساتها بمراسلات مكثفة. فالمسألة هي مسألة كسب الوقت، وحماتي لن تعيش طويلاً لأن قلبها ليس على ما يرام، حسب تشخيص الأطباء. وأكد لي العم فريدريك بأنه ليس مستعجلاً لمغادرة تشيلي، وأنني أسرته الوحيدة، وأنه يحبني كابنة أو حفيدة له.

سألته:

- أليس لك أحد في إنكلترا؟

- لا أحد.

Twitter: @ketab_n

- أنت تعرف أن هناك اشاعات تدور حول أصولك، يقولون إنك نبيل مفلس، وجدتي لم تكذّب ذلك قط.

فهتف ضاحكاً:

- ليس هناك ما هو أبعد من هذا عن الحقيقة يا أورورا.

وضحكتُ أنا أيضاً:

- أليس لديك إذن شعار سلاح خاص مخبأ؟

فرد:

- انظري يا صغيرتي.

خلع سترته، وفتح القيص، ثم رفع قميصه الداخلي وأراني ظهره. كانت تتقاطع عليه آثار قروح رهيبة.

- إنها آثار جلد بالسوط. مئة جلدة بسبب سرقة تبغ في مستوطنة لاصلاح السجناء في استراليا. أمضيت خمس سنوات حبس قبل أن أتمكن من الفرار على طوف. وقد التقطتني في عرض البحر سفينة قراصنة صينية وجعلوني أعمل كعبد، ولكننا ما إن اقتربنا من اليابسة حتى هربت من جديد. وهكذا تنقلت من مكان إلى آخر، حتى وصلت إلى كاليفورنيا. والشيء الوحيد الذي أمتلكه كنبيل بريطاني هو اللكنة، وقد تعلمتها من لورد حقيقي، كان سيدي الأول في كاليفورنيا. كما أنه علمني مهنة القهرمان. وقد تعاقدت معي باولينا دل بايي في عام 1870 ومنذ ذلك الحين وأنا إلى جوارها.

سألته عندما استعدت السيطرة على نفسي من وقع المفاجأة وتمكن صوتي من الخروج:

- وهل كانت جدتي تعرف هذه القصة يا عماه؟

- بالطبع. وكانت باولينا تستمتع ببلبلة الناس ونظرتهم إلى سجين سابق على أنه أرسْتقراطي.

- ولماذا حكموا عليك بالسجن؟

Twitter: @ketab_n

- لأنني سرقتُ حصاناً حين كنتُ في الخامسة عشرة من عمري. كان يمكن لهم أن يشنقوني، ولكنني كنتُ محظوظاً، فقد خففوا العقوبة وانتهى بي الأمر في استراليا. لا تقلقي يا أورورا، فأنا لم أعد إلى سرقة سنت واحد طوال حياتي، لقد أشفنني عقوبة الجلد من تلك الرذيلة، ولكنها لم تشفني من التلذذ بالتبغ - قال ذلك ضاحكاً.

وهكذا بقينا معاً. باع ابنا باولينا دل بايي البيت في شارع الجيش المحرِّر، وقد تحول اليوم إلى مدرسة للأطفال، وباعوا في المزاد الأشياء القليلة المتبقية في البيت. لقد أنقذت السرير الأسطوري بإخراجه من البيت قبل أن يأتي الوريثان، وخبأته مفككاً في مستودع في المستشفى العام الذي يعمل فيه إيفان رادوفيتش، وبقي هناك إلى أن تعب المحامون من النبش في الأركان بحثاً عن آخر بقايا ممتلكات جدتي. اشتريت مع فريدريك ويليامز بيتاً في مزرعة ريفية خارج المدينة، في الطريق إلى سلسلة الجبال؛ فصار لدينا اثنا عشر هكتاراً من الأرض محاطة بأشجار حور، ومغطاة بشجيرات ياسمين شذية، يغسلها غدير متواضع، حيث ينمو كل شيء دون إذن. وهناك قام ويليامز بتربية كلاب وخيول أصيلة، وكان يلعب الكروكيت ويقوم بنشاطات مملة أخرى من تلك التي يمارسها الإنكليز؛ وهناك يستقر بي المقام في الشتاء. البيت قديم ومتداع، ولكن له شيئاً من الفتنة، ففيه مجال لمشغل تصويري وللسرير الفلورنسي الشهير، الذي ينتصب بمخلوقاته البحرية متعددة الألوان في وسط حجرتي. وفيه أنام محمية بروح جدتي باولينا الحامية، التي تظهر عادة في الوقت المناسب لتطرد بضربات مكنسةٍ أطفالَ كوابيسي ذوي البيجامات السود. لا ريب في أن مدينة سنتياغو ستمتد باتجاه المحطة المركزية وسيتركوننا بسلام في هذا الريف الشاعري ذي الحور والهضاب.

بفضل خالي لاكي، الذي نفخ عليّ أنفاسه المحظوظة عندما ولدت، وبفضل حماية جدتي وأبي الكريمة، يمكنني القول إنني أعيش حياة

Twitter: @ketab_n

لائقة. إنني أمتلك الوسائل والحرية لأعمل ما أرغب فيه، ويمكنني أن أكرس كل وقتي لأجوب جغرافية تشيلي الوعرة وأنا أعلق آلة التصوير في عنقي، مثلما فعلتُ خلال الثمان أو التسع سنوات الأخيرة. الناس يتكلمون من وراء ظهري، وهذا أمر لا يمكن تجنبه؛ العديد من الأقارب والمعارف قاطعوني، وإذا ما رؤوني في الشارع تظاهروا بأنهم لا يعرفونني، فهم لا يستطيعون أن يتسامحوا مع امرأة تهجر زوجها. هذه النكبات لا تؤرقني؛ وليس علي أن أنال رضى الجميع، وإنما أولئك الذين يهمونني حقاً وحسب، وهم ليسوا كثيرين. كان لا بد لعلاقتي بدييغو دومينغث من أن تخيفني إلى الأبد من الغراميات المتسرعة والمتأججة، ولكن الأمر لم يكن كذلك. صحيح أنني عشت بضعة شهور وأنا جريحة الروح، أجرجر نفسي من يوم إلى يوم بإحساس ساحق بالهزيمة، وبأنني قد قامرت بورقتي الوحيدة وخسرت كل شيء. وصحيح أيضاً أنني محكومة بأن أكون امرأة متزوجة وبلا زوج، وهو ما يحول دون «تسوية» حياتي، مثلما تقول العمات، ولكن هذا الوضع الغريب يمنحني طلاقة كبيرة. فبعد سنة من انفصالي عن دييغو أحببت من جديد، وهذا يعني أن جلدي قاس ويلتئم بسرعة. الحب الثاني لم يكن صداقة رقيقة تحولت مع الزمن إلى رومانس محقَّق، بل كان بكل بساطة دافع حب استولى على كلينا فجأة، وأدى بالصدفة إلى نتائج جيدة... حسن، هي جيدة حتى الآن، ومن يدري كيف ستكون في المستقبل. حدث ذلك في يوم شتائي، احد أيام الأمطار الخضراء واللجوجة، بروق متوالية وغم في المزاج. رجع ابنا باولينا دل بايي مع قانونييهم للإزعاج بوثائقهم التي لا تنتهي، كل وثيقة منها بثلاث نسخ وأحد عشر طابعاً، كنت أوقّع عليها دون أن أقرأها. كنتُ أنا وفريدريك ويليامز قد خرجنا من بيت شارع الجيش المحرِّر، وما زلنا نقيم في الفندق، لأننا لم نكن قد انتهينا من إصلاح البيت الريفي الذي نعيش فيه اليوم. التقى العم فريدريك في الشارع مع الدكتور إيفان رادوفيتش الذي لم نره منذ بعض الوقت، واتفقا على الذهاب معي لمشاهدة فرقة مسرحية اسبانية تقوم بجولة في أميركا الجنوبية، ولكن فريدريك سقط طريح الفراش في اليوم الموعود بسبب إصابته بالزكام، ووجدت نفسي

Twitter: @ketab_n

أنتظر وحيدة في ردهة الفندق، يداي مثلجتان وقدماي متألمتان لأن الحذاء يضغط عليهما. كان هناك شلال من الماء ينساب على زجاج النافذة، والريح تهز أشجار الشارع كأنها منفضة، ولم تكن الليلة تشجع على الخروج، فحسدت للحظة العم فريدريك المصاب بالزكام الذي يتيح له البقاء في الفراش مع كتاب جيد وفنجان شوكولاتة ساخن، ولكن دخول إيفان رادوفيتش أنساني العاصفة. كان معطف الدكتور مبللاً بالكامل، وعندما ابتسم لي انتبهتُ إلى أنه أجمل بكثير مما أتذكره. نظر كل منا إلى عيني الآخر، وأظن أننا رأينا بعضنا للمرة الأولى، فأنا على الأقل تأملته بجدية وأعجبني ما رأيته. كان هناك صمت طويل، شيء من تمهل سيبدو ثقيلاً جداً في ظروف أخرى، ولكنه بدا عندئذ وكأنه طريقة في الحوار. ساعدني في وضع العباءة واتجهنا نحو الباب ببطء، مترددين، وما يزال كل منا متعلقاً بعيني الآخر. لم يكن أي منا راغباً في تحدي العاصفة التي تمزق السماء، ولكننا لم نكن نرغب في أن نفترق أيضاً. ظهر بواب يحمل مظلة كبيرة ليوصلنا إلى العربة التي كانت تنتظر، عندئذ خرجنا دون أن ننطق بكلمة، وكنا ما نزال مترددين. لم أشعر بأي ومضة إلهام عاطفي، ولا بأي إحساس استثنائي بأننا روحان توأمان، لم ألمح بداية حب مثل غراميات الروايات.. لا شيء من ذلك، وإنما سجلتُ ببساطة ملاحظة عن تقافز قلبي، وإحساسي بالاختناق، والدفء والدغدغة في بشرتي، والرغبة الرهيبة في لمس هذا الرجل. أخشى أنني لم أُظهر أي شيء من الروحانية في ذلك اللقاء، وإنما الشبق وحده، بالرغم من أنني كنت قليلة الخبرة آنذاك، وكان معجمي محدوداً جداً لا يسمح لي بتسمية ذلك الهيجان باسمه الوارد في المعجم. ولكن التسمية هي آخر ما يهمني، فالمهم هو أن هذا الاضطراب الأحشائي كان أقوى من خجلي، وتحت غطاء العربة، حيث لم يكن المهرب سهلاً، أمسكت وجهه بين يدي، ودون أن أفكر بالأمر مرتين، قبلته من فمه، مثلما رأيت نيفيا وسيفيرو دل بايي يفعلان قبل سنوات عديدة، بتصميم وشراهة. لقد كان عملاً بسيطاً وغير قابل للاستئناف. لا يمكنني الدخول في التفاصيل حول ما جرى بعد ذلك، لأنه من السهل تصورة، ولأن شجاراً هائلاً

Twitter: @ketab_n

سيحدث بيننا إذا ما قرأه إيفان في هذه الصفحات. لا بد من قول ذلك، فمشاجراتنا لا تقل ضخامة عن عاطفية مصالحاتنا؛ فحبنا ليس حباً هادئاً ومُحلى، ولكن يمكن القول في مصلحته أنه حب مثابر؛ لا يبدو أن العقبات تخيفه، بل هي تعززه. الزواج هو مسألة حس عام، نفتقده كلانا. وواقع أننا غير متزوجين يسهل لنا أن نعيش الحب الطيب، فهكذا يمكن لكل منا أن ينهمك في ما يخصه، لدينا مجالنا الخاص، وعندما نكون على وشك الانفجار، يكون المخرج على الدوام في انفصالنا لبضعة أيام والعودة للقاء عندما يهزمنا الحنين إلى القبلات. لقد تعلمت مع إيفان رادوفيتش أن أُشهر صوتي ومخالبي. وإذا ما فاجأته في خيانة - لا قدّر الله - مثلما جرى لي مع دييغو دومينغث، فلن أُضني نفسي في البكاء مثلما فعلتُ آنذاك، وإنما سأقتله دون أي إحساس بتأنيب الضمير.

لا، لن أتحدث عن الحميمية التي أتقاسمها مع عشيقي، ولكن هناك حادثة لا يمكنني إغفالها، لأن لها علاقة بالذاكرة، هذا هو في نهاية المطاف السبب الذي يدفعني لكتابة هذه الصفحات. إن كوابيسي هي رحلة في العماء نحو الكهوف المظلمة التي تغفو فيها أقدم ذكرياتي، محاصرة بأعمق طبقات الوعي. التصوير والكتابة هما محاولة للإمساك باللحظات قبل أن تتلاشى، من أجل تثبيت الذكريات ومنح مغزى لحياتي. كانت قد مضت عدة شهور على اجتماعي وإيفان، وكنا قد رتبنا روتين لقاءاتنا بصورة متكتمة، وكل ذلك بفضل العم فريدريك الذي يحمي غرامياتنا منذ البداية. كان على إيفان أن يلقي محاضرة طبية في مدينة شمالية فرافقته بحجة تصوير مكامن النيترات، حيث ظروف العمل غير مستقرة. وكان أرباب العمل الإنكليز يرفضون الحوار مع العمال ويسيطر مناخ عنف متنامٍ، وهو الذي سينفجر بعد عدة سنوات. عندماحدث ذلك، في 1907، كنتُ هناك بالصدفة، وصوري هي الوثيقة الوحيدة التي لا تُدحض عن وقوع مجزرة إكيكي، لأن رقابة الحكومة محت عن وجه التاريخ الألفي قتيل الذين رايتُ سقوطهم في الساحة. ولكن هذه قصة أخرى وليس لها مكان في هذه الصفحات. في المرة الأولى التي ذهبتُ فيها إلى تلك المدينة مع إيفان لم تكن لتخطر لي المأساة التي سأكون

Twitter: @ketab_n

شاهدة عليها فيما بعد، فقد كانت الرحلة بالنسبة لكلينا مجرد شهر عسل قصير. نزلنا منفصلين في الفندق، وفي تلك الليلة، بعد أن أنجز كل منا يوم عمله، جاء هو إلى غرفتي، حيث كنتُ أنتظره بزجاجة رائعة من نبيذ **كرمة باولينا**. لقد كانت علاقتنا حتى ذلك الحين مغامرة جسد وحسب، استطلاع للأحاسيس، وقد كان ذلك جوهرياً بالنسبة لي، لأنني توصلت بفضله إلى تجاوز مهانة عزوف دييغو عني وأدركت أنني لست امرأة خائبة، مثلما كنت أخشى. ففي كل لقاء مع إيفان كنت أكتسب مزيداً من الثقة، وأتغلب على خجلي وحيائي، ولكنني لم أكن قد انتبهت بعد إلى أن تلك الحميمية المجيدة قد فتحت الطريق لحب كبير. تعانقنا في تلك الليلة بتكاسل بفعل النبيذ الجيد وإرهاق النهار، وببطء، مثل جدين حكيمين مارسا الحب تسعمئة مرة ولم يعد هناك ما يفاجئهما أو يخيب أملهما. ما هو الشيء الخاص فيّ؟ لا شيء على ما أعتقد، اللهم إلا مؤونة التجارب السعيدة مع إيفان، والتي بلغت في تلك الليلة العدد الحاسم الضروري لتحطيم دفاعاتي. ما حدث بعد عودتنا من ذروة اللذة، وبينما أنا بين ذراعي عشيقي القويتين، أنني أحسست بشهقة نشيج تهزني بالكامل، ثم تلتها أخرى، وأخرى، إلى أن جرفني مدّ دافق من البكاء المتراكم. بكيت وبكيت، مستسلمة، وأنا أشعر بين هاتين الذراعين بأمن لا أتذكر أنني عرفته من قبل. لقد انكسر حاجز في داخلي وفاض الألم مثل سيل جليد ذائب. لم يوجه إيفان أسئلة إلي ولم يحاول مواساتي، بل ضمني بقوة إلى صدره وتركني أبكي إلى أن نفدت دموعي، وعندما أردت أن أقدم له تفسيراً، أطبق فمي بقبلة طويلة. أضف إلى ذلك أنه لم يكن لدي آنذاك أي تفسير، وكنت سأخترع واحداً، أما الآن فأعرف – لأن الأمر حدث في عدة مناسبات أخرى – أنني عندما أحسست بأني في منجى تماماً، محتضَنة ومحمية، بدأت ذاكرتي تعود إلى السنوات الخمس الأولى من حياتي، السنوات التي أحاطتها جدتي باولينا والآخرون بغطاء من الغموض. فرأيت أولاً، في ومضة صفاء، صورة جدي تاو تشين يهمس باسمي بالصينية، **لاي-مينغ**. كانت لحظة قصيرة جداً، ولكنها مضيئة مثل القمر. ثم رأيت وأنا مستيقظة الحلم

Twitter: @ketab_n

المتواتر الذي عذبني منذ الأزل، وعندئذ أدركت بأن هناك علاقة مباشرة ما بين جدي المحبوب وأولئك الشياطين ذوي البيجامات السود. فاليد التي تفلت يدي في الحلم هي يد تاو تشين. ومن يسقط ببطء على الأرض هو تاو تشين. والبقعة التي تتسع دون هوادة على حجارة الشارع هي دماء تاو تشين.

كان قد انقضى ما يزيد قليلاً عن السنتين وأنا أعيش رسمياً مع فريدريك ويليامز، ولكنني أزداد استسلاماً لعلاقتي بإيفان رادوفيتش، التي ما كان لي من دونها أن أتصور ما سيكون عليه قدري، عندما ظهرت جدتي لأمي، إلزا سوميرز، في حياتي. عادت سليمة مثلما كانت، برائحتها التي تعبق بالسكر والفانيلا، دون أن يؤثر فيها استنزاف العوز والنسيان. وقد تعرفتُ عليها من النظرة الأولى، بالرغم من انقضاء سبع عشرة سنة مذ تركتني في بيت باولينا دل بايي، ودون أن أكون قد رأيت طوال ذلك الوقت صورة لها، أو يُذكر اسمها إلا في مرات نادرة بحضوري. لقد بقيت صورتها عالقة في شِباك حنيني، وهي لم تتغير إلا قليلاً، حتى أنها عندما تجسدت عند عتبة بابنا وحقيبتها في يدها، بدا لي وكأننا قد افترقنا في اليوم السابق، وكأن كل ما جرى خلال تلك السنوات لم يكن إلا وهماً. الشيء الجديد الوحيد هو انها بدت أقصر قامة مما أتذكرها، ولكن يمكن أن يكون ذلك بتأثير قامتي أنا، فالمرة الأخيرة التي كنا فيها معاً، كنتُ ما أزال طفلة في الخامسة، وكنت أنظر إليها إلى أعلى. إنها ما تزال متصلبة مثل أميرال، وبالوجه الشبابي نفسه والتسريحة الصارمة نفسها، بالرغم من تلطخ شعرها بخصل من البياض. بل إنها تضع عقد اللؤلؤ نفسه الذي كنت أراها تضعه دوماً، وقد عرفت الآن أنها لم تكن تخلعه حتى عندما تنام. أحضرها سيفيرو دل بايي الذي بقي على إتصال بها طوال كل تلك السنوات، ولكنه لم يخبرني لأنها لم تسمح له بذلك. فقد أعطت إلزا سوميرز كلمتها لباولينا دل بايي بألا تحاول الاتصال بحفيدتها، وقد أنجزت تعهدها بحذافيره إلى أن

Twitter: @ketab_n

ماتت الأخرى فتحررت من الوعد الذي قطعته على نفسها. وحين كتب لها سيفيرو يخبرها بذلك، أعدت صناديقها وأقفلت بيتها، مثلما فعلت مرات كثيرة من قبل، وأبحرت إلى تشيلي. عندما ترملت في العام 1885 في سان فرانسيسكو، قامت بالرحلة إلى الصين مع جسد زوجها المحنط لتدفنه في هونغ كونغ. كان تاو تشين قد أمضى الشطر الأكبر من حياته في كاليفورنيا، وكان أحد المهاجرين الصينين القلائل الذين حصلوا على المواطنية الأمريكية، ولكنه كان يعرب دوماً عن رغبته في أن تُدفن عظامه تحت الأرض الصينية، فهكذا لن تضيع روحه في اتساعات الكون دون أن تجد الطريق إلى بوابة السماء. ولكن هذا الاحتياط لم يكن كافياً، لأنني واثقة من أن شبح جدي الرائع تاو تشين ما زال يهيم في هذه العوالم، وإلا كيف يمكنني أن أفسر إحساسي بأنه يطوف حولي. وليس ذلك تخيلاً فقط، فقد أكدت لي جدتي إلزا بعض الأدلة، مثل رائحة البحر التي تغمرني أحياناً، والصوت الذي يهمس لي بكلمة سحرية: هي اسمي بالصينية.

- مرحباً يا لاي مينغ. - كانت تلك هي التحية التي وجهتها إلي هذه الجدة الاستثنائية حين رأتني.

فهتفتُ:

- وي بوا!

لم أكن قد نطقت بهذه الكلمة - أي جدتي لأمي بالكانتونية - منذ الزمن البعيد الذي كنت أعيش فيه معها فوق عيادة للعلاج بالوخز بالإبر في الحي الصيني في سان فرانسيسكو، ولكنني لم أنسها. وضعت هي يداً على كتفي وتفحصتني من قدمي إلى رأسي، وهزت برأسها راضية ثم عانقتني أخيراً وهي تقول:

- يسعدني أنك لستِ جميلة مثل أمك.

وهذا أيضاً ما كان يقوله أبي.

- أنت طويلة القامة، مثل تاو. ويقول لي سيفيرو إنك ذكية مثله.

Twitter: @ketab_n

إننا نقدم الشاي في بيتنا عندما يكون الموقف حرجاً، وبما أنني أحس بالضيق في معظم الأوقات، فإنني أقضي الوقت وأنا أسكب الشاي. هذا الشراب يساعدني في التحكم بأعصابي. إنني أموت لهفة لإمساك جدتي من خصرها ورقص الفالس معها، ولأروي لها بتدفق كل حياتي، ولأوجه إليها عبارات التأنيب التي أغمغم بها في دخيلتي، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ممكناً. فإلزا سوميرز ليست بالشخص الذي يدعو إلى التآلف معه بسرعة، فوقارها يبدو مخيفاً، ولا بد من أن تمر أسابيع قبل أن نتمكن، أنا وهي، من تبادل الحديث باسترخاء. ولكن الشاي خفف من توتري لحسن الحظ، وكذلك حضور سيفيرو دل بايي وفريدريك ويليامز الذي رجع من إحدى جولاته في المزرعة وهو يرتدي ملابس مستكشف في افريقيا. ما ان تخلص العم فريدريك من الفضول وخلع نظارة الغشاوة ورأى إلزا سوميرز، حتى تبدل شيء في سلوكه: فقد دفع صدره، وعلا صوته، وانتفش ريشه. وقد تضاعف إعجابه عندما رأى الصناديق والحقائب وعليها أختام السفر وعلم أن هذه السيدة الضئيلة هي واحدة من الأجانب القلائل الذين وصلوا إلى التيبيت.

لا أعرف إذا ما كان السبب الوحيد لمجيء وي بوا من الصين هو التعرف عليّ، يخيل إليّ أنها مهتمة أكثر بمواصلة الرحلة إلى القطب المتجمد الجنوبي، الذي لم تطأه قدما امرأة بعد، ولكن مهما كان السبب، فإن زيارتها كانت جوهرية بالنسبة إلي. فلولاها لبقيت حياتي موشومة بمناطق غائمة غامضة؛ ولما كان لي من دونها أن أكتب هذه المذكرات. فجدتي لأمي هي التي قدمت لي الأجزاء الناقصة لأستكمل تركيب قصة حياتي، وحدثتني عن أمي، وعن ظروف مولدي، وقدمت لي المفتاح الأخير لحل لغز كوابيسي. وهي أيضاً من سترافقني بعد ذلك إلى سان فرانسيسكو لأتعرف على خالي لاكي، وقد صار تاجراً صينياً مزدهراً، بديناً وأعرج، ولطيفاً بالمطلق، لأنبش الوثائق اللازمة لكي أربط الخيوط المفلتة في قصتي. لقد كانت علاقة إلزا سوميرز بسيفيرو دل بايي عميقة مثل الأسرار التي تقاسماها خلال سنوات طويلة؛ فهي تعتبره أبي الحقيقي، لأنه الرجل الذي أحب ابنتها وتزوج منها. أما مهمة ماتياس

Twitter: @ketab_n

رودريغيث دي سانتا كروث فهي تقديم بعض المورثات بصورة عابرة. وأضافت:

- أبوة النسل ليست مهمة يا لاي-مينغ، فهذا أمر يمكن لأي كان أن يفعله. أما من منحك اسمه وتحمل مسؤوليتك فهو سيفيرو.

ففندت قولها:

- في مثل هذه الحالة تكون باولينا دل بايي هي أمي وأبي، فأنا أحمل اسمها وهي من تحملت مسؤوليتي. أما الآخرون فمروا كالنيازك في طفولتي دون أن يخلفوا سوى أثرٍ من غبارٍ فضائي.

- قبلها كنتُ أنا وتاو أباك وأمك، فنحن من ربيناك يا لاي مينغ - أوضحت لي ذلك محقة، لأنه كان لجديّ لأمي هذين تأثير كبير عليّ، وقد حملتهما طوال ثلاثين سنة في داخلي كحضور رقيق، وأنا واثقة من أنني سأبقى أحملهما طوال ما تبقى من حياتي.

لقد صارت إلزا سوميرز تعيش الآن في بُعد آخر إلى جوار تاو تشين، وقد كان موتها عثرة خطيرة، ولكنه لم يكن عائقاً يحول دون مواصلة محبتي لها إلى الأبد. جدتي إلزا هي واحد من تلك الكائنات المكرسة لحب عظيم واحد، وأظن أن قلبها المترمل ما كان يتسع لحب آخر. فبعد أن دفنت زوجها في الصين إلى جوار قبر زوجته الأولى لين، وأتمت الطقوس المأتمية البوذية مثلما كان هو يتمنى، وجدت نفسها حرة. كان يمكن لها ان تعود إلى سان فرانسيسكو لتعيش مع ابنها لاكي وزوجته الشابة التي أوصى عليها من شنغهاي من خلال كاتالوج، ولكن فكرة التحول إلى حماة مرهوبة وموقرة يعني استسلامها للشيخوخة. لم تكن تشعر بأنها وحيدة وخائفة من المستقبل، لأن روح تاو تشين الحامية ترافقها على الدوام؛ فهما أقرب إلى بعضهما في الحقيقة مما كانا عليه من قبل، إذ لم يعودا يفترقان لحظة واحدة. لقد اعتادت على التحدث مع زوجها بصوت خافت، حتى لا تبدو كمن بها مس من الجنون في نظر الآخرين، وعلى النوم في الليل على الجانب الأيسر من السرير لتفسح له المكان في الجانب الأيمن، مثلما كانا معتادين. حب المغامرة الذي دفعها

Twitter: @ketab_n

للهرب من تشيلي وهي في السادسة عشرة، مختبئة في كرش سفينة شراعية لتذهب إلى كالفورنيا، استيقظ فيها من جديد حين صارت أرملة. تذكرت لحظة من يوم عيد الغطاس، حين كانت في الثامنة عشرة، في أوج حمى الذهب، عندما أيقظها صهيل حصانها وأول أشعة الفجر في اتساعات مشهد معادٍ ومقفر. في فجر ذلك اليوم اكتشفت عظمة الحرية. كانت قد أمضت الليلة وحيدة تحت الأشجار، محاطة بألف خطر: قطاع طريق قساة، هنود متوحشون، أفاع، دببة ووحوش أخرى، ومع ذلك لم تكن تشعر بالخوف للمرة الأولى في حياتها. كانت قد ترعرعت في مشد يضغط على جسدها وروحها ومخيلتها، مذعورة حتى من أفكارها، ولكن تلك المغامرة أطلقت سراحها. وكان عليها أن تنمي في نفسها قوة ربما كانت كامنة فيها دوماً، ولكنها كانت تجهل حتى ذلك الحين لماذا لم تحتج لاستخدامها. لقد تخلت عن الحماية المتوفرة لها في بيتها عندما كانت ما تزال طفلة تقريباً، ومضت مقتفية أثر حبيب زائغ، واندست متخفية في سفينة وهي حبلى، حيث فقدت جنينها وأوشكت أن تفقد حياتها أيضاً، ووصلت إلى كاليفورنيا، فارتدت ملابس الرجال، وكانت مستعدة لأن تجوبها من أقصاها إلى أقصاها، دون أي أسلحة أو أدوات سوى دافع الحب اليائس. وتمكنت من العيش وحيدة في أراضي رجالٍ يسودها الجشع والعنف، وفي أثناء ذلك اكتسبت الجرأة وتذوقت طعم الاستقلالية. ولم يعد بإمكانها نسيان نشوة المغامرة الزخمة تلك قط. ومن أجل الحب أيضاً عاشت طوال ثلاثين سنة كزوجة رصينة لتاو تشين، وأمٍ وصانعة حلوى، وكانت تنجز واجبها دون أي أفق آخر سوى بيتها في تشايناتاون، ولكن البذرة التي انزرعت في سنوات الترحال تلك، بقيت سليمة في روحها، وجاهزة للتفتح في اللحظة المناسبة. عندما اختفى تاو تشين، الهادي الوحيد الذي كان يوجه حياتها، جاءت لحظة الإبحار على غير هدى. «لقد كنت جوابة آفاق في أعماقي على الدوام، فما أرغب فيه هو الترحال دون وجهة محددة»، هذا ما كتبته في رسالة إلى ابنها لاكي. ولكنها قررت قبل ذلك بأنه عليها أن تفي بالوعد الذي قطعته لأبيها جون سوميرز، بعدم التخلي عن عمتها روز في شيخوختها.

Twitter: @ketab_n

فانطلقت من هونغ كونغ إلى إنكلترا، مستعدة لمرافقة السيدة المسنة في سنواتها الأخيرة؛ فهذا أقل ما يمكنها عمله لتلك المرأة التي كانت بمثابة ام لها. كانت روز سوميرز قد تجاوزت السبعين من العمر، وبدأت صحتها تتردى، ولكنها واصلت كتابة رواياتها الغرامية، وكلها متشابهة تقريباً، لتتحول إلى أشهر كاتبة رومنسية باللغة الانكليزية. وكان هناك فضوليون يأتون من أماكن بعيدة ليروا هيئتها الضئيلة وهي تنزه كلبها في الحديقة، ويقال إن الملكة فيكتوريا كانت تواسي نفسها في ترملها بقراءة قصصها المحلاة عن الغراميات الظافرة. كان مجيء إلزا عزاء عظيماً لروز سوميرز، لأنها تحبها مثل ابنة لها، إضافة إلى أن يدها صارت تخونها، وكانت تجد صعوبة أكبر فأكبر في إمساك ريشة الكتابة. ومنذ ذلك الحين بدأت تملي عليها رواياتها، وفيما بعد، عندما خذلها صفاء الذهن، صارت إلزا تتظاهر بأنها تدون ما تقوله لها، بينما هي في الواقع تكتب بنفسها، دون أن ينتبه الناشر أو القراء إلى ذلك مطلقاً، فالمسألة كانت تتلخص في تكرار المعادلة نفسها. وعندما ماتت روز سوميرز، بقيت إلزا في البيت نفسه في الحي البوهيمي - وقد صار بيتاً ثميناً لأن المنطقة أصبحت مرغوبة - وورثت رأس المال الذي راكمته أمها بالتبني من كتب الحب. وكان أول ما فعلته هو زيارة ابنها لاكي في سان فرانسيسكو والتعرف على أحفادها، الذين بدوا لها قبيحين ومملين، ثم راحت تسافر بعد ذلك إلى أماكن غريبة ومثيرة، منجزة في نهاية المطاف قدرها كمتشردة. لقد كانت واحدة من أولئك الرّحالات اللواتي يسعين للذهاب إلى مناطق يهرب منها الآخرون. ولم يكن هناك ما يروقها أكثر من أن ترى على أمتعتها أختاماً وبطاقات ملونة من أكثر بلدان الدنيا بعداً؛ ولم يكن هناك مايدعوها إلى الفخر مثل الإصابة بعدوى داء غير مألوف أو بعضة حيوان غريب. هامت على وجهها طوال سنوات مع صناديق أمتعتها، ولكنها كانت ترجع دوماً إلى بيتها في لندن، حيث تنتظرها رسائل سيفيرو دل بايي بمزيد من الأخبار. وعندما علمت بأن باولينا دل بايي لم تعد في هذا العالم، قررت العودة إلى تشيلي، البلاد التي ولدت فيها، ولكنها لم تفكر بها طوال نصف قرن، لتلتقي بحفيدتها.

Twitter: @ketab_n

ربما تذكرت جدتي إلزا، خلال رحلة العبور الطويلة في الباخرة، سنوات عمرها الست عشرة الأولى التي أمضتها في تشيلي، ذلك البلد المشوق والرشيق؛ وطفولتها في رعاية امرأة هندية طيبة القلب ومس روز الجميلة؛ وحياتها الهادئة والمطمئنة إلى أن ظهر ذلك الحبيب الذي خلّفها حبلى، وهجرها ليذهب بحثاً عن الذهب في كاليفورنيا واختفت آثاره في الحياة. ولأن جدتي إلزا تؤمن بالكارما، فلا بد أنها توصلت إلى أن تلك الرحلة البحرية الطويلة هي ضرورية للقاء مجدداً بتاو تشين الذي يتوجب عليها أن تحبه في كل تجسد جديد من تقمصاته. «يا للفكرة ضئيلة المسيحية»، هكذا علق فريدريك ويليامز عندما حاولت أن أوضح له بأن إلزا سوميرز لا تحتاج إلى أحد.

حملت لي جدتي إلزا صندوقاً متخلعاً كهدية، وقدمته لي مع غمزة ماكرة من حدقتيها السوداوين. كان يتضمن مخطوطات صفراء بتوقيع سيدة مجهولة. إنها الروايات البورنوغرافية التي كتبتها روز سوميرز في شبابها، وهذا سرٌ آخر محفوظ جيداً من أسرار العائلة. قرأتُها بدقة وبحماس تعلمي خالص، من أجل فائدة إيفان رادوفيتش. ذلك الأدب المسلي - كيف خطرت كل هذه الجرأة لعانس فيكتورية؟ - وأحاديث نيفيا دل بايي السرية، ساعداني كثيراً في التغلب على خجلي الذي كان في البدء عقبة بيني وبين إيفان يكاد تجاوزها لا يكون ممكناً. صحيح أنني في يوم العاصفة، عندما كنا سنذهب إلى المسرح ولم نذهب، أقدمت على تقبيله في العربة قبل أن يتمكن الرجل المسكين من الدفاع عن نفسه، ولكن جرأتي لم تصل إلى أبعد من ذلك، وأضعنا فيما بعد وقتاً طويلاً في الجدال ما بين ترددي الرهيب ووساوسه، لأنه لا يريد «أن يدمر سمعتي» كما قال. ولم يكن من السهل إقناعه بأن سمعتي قد شُوهت بما فيه الكفاية قبل أن يظهر هو في الأفق، وستبقى معرضة للتشويه، لأنني لا أفكر في العودة مطلقاً إلى زوجي ولا في التخلي عن عملي أو استقلاليتي، وهي أمور يُنظر إليها باستنكار في هذه الأنحاء. بعد تجربتي المهينة مع دييغو، بدا لي أنه من المستحيل أن أوحي بالشهوة أو الحب؛ فقد أضيف إلى جهلي المطلق في شؤون الجنس إحساس

Twitter: @ketab_n

بالدونية، وكنت أعتقد بأنني قبيحة، وقليلة الأنوثة، ولا أفي بالغرض؛ فكنت أخجل من جسمي ومن العاطفة التي يوقظها إيفان في. ولكن روز سوميرز، تلك العمة-الجدة البعيدة التي لم أتعرف عليها، قدمت لي هدية رائعة حين منحتني هذه الحرية اللعوبة والضرورية جداً لممارسة الحب. فقد كان من عادة إيفان أخذ الأمور بجدية كبيرة، وكان مزاجه السلافي يميل إلى التراجيديا؛ ويغرق في القنوط أحياناً لأننا لا نستطيع العيش معاً قبل أن يموت زوجي، ولأننا سنكون في ذلك الحين قد هرمنا جداً. عندما كانت هذه الغيوم تنشر القتامة في أفقه، أمد يدي إلى مخطوطات السيدة المجهولة، فأكتشف فيها على الدوام أساليب جديدة لمنحه المتعة أو لجعله يضحك على الأقل. وفي انشغالي بمهمة تسليته في لقاءاتنا الحميمة، رحت أتخلص من الحياء وأكتسب ثقة لم أكن أتمتع بها من قبل. لا أشعر بأنني قادرة على الإغواء، فمفعول المخطوطات الايجابي لم يصل إلى هذا الحد، ولكنني لم أعد أخشى على الأقل أخذ زمام المبادرة لدفع إيفان قدماً، وهو الذي يمكن له، لو أنني لا أفعل ذلك، أن يبقى مكتفياً بالروتين نفسه إلى الأبد. فممارسة الحب كزوجين مسنين ستكون تبديداً للوقت، خصوصاً وأننا غير متزوجين. وفائدة كوننا عشيقين هي في وجوب العناية جيداً بعلاقتنا، لأن كل شيء يتواطأ من أجل فسخها. فقرار بقائنا معاً يجب أن يتجدد مرة بعد مرة، وهذا ما يبقينا نشيطين.

هذه هي القصة التي روتها لي جدتي إلزا سوميرز.

لم يغفر تاو تشين لنفسه موت ابنته لين. ولم يُجد تكرار زوجته وابنه لاكي القول بأنه ليس هناك قوة بشرية قادرة على منع القدر، وأنه عمل كجونغ يي كل ما يستطيعه، وأن العلوم الطبية المعروفة ما تزال عاجزة عن منع أو وقف حالات النزيف التي تودي بنساء كثيرات خلال عمليات الولادة. بدا الأمر لتاو تشين كما لو أنه قد سار في دوائر ليجد نفسه من جديد حيث كان قبل أكثر من ثلاثين سنة، في هونغ كونغ، عندما وضعت زوجته الأولى لين طفلتها. فقد بدأت هي بالنزف كذلك، وفي يأسه من

Twitter: @ketab_n

أجل انقاذها، نذر تقديم أي شيء للسماء مقابل حياة لين. وقد ماتت الطفلة بعد دقائق من ولادتها، ففكر أن ذلك هو ثمن نجاة زوجته. ولم يتصور قط بأن الثمن الذي سيدفعه، بعد وقت طويل، وفي الجانب الآخر من العالم، سيكون ابنته لين أيضاً.

فكان ابنه لاكي يخفف عنه:

- لا تقل هذه الكلام يا أبي، أرجوك. المسألة ليست مقايضة حياة بحياة، هذه شعوذات لا تليق برجل له مثل ذكائك وثقافتك. لا علاقة لموت أختي بموت زوجتك الأولى أو بك. فمثل هذه المأساة تحدث في كل لحظة.

ويتحسر تاو تشين:

- ما جدوى كل السنوات التي أمضيتها في الدراسة والتجارب إذا كنتُ عاجزاً عن إنقاذها؟

- ملايين النساء يمتن في أثناء الولادة، وقد قمتَ بما تستطيعه من أجل لين...

كانت إلزا مثقلة بالألم مثل زوجها لفقدان ابنتها الوحيدة، ولكنها كانت تتولى فوق ذلك مسؤولية العناية بالصغيرة اليتيمة. وبينما كانت تنام واقفة من التعب، لم يكن تاو تشين يغفو لحظة واحدة؛ فيمضي الليل ساهماً، يتنقل في البيت مثل مسرنم ويبكي خفية. لم يعودا إلى ممارسة الحب منذ عدة أيام، وبدا أنهما لن يفعلا ذلك في مستقبل قريب، نظراً للحالة المعنوية التي سادت البيت. وبعد مرور أسبوع، اختارت إلزا الحل الوحيد الذي خطر لها: وضعت الحفيدة بين ذراعي تاو تشين وقالت له إنها تجد نفسها غير قادرة على تربيتها، فقد أمضت أكثر من عشرين سنة من حياتها وهي تعنى بإبنيها لاكي ولين مثل عبدة، ولم تعد قواها تسمح لها بالبدء من جديد مع الصغيرة لاي-مينغ. وهكذا وجد تاو تشين نفسه مسؤولاً عن طفلة حديثة الولادة دون أم، يتوجب عليه تغذيتها كل نصف ساعة بحليب ممزوج بالماء، بواسطة قطارة، لأنها لا تكاد تستطيع

Twitter: @ketab_n

البلع، وعليه أن يهزها دون توقف لأنها تبكي من المغص في الليل والنهار. بل إن الطفلة لم تكن لطيفة المظهر، فهي ضئيلة ومجعدة، بشرتها صفراء من اليرقان، وملامحها مشوهة من عملية الولادة المعسرة، وليس في رأسها شعرة واحدة؛ ولكن بعد أربع وعشرين ساعة من العناية بها، صار بإمكان تاو تشين أن ينظر إليها دون فزع. وبعد أربعة وعشرين يوماً من حملها في كيس معلق على كتفه، وتغذيتها بالقطارة، والنوم معها، صارت تبدو له لطيفة. وبعد أربع وعشرين شهراً من انهماكه في تربيتها كأم وقع تماماً في حب حفيدته، واقتنع بأنها ستكون أجمل من أمها لين، على الرغم من عدم وجود أدنى أساس لذلك الاعتقاد. لم تعد الطفلة تلك الرخوية التي كانتها عندما ولدت، ولكنها كانت شديدة البعد عن الشبه بأمها. تبدل تماماً روتين تاو تشين الذي كان يقتصر من قبل على عيادته الطبية وعلى الساعات الحميمة التي يقضيها مع زوجته. وصار وقته كله يدور حول لاي-مينغ، تلك الطفلة المتطلبة التي تعيش ملتصقة به، والتي لا بد من رواية الحكايات لها، وجعلها تنام بالغناء، وإجبارها على تناول الطعام، والخروج بها في نزهات، وشراء أجمل الفساتين لها من المحلات الأمريكية ومن دكاكين تشايناتاون، وتقديمها إلى الجميع في الشارع، لأنه لم تُر من قبل بنت بمثل هذا الذكاء، مثلما يعتقد جدها الذي كانت العاطفة تغشي عينيه. كان واثقاً من أن حفيدته عبقرية، ولكي يثبت ذلك يكلمها بالصينية والانكليزية، ويضيف اللغط بالإسبانية التي تتكلمها جدتها، مسبباً بذلك بلبلة هائلة. وكانت لاي-مينغ ترد على تشجيع تاو تشين مثل أي طفلة في الثانية من عمرها، ولكن إجاباتها الصائبة القليلة تبدو له دليلاً لا يمكن دحضه على ذكائها الخارق. قلص ساعات عمله في العيادة إلى حوالى أربع ساعات في المساء، لكي يتمكن من قضاء فترة الصباح مع حفيدته وتعليمها مهارات جديدة، مثل قرد مدجّن. وكان يسمح لألزا على مضض بأخذها إلى صالون الشاي في المساء، بينما هو في عمله، لأنه أقنع نفسه بأنه يستطيع أن يبدأ تعليمها الطب منذ طفولتها.

كان تاو تشين يقول لابنه لاكي:

Twitter: @ketab_n

- هناك في اسرتي ستة أجيال من الجونغ يي، وستكون لاي-مينغ هي الجيل السابع، نظراً إلى أنكَ لا تتمتع بأي قابلية للتعلم.

فيعلق لاكي:

- كنت أظن أنه لا يمكن إلا للرجال وحدهم أن يكونوا أطباء.

فيرد تاو تشين:

- هذا كان في السابق. ستكون لاي-مينغ أول امرأة جونغ يي في التاريخ.

ولكن إلزا سوميرز لم تسمح له بأن يملأ رأس حفيدتها بنظريات طبية وهي في تلك السن المبكرة؛ لأنه سيكون هناك متسع من الوقت لذلك فيما بعد، أما الآن فلا بد من إخراج الصغيرة من تشايناتاون بضع ساعات كل يوم لكي تتأمرك. وكان الجدان متفقين في هذه النقطة على الأقل، فلا بد للاي-مينغ من أن تنتمي إلى عالم البيض، حيث ستحصل دون شك على فرص أكبر مما هو متوفر لها بين الصينيين. ومن مصلحتها في هذا الأمر أنها تخلو من الملامح الاسيوية، وأنها ذات ملامح شديدة الإسبانية مثلما هي أسرة أبيها. وكانت إمكانية عودة سيفيرو دل بايي يوماً للمطالبة بابنته المزعومة وأخذها إلى تشيلي هاجساً لا يطاق، ولهذا كانا يتجاهلانه؛ مفترضين ببساطة أن الشاب التشيلي سيحترم ما اتُفِق عليه، خصوصاً وأنه أظهر ما يكفي من الأدلة على شهامته. لم يلمسا المال الذي خصصه للطفلة، بل أودعاه في حساب مصرفي لتغطية نفقات تعليمها في المستقبل. وكانت إلزا سوميرز تكتب كل ثلاثة أو أربعة شهور ملاحظة قصيرة ترسلها إلى سيفيرو دل بايي تطلعه فيها على أخبار «محميته»، كما تدعوها، لكي يكون واضحاً أنها لا تمنحه حق الأبوة. لم تتلق أي ردّ خلال السنة الأولى، لأن سيفيرو كان غارقاً في حداده وفي الحرب، ولكنه رتب الأمر بعد ذلك ليرد على الرسائل بين حين وآخر. أما باولينا دل بايي فلم يعودوا لرؤيتها، لأنها لم ترجع إلى صالون الشاي ولم تنفذ تهديدها بانتزاع الحفيدة منهم وتدمير حياتهم.

وهكذا انقضت خمس سنوات من التآلف في بيت آل تشين إلى أن

Twitter: @ketab_n

توالت الأحداث التي مزقت الأسرة. بدأ كل شيء بزيارة امرأتين أعلنتا أنهما مبشرتان من الكنيسة المشيخية البروتستانيتية، وطلبتا التحدث إلى تاو تشين على انفراد. استقبلهما الجونغ يي في العيادة، لأنه ظن أنهما قادمتان لأسباب صحية، ولأنه لم يكن هناك تفسير آخر لقدوم امرأتين من البيض فجأة إلى بيته. كانتا تبدوان شقيقتين، فهما شابتان، طويلتان، متوردتان، عيونهما زرقاء مثل مياه الخليج، وتبدي كلتاهما الثقة المشعة نفسها التي ترافق الغيرة الدينية عادة. قدمتا نفسيهما باسميهما الأولين، دونالدينا ومارثا، وبادرتا إلى التوضيح بأن بعثتهما التبشيرية في تشايناتاون تصرفت حتى هذا الوقت برصانة وحذر كبيرين حتى لا تثير غضب الجالية البوذية، ولكن لديها الآن أعضاء جدداً مصممين على فرض أدنى قواعد الحشمة المسيحية في هذا القطاع من المدينة، وهو على حد قولهن «ليس أرضاً صينية، وإنما أمريكية. ولا يمكن السماح بأن يجري هناك خرق القانون والأخلاق». وكانت المرأتان تعرفان أن السلطات الأمريكية تتلقى الرشاوى وتغض النظر. وأشار عليهما أحدهم بأن تاو تشين هو الشخص الوحيد الذي يملك الجرأة الكافية ليخبرهما بالحقيقة ويساعدهما، ولهذا جاءتا إليه. لقد انتظر الجونغ يي هذه اللحظة منذ عقود. ففي عملة البطيء لإنقاذ أولئك المراهقات البائسات، لم يكن يعتمد إلا على مساعدة صامتة من بعض الأصدقاء الكويكرز الذين يتولون إخراج المومسات الصغيرات من كاليفورنيا ودمجهن في حياة جديدة بعيداً عن عصابات التونغ والقوادين. كان يشتري من يستطيع دفع ثمنهن في المزادات السرية، ويتلقى من هن مريضات جداً ولا يستطعن الخدمة في المواخير؛ فيحاول أن يشفي أجسادهن ويواسي أرواحهن، ولكنه لا يتوصل إلى ذلك دوماً، فكثيرات منهن كن يمتن بين يديه. لقد كانت هناك في بيته غرفتان لإيواء فتيات سينغ سونغ، تكونان مشغولتين على الدوام تقريباً، ولكن تاو تشين كان يشعر بأنه كلما ازدادت الجالية الصينية في كاليفورنيا، تزداد حالة المستعبدات سوءاً، وأنه لا يستطيع وحده أن يفعل إلا القليل للتخفيف من ذلك. لقد نزلت عليه هاتان المبشرتان من السماء؛ فهما تستندان أولاً إلى دعم الكنيسة

Twitter: @ketab_n

المشيخية البروتستانتية الواسع، وهما من البيض ثانياً؛ ويمكن لهما أن تحركا الصحافة، والرأي العام، والسلطات الأمريكية لوضع حد لتلك التجارة القاسية. وهكذا شرح لهما بالتفصيل كيف يشترون أو يختطفون أولئك الصغيرات في الصين، وبما أن الثقافة الصينية تحتقر الطفلات، فكثيراً ما يُعثر في تلك البلاد على صغيرات حديثات الولادة مختنقات في آبار أو ملقى بهن في الشارع وقد نهشتهن الجرذان أو الكلاب. العائلات لا تريدهن، ولهذا يصبح من السهل اقتناؤهن مقابل بضعة سنتات وإحضارهن إلى أميركا، حيث يمكن استغلالهن بآلاف الدولارات. فهم يشحنونهن كالحيوانات في صناديق كبيرة في عنابر السفن، ومن يبقين على قيد الحياة منهن ويتجاوزن حالات الجفاف والكوليرا، يدخلن إلى الولايات المتحدة بعقود زواج مزيفة. فجميعهن عرائس أمام أعين موظفي الهجرة، أما صغر سنهن، وحالتهن الجسدية المزرية، وملامح الرعب التي تبدو على وجوههن، فلا تثير ظاهرياً أية شبهات. ليس لأولئك الفتيات أية أهمية. فما يحدث لهن هو من «**شؤون السماويين**»، ولا علاقة للبيض به. وأوضح تاو تشين لدونالدينا ومارثا أن متوسط حياة **فتيات سينغ سونغ**، منذ أن يبدأن المهنة، هو ثلاث أو أربع سنوات: فهن يستقبلن حتى ثلاثين رجلاً في اليوم الواحد، ويمتن بالأمراض الزهرية، والاجهاض، وذات الرئة، والجوع وسوء المعاملة؛ وبلوغ مومس صينية سن العشرين هو أمر مستغرب. ليس هناك من لديه سجل لحياتهن، ولكن بما أنهن يدخلن البلاد بوثائق قانونية، فلا بد من وجود سجل لوفياتهن، هذا إن كان هناك من يسأل عنهن، وهو أمر غير وارد. كثيرات منهن يصبن بالجنون. وهن رخيصات الثمن، يمكن استبدالهن ما بين إغماضة عين وفتحها، وليس هناك من هو مستعد للانفاق عليهن صحياً أو في جعلهن يعشن طويلاً. وأشار تاو تشين إلى الرقم التقريبي للطفلات المستعبدات في تشايناتاون، وإلى مواعيد عقد المزادات، وأين هي مواقع المواخير، ابتداء من أشدها بؤساً، حيث تتلقى الفتاة معاملة البهائم المحبوسة في أقفاص، وحتى أكثرها ترفاً وتشرف عليها آه توي الشهيرة، التي تحولت إلى أكبر مستوردة للحم الطازج من بلادها. إنها تشتري بنات في الحادية

Twitter: @ketab_n

عشرة من أعمارهن من الصين، وخلال الرحلة إلى أميركا تسلمهن للبحارة، وهكذا يتعلمن أن يقلن قبل أن يصلن «ادفع مقدماً»، وكيف يميزن الذهب الحقيقي من البرونز، كيلا يغشوهن بمعدن الحمقى. وفتيات آه توي يُخترن من بين أكثرهن جمالاً، وهن محظوظات أكثر من الأخريات اللواتي يكون مصيرهن في المزايدات كما المواشي، ويقدمن خدماتهن لأشد الرجال بؤساً وبالطريقة التي يطالبونهن بها، بما فيها أشد الطرق قسوة وإذلالاً. كثيرات منهن يتحولن إلى كائنات متوحشة، يتصرفن كالوحوش الضارية، مما يستدعي تقييدهن بالسلاسل إلى الأسرة وإبقاءهن مذهولات بالمخدرات. وقدم تاو تشين للمبشرتين أسماء ثلاثة أو أربعة تجار صينيين أثرياء ومشهورين، من بينهم ابنه لاكي، يمكنهم مساعدتهما في مهمتهما، وهم الوحيدون المتفقون معه في إنهاء هذا النوع من التجارة. وبأيد مرتعشة وأعين دامعة، سجلت دونالدينا ومارثا ملاحظات عن كل ما قاله تاو تشين، ثم شكرتاه وسألتاه وهما تودعانه إذا ما كان بإمكانهما الاعتماد على مساعدته عندما يحين وقت العمل.

- سافعل ما أستطيعه - قال لهما **الجونغ يي**.

فأكدتا:

- ونحن أيضاً أيها السيد تشين. لن تهدأ جمعيتنا حتى تضع حداً لهذا الانحراف وتنقذ هؤلاء الطفلات المسكينات، ولو اضطررنا إلى فتح أبواب أوكار الفساد تلك بالفؤوس.

حين علم لاكي تشين بما فعله أبوه، أثقلت عليه نذر الشؤم. فهو يعرف أجواء تشايناتاون أفضل من تاو بكثير، ويدرك أن أباه قد اقترف تهوراً لا يغتفر. لقد كان لدى لاكي، بفضل مهاراته وخفة ظله، أصدقاء في كل مستويات الجالية الصينية؛ فهو يدير تجارة رابحة منذ سنوات ويكسب باعتدال، ولكن بثبات، على موائد **الفان-تان**. وعلى الرغم من شبابه، فقد تحول إلى شخصية محبوبة ومحترمة من الجميع، بما في ذلك عصابات **التونغ**، التي لم تزعجه مطلقاً. لقد ساعد أباه طوال

Twitter: @ketab_n

سنوات في إنقاذ **فتيات سينغ سونغ**، مع الاتفاق الضمني بألا يتدخل في مشاكل أكبر؛ فقد كان يدرك جيداً ضرورة التكتم المطلق للبقاء على قيد الحياة في تشايناتاون، حيث القاعدة الذهبية تتمثل في عدم الاختلاط مع البيض - أولئك **الفان غويي** المرهوبين والمكروهين - وحلّ كل المشاكل، وخصوصاً الجرائم، بين مواطنيه. سيُعرف عاجلاً أو آجلاً بأن أباه قد أخبر المبشرتين وأن هاتين أخبرتا السلطات الأمريكية. لن تكون هناك صيغة لإبعاد المصيبة، ولن ينفع كل طالعه الحسن في حماية الأسرة. كان هذا ما قاله لتاو تشين، وهو ما جرى فعلاً في شهر تشرين الأول 1885، الشهر نفسه الذي أكملتُ فيه خمس سنوات.

تقرر مصير جدي في يوم الثلاثاء المشهود الذي جاءت فيه المبشرتان الشابتان برفقة ثلاثة رجال شرطة متجهمين من أصل ايرلندي، والصحفي العجوز جاكوب فريمونت، المتخصص بأخبار الجرائم، وقد وصلوا إلى تشايناتاون في وضح النهار. فتوقف النشاط في الشارع واجتمع حشد من الناس للحاق بموكب أولئك **الفان غوي**، غير المألوف في هذا الحي، والمتوجه بخطى حازمة نحو بيت بائس، يطل من بابه الضيق ذي القضبان الحديدية وجها اثنتين من **فتيات سينغ سونغ**، تعرضن نفسيهما على الزبائن بموائهما ونهودهما الكلبية المكشوفة. ما إن رأت الصغيرتان البيض يقتربون حتى اختفتا في الداخل وهما تطلقان صرخات الرعب، وظهرت مكانهما عجوز غاضبة ردت على رجال الشرطة بسلسلة من الشتائم بلغتها. وبإشارة من دونالدينا ظهرت فأس في يد أحد الايرلنديين وباشروا بتحطيم الباب أمام ذعر حشد المجتمعين. دخل البيض من خلال الباب الضيق، وسُمعت صرخات، وجري، وأوامر بالإنكليزية، وقبل انقضاء خمس عشرة دقيقة ظهر المهاجمون وهم يقتادون ست طفلات مذعورات، والعجوز التي خرجت وهي ترفس ويجرجرها أحد الشرطيين، وثلاثة رجال يمشون مطأطئين تحت تهديد المسدس. عمّ الصخب الشارع، وحاول بعض الفضوليين التقدم متوعدين،

Twitter: @ketab_n

ولكنهم تجمدوا في أماكنهم عندما دوت بضع رصاصات في الهواء. أصعد الفان غوي الطفلات والمعتقلين الآخرين إلى عربة شرطة مغلقة وانطلقت الخيول بالحمولة. أمضى الناس في تشايناتاون بقية النهار في التعليق عما حدث. لم تكن الشرطة قد تدخلت من قبل قط في شؤون لا تمس البيض مباشرة. فقد كان هناك بين السلطات الأمريكية تسامح كبير مع «عادات الصفر»، مثلما يصفونهم؛ ولم يكن هناك من يزعج نفسه في التقصي عن محلات تدخين الأفيون، وأوكار القمار، وأقل من ذلك كان اهتمامهم بالطفلات الرقيق، إذ كانوا يعتبرونهن انحرافاً فظاً آخر من انحرافات السماويين، مثل أكلهم الكلاب المطبوخة مع صلصة الصويا. الشخص الوحيد الذي لم يُبد استغرابه، وإنما رضاه، هو تاو تشين. وكان الجونغ يي المشهور على وشك أن يتعرض لاعتداء من قبل قاتلين ينتميان إلى إحدى عصابات التونغ في مطعم اعتاد تناول الغداء فيه مع حفيدته، عندما أعرب بصوت عال يمكن سماعه في ضجة المحل، عن سعادته لأن سلطات المدينة تولت أخيراً قضية فتيات سينغ سونغ. ومع أن معظم زبائن الموائد الأخرى كانوا يعتبرون الفتيات الرقيق مادة استهلاكية ضرورية في جالية معظمها من الذكور، إلا أنهم تقدموا لحماية تاو تشين لأنه الشخصية الأكثر أهمية في الجالية. ولولا تدخل صاحب المطعم في الوقت المناسب، لنشبت مشاجرة كبيرة. انسحب تاو تشين حانقاً، وهو يقود حفيدته بإحدى يديه ويحمل بيده الأخرى غداءه ملفوفاً بقطعة من الورق.

ربما كانت قضية الماخور ستمر دون نتائج كبيرة تذكر لو لم تتكرر العملية بعد يومين بالطريقة نفسها في شارع آخر: فقد جاءت المبشرتان نفساهما، والصحفي جاكوب فريمونت نفسه، ورجال الشرطة الايرلنديون الثلاثة أنفسهم، ولكنهم أحضروا معهم في هذه المرة أربعة مأمورين آخرين وكلبين كبيرين شرسين يشدان سلسلتيهما بقوة. استغرقت العملية ثماني دقائق، واقتادت دونالدينا ومارثا في هذه المرة سبع عشرة طفلة، وقوادين، واثنين من القتلة، وعدة زبائن خرجوا وهم يثبتون سراويلهم. انتشرت أخبار ما تفعله البعثة التبشيرية وحكومة الفان غوي كانتشار

Twitter: @ketab_n

البارود في تشايناتاون، ووصلت كذلك إلى الزنازين القذرة حيث تعيش المستعبدات. وأحسسن للمرة الأولى في حيواتهن البائسة بنفحة أمل. ولم تُجدِ التهديدات بتهشيمهن بالعصي إذا ما تمردن، أو القصص المرعبة التي تروى لهن عن الشياطين البيض الذين سيأخذونهن ليمتصوا دماءهن، وصارت الفتيات منذ ذلك الحين يبحثن عن طريقة لايصال أخبارهن إلى مسامع المبشرات، فتزايدت خلال أسابيع مداهمات الشرطة، ورافقتها مقالات في الصحف. ووضع جاكوب فريمونت هذه المرة ريشته المخاتلة في خدمة قضية طيبة، ليهز ضمائر المواطنين في حملته البليغة حول المصير الرهيب الذي تلقاه الطفلات المستعبدات في قلب مدينة سان فرانسيسكو. وسيموت الصحفي العجوز بعد وقت قصير من ذلك دون أن يتمكن من رؤية الصدمة التي أحدثتها مقالاته، أما دونالدينا ومارثا بالمقابل، فستريان ثمار حماستهما. وقد تعرفتُ عليهما بعد ثمانية عشر عاماً من ذلك في إحدى رحلاتي إلى سان فرانسيسكو، وكانت ما تزال لهما البشرة الوردية نفسها، ونظراتهما تشع بالحماس التبشيري نفسه، وكانتا ما تزالان تجوبان تشايناتاون يومياً، تترصدان طوال الوقت، ولكن لم يعد هناك من يسميهما الفان جوي اللعينتين، ولا أحد يبصق عندما تمران. بل يدعونهما اليوم لو- مي، الأم المُحبة، وينحنون لتحيتهما. لقد أنقذتا آلاف الصغيرات وأوقفتا المتاجرة المتهتكة بالطفلات، وإن كن لم يستطعن القضاء على أشكال أخرى من الدعارة. لا بد أن جدي تاو تشين سيكون سعيداً بذلك.

في يوم الأربعاء الثاني من شهر تشرين الثاني ذهب تاو تشين، مثلما يفعل كل يوم، بحثاً عن حفيدته لاي مينغ في صالون شاي زوجته في ساحة الاتحاد. فالصغيرة تبقى مع جدتها إلزا في المساء ريثما ينتهي الجونغ يي من علاج آخر مريض في عيادته، ويذهب لإحضارها. لم تكن المسافة تزيد على سبع كوادرات حتى البيت، ولكن تاو تشين اعتاد أن يذرع شارعي تشايناتاون الرئيسيين في هذه الساعة، عندما يشعلون المصابيح الورقية في المتاجر، وينهي الناس عملهم ويخرجون لشراء المواد اللازمة للعشاء. كان يتمشى وهو يمسك بيد حفيدته في الأسواق، حيث

Twitter: @ketab_n

يراكمون الثمار الغريبة المجلوبة من الجانب الآخر للبحر، وطيور البط المطلية بصمغ اللك والمعلقة بخطافات، وأنواع الفطر، والحشرات، والحيوانات البحرية، وأحشاء حيوانات، ونباتات لا يمكن العثور عليها إلا هناك. وبما أنه لم يكن لدى أحد متسع من الوقت لطهو الطعام في المنزل، فقد كان تاو تشين يختار بدقة الأصناف التي سيأخذها للعشاء، وهي الأصناف نفسها على الدوام تقريباً، لأن لاي مينغ كانت شديدة التطلب في الأكل. كان جدها يغريها لتتذوق لقيمات من لذائذ المأكولات الكانتونية التي يبيعونها في أكشاك الشارع، ولكنه يكتفي عموماً بالتشكيلة نفسها من التشاو-مين وأضلاع الخنزير. كان تاو تشين يرتدي في ذلك اليوم للمرة الأولى بدلة جديدة، صنعها له أفضل خياط صيني في المدينة، لا يخيط إلا لأبرز الرجال. لقد بدأ تاو بارتداء الملابس على الطريقة الأمريكية منذ سنوت عديدة، ولكنه منذ حصل على المواطنية الأمريكية صار يحاول أن يفعل ذلك بأناقة دقيقة، كعلامة احترام لوطنه الذي تبناه. كان يبدو وسيماً جداً ببدلته السوداء المتقنة، وقميصه ذي الياقة وربطة العنق المتدلية على الصدر، ومعطفه المصنوع من الجوخ الإنكليزي، وقبعته العالية، وقفازي جلد الماعز عاجيي اللون. وكان مظهر الصغيرة لاي مينغ يتناقض مع زي جدها الغربي، فهي ترتدي سروالاً سميكاً وسترة من الحرير منجدة بخيوط براقة صفراء وزرقاء، وسميكة جداً تتحرك بها الطفلة في كتلة واحدة، كأنها دب، وشعرها مجموع في ضفيرة مشدودة، وفوقه طاقية مطرزة على طريقة هونغ كونغ. وكان كلاهما يلفت الأنظار بين الحشود المبرقشة، وكلها تقريباً من الرجال الذين يرتدون السراويل التقليدية والسترات السوداء المعهودة بين السكان الصينيين إلى حد تبدو الحشود معه وكأنها بزي رسمي. وكان الناس يتوقفون ليحيوا الجونغ يي، فإذا لم يكونوا من مرضاه، فإنهم يعرفون اسمه ومظهره على الأقل، ويداعب التجار الطفلة بحنان لكي يتوددوا إلى الجد، فيقدمون إليها خنفساء في قفص خشبي صغير، أو مروحة ورقية، أو قطعة حلوى. عند الغروب يعم تشايناتاون على الدوام جو احتفالي، ومحادثات صاخبة صارخة، ومساومات ونداءات باعة؛ وتنتشر روائح

Twitter: @ketab_n

المقالي والتوابل والسمك والقمامة، لأن الفضلات تتراكم في وسط الشارع. تنقل الجد وحفيدته بين المحلات التي يشتريان منها عادة، وتبادلا الحديث مع الرجال الذين يلعبون ماه-يونغ جالسين على الرصيف، وذهبا إلى ركن العشابين لأخذ بعض الأدوية التي كان الجونغ يي قد أوصى عليها من شنغهاي، وتوقفا قليلاً عند مقمرة ليريا طاولات لعب الفان تان من الباب، لأن تاو تشين كان يُفتن بالمراهنات، ولكنه يتجنبها وكأنها الوباء. وتناولا كذلك فنجاناً من الشاي الأخضر في حانوت الخال لاكي، حيث رأيا بإعجاب شحنة العاديات والأثاث المنحوت التي وصلت للتو، ودارا بعد ذلك على أعقابهما في طريق العودة إلى البيت بخطوات مطمئنة. وفجأة اقترب صبي راكضاً وقد استولى عليه اضطراب شديد وطلب من الجونغ يي أن يأتي مسرعاً، لأن حادثاً قد وقع: فقد داس حصان على صدر رجل، وهو الآن يبصق دماً. لحق به تاو تشين بأقصى سرعة دون أن يفلت يد حفيدته، دخل في زقاق جانبي، ثم في زقاق آخر، وآخر، متوغلاً في أزقة ضيقة في طبوغرافية الحي الجنونية، إلى أن وجدا نفسيهما وحيدين في زقاق مسدود لا يكاد يضيئه سوى أنوار فوانيس ورقية باهتة تأتي من بعض النوافذ، وتلمع مثل حباحب خرافية. كان الصبي قد اختفى. أدرك تاو تشين أنه قد وقع في فخ، فحاول التراجع، ولكن الوقت كان قد فات. فقد خرج من الظلام عدة رجال مسلحين بالعصي وأحاطوا به. كان الجونغ يي قد تعلم فنون القتال في شبابه، وكان يحمل على الدوام مدية مثبتة على خصره تحت السترة، ولكنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه دون أن يفلت يد الطفلة. كان لديه بضع لحظات ليفكر بما يريدونه، وما الذي يحدث، وسمع اسم آه توي بينما الرجال ذوو البيجامات السوداء، والوجوه المغطاة بمناديل، يرقصون من حوله، ثم تلقى الضربة الأولى على ظهره. أحست لاي مينغ بأنها تُدفع إلى الوراء وحاولت التشبث بيد جدها، ولكن اليد الحبيبة أفلتتها. رأت الهراوى تعلو وتنخفض فوق جسد جدها، ورأت تدفق الدم من رأسه، ورأته يهوي على الأرض على بطنه، ورأت كيف واصلوا ضربه إلى أن لم يعد سوى كتلة دامية فوق أحجار الشارع.

Twitter: @ketab_n

«عندما جاؤوا بتاو في حمالة مرتجلة ورأيت ما فعلوه به، تفتت شيء في داخلي إلى ألف قطعة، مثل كأس من زجاج، وهُدرت إلى الأبد قدرتي على الحب. لقد يبستُ من الداخل. ولم أعد المرأة نفسها بعد ذلك قط. إنني أشعر بعاطفة نحوك يا لاي-مينغ، وكذلك نحو لاكي وأبنائه، وقد شعرت بها تجاه مس روز، أما الحب فلم أشعر به إلا نحو تاو. ومن دونه لم يعد هناك ما يهمني كثيراً؛ وكل يوم أعيشه هو يوم ينقص من انتظاري الطويل للقاء به من جديد»، هذا ما اعترفت لي به جدتي إلزا سوميرز. وأضافت أنها تألمت من أجلي، لأنه كان عليّ منذ الخامسة من عمري أن أشهد عذاب أحب كائن إلى قلبي، ولكنها ارتأت بأن الزمن كفيل بمحو الصدمة النفسية. واعتقدت بأن حياتي مع باولينا دل بايي، بعيداً عن تشايناتاون، ستكون كافية لجعلي أنسى تاو تشين. لم تتخيل أن مشهد ذلك الزقاق ستبقى إلى الأبد في كوابيسي، وأن رائحة جدي، وصوته، وملمس يديه الرقيق ستلاحقني في يقظتي.

وصل تاو تشين حياً إلى ذراعي زوجته، وبعد ثمان عشرة ساعة استعاد الوعي، وبعد أيام قليلة تمكن من الكلام. وكانت إلزا سوميرز قد استدعت طبيبين أمريكيين استعانا في عدة مناسبات بمعارف الجونغ يي. فحصاه بكآبة: كان هناك كسر في عموده الفقري، وإذا ما قيض له أن يعيش، وهو أمر بعيد الاحتمال، فإن نصف جسده سيكون مشلولاً. وقالا إن العلم لا يستطيع عمل شيء من أجله. اكتفيا بتنظيف جراحه، وإعادة ترتيب العظام المهشمة قليلاً، وخياطة جراح رأسه وترك جرعات مكثفة من المسكنات لتعطى له. وفي أثناء ذلك، انزوت الحفيدة التي نسيها الجميع في أحد الأركان، إلى جوار سرير جدها، وهي تناديه دون صوت – وي غوا! وي غوا...! – دون أن تفهم لماذا لا يرد عليها، ولماذا لا يسمحون لها بالاقتراب، ولماذا لا يمكنها النوم بين ذراعيه كعادتها. أشرفت إلزا سوميرز على تقديم جرعات المسكن بالصبر نفسه الذي حاولت أن تجعله به يبتلع الحساء باستخدام قمع. لم تسمح لليأس بأن يجرفها، فبقيت تسهر على زوجها بهدوء ودون بكاء طوال أيام، إلى أن تمكن من التكلم إليها من خلال شفتيه المتورمتين وأسنانه المهشمة. عرف

Twitter: @ketab_n

الجونغ يي دون مجال للشك بأنه لن يستطيع، ولن يرغب في العيش وهو في هذه الحال، هكذا قال لزوجته، طالباً منها أن تتوقف عن تقديم الطعام والشراب إليه. ولأن الحب العميق والحميمية المطلقة التي تقاسماها طوال أكثر من ثلاثين سنة يتيحان لهما أن يحزر كل منهما أفكار الآخر؛ لم تكن ثمة حاجة لكثير من الكلمات. وإذا كانت إلزا قد رغبت في أن تتوسل إلى زوجها بأن يعيش مشلولاً في الفراش لكي لا يتركها وحدها في هذا العالم، إلا أنها ابتلعت الكلمات، لأنها تحبه كثيراً ولا يمكنها أن تطلب منه مثل هذه التضحية. ولم يكن على تاو تشين من جهته أن يقول الكثير، لأنه يعرف أن زوجته ستفعل ما لا بد منه لتساعده على الموت بوقار، مثلما كان سيفعل هو من أجلها لو أن الأمور جرت بطريقة أخرى. وفكر بأنه ليس هناك ضرورة للإلحاح في نقل جسده إلى الصين، لأن ذلك لم يعد يبدو له مهماً في الواقع، وهو لا يريد أن يُلقي على كاهل إلزا مزيداً من الأعباء، ولكنها صممت على عمل ذلك. لم يكن لدى أي منهما حماسة للحديث حول ما هو جلي. فقد قالت له إلزا ببساطة إنها لا تستطيع تركه يموت من الجوع والعطش، لأن ذلك قد يستغرق أياماً عديدة، وربما أسابيع، وهي لن تسمح بأن يعاني مثل ذلك الاحتضار الطويل. فأشار عليها تاو تشين كيف تفعل ذلك. طلب منها أن تذهب إلى عيادته، وتبحث في درج معين، وتُحضر منه زجاجة صغيرة زرقاء. كانت قد ساعدته في عيادته خلال السنوات الأولى لعلاقتهما، وما زالت تقوم بذلك كلما تغيب مساعده، وكانت تحسن قراءة الرموز الصينية المدونة على القوارير، وتتقن حقن الإبر. دخل لاكي إلى الحجرة ليتلقى مباركة أبيه، وخرج على الفور وهو يجهش بالبكاء. «يجب ألا يساورك القلق أنت ولاي مينغ يا إلزا، لأنني لن أتخلى عنكما، سأكون قريباً منكما دوماً لحمايتكما، ولن يصيبكما أي سوء»، تلعثم تاو تشين بذلك. ورفعت هي حفيدتها بين ذراعيها وقرّبتها من جدها لتتمكن من وداعه. رأت الطفلة ذلك الوجه المتورم فانكمشت مذعورة، ولكنها اكتشفت عندئذ الحدقتين السوداوين اللتين تنظران إليها بالحب الواثق المعهود وتعرفت عليهما. فتعلقت بكتفي جدها، وبينما هي تقبله وتناديه بيأس،

Twitter: @ketab_n

كانت تبلله بدموع ساخنة، إلى أن انتزعوها عنه بالقوة، وحُملت خارجاً لتحط بين ذراعي خالها لاكي. عادت إلزا سوميرز إلى الحجرة التي عاشت فيها سعيدة مع زوجها، وأغلقت الباب بلطف وراءها.

سألتُها:

- وماذا حدث عندئذ يا وي بوا؟

- فعلت ما كان يتوجب علي فعله يا لاي-مينغ. استلقيت إلى جوار تاو وقبلته قبلة طويلة. لقد بقي نَفَسُه معي...

Twitter: @ketab_n

خاتمة

لولا جدتي إلـزا، التي جاءت من بعيد لتضيء الأركان المظلمة في ماضيّ، ولولا آلاف الصور الفوتوغرافية المتراكمة في بيتي، كيف كان بإمكاني رواية قصتي هذه؟ كنتُ سأضطر إلى صوغها من المخيلة، دون أي مادة سوى الخيوط المنفلتة من حيوات كثيرة لأناس آخرين وبعض الذكريات المخادعة. إن الذاكرة خيال. نختار أكثر ما فيها تالقاً وأكثر ما فيها قتامة، متجاهلين ما يُخجلنا، ونحوك هكذا سجادة حياتنا العريضة. إنني أحاول بجزء، من خلال الصورة والكلمة المكتوبة، أن أنتصر على شرط حياتي المحكومة بالزوال، فاقتنص اللحظات قبل أن تشحب ويبهت لونها، وأجلو الغموض عن ماضيّ. كل برهة تتلاشى في نفخة وتتحول في الحال إلى ماضي، فالواقع عابر وزائل، محض حنين. بهذه الصور وهذه الصفحات أُبقي الذكريات حية؛ فهي فرصتي للوصول إلى حقيقة متفلتة، ولكنها حقيقة على أي حال، تُثبت أن هذه الأحداث قد جرت وهذه الشخصيات مرت في قدري. وبفضلها أستطيع بعث أمي، التي ماتت حين ولدتُ، وجدتيّ المحنكتين، وجدي الصيني الحكيم، وأبي البائس وحلقات أخرى في سلسلة أسرتي الطويلة، جميعهم من ذوي الدماء المختلطة والملتهبة. أكتبُ لأجلو الأسرار القديمة في طفولتي، ولتحديد هويتي، ولأخلق أسطورتي الخاصة. فما نملكه في آخر المطاف ملء أيدينا هو الذاكرة التي نسجناها. كل واحد يختار درجة اللون التي يروي بها قصته الخاصة؛وأنا أرغب في أن أختار الطبع بالبلاتين دائم الوضوح، ولكن ليس هناك في قدري ما يملك هذه الخاصية المتوهجة. إنني أعيش ما بين تدرجات ألوان مختلطة، وأسرار مغبّشة، وارتياب؛ اللون المناسب لرواية حياتي يتفق أكثر مع لون صورة عتيقة باهتة، لون السيبيا(*)...

(*) لون السيبيا sepia في التصوير الفوتوغرافي، هو اللون البني الباهت الذي تتحول إليه الصور القديمة المطبوعة بالأسود والأبيض.

Twitter: @ketab_n

إيزابيل ألليندي

- ولدت الكاتبة التشيلية إيزابيل ألليندي في مدينة ليما عام ١٩٤٢، وعملت في الصحافة مذ كانت في السابعة عشرة من عمرها.
- حققت شهرة كبيرة برواياتها التي أوصلتها إلى قمة الرواية الأمريكية اللاتينية.
- من أبرز أعمالها: بيت الأرواح وإيفالونا لونا وحكايات إيفالونا والحب والظلال وباولا والخطة اللانهائية وابنة الحظ.
- صورة عتيقة هي الحلقة الوسيطة التي يلتئم فيها عقد سلالة من النساء الباسلات اللواتي يبدأن بـإلزا سوميرز في ابنة الحظ، وينتهين بكلارا وروسا في بيت الأرواح، لتشكل بذلك الكتاب الثاني من هذه الثلاثية الفسيحة التي تغطي ما يزيد على قرن من تاريخ تشيلي.
- تعاني بطلة الرواية أورورا دل بايي من صدمة نفسية قاسية تمحو من ذاكرتها السنوات الخمس الأولى من حياتها. وعندما تجد نفسها مضطرة إلى مواجهة العزلة وخيانة الرجل الذي أحبته، تقرر السعي لاكتشاف سرّ ماضيها.
- رواية ذات أبعاد إنسانية استثنائية، تسمو بأسلوب المؤلفة القصصي إلى ذرى الكمال الأدبي.

ISBN => 2-84305-329-3
EAN => 9782843053290